



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



اشرافيية  
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

# الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب ( عليه السلام )

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

# الفهرس

|    |  |
|----|--|
| ٥  | الفهرس                                     |
| ٢٣ | الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١٣ |
| ٢٣ | اشاره                                      |
| ٢٤ | اشاره                                      |
| ٢٨ | سوره لقمان                                 |
| ٢٨ | اشاره                                      |
| ٣٠ | محتوى السوره:                              |
| ٣١ | فضل سوره لقمان:                            |
| ٣٣ | الآيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ١ الى ٥]   |
| ٣٣ | اشاره                                      |
| ٣٣ | التفسير                                    |
| ٣٣ | اشاره                                      |
| ٣٣ | من هم المحسنون؟                            |
| ٣٦ | الآيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ٦ الى ٩]   |
| ٣٦ | اشاره                                      |
| ٣٦ | سبب النزول                                 |
| ٣٧ | التفسير                                    |
| ٣٧ | اشاره                                      |
| ٣٧ | الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيره.         |
| ٤١ | بحوث                                       |
| ٤١ | اشاره                                      |
| ٤١ | ١- تحريم الغناء                            |
| ٤٥ | ٢- ما هو الغناء؟                           |
| ٤٧ | ٣- فلسفه تحريم الغناء:                     |

الآيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ١٠ الى ١١] ٥١

اشاره ٥١

التفسير ٥١

اشاره ٥١

هذا خلق الله: ٥١

الآيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٥] ٥٦

اشاره ٥٦

التفسير ٥٦

اشاره ٥٦

احترام الوالدين: ٥٦

فما هي الحكمه؟ ٥٧

بحثان ٦٣

اشاره ٦٣

١-من هو لقمان؟ ٦٣

٢-صور من حكمه لقمان ٦٥

الآيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ١٦ الى ١٩] ٦٨

اشاره ٦٨

التفسير ٦٨

اشاره ٦٨

أثبتت كالجبل، و عامل الناس بالحسنى! ٦٨

تعليقات ٧٣

اشاره ٧٣

١-آداب المشى ٧٣

٢-آداب الحديث ٧٤

٣-آداب العشره ٧٦

الآيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٢٤] ٧٩

٧٩ ..... اشارة

٧٩ ..... التفسير

٨٦ ..... الآيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٥ الى ٣٠]

٨٦ ..... اشارة

٨٦ ..... التفسير

٨٦ ..... اشارة

٨٦ ..... عشر صفات لله سبحانه:

٩٦ ..... الأيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ٣١ الى ٣٢]

٩٦ ..... اشارة

٩٦ ..... التفسير

٩٦ ..... اشارة

٩٦ ..... في دوامه البلاء!

١٠١ ..... الأيات [سوره لقمان (٣١): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

١٠١ ..... اشارة

١٠١ ..... التفسير

١٠١ ..... اشارة

١٠١ ..... سعه علم الله:

١٠٥ ..... بحوث

١٠٥ ..... اشارة

١٠٥ ..... ١-أنواع الغرور و الخدع!

١٠٥ ..... ٢-خداع الدنيا

١٠٦ ..... ٣-هذه العلوم الخمسه مختصه بالله

١١١ ..... سوره السجده

١١١ ..... اشارة

١١٣ ..... أسماء هذه السوره:

١١٤ ..... فضل تلاوه سوره السجده:

|     |   |
|-----|---|
| ١١٤ | محتوى سورة السجده:                          |
| ١١٧ | الآيات [سورة السجده (٣٢): الآيات ١ الى ٥]   |
| ١١٧ | اشاره                                       |
| ١١٧ | التفسير                                     |
| ١١٧ | اشاره                                       |
| ١١٧ | عظمه القرآن،و المبدأ و المعاد:              |
| ١٢٤ | بحث   |
| ١٢٤ | اشاره                                       |
| ١٢٤ | إساءه الاستفاده من آيه يُدَبَّرُ الْأَمْرُ  |
| ١٣٠ | الآيات [سورة السجده (٣٢): الآيات ٦ الى ٩]   |
| ١٣٠ | اشاره                                       |
| ١٣٠ | التفسير                                     |
| ١٣٠ | اشاره                                       |
| ١٣٠ | مراحل خلق الإنسان العجيبه!                  |
| ١٣٤ | بحث   |
| ١٣٤ | اشاره                                       |
| ١٣٤ | كيفية خلق آدم من التراب:                    |
| ١٣٤ | و من هنا تتضح عدّه نقاط:                    |
| ١٤٠ | الآيات [سورة السجده (٣٢): الآيات ١٠ الى ١٤] |
| ١٤٠ | اشاره                                       |
| ١٤٠ | التفسير                                     |
| ١٤٠ | اشاره                                       |
| ١٤٠ | الندم و طلب الرجوع:                         |
| ١٤٥ | مسألتان                                     |
| ١٤٥ | اشاره                                       |
| ١٤٥ | ١-استقلال الروح و أصلتها                    |



١٤٦-----٢-ملك الموت-----

١٤٨-----الآيات [سوره السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٢٠]-----

١٤٨-----اشاره-----

١٤٨-----التفسير-----

١٤٨-----اشاره-----

١٤٨-----جوائز عظيمه لم يطلع عليها أحد!-----

١٥٦-----بحث-----

١٥٦-----اشاره-----

١٥٦-----أصحاب الليل!-----

١٥٩-----الآياتان [سوره السجده (٣٢): الآيات ٢١ الى ٢٢]-----

١٥٩-----اشاره-----

١٥٩-----التفسير-----

١٥٩-----اشاره-----

١٥٩-----عقوبات تربويه:-----

١٦٣-----الآيات [سوره السجده (٣٢): الآيات ٢٣ الى ٢٥]-----

١٦٣-----اشاره-----

١٦٣-----التفسير-----

١٦٣-----اشاره-----

١٦٣-----شرط الإمامه:الصبر و الإيمان:-----

١٦٨-----ملاحظه-----

١٦٨-----اشاره-----

١٦٨-----صمود و استقامه القاده الإلهيين-----

١٧١-----الآيات [سوره السجده (٣٢): الآيات ٢٦ الى ٣٠]-----

١٧١-----اشاره-----

١٧١-----التفسير-----

١٧١-----اشاره-----

|     |   |
|-----|---|
| ١٧١ | يوم انتصارنا:                               |
| ١٧٨ | سوره الأحزاب                                |
| ١٧٨ | اشاره                                       |
| ١٨٠ | سبب التسميه و فضلها:                        |
| ١٨٠ | محتوى سوره الأحزاب:                         |
| ١٨٢ | آيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١ الى ٣]    |
| ١٨٢ | اشاره                                       |
| ١٨٢ | سبب النزول                                  |
| ١٨٣ | التفسير                                     |
| ١٨٣ | اشاره                                       |
| ١٨٣ | آتبع الوحى الإلهى فقط:                      |
| ١٨٦ | الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤ الى ٦]  |
| ١٨٦ | اشاره                                       |
| ١٨٧ | التفسير                                     |
| ١٨٧ | اشاره                                       |
| ١٨٧ | ادعاءات جوفاء:                              |
| ٢٠٠ | ملاحظه                                      |
| ٢٠١ | الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٧ الى ٨]  |
| ٢٠١ | اشاره                                       |
| ٢٠١ | التفسير                                     |
| ٢٠١ | اشاره                                       |
| ٢٠١ | ميثاق الله الغليظ:                          |
| ٢٠٥ | الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ١١] |
| ٢٠٥ | اشاره                                       |
| ٢٠٥ | التفسير                                     |
| ٢٠٥ | اشاره                                       |

- ٢٠٥ ..... الامتحان الإلهي العظيم في مواجهه الأحزاب: -
- ٢٠٧ ..... و هنا جمله مطالب تستحقّ الدقّه: .....
- ٢١١ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١٢ الى ١٧] -
- ٢١١ ..... اشاره .....
- ٢١١ ..... التفسير .....
- ٢١١ ..... اشاره .....
- ٢١١ ..... المنافقون في عرصه الأحزاب: -
- ٢١٨ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١٨ الى ٢٠] -
- ٢١٨ ..... اشاره .....
- ٢١٨ ..... التفسير .....
- ٢١٨ ..... اشاره .....
- ٢١٨ ..... فئه المعوّقين: .....
- ٢٢٣ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢١ الى ٢٥] -
- ٢٢٣ ..... اشاره .....
- ٢٢٣ ..... التفسير .....
- ٢٢٣ ..... اشاره .....
- ٢٢٣ ..... دور المؤمنین المخلصين في معركة الأحزاب: .....
- ٢٣٠ ..... بحوث .....
- ٢٣٠ ..... اشاره .....
- ٢٣٠ ..... ١-ملاحظات هامه في معركة الأحزاب .....
- ٢٤٠ ..... ٢-النبي أسوه و قدوه .....
- ٢٤٢ ..... ٣-اذكروا الله كثيرا .....
- ٢٤٤ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧] -
- ٢٤٤ ..... اشاره .....
- ٢٤٤ ..... التفسير .....
- ٢٤٧ ..... بحوث .....

٢٤٧ ..... اشاره

٢٤٧ ..... ١- غزوه بنى قريظه و دوافعها

٢٤٨ ..... ٢- أحداث غزوه بنى قريظه

٢٤٩ ..... ٣- نتائج غزوه بنى قريظه

٢٥٠ ..... ٤- الآيات و تعبيراتها العميقه!

٢٥٢ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣١]

٢٥٢ ..... اشاره

٢٥٢ ..... سبب النزول

٢٥٣ ..... التفسير

٢٥٣ ..... اشاره

٢٥٣ ..... أما السعاده الخالده أو زخارف الدنيا!

٢٥٨ ..... بحث

٢٥٨ ..... اشاره

٢٥٨ ..... لما ذا يضاعف ثواب و عقاب المرموقين؟

٢٦٠ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

٢٦٠ ..... اشاره

٢٦٠ ..... التفسير

٢٦٠ ..... اشاره

٢٦٠ ..... هكذا يجب أن تكون نساء النبي!

٢٦٧ ..... بحوث

٢٦٧ ..... اشاره

٢٦٧ ..... ١- آيه التطهير برهان واضح على العصمه:

٢٦٨ ..... ٢- فيمن نزلت آيه التطهير؟

٢٧٢ ..... ٣- هل أن الإراده الإلهيه هنا تكوينيه أم تشريعيه؟

٢٧٤ ..... ٤- جاهليه القرن العشرين!

٢٧٤ ..... الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٣٥]

٢٧٤ ..... اشارة

٢٧٤ ..... سبب النزول

٢٧٧ ..... التفسير

٢٧٧ ..... اشارة

٢٧٧ ..... شخصيه المرأه و مكانتها في الإسلام:

٢٨٠ ..... بحث

٢٨٠ ..... اشارة

٢٨٠ ..... مساواه الرجل و المرأه عند الله:

٢٨٣ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

٢٨٣ ..... اشارة

٢٨٣ ..... سبب النزول

٢٨٥ ..... التفسير

٢٨٥ ..... اشارة

٢٨٥ ..... تمرد عظيم على العرف:

٢٩١ ..... بحثان

٢٩١ ..... اشارة

٢٩١ ..... ١-أساطير كاذبه

٢٩٣ ..... ٢-روح الإسلام التسليم أمام الله

٢٩٦ ..... الآية [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٣٩]

٢٩٦ ..... اشارة

٢٩٦ ..... التفسير

٢٩٦ ..... اشارة

٢٩٦ ..... من هم المبلغون الحقيقيون؟

٢٩٧ ..... ملاحظات

٢٩٧ ..... اشارة

٢٩٧ ..... [١-المراد من «التبليغ»]

٢٩٧ ..... [٢-المراد من «الخشييه»]

٢٩٨ ..... ٣-جواب عن سؤال؟

٢٩٩ ..... ٤-هل كان الأنبياء يستعملون التقيته؟

٣٠٠ ..... ٥-شرط الإنتصار فى التبليغ:

٣٠٢ ..... الآية [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٤٠]

٣٠٢ ..... اشاره

٣٠٢ ..... التفسير

٣٠٤ ..... بحوث

٣٠٤ ..... اشاره

٣٠٤ ..... ١-ما هو الخاتم؟

٣٠٦ ..... ٢-أدله كون نبى الإسلام خاتما للأنبياء:

٣١٠ ..... ٣-إجابه عن عدّه أسئله:

٣١٠ ..... اشاره

٣١٠ ..... ١-كيف تتناسب الخاتمية مع سير الإنسان التكاملى؟

٣١٢ ..... ٢-كيف تتلاءم القوانين الثابته مع الحاجات المتغيره؟

٣١٣ ..... ٣-كيف يحرم البشر من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

٣١٥ ..... الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤١ الى ٤٤]

٣١٥ ..... اشاره

٣١٥ ..... التفسير

٣١٥ ..... اشاره

٣١٥ ..... تحيته الله و الملائكه فرج للمؤمنين:

٣١٩ ..... بحوث

٣١٩ ..... اشاره

٣١٩ ..... ١-ذكر الله على كل حال:

٣٢١ ..... ٢-توضيح حول «لقاء الله»:

٣٢٢ ..... ٣-أجور المؤمنين معه منذ الآن!

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٥ الى ٤٨] ----- ٣٢٤

اشاره ----- ٣٢٤

التفسير ----- ٣٢٤

اشاره ----- ٣٢٤

الشراج المنير! ----- ٣٢٤

ملاحظات ----- ٣٢٤

اشاره ----- ٣٢٤

و هنا ينبغي الانتباه إلى عدّه ملاحظات: ----- ٣٢٤

الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٤٩] ----- ٣٣٢

اشاره ----- ٣٣٢

التفسير ----- ٣٣٢

اشاره ----- ٣٣٢

جانب من أحكام الطلاق: ----- ٣٣٢

الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٥٠] ----- ٣٣٤

اشاره ----- ٣٣٤

التفسير ----- ٣٣٤

اشاره ----- ٣٣٤

يمكنك الزواج من هذه النسوة: ----- ٣٣٤

بحث ----- ٣٤٠

اشاره ----- ٣٤٠

جانب من حكمه تعدّد زوجات النبي: ----- ٣٤٠

الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٥١] ----- ٣٤٢

اشاره ----- ٣٤٢

سبب النزول ----- ٣٤٢

التفسير ----- ٣٤٤

اشاره ----- ٣٤٤

حلّ مشكله اخرى فى حياه النبى: ..... ٣٤٤

ملاحظه ..... ٣٤٧

اشاره ..... ٣٤٧

هل كان هذا الحكم فى حقّ كلّ نساء النبى: ..... ٣٤٧

الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٥٢] ..... ٣٤٨

اشاره ..... ٣٤٨

التفسير ..... ٣٤٨

اشاره ..... ٣٤٨

حكم مهمه آخر فيما يتعلّق بأزواج النبى: ..... ٣٤٨

مسائل مهمه: ..... ٣٤٩

اشاره ..... ٣٤٩

١- فلسفه هذا الحكم: ..... ٣٤٩

٢- الروايات المخالفه: ..... ٣٥٠

٣- هل يمكن النظر إلى زوجه المستقبل قبل الزواج؟ ..... ٣٥١

الآيتان [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٣ الى ٥٤] ..... ٣٥٣

اشاره ..... ٣٥٣

سبب النزول ..... ٣٥٣

التفسير ..... ٣٥٤

بحوث ..... ٣٦١

اشاره ..... ٣٦١

١- الضيافه: ..... ٣٦١

٢- مراعاة البساطه فى الضيافه: ..... ٣٦١

٣- حقّ الضيف: ..... ٣٦٢

٤- واجبات الضيف: ..... ٣٦٣

الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٥٥] ..... ٣٦٥

اشاره ..... ٣٦٥



سبب النزول ..... ٣٦٥

التفسير ..... ٣٦٥

اشاره ..... ٣٦٥

الموارد المستثناة من قانون الحجاب: ..... ٣٦٥

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٦ الى ٥٨] ..... ٣٦٨

اشاره ..... ٣٦٨

التفسير ..... ٣٦٨

اشاره ..... ٣٦٨

الصلاه على النبي و السلام عليه: ..... ٣٦٨

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٩ الى ٦٢] ..... ٣٧٦

اشاره ..... ٣٧٦

سبب النزول ..... ٣٧٦

التفسير ..... ٣٧٧

اشاره ..... ٣٧٧

تحذير شديد للمؤذنين و مختلقى الإشاعات! ..... ٣٧٧

تعليقات ..... ٣٨١

اشاره ..... ٣٨١

١- ابدأ بنفسك! ..... ٣٨١

٢- العلاج من طريقتين: ..... ٣٨١

٣- موقع المسلمين القوى: ..... ٣٨٢

٤- اجتثاث جذور الفساد: ..... ٣٨٢

٥- سنن الله الثابتة: ..... ٣٨٢

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٦٨] ..... ٣٨٥

اشاره ..... ٣٨٥

التفسير ..... ٣٨٥

اشاره ..... ٣٨٥

يسألون أتيان يوم القيامة؟! ..... ٣٨٥

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٩ الى ٧١] ..... ٣٨٩

اشاره ..... ٣٨٩

التفسير ..... ٣٨٩

اشاره ..... ٣٨٩

بما ذا رموا موسى عليه السلام و آتهموه؟ ..... ٣٨٩

قولوا الحق لتصلح أعمالكم: ..... ٣٩٢

الآيتان [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٧٢ الى ٧٣] ..... ٣٩٦

اشاره ..... ٣٩٦

التفسير ..... ٣٩٦

اشاره ..... ٣٩٦

حمل الأمانة الإلهيه أعظم افتخارات البشر: ..... ٣٩٦

و هنا امور ينبغى الالتفات إليها: ..... ٤٠٢

سوره سبأ ..... ٤٠٦

اشاره ..... ٤٠٦

محتوى سوره سبأ: ..... ٤٠٨

فضيله هذه السوره: ..... ٤٠٩

الآيتان [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١ الى ٢] ..... ٤١٠

اشاره ..... ٤١٠

التفسير ..... ٤١٠

اشاره ..... ٤١٠

هو المالك لكل شىء و العالم بكل شىء: ..... ٤١٠

الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٣ الى ٥] ..... ٤١٥

اشاره ..... ٤١٥

التفسير ..... ٤١٥

اشاره ..... ٤١٥

٤١٥ ..... أقسم بالله لتأتينكم القيامة:

٤٢٠ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٦ الى ٩]

٤٢٠ ..... اشاره

٤٢٠ ..... التفسير

٤٢٠ ..... اشاره

٤٢٠ ..... العلماء يرون دعوتك إنها حق:

٤٢٥ ..... هنا يجب الالتفات إلى جملة أمور:

٤٢٧ ..... الأيتان [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١٠ الى ١١]

٤٢٧ ..... اشاره

٤٢٧ ..... التفسير

٤٢٧ ..... اشاره

٤٢٧ ..... المواهب الإلهية العظيمة لداود:

٤٣٢ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١٢ الى ١٤]

٤٣٢ ..... اشاره

٤٣٢ ..... التفسير

٤٣٢ ..... اشاره

٤٣٢ ..... هيبه سليمان و موته العبره!!

٤٤٠ ..... بحوث

٤٤٠ ..... اشاره

٤٤٠ ..... ١- صور من حياه سليمان عليه السلام:

٤٤٢ ..... ٢- لماذا خفي موت سليمان مدّه من الزمن؟

٤٤٣ ..... ٣- سليمان فى القرآن و التوراه الحالويه

٤٤٤ ..... ٤- و قليل من عبادى الشكور

٤٤٩ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١٥ الى ١٧]

٤٤٩ ..... اشاره

٤٤٩ ..... التفسير

٤٤٩ ..... اشارة

٤٤٩ ..... المدينة الرقيه التي أضعها الكفران:

٤٥٥ ..... الأيتان [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١٨ الى ١٩]

٤٥٥ ..... اشارة

٤٥٥ ..... التفسير

٤٥٨ ..... بحوث

٤٥٨ ..... اشارة

٤٥٨ ..... ١-المصير المذهل لقوم سبأ!!

٤٦٠ ..... ٢-الإعجاز القرآني التاريخي

٤٦١ ..... ٣-لغات هاتمه للعبه في قضا قصيره

٤٦٤ ..... الأيتان [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٠ الى ٢١]

٤٦٤ ..... اشارة

٤٦٤ ..... التفسير

٤٦٤ ..... اشارة

٤٦٤ ..... لا أحد مجبر على اتباع الشيطان:

٤٦٧ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٢ الى ٢٧]

٤٦٧ ..... اشارة

٤٦٧ ..... التفسير

٤٦٧ ..... اشارة

٤٦٧ ..... نبؤنى لماذا؟

٤٧٥ ..... بحث

٤٧٥ ..... اشارة

٤٧٥ ..... طريق تسخير القلوب:

٤٧٨ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

٤٧٨ ..... اشارة

٤٧٨ ..... التفسير

٤٧٨ ..... اشارة

٤٧٨ ..... الدّعوة العالميّه:

٤٨٢ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٣١ الى ٣٣]

٤٨٢ ..... اشارة

٤٨٢ ..... التفسير

٤٨٧ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٣٤ الى ٣٨]

٤٨٧ ..... اشارة

٤٨٧ ..... التفسير

٤٨٧ ..... اشارة

٤٨٧ ..... الأموال و الأولاد ليست دليلا على القرب من الله..

٤٩٣ ..... بحث

٤٩٣ ..... اشارة

٤٩٣ ..... معايير التقييم:

٤٩٦ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٣٩ الى ٤٢]

٤٩٦ ..... اشارة

٤٩٦ ..... التفسير

٤٩٦ ..... اشارة

٤٩٦ ..... نفور المعبودين من عابديهم:

٥٠٠ ..... بحوث

٥٠٠ ..... اشارة

٥٠٠ ..... ١- الإنفاق سبب النماء لا النقصان

٥٠٤ ..... ٢- أمنوا على أموالكم بتأمين إلهي!!

٥٠٤ ..... ٣- سعه مفهوم الإنفاق:

٥٠٥ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٤٣ الى ٤٥]

٥٠٥ ..... اشارة

٥٠٥ ..... التفسير

٥٠٥ ..... اشارة

٥٠٥ ..... بأى منطق ينكرون آيات الله:

٥١٠ ..... الآية [سوره سبأ (٣٤): آيه ٤٦].

٥١٠ ..... اشارة

٥١٠ ..... التفسير

٥١٠ ..... اشارة

٥١٠ ..... الثورة الفكرية أساس لأتى ثوره أصيله:

٥١٣ ..... بحث

٥١٣ ..... اشارة

٥١٣ ..... الدين أصل التحوّلات:

٥١٥ ..... ٢- جانب من الروايات الإسلاميه فى التفكّر و التأمل:

٥١٦ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٤٧ الى ٥٠].

٥١٦ ..... اشارة

٥١٦ ..... التفسير

٥١٦ ..... اشارة

٥١٦ ..... و ما يبدي الباطل و ما يعيد:

٥٢٠ ..... سؤال:

٥٢٢ ..... الآيات [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٥١ الى ٥٤].

٥٢٢ ..... اشارة

٥٢٢ ..... التفسير

٥٢٢ ..... اشارة

٥٢٢ ..... ليس للكافرين مفر:

٥٤١ ..... تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱











## سوره لقمان

### اشاره

مكّيه و عدد آياتها أربع و ثلاثون آيه

ص: ٥



## محتوى السوره:

المعروف و المشهور بين المفسرين أنّ هذه السوره نزلت فى مكّه، وبالرغم من أنّ بعض المفسرين قد استثنى بعض آيات هذه السوره كالشيخ الطوسى فى (التبيان) حيث استثنى الآيه الرابعه التى تتحدّث عن الصلاه و الزكاه، أو الفخر الرازى الذى استثنى مضافا إلى هذه الآيه، والآيه (٢٧) التى تبحث فى علم الله الواسع، إلاّ أنّه لا يوجد دليل واضح لهذه الاستثناءات، لأنّ الصلاه و الزكاه-الزكاه بصوره عامّه طبعاً- كانتا موجودتين فى مكّه أيضاً، وقضيّه البحث عن سعه علم الله لا تصلح لأن تكون دليلاً على كونها مدنيه.

بناء على هذا، فإنّ سوره لقمان بحكم كونها مكّيه تشتمل على محتوى السور المكّيه العام، أى أنّها تبحث حول العقائد الإسلاميه الأساسيه، و خاصّه المبدأ و المعاد، و كذلك النبؤه. و بصوره عامّه فإنّ محتوى هذه السوره يتلخّص فى خمس أقسام:

القسم الأول: يشير-بعد ذكر الحروف المقطعه- إلى عظمه القرآن و كونه هدى و رحمه للمؤمنين الذين يتمتّعون بصفات خاصّه، و يتحدّث فى الطرف المقابل عن الذين يظهرون التعصّب و العناد أمام هذه الآيات البيّنات بحيث يبدون و كأنّهم صمّ الآذان، بل يسعون أيضاً إلى صرف الآخرين عن القرآن عن طريق إيجاد وسائل لهو غير صحيحه.

القسم الثانى: يتحدّث عن آيات الله فى خلق السماء و رفعها بدون أى عمد، و خلق الجبال، و الاحياء المختلفه، و نزول المطر، و نموّ النباتات.

القسم الثالث: ينقل جانباً من كلام لقمان الحكيم و المتأله فى وصيته لابنه، و يبدأ من التوحيد و محاربه الشرك، و ينتهى بالوصيه بالإحسان إلى الوالدين، و الصلاه، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و الثبات أمام الحوادث الصعبه.

و البشاشه و الطلاقه مع الناس، و التواضع و الاعتدال فى الأمور.

فى القسم الرابع: تعود السوره إلى أدله و علامات التوحيد مره اخرى فتحدث عن تسخير السماء و الأرض و نعم الله الوفيه، و ذم منطق الوثنيين الذين سقطوا فى وادى الضلال و الانحراف نتيجة التقليد و اتباع الآباء و الأجداد، و تجعلهم يقرون بمسأله كون الله خالقا التى هى أساس العبوديه له.

و تكشف الستار عن علم الله المطلق بذكر مثال واضح، و تبحث فى هذا الباب- إضافة إلى ذكر آيات الآفاق- عن التوحيد الفطرى الذى يتجلى عند الوقوع فى عواصف البلاء، و تطرح ذلك بشكل رائع.

أما القسم الخامس: فإنه يشير إشاره قصيره مؤثره تهزّ وجدان إلى مسأله المعاد و الحياه بعد الموت، و تحذر الإنسان من الاغترار بهذه الدنيا، و تحثه على أن يفكر بتلك الحياه الخالده و يتهيا لها.

ثم تنهى هذا المبحث بذكر جانب من علم الله بالغيب بما يتعلق بالإنسان، و من جمله ذلك لحظه موته، و حتى على الجنين فى بطن أمه، و بذلك تنتهى السوره.

و من الواضح أن تسميه هذه السوره بسوره «لقمان» بسبب البحث المهم العميق المحتوى الذى ورد فى هذه السوره عن مواظ لقمان، و هى السوره الوحيدة التى تحدث عن هذا الرجل الحكيم.

### فضل سوره لقمان:

وردت روايات عديده عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و بعض أئمه أهل البيت عليهم السلام فى فضل هذه السوره، و من جملتها ما

ورد فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله: «من قرأ سوره

لقمان كان لقمان له رفيقا يوم القيامة، و أعطى من الحسنات عشا بعدد من عمل بالمعروف و نهى عن المنكر» (١).

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة لقمان فى ليله و كل الله به فى ليلته ثلاثين ملكا يحفظونه من إبليس و جنوده حتى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس و جنوده حتى يمسي» (٢).

و قلنا مرارا، بأن كل هذا الفضل و الثواب و الامتياز لتلاوه سورة من القرآن لأن التلاوه مقدمه للتفكر، و التفكر مقدمه للعمل، و يجب أن لا يتوقع الإنسان كل هذا الفضل بلقلقه اللسان فقط.

ص: ٩

---

١-١) -مجمع البيان: ج ٨، ص ٣١٢.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ٤، ص ١٩٣.



إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ  
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

التفسير

إشاره

من هم المحسنون؟

الم

تبدأ هذه السوره بذكر أهميه و عظمه القرآن، و بيان الحروف المقطعه في بدايتها إشاره لطيفه إلى هذه الحقيقه، و هي أنّ هذه الآيات التي تتركب من حروف الألف باء البسيطه، لها محتوى و مفهوم سام يغير مصير البشر بصوره تامه. و لذلك فإنها تقول بعد ذكر الحروف المقطعه: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .

تِلْكَ

في لغه العرب إشاره للبعيد، و قلنا مرارا أنّ هذا التعبير بالخصوص كناية عن عظمه و أهميه هذه الآيات، و كأنها في أعالي السماء و في نقطه بعيده المنال.

إن وصف «الكتاب» بـ«الحكيم» إمّا لقوّه و متانته محتواه، لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقاً و سبيلاً و يطرد عن نفسه كلّ نوع من الخرافات و الأساطير، و لا يقول إلاّ الحقّ، و لا يدعو إلاّ إليه، و هذا التعبير فى مقابل لهو الحيدّ الذى يأتى فى الآيات التالىة تماما.

أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذى يتكلّم بألف لسان فى الوقت الذى هو صامت لا ينطق، فىعلم، و يعظ و ينصح، و يرغب و يرهّب، و يحذّر و يتوعّد، و يبيّن القصص ذات العبرة، و خلاصه القول فإنّه حكيم بكلّ معنى الكلمه. و لهذه البدايه علاقه مباشره بكلام لقمان الحكيم الذى ورد البحث فيه فى هذه السوره.

و لا مانع طبعاً من أن يكون المعنيان مرادين فى الآيه أعلاه.

ثمّ تذكر الآيه التالىة الهدف النهائى من نزول القرآن، فتقول: هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ .

إنّ الهدايه فى الحقيقه مقدّمه لرحمه الله، لأنّ الإنسان يجد الحقيقه أولاً فى ظلّ نور القرآن، و يعتقد بها و يعمل بها، و بعد ذلك يكون مشمولاً برحمه الله الواسعه و نعمه التى لا حدّ لها.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ هذه السوره اعتبرت القرآن سبباً لهدايه و رحمه «المحسنين»، و فى بدايه سوره النمل: هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ و فى بدايه سوره البقره: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ .

و هذا الاختلاف فى التعبير ربّما كان بسبب أنّ روح التسليم و قبول الحقائق لا تحيا فى الإنسان بدون التقوى، و عند ذلك سوف لا تتحقّق الهدايه، و بعد مرحله قبول الحقّ نصل إلى مرحله الإيمان التى تتضمّن البشاره بالنعم الإلهيه علاوه على الهدايه، و إذا تقدّمنا أكثر فسنصل إلى مرحله العمل الصالح، و عندها تتجلى رحمه الله أكثر من ذى قبل.

بناء على هذا فإنّ الآيات الثلاث أعلاه تبيّن ثلاث مراحل متعاقبه من مراحل

تُكامل عباد الله:مرحلة قبول الحق، ثم الإيمان، فالعمل، و القرآن في هذه المراحل مصدر الهداية و البشاره و الرحمه على الترتيب- تأملوا ذلك-.

ثم تصف الآيه التاليه المحسنين بثلاث صفات، فتقول: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ فَإِنَّ ارتباط هؤلاء بالخالق عن طريق الصلاه، و بخلق الله عن طريق الزكاه، و يقينهم بمحكمه القيامه باعث قوى على الابتعاد عن الذنب و المعصيه، و دافع لأداء الواجبات.

و تبين الآيه الأخيره-من الآيات مورد البحث-عاقبه عمل المحسنين، فتقول:

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

جملة أولئك على هدى من ربهم توحى بأن هدايه أولئك قد ضمنت من قبل ربهم من جهه، و من جهه اخرى فإن التعبير ب(على) دليل على أن الهدايه كأنها مطيه سريعه السير، و أولئك قد ركبوها و أخذوا بزمامها، و من هنا يتضح التفاوت بين هذه الهدايه، و الهدايه التي وردت في بدايه السوره، لأن الهدايه الاولى هي الاستعداد لقبول الحق، و هذه الهدايه برنامج للوصول إلى الغايه و الهدف.

ثم إن جملة أولئك هم المفلحون التي تدل على الحصر وفقا للقواعد العربيه، توحى بأن هذا الطريق هو الطريق الوحيد إلى الإخلاص، طريق المحسنين، طريق أولئك المرتبطين بالله و خلقه، و طريق أولئك الذين يؤمنون إيمانا كاملا بالمبدأ و المعاد.

اشاره

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

سبب النزول

قال بعض المفسرين: إن الآيه الاولى من هذه الآيات نزلت في «النضر بن الحارث»، فقد كان تاجرا يسافر إلى ايران، و كان يحدث قريشا بقصص الإيرانيين و أحاديثهم، و كان يقول: إذا كان محمد يحدثكم بقصص عاد و ثمود فأني أحدثكم بقصص رستم و إسفنديار و أخبار كسرى و سلاطين العجم، فكانوا يجتمعون حوله و يتركون استماع القرآن.

و قال البعض الآخر: إن هذا المقطع من الآيات نزل في رجل اشترى جاريه

مغنيه، و كانت تغنيه ليل نهار فتشغله عن ذكر الله.

يقول المفسر الكبير الطبرسي رحمه الله، بعد ذكر سبب النزول هذا: و

قد روى حديث عن النبي صلى الله عليه و آله في هذا الباب يؤيد سبب النزول أعلاه، لأنه صلى الله عليه و آله قال: «لا يحلّ تعليم المغنيات و لا بيعهن، و أثمانهنّ حرام، و قد نزل تصديق ذلك في كتاب الله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ...»

## التفسير

### إشاره

### الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيره.

الكلام في هذه الآيات عن جماعه يقعون تماما في الطرف المقابل لجماعه المحسنين و المؤمنين الذين ذكروا في الآيات السابقه.

الكلام و الحديث هنا عن جماعه يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهديه و اضلال المجتمع، و يشترون شقاء و بؤس دنياهم و آخرتهم! فتقول أولادنا و من الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزواً (١) ثم تضيف أخيراً: أولئك لهم عذاب مهين .

إنّ شراء لهو الحديث و الكلام الأجوف إمّا أن يتم عن طريق دفع المال في مقابل سماع الخرافات و الأساطير، كما قرأنا ذلك في قصه النضر بن الحارث.

أو أن يكون عن طريق شراء المغنيات لعقد مجالس اللهو و الباطل و الغناء. أو صرف المال بأيّ شكل كان و في أي طريق للوصول إلى هذا الهدف غير المشروع، أي لهو الحديث و الكلام الفارغ.

و العجيب أنّ عمى القلوب هؤلاء، كانوا يشترون الكلام الباطل و اللهو بأعلى القيم و الأثمان، و يعرضون عن الآيات الإلهيه و الحكمة التي منحهم الله إيّاها

ص: ١٤

١ - (١) - ضمير «يتخذها» يعود إلى (آيات الكتاب) التي وردت في الآيات السابقه. و احتمال البعض أنّه يعود إلى (السييل). لأنّ كلمه (السييل) قد وردت في آيات القرآن بصيغه المذكّر تاره، و بصيغه المؤنث تاره اخرى.

مجاناً! و يحتمل أيضا أن يكون للشراء هنا معنى كئائى، و المراد منه كل أنواع السعى للوصول إلى هذه الغايه.

و أما(لهو الحديث)فإنّ له معنى واسعاً يشمل كل نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذى يؤدّى إلى اللهو و الغفله، و يجرّ الإنسان إلى اللاهذفيه أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء و الألحان و الموسيقى المهيجه المثيره للشهوه و الغرائز و الميول الشيطانيه، أو الكلام الذى يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه و مضامينه، و قد يكون عن كلا الطريقتين كما هو الحال فى أشعار و تأليفات المغنين الغراميه العاديه المضللله فى محتواها و ألحانها.

أو يكون كالقصص الخرافيه و الأساطير التى تؤدّى إلى انحراف الناس عن الصراط المستقيم.

أو يكون كلام الاستهزاء و السخرية الذى يطلق بهدف محو الحقّ و تضعيف أسس و دعائم الإيمان، كالذى ينقلونه عن أبى جهل أنّه كان يقف على قريش و يقول:أ تريدون أن أطعمكم من الزقوم الذى يتهدّدنا به محمّد؟ ثمّ بيعث فيحضرون الزبد و التمر، فكان يقول:هذا هو الزقوم!و بهذا الأسلوب كان يستهزئ بآيات الله.

و على كلّ حال،فإنّ للهو الحديث معنى واسعاً يتضمّن كلّ هذه المعانى و أمثالها،و إذا أشارت الروايات الإسلاميه و كلمات المفسرين إلى إحداها،فإنّ ذلك لا يدلّ مطلقاً على انحصار معنى الآيه فيه.

و تلاحظ فى الزوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام تعبيرات تبيّن سعه معنى هذه الكلمه،و من جملتها ما نراه

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام:«الغناء مجلس لا- ينظر الله إلى أهله،و هو ممّا قال الله عزّ و جلّ: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ

والتعبير ب لَهْوِ الْحَدِيثِ بدلا من (حديث اللهو) ربما كان إشاره إلى أن الهدف الأساس لهؤلاء هو اللهو والعبث، والكلام و الحديث وسيله للوصول إليه.

و لجملة لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مفهوم واسع أيضا، يشمل الإضلال العقائدى، كما قرأنا ذلك فى قصه النضر بن الحارث و أبى جهل، و كذلك يشمل الإفساد الأخلاقى كما جاء فى أحاديث الغناء.

والتعبير ب بَغَيْرِ عِلْمٍ إشاره إلى أن هذه الجماعه الضالّه المنحرفه لا- تؤمن حتى بمذهبها الباطل، بل يتبعون الجهل و التقليد الأعمى لا غير، فإنهم جهلاء يورطون و يشغلون الآخرين بجهلهم.

هذا إذا اعتبرنا بَغَيْرِ عِلْمٍ وصفا للمضلين، إلا أن بعض المفسرين اعتبر هذا التعبير وصفا للضالين، أى أنهم يجزؤون الناس الجهله إلى وادى الانحراف و الباطل دون أن يعلموا بذلك لجهلهم.

إن هؤلاء المغفلين قد يتمادون فى غيهم فلا يقنعون بلهو هذه المسائل، بل إنهم يجعلون كلامهم الأجوف و لهو حديثهم وسيله للاستهزاء بآيات الله، و هذا هو الذى أشارت إليه نهايه الآيه حيث تقول: وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا .

أميا وصف العذاب ب(المهين) فلائذ العقوبه متناغمه مع الذنب، فإن هؤلاء قد استهزءوا بآيات الله و أهانوها، و لذلك فإن الله سبحانه قد أعد لهم عذابا مهينا، إضافة إلى كونه أليما.

و أشارت الآيه التاليه إلى رد فعل هذه الفئة أمام آيات الله، و توحى بالمقارنه برّد فعلهم تجاه لهو الحديث، فتقول: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَ لِيَ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا أَى ثقلا يمنعه من السماع..

ص: ١٦

ثم تذكر أخيراً عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

□  
إنَّ التعبير بـ وَلى مُسْتَكْبِرًا إشارته إلى أنَّ إعراضه لم يكن نابعا من تضرر مصالحه الدنيويَّة و الحد من رغباته و شهواته فحسب، بل إنَّ الأمر أكبر من ذلك، فإنَّ فيه دافع التكبر أمام عظمه الله و آياته، و هو أعظم ذنب فيه.

و الرائع في تعبير الآية أنَّها تقول أوَّلا: إنَّه لم يعبا بآيات الله كأنه لم يسمعها قط، و يمرَّ عليها دون اكتراث بها، ثم تضيف: بل كأنه أصم لا يسمع أى كلام قط! إنَّ جزاء مثل هؤلاء الأفراد يناسب أعمالهم، فكما أنَّ أعمالهم كانت مؤلمة و مؤذيه لأهل الحق، فإنَّ الله سبحانه قد جعل عقابهم و عذابهم أليما أيضا.

و ينبغي الالتفات إلى أن تعبير (بشر) في مورد العذاب الإلهي الأليم، يتناسب مع عمل المستكبرين الذين كانوا يتخذون آيات الله هزوا، و التشبّه بصفات أبي جهل، حيث كانوا يفسِّرون «زقوم جهنم» بالزبد و التمر! ثم تعود الآيات التالیه إلى شرح و تبيان حال المؤمنين الحقيقيين، و قد بدأت السورة في مقارنتها هذه بذكر حالهم أوَّلا ثم ختمت به في نهايه هذا المقطع أيضا، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ .

أجل، إنَّ هذه الفئه على عكس المستكبرين و الضالين المضلين الذين لا يرون آثار قدره الله في عالم الوجود، و لا يصغون إلى كلام أنبياء الله.

إنَّ هؤلاء يؤمنون بحكم العقل الواعي، و العين البصيره، و الاذن السامعه التي منحهم الله إياها، يؤمنون بآيات الله و يعملون بها صالحا، فما أجدد أن يكون لأولئك العذاب الأليم، و لهؤلاء جنات النعيم! و الأهم من ذلك أنَّ هذه الجنان الوافره النعم خالده لهؤلاء خالدين فيها وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا و الله سبحانه لا يعد كذبا، و ليس عاجزا عن الوفاء بوعوده وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

و ثمه مسأله تستحق الدقه، و هى أنه قد ورد العذاب في حقَّ المستكبرين بصيغه



المفرد، و في شأن المؤمنين الذين يعملون الصالحات جاءت «الجنّيات» بصيغه الجمع، و ذلك لأنّ رحمه الله عزّ و جلّ وسعت غضبه.

و التأكيد على الخلود و وعد الله الحقّ، تأكيد أيضا على سعه هذه الرحمة، و تفوّقها على الغضب.

و للنعيم معنى واسع يشمل كلّ أنواع النعم الماديّة و المعنويّة، و حتّى النعم التي لا يمكن أن ندركها، فنحن أسارى شهوات البدن في هذه الدنيا، و الراغب في (مفرداته) يقول: النعيم: النعمه الكثيره.

## بحوث

## اشاره

### ١- تحريم الغناء

لا شكّ في أنّ الغناء بصوره إجماليه حرام على المشهور بين علماء الشيعة، و تصل هذه الشهره إلى حدّ الإجماع.

و أكّد كثير من علماء أهل السنّه على هذه الحرمة، و إن كان بعضهم قد استثنوا بعض الأمور، و ربّما لا يعدّ بعضها استثناء في الحقيقه، بل تعتبر خارجه عن موضوع الغناء، أو كما يقال: خارج تخصّصا.

يقول «القرطبي» في ذيل الآيات مورد البحث في هذا الباب: «و هو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذي يحرك النفوس و يبعثها على الهوى و الغزل، و المجون الذي يحرك الساكن و يبعث الكامن، فهذا النوع إذا كان في شعر يشبّب فيه بذكر النساء و وصف محاسنهن و ذكر الخمر و المحرّمات لا- يختلف في تحريمه، لأنّه اللهو و الغناء المذموم بالاتّفاق، فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح، كالعرس و العيد و عند التنشيط على الأعمال الشاقّه كما كان في حفر الخندق و حدو أنجشّه و سلمه بن الأكوع، فأما ما ابتدعه الصوفيه اليوم

من الإدمان على سماع الأغاني بالآلات المطربة من الشباب و الطار و المعازف و الأوتار فحرام» (١).

إنّ ما ذكره القرطبي و بينه كاستثناء، من قبيل الحداء للإبل، أو الأشعار الخاصه التي كان يقرأها المسلمون أثناء حفر الخندق، يحتمل قويًا أنّه لم يكن من الغناء أساسًا، فهو شبيه بالأشعار التي يقرأها جماعه بلحن خاصّ في المسيرات أو مجالس الفرح و مجالس العزاء الدينيه.

و في أيدينا أدلّه كثيره على تحريم الغناء في المصادر الإسلاميه، و من جملتها الآيه أعلاه: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ** و بعض آيات آخر من القرآن التي تنطبق-على الأقلّ طبق الروايات الوارده في تفسير هذه الآيات-على الغناء، أو أنّ الغناء اعتبر من مصاديقها:

ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير آيه: **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** (٢) قال:

«قول الزور الغناء» (٣).

و

عنه عليه السلام في تفسير الآيه: **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** (٤) قال: «الغناء» (٥).

و

قد رويت في تفسير هذه الآيه روايات عديده عن الإمام الباقر و الصادق و الرضا عليهم السلام أوضحوا فيها أنّ أحد مصاديق لهو الحديث الموجب للعذاب المهين هو «الغناء» (٦).

إضافه إلى هذا فإنّه تلاحظ في المصادر الإسلاميه روايات كثيره اخرى-عدا ما ورد في تفسير الآيات-تبين تحريم الغناء بصوره مؤكده:

ص: ١٩

١-١ - تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٥١٣٦.

٢-٢ - الحج، ٣٠.

٣-٣ - وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ٢٢٥-٢٣١، ٢٢٧ باب تحريم الغناء.

٤-٤ - الفرقان، ٧٢.

٥-٥ - المصدر السابق.

٦-٦ - المصدر السابق.

ففى حديث مروى عن جابر بن عبد الله، عن النبى صلى الله عليه وآله: «كان إبليس أول من تغنى» (١).

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «بيت الغناء لا تؤمن فيه الفجيعه، ولا تجاب فيه الدعوه، ولا يدخله الملك» (٢).

و

فى حديث آخر عليه السلام: «الغناء يورث النفاق، ويعقب الفقر» (٣).

و

فى حديث آخر عن الصادق عليه السلام: «المغنى ملعونه، ومن أذاها ملعون، و آكل كسبها ملعون» (٤).

وقد نقلت روايات كثيره فى هذا المجال فى كتب أهل السنه المعروفه أيضا، و من جملتها الروايه التى

نقلها فى (الدرّ المنثور) عن جماعه كثيره من المحدثين، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنه قال: «لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ، وأثمانهنّ حرام» (٥).

و نقل نظير هذا المعنى كاتب (التاج) عن الترمذى و الإمام أحمد (٦).

و

يروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: «الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» (٧).

و بالجمله، فإنّ الروايات الوارده فى هذا الباب كثيره جدّا بحيث تصل إلى حدّ التواتر، و لهذا فإنّ أكثر علماء الإسلام قد أفتوا بالحرمة، علاوه على علماء الشيعة، الذين يتفقون بالرأى فى هذا الموضوع تقريبا، و قد نقل تحريمه عن أبى حنيفه

ص: ٢٠:

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٢٢٥-٢٣٠.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -سفينه البحار، ج ٢، صفحہ ٣٣٨.

٥-٥) -الدرّ المنثور ذيل الآيه مورد البحث.

٦-٦) -التاج، المجلد، ج ٥، ص ٢٨٧.



أيضا، و عند ما سألو «أحمد» -إمام السنّة المعروف- عن الغناء قال: نيبت النفاق.

و قال «مالك» -إمام أهل السنّة المعروف- مجيبا عن هذا السؤال: يفعلهُ الفسّاق.

و صرّح «الشافعي» بأنّ شهادته أصحاب الغناء غير مقبولة، و هذا بنفسه دليل على فسق هؤلاء.

و نقل عن أصحاب الشافعي أيضا أنّهم اعتبروا فتوى الشافعي تحريما، على خلاف ما اعتقده البعض (1).

## ٢- ما هو الغناء؟

لا- يواجهنا إشكال مهم في حرمة الغناء، إنّما الإشكال الصعب هو تشخيص موضوع الغناء، فهل أنّ كلّ صوت حسن غناء؟ من المسلم أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّه قد ورد في الروايات الإسلاميّة، و سيره المسلمين تحكى أيضا، أنّ قرؤوا القرآن و أدنوا بصوت حسن.

هل أنّ الغناء كلّ صوت فيه ترجيع- و هو ترّدّد الصوت في الحنجره-؟ هذا أيضا غير ثابت.

و الذي يمكن استفادته من مجموع كلمات فقهاء و أقوال أهل السنّة في هذا المجال، أنّ الغناء هو كلّ لحن و صوت يطرب، و يشتمل على اللهو و الباطل.

و بعبارة أوضح: الغناء هو الأصوات و الألحان التي تناسب مجالس الفسق و الفجور، و أهل المعصية و الفساد.

و بتعبير آخر: الغناء يقال للصوت الذي يحرك القوى الشهوانية في الإنسان، بحيث يشعر الإنسان في تلك الحال بأنّه لو كان إلى جانب هذا الصوت خمر

ص: ٢١

---

(١- ١) -تفسير روح المعاني، ذيل الآيات مورد البحث.

و مسكر و إباحه و فساد جنسى،لكان ذلك مناسباً جداً! و هناك مسأله تستحق الانتباه،و هى أنّ بعض الألحان تعدّ أحياناً غناء و لهما باطلا بذاتها و محتواها،مثال ذلك أشعار العشق و الغرام و الأشعار المفسده التى تقرأ بألحان و موسيقى راقصه.

و قد تكون الألحان بذاتها غناء أحياناً اخرى،مثال الأشعار الجيده،أو آيات القرآن و الدعاء و المناجاة التى تقرأ بلحن يناسب مجالس الفاسدين و الفساق، و هو حرام فى كلام الصورتين «فتأمل».

و ثمه مسأله ينبغى ذكرها،و هى أنّه يذكر للغناء معنيان:معنى عامّ،و معنى خاصّ،و المعنى الخاصّ هو ما ذكرناه أعلاه،أى الموسيقى و الألحان التى تحرّك الشهوات،و تناسب مجالس الفسق و الفجور.

و المعنى العامّ هو كلّ صوت حسن،فمن فسّر الغناء بالمعنى العامّ قسّمه إلى قسمين:غناء حلال،و غناء حرام.

و المراد من الغناء الحرام:هو ما قيل أعلاه،و المراد من الغناء الحلال:الصوت الحسن الجميل و الذى لا يكون باعثاً على الفساد،و لا يناسب مجالس الفسق و الفجور.

و بناء على هذا فلا يوجد اختلاف-تقريباً-فى أصل تحريم الغناء،بل الاختلاف فى كيفية تفسيره.

و من الطبيعى أن يكون للغناء موارد شكّ-ككّل المفاهيم الاخرى-و أنّ الإنسان لا يعلم حقّاً هل أنّ الصوت الفلانى يناسب مجالس الفسق و الفجور،أم لا؟و فى هذه الصورة يحكم بالحليه بحكم أصل البراءه،و هذا-طبعاً-بعد الإحاطه الكافيه بالمفهوم العرفى للغناء طبق التعريف أعلاه.

و من هنا يتّضح أنّ الأصوات و الموسيقى الحماسيه التى تناسب ساحات الحرب أو الرياضه و أمثالها لا دليل على حرمتها.

و من الطبيعي أنّ هناك بحوثاً أخرى في باب الغناء، من قبيل بعض الاستثناءات التي قبلها جماعه و أنكرها آخرون، و مسائل أخرى ينبغي الكلام عنها في الكتب الفقهيّة.

و الكلام الأخير هو أنّ ما ذكر أعلاه يتعلّق بالغناء، و أمّا استعمال الآلات الموسيقية و حرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

### ٣- فلسفه تحريم الغناء:

إنّ التدقيق في مفهوم الغناء- مع الشروط التي قلناها في شرح هذا المفهوم- تجعل الغايه من تحريم الغناء واضحه جداً.

فبنظره سريعه إلى معطيات الغناء سنواجه المفساد أدناه:

أولاً: الترغيب و الدعوه إلى فساد الأخلاق.

لقد بينت التجربة- و تجربته خير شاهد- أنّ كثيراً من الأفراد الواقعين تحت تأثير موسيقى و ألحان الغناء قد تركوا طريق التقوى، و اتّجهوا نحو الشهوات و الفساد.

إنّ مجلس الغناء- عادة- يعدّ مركزاً لأنواع المفساد، و الدافع على هذه المفساد هو الغناء.

و نقرأ في بعض التقارير التي وردت في الصحف الأجنبيّه أنّه كان في مجلس جماعه من الفتيان و الفتيات فعزفت فيه موسيقى خاصّه و على نمط خاص من الغناء، فهيجت الفتيان و الفتيات إلى الحدّ الذي هجم فيه بعضهم على البعض الآخر، و عملوا من الفضائح ما يخجل القلم عن ذكره.

و ينقل في تفسير (روح المعاني) حديثاً عن أحد زعماء بني أميّة أنّه قال لهم:

إياكم و الغناء فإنّه ينقص الحياء، و يزيد في الشهوه، و يهدم المروءه، و إنّّه ينوب عن

الخمير، و يفعل ما يفعل السكر (١). و هذا يبين أنه حتى أولئك كانوا مطلعين على مفسده أيضا.

و عند ما نرى فى الزوايات الإسلاميه:

أن الغناء ينبت النفاق، فإنه إشاره إلى هذه الحقيقه، و هى أن روح النفاق هى روح التلوّث بالفساد و الابتعاد عن التقوى.

و إذا جاء فى الزوايات أن الملائكه لا تدخل البيت الذى فيه غناء، فبسبب التلوّث بالفساد، لأنّ الملائكه طاهره تطلب الطهاره، و تتأذى من هذه الأجواء الملوّثه.

ثانيا: الغفله عن ذكر الله:

إنّ التعبير باللّهو الذى فسّر بالغناء فى بعض الزوايات الإسلاميه إشاره إلى حقيقه أن الغناء يجعل الإنسان عبدا ثملا من الشهوات حتى يغفل عن ذكر الله.

و فى الآيات أعلاه قرأنا أنّ «لهو الحديث» أحد عوامل الضلاله عن سبيل الله، و موجب للعذاب الأليم.

فى حديث عن على عليه السلام: «كلّ ما ألهى عن ذكر الله (و أوقع الإنسان فى و حل الشهوات) فهو من الميسر» (٢) - أى فى حكم القمار-.

ثالثا: الإضرار بالأعصاب:

إنّ الغناء و الموسيقى فى الحقيقه -أحد العوامل المهمه فى تخدير الأعصاب، و بتعبير آخر: إنّ الموادّ المخدّره تردّ البدن عن طريق الفمّ و الشرب أحيانا كالخمير، و أحيانا عن طريق الشمّ و حاسه الشمّ كالهيروين، و أحيانا عن طريق التزريق كالمورفين، و أحيانا عن طريق حاسه السمع كالغناء.

و لهذا فإنّ الغناء و الموسيقى المطربه قد تجعل الأفراد منتشين أحيانا إلى حدّ يشبهون فيه السكرى، و قد لا يصل إلى هذه المرحله أحيانا، و لكنّه يوجد تخديرا

ص: ٢٤

(١-١) - تفسير روح المعانى، الجزء ٢١، صفحه ٦٠.

(٢-٢) - وسائل الشيعه، الجزء ١٢، صفحه ٢٣٥.



خفيفا، ولهذا فإن كثيرا من مفاسد المخدرات موجوده فى الغناء، سواء كان تخديره خفيفا أم قويا.

«إنّ الانتباه بدقّه إلى سيره مشاهير الموسيقيين يبيّن أنّهم قد واجهوا تدريجيًا مصاعب و صدمات نفسيه خلال مراحل حياتهم حتّى فقدوا أعصابهم شيئا فشيئا، و ابتلى عدد منهم بأمراض نفسيه، و جماعه فقدوا مشاعرهم و ساروا إلى دار المجانين، و بعضهم أصيبوا بالشلل و العجز، و بعضهم أصيب بالسكته، حيث ارتفع ضغط الدم عندهم أثناء عزف الموسيقى» (١).

و قد جاء فى بعض الكتب التى كتبت فى مجال لآثار المضرّه للموسيقى على أعصاب الإنسان، حالات جمع من الموسيقيين و المغنّين المعروفين الذين أصيبوا بالسكته و موت الفجأه أثناء أداء برامجهم، و زهقت أرواحهم فى ذلك المجلس (٢).

و خلاصه القول فإنّ الآثار المضرّه للغناء و الموسيقى على الأعصاب تصل إلى حدّ إيجاد الجنون، و تؤثّر على القلب و تؤدّى إلى ارتفاع ضغط الدم و غير ذلك من الآثار المخرّبه.

و يستفاد من الإحصاءات المعده للوفيات فى عصرنا الحالى بأنّ معدّل موت الفجأه قد إزداد بالمقارنه مع السابق، و قد ذكروا أسبابا مختلفه كان من جملتها الغناء و الموسيقى.

رابعا: الغناء أحد وسائل الاستعمار:

إنّ مستعمري العالم يخافون دائما من وعى الشعوب، و خاصّه الشباب، و لذلك فإنّ جانبا من برامجهم الواسعه لاستمرار و إدامه الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفله و الجهل و الضلال، و توسعه وسائل اللهو المفسده.

إنّ المخدرات لا تتّصف اليوم بصفه تجاريه فقط، بل هى أحد الوسائل

ص: ٢٥

١- ١) -تأثير الموسيقى على النفس و الأعصاب، صفحه ٢٦.

٢- ٢) -يراجع المصدر السابق صفحه ٩٢ و ما بعدها.

السياسيه المهمه، فإن السياسات الاستعماريه تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء و نوادي القمار و وسائل اللهو الفاسده الاخرى، و من جملتها توسعه و نشر الغناء و الموسيقى، و هي من أهم الوسائل التي يصرّ عليها المستعمرون لتخدير أفكار الناس، و لهذا فإن الموسيقى تشكّل القسم الأكبر من وقت إذا عات العالم و وسائل الإعلام الأساسيه.

ص: ٢٤

اشاره

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)

التفسير

اشاره

هذا خلق الله:

مواصله للبحث حول القرآن و الإيمان به فى الآيات السابقه، تتحدّث الآيتان أعلامه عن أدله التوحيد الذى هو أهمّ الأصول العقائديه.

تشير الآيه الاولى إلى خمسہ أقسام من مخلوقات الله التى ترتبط مع بعضها ارتباطا وثيقا لا ينفصل، و هى: خلق السماء، و كون الكواكب معلقه فى الفضاء، و خلق الجبال لتثبيت الأرض، ثم خلق الدواب، و بعد ذلك الماء و النباتات التى هى وسيله تغذيتها، فتقول: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا .

(العمد) جمع (عمود)، و تقييد بنائها و إقامتها ب تَرْوُنَهَا دليل على أنه ليس لهذه السماء أعمده مرئيه، و معنى ذلك أن لها أعمده إلا أنها غير قابله للرؤيه، و كما

قلنا قبل هذا فى تفسير سورة الرعد أيضا، فإنّ هذا التعبير إشارة لطيفه إلى قانون الجاذبيّه الذى يبدو كالعمود القويّ جدّا، إلاّ أنّه غير مرئى، يحفظ الأجرام السماويه.

و قد صرّح

فى حديث رواه حسين بن خالد، عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام، أنّه قال: «سبحان الله! أليس الله يقول: بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا؟ قلت: بلى، قال: «ثمّ عمد و لكن لا ترونها» (١) (٢).

و على كلّ حال، فإنّ الجملة أعلاه أحد معاجز القرآن المجيد العلميه، و قد أوردنا تفصيلا أكثر عنها فى ذيل الآيه (٢) من سورة الرعد.

ثمّ تقول الآيه فى الغايه من خلق الجبال: وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (٣).

إنّ هذه الآيه التى لها نظائر كثيره فى القرآن، توضّح أنّ الجبال وسيله لثبيت الأرض، و قد تثبت هذه الحقيقه اليوم من الناحيه العلميه من جهات عديده:

فمن جهه أنّ أصولها مرتبطه مع بعضها، و هى كالدرع المحكم يحفظ الكره الأرضيه أمام الضغوط الناشئه من الحراره الداخليه، و لولا هذه الجبال فإنّ الزلازل المدمّره كانت ستبلغ حدّا ربّما لا تدع معه للإنسان مجالا للحياه.

و من جهه أنّ هذه السلسله المحكمه تقاوم جاذبيه القمر و الشمس الشديده، و إلاّ فسيحدث جزر و مدّ عظيمان فى القشره الأرضيه أقوى من جزر و مدّ البحار، و تجعل الحياه بالنسبه للإنسان مستحيله.

و من جهه أنّها تقف سدّا أمام العواصف و الرياح العاتيه، و تقلّل من تماسّ الهواء

ص: ٢٨

١-١) - تفسير البرهان، المجلد ٢، صفحه ٢٧٨.

٢-٢) - إنّ الذين اعتبروا الآيه أعلاه دليلا على نفى العمد مطلقا لا بدّ لهم من التقديم و التأخير فى الآيه ليقولوا: إنّ أصل الجملة كانت: خلق السماوات ترونها بغير عمد، و هذا خلاف الظاهر قطعا.

٣-٣) - «تميد» من (الميد) أى تزلزل الأشياء و اضطرابها اضطرابا عظيما، و جملة (أن تميد بكم) فى تقدير: لئلا تميد بكم.

المجاور للأرض عند دوران الأرض حول نفسها إلى أقل حد، ولو لم تكن هذه الجبال لكان سطح الأرض كالصحارى اليابسه، و عرضه للأعاصير و الزوابع المهلكه، و العواصف الهوجاء المدمره ليل نهار (١).

و بعد ذكر نعمه استقرار السماء بأعمده الجاذبيه. و استقرار و ثبات الأرض بواسطه الجبال، تصل النوبه إلى خلق الكائنات الحيه و استقرارها، بحيث تستطيع أن تضع أقدامها فى محيط هادئ مطمئن، فتقول: وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ .

إنّ التعبير ب مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ إشاره إلى تنوع الحياه فى صور مختلفه، ابتداء من الكائنات الحيه المجهرية و التى ملأت جميع الأرجاء إلى الحيوانات العملاقه و المخوفه.

و كذلك الحيوانات المختلفه الألوان، و المتفاوته الأشكال التى تعيش فى الماء و الهواء من الطيور و الزواحف، و الحشرات المختلفه و أمثالها، و التى لكل منها عالمها الخاصّ تعكس الحياه فى مئات الآلاف من المرايا.

إلا أنّ من المعلوم أنّ هذه الحيوانات تحتاج إلى الماء و الغذاء، و لذلك فإنّ الجملة التاليه أشارت إلى هذا الموضوع، فقالت: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

و بهذا فإنّ الآيه تبيّن أساس حياه كلّ الحيوانات -و خاصّه الإنسان- الذى يكونه الماء و النبات، فالكره الأرضيه تعتبر سماطا واسعاً ذا أعذيه متنوعه يمتدّ فى جميع أنحاءها، و يصلح لكلّ نوع منها حسب خلقته، ممّا يدلّ على عظمه الخالق جلّ و علا.

و ممّا يستحقّ الانتباه هو أنّه فى بيان خلق الأقسام الثلاثه الاولى ذكرت الأفعال بصيغه الغائب، و حين وصل الأمر إلى نزول المطر و نمو النباتات أتت

ص: ٢٩

الأفعال بصيغته المتكلم، فيقول: نحن أنزلنا من السماء ماء، ونحن أنبتنا النباتات في الأرض.

و هذا بنفسه أحد فنون الفصاحة، حيث إنهم عند ما يريدون ذكر أمور مختلفه، فإنهم يبتنونها بشكلين أو أكثر، كى لا يشعر السامع بأى نوع من الضجر و الرتابه، إضافة إلى أنّ هذا التعبير يوضح أنّ نزول المطر و نمو النبات كانا محطّ اهتمام خاصّ.

ثمّ تشير هذه الآيه مرّه أخرى إلى مسأله (الزوجيه فى عالم النباتات) و هى أيضا من معجزات القرآن العلميه، لأنّ الزوجيه-أى وجود الذكر و الأنثى-فى عالم النباتات لم تكن ثابتة فى ذلك الزمان بصوره واسعه، و القرآن كشف الستار عنها. و لزياده التفصيل حول هذه المسأله يمكنكم مراجعه ذيل الآيه (٧) من سوره الشعراء.

ثمّ إنّ وصف أزواج النباتات ب«الكريم» إشارة ضمنيه إلى أنواع المواهب الموجوده فيها.

بعد ذكر عظمه الله فى عالم الخلقه، و ذكر صور مختلفه من المخلوقات، و جّهت الآيه الخطاب إلى المشركين، و جعلتهم موضع سؤال و استجواب، فقالت: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ؟! من المسلم أنّ أولئك لم يكونوا يستطيعون ادّعاء كون أى من المخلوقات من خلق الأصنام، و على هذا فإنهم كانوا يقزّون بتوحيد الخالق، مع هذا الحال كيف يستطيعون تعليل الشرك فى العباده؟! لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الربّ و كون مدبّر العالم واحدا، و هو دليل على توحيد العبوديه.

و لذلك اعتبرت الآيه عمل أولئك منطبقا على الظلم و الضلال، فقالت: بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

و معلوم أنّ «الظلم» له معنى واسعاً يشمل وضع كلّ شىء فى غير موضعه، و لما

كان المشركون يربطون العبادة، و تدبير العالم أحيانا بالأصنام، فإنهم كانوا مرتكبين لأكبر ظلم و ضلاله.

ثم إن التعبير أعلاه يتضمّن إشاره لطيفه إلى ارتباط «الظلم» و «الضلال»، لأنّ الإنسان عند ما لا يعرف مكانه الموجودات الموضوعيه في العالم، أو يعرفها و لا يراعيها، و لا يرى كلّ شيء في مكانه، فمن المسلم أنّ هذا الظلم سيكون سببا للضلاله و الضياع.

ص: ٣١

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَصَيَّرْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتُهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَيَّ وَهْنٌ وَفِضَالُهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)

التفسير

اشاره

احترام الوالدين:

لتكميل البحوث السابقة حول التوحيد و الشرك، و أهميته و عظمه القرآن، و الحكمه التي استعملت و أتتعت في هذا الكتاب السماوى، فقد ورد الكلام في هذه الآيات التي التي نبحتها و الآيات الاخرى التاليه عن لقمان الحكيم، و عن جانب



من المواعظ المهمه لهذا الرجل المتأله في باب التوحيد و محاربه الشرك، و قد انعكست المسائل الأخلاقيه المهمه في مواعظ لقمان لابنه.

إن هذه المواعظ العشره التي ذكرت ضمن ست آيات، قد بينت بأسلوب رائع المسائل العقائديه، إضافة إلى أصول الواجبات الدينيه و المباحث الأخلاقيه.

و سنبحث فيما بعد-في بحث الملاحظات- إن شاء الله تعالى، من هو لقمان؟ و أيه خصائص كان يمتلكها؟ و لكن ما نذكره هنا هو أن القرائن تبين أنه لم يكن نبيا، بل كان رجلا ورعا مهذباً انتصر في ميدان جهاد هوى النفس، فكان أن فجر الله تعالى في قلبه ينابيع العلم و الحكمة.

و يكفى في عظمه مقامه أن الله قد قرن مواعظه بكلامه، و ذكرها في طيات آيات القرآن.

أجل..عند ما يتنور قلب الإنسان بنور الحكمة نتيجة للطهاره و التقوى، فإن الكلام الإلهي يجرى على لسانه، و يقول ما يقوله الله، و يفكر بالشكل الذي يرضاه الله! بعد هذا التوضيح الموجز نعود إلى تفسير الآيات:

تقول الآية الاولى: **وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١)**.

### فما هي الحكمة؟

في معرض الحديث عن ماهية الحكمة ينبغي القول: إنهم قد ذكروا للحكمة معاني كثيرة، مثل: معرفه أسرار عالم الوجود، و الإحاطه و العلم بحقائق القرآن،

ص: ٣٣

١ - ١) - هناك بحث بين المفسرين في أنه هل يوجد لجملة (أن اشكر لله) شيء مقدر أم لا؟ فالبعض يعتقد أن جملة (قلنا له) مقدره قبلها، و البعض يقولون: لا تحتاج إلى تقدير، و (أن) في جملة (أن اشكر) تفسيريته، لأن الشكر بنفسه عين الحكمة، و الحكمة عينه. و كلا التفسيرين يمكن قبوله.

و الوصول إلى الحقّ من جهة القول و العمل، و معرفه الله.

إلاّ أنّ كلّ هذه المعانى يمكن جمعها فى تعريف واحد، فالحكمه التى يتحدّث عنها القرآن، و التى كان اللّهم قد آتاها لقمان، كانت مجموعه من المعرفه و العلم، و الأخلاق الطاهره و التقوى و نور الهدايه.

و

فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام، أنّه قال لهشام بن الحكم فى تفسير هذه الآية: «إنّ الحكمه هى الفهم و العقل» (١).

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية، أنّه قال: «أوتى معرفه إمام زمانه» (٢).

و من الواضح أنّ كلّاً من هذه المفاهيم يعتبر أحد فروع معنى الحكمه الواسع، و لا منافاه بينها.

و على كلّ حال، فإنّ لقمان بامتلاكه هذه الحكمه كان يشكر الله، فقد كان يعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهيه، و كيفيه استغلالها و الاستفادة منها، و كان يضعها بدقّه و صواب كامل فى مكانها المناسب لتحقيق الهدف الذى خلقت من أجله، و هذه هى الحكمه، هى وضع كلّ شىء فى موضعه، و بناء على هذا فإنّ الشكر و الحكمه يعودان إلى نقطه واحده.

و قد اتّضحت نتيجة الشكر و الكفران للنعم بصوره ضمنيه فى الآية، و هى أنّ شكر النعمه سيكون من صالح الإنسان و فى منفعتة، و أنّ كفران النعمه سيكون سبباً لضرره أيضاً، لأنّ الله سبحانه غنىّ عن العالمين، فلو أنّ كلّ الممكنات قد شكرته فلا يزيد فى عظمتة شىء، و لو أنّ كلّ الكائنات كفرت فلا ينقص من كبريائه شىء! إنّ «اللام» فى جمله أنّ اشكُرْ لِلّهِ لَام الإختصاص، و «اللام» فى لِنَفْسِهِ لَام النفع، و بناء على هذا، فإنّ نفع الشكر، و الذى هو دوام النعمه و كثرتها، إضافة

ص: ٣٤

١-١) -أصول الكافي، ج ٢، ص ١٣. كتاب العقل و الجهل حديث ١٢.

٢-٢) -نور الثقلين، الجزء ٤، صفحہ ١٩٦.

إلى ثواب الآخرة يعود على الإنسان نفسه، كما أنّ مضرّه الكفر تحقيق به فقط.

والتعبير بـ غَنِيٍّ حَمِيدٌ إشارة إلى شكر الناس للأفراد العاديين أمّا أن يؤدّى إلى النفع المادّي للمشكور، أو زياده مكانه صاحبه في أنظار الناس، إلا أنّ أيّا من هذين الأمرين لا معنى له و لا مصداق في حقّ الله تعالى، فإنّه غَنِيٌّ عن الجميع، و هو أهل لحمد كلّ الحامدين و ثنائهم، فالملائكة تحمده، و كلّ ذرّات الوجود و الموجودات مشغولة بتسبيحه، و إذا ما نطق إنسان بالكفر فليس له أدنى تأثير، فحتّى ذرّات وجوده مشغولة بحمده و ثنائه بلسان الحال! و ممّا يجدر ذكره أنّ الشكر قد ذكر بصيغته المضارع، و الذى يدلّ على الاستمرار، أمّا الكفر فقد جاء بصيغته الماضى الذى يصدق حتّى على المرّه الواحده، و هذا إشارة إلى أنّ الكفران و لو لمّرّه واحده يمكن أن يؤدّى إلى عواقب و خيمه مؤلمه، أمّا الشكر فإنّه لازم، و يجب أن يكون مستمرّاً ليطوى الإنسان مسيره التكاملية.

و بعد تعريف لقمان و مقامه العلمى و الحكمى، أشارت الآيه التالیه إلى اولى مواعظه، و هى فى الوقت نفسه أهمّ وصاياها لولده، فقالت: **وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .**

إنّ حكمه لقمان توجب عليه أن يتوجّه قبل كلّ شىء إلى أهمّ المسائل الأساسيه، و هى مسأله التوحيد.. التوحيد فى كلّ المجالات و الأبعاد، لأنّ كلّ حركه هدامه ضدّ التوجّه الإلهى تنبع من الشرك، من عباده الدنيا و المنصب و الهوى و أمثال ذلك، و الذى يعتبر كلّ منها فرعاً من الشرك.

كما أنّ أساس كلّ الحركات الصحيحه البناءه هو التوحيد و التوجّه إلى الله، و إطاعه أوامره، و الابتعاد عن غيره، و كسر كلّ الأصنام فى ساحه كبريائه! و ممّا يستحقّ الإشاره أنّ لقمان الحكيم قد جعل نفيه الشرك هو أنّ الشرك

ظلم عظيم، وقد احيط بالتأكيد من عدّه جهات (١).

و أئى ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا- قيمه لها فى مصافّ الله و درجته، هذا من جانب، و من جانب آخر يجزّون الناس إلى الضلال و الانحراف، و يظلمونهم بجناياتهم و جرائمهم، و هم يظلمون أنفسهم أيضا حيث ينزلونها من قمّه عزّه العبوديه لله و يهوون بها إلى منحدر ذلّه العبوديه لغيره.

و الآيتان التاليتان جمل معترضه ذكرها الله تعالى فى طيّات مواعظ لقمان، لكنّ هذا الاعتراض لا- يعنى عدم الاتّصال و الارتباط، بل يعنى الصله الواضحه لكلام الله عزّ و جلّ بكلام لقمان، لأنّ فى هاتين الآيتين بحثا عن نعمه وجود الوالدين و مشاقّهما و خدماتهما و حقوقهما، و جعل شكر الوالدين فى درجه شكر الله.

إضافه إلى أنّهما تعتبران تأكيدا على كون مواعظ لقمان لابنه خالصه، لأنّ الوالدين مع هذه العلاقه القويّه و خلوص التّيه لا يمكن أن يذكر فى مواعظهما إلاّ ما فيه خير و صلاح الولد، فتقول أولًا: وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِالذِّكْرِ وَ عِنْدُ تَشِيرٍ إِلَى جُهِودٍ وَ مَتَاعِ الْإِمِّ الْعَظِيمِ، فتقول: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَ هُنَا عَلِيٌّ وَ هُنَّ (٢).

و هذه المسأله قد ثبتت من الناحيه العلميه، إذ أوضحت التجارب أنّ الامّهات فى فتره الحمل يصبّن بالضعف و الوهن، لأنّهنّ يصرفن خلاصه وجودهنّ فى تغذيّه و تنميه الجنين، و يقدّمن له من موادهنّ الحياتيه أفضلها، و لذلك فإنّ الامّهات أثناء فتره الحمل يبتلين بنقص أنواع الفيتامينات و فى حاله عدم تعويض هذا النقص فسيؤدّى إلى آلام و متاعب كثيره.

و هذا الأمر يستمر حتّى فى فتره الرضاعه، لأنّ اللبن عصاره وجود الامّ، و لهذا تضيف بعد ذلك فتره رضاعه سنتان وَ فِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ كما أشير إلى ذلك فى

ص: ٣٦

١-١) - إنّ كلاً من (أن) و«اللام»، و كون الجملة اسميه من أدوات التأكيد.

٢-٢) - إنّ جملة (وهنا على وهن) يمكن أن تكون حالاً للامّ بتقدير كلمه «ذات»، فكان تقديرها (حملته أمّه ذات وهن على وهن). و احتمال أيضاً أن تكون مفعولاً مطلقاً لفعل مقدّر من مادّه (وهن) فكان تقديره: (تهن و هنا على وهن).

موضع آخر من القرآن: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ (١)، والمراد فتره الرضاعه الكامله، و إن كانت تتم أحيانا بفترة أقل.

و على كل حال، فإنّ الامّ فى هذه ال(٣٣)شهر-فترة الحمل، و فترة الرضاع- تبدى و تقدّم أعظم تضحيه لولدها، سواء كان من الجانب الروحى و العاطفى، أو الجسمى، أو من جهه الخدمات و الرعايه.

و الملفت للنظر هنا أنّها توصى فى البدايه بالوالدين معا، إلا أنّها عند بيان المشاقّ و المتاعب تؤكّد على متاعب الامّ، لتنبّه الإنسان إلى إيثارها و تضحياتها و حقّها العظيم.

ثمّ تقول: أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيْكَ فَاشْكُرْنِي لِأَنِّي خَالِقُكَ وَ الْمَنَعَمُ الْأَصْلَى عَلَيْكَ، و منحتك مثل هذين الأبوين العطفين الرحيمين، و اشكر والديك لأنهما واسطه هذا الفيض و قد تحمّلا مسؤوليه إيصال نعمى إليك. فما أجمل أن يجعل شكر الوالدين قرين شكر الله! و ما أعمق مغزاه! و يقول الله تعالى فى نهايه الآيه بنبره لا تخلو من التهديد و العتاب: إِلَيَّ الْمَصِيرُ. نعم، فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كلّ هذه الحقوق و المصاعب و الخدمات بدقّه فيجب على الإنسان أن يؤدّى ما عليه من شكر مواهب الله.

و كذلك شكر نعمه و جود الأبوين و عواطفهما الصادقه الطاهره لينجح فى ذلك الحساب و تلك المحكمه.

و فى هذا المجال التفت بعض المفسّرين إلى مسأله لطيفه، و هى أنه قد ورد التأكيد على رعايه حقوق الأبوين مرارا فى القرآن المجيد، إلا أنّ التوصيه بالأولاد تلاحظ قليلا- ما عدا مورد النهى عن قتل الأولاد، و التى كانت عاده مشؤومه قبيحه و استثنائيه فى عصر الجاهليه- و ذلك لأنّ الوالدين، و بحكم

ص: ٣٧

عواطفهما القويّة، قَلَّ ما يهملوا أولادهما بيد النسيان، في حين يلاحظ بكثرة أنّ الأولاد ينسون الأبوين، وخاصّة عند الكبر و العجز، وتعتبر هذه آلم و أشدّ حاله لهما، و أسوأ صور كفران النعمه بالنسبه للأولاد (١).

إنّ الوصيّه بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الاشتباه و الوهم عند البعض و ذلك حينما يظنّ أنّه يجب مداراتهما و اتّباعهما حتّى في مسأله العقيدته و الكفر و الإيمان، لكنّ الآيه التاليه تقول: **وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِيٰ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** فيجب أن لا تكون علاقه الإنسان بأمه و أبيه مقدّمه على علاقه بالله مطلقا، و أن لا تكون عواطف القرابه حاكمه على عقيدته الدينيه أبدا.

جملة **جَاهِدَاكَ** إشاره إلى أنّ الأبوين قد يظنّان أحيانا أنّهما يريدان سعادته الولد، و يسعيان إلى جرّه إلى عقيدتهما المنحرفه و الإيمان بها، و هذا يلاحظ لدى كلّ الآباء و الامهات.

إنّ واجب الأولاد أن لا يستسلموا أبدا أمام هذه الضغوط، و يجب أن يحافظوا على استقلالهم الفكري، و لا يساوموا على عقيدته التوحيد، أو يبدّلوها بأيّ شيء.

ثمّ إنّ جملة **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** تشير ضمنا إلى أنّنا لو نتجاهل أدلّه بطلان الشرك، و لم نقم لها وزنا، فإنّه لا يوجد دليل على إثباته، و لا يستطيع أيّ متعنّث إثبات الشرك بالدليل.

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّ الشرك إن كانت له حقيقه، فينبغي أن يكون هناك دليل على إثباته، و لما لم يكن هناك دليل على إثباته، فإنّ هذا بنفسه دليل على بطلانه.

ولمّا كان من الممكن أيضا أن يوجد هذا الأمر توهم و جوب استخدام الخشونه مع الوالدين المشركين و عدم احترامهما، و لذلك أضافت الآيه أنّ عدم طاعتها في مسأله الشرك ليس دليلا على جوب قطع العلاقه معهما، بل تأمره الآيه أن

ص: ٣٨

فلاطفهما و أظهر المحبته لهما في الحياه الدينويّه و المعاشره،و لا تستسلم لأفكارهما و اقتراحاتهما من الناحيه العقائديه و البرامج الدينيه،و هذه بالضبط نقطه الاعتدال الأصلية التي تجمع فيها حقوق الله و الوالدين،و لذا يضيف بعد ذلك وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ لِأَنَّ الْمَصِيرَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

إن سبب النفي و الإثبات المتلاحق،و الأوامر و النواهي المتتابعه في الآيات أعلاه هو أن يجد المسلمون الخطّ الأصلي و يشخصوه في مثل هذه المسائل، حيث يبدو في أول الأمر أنّ هناك تناقضا في أداء هذين الواجبين،فإن تفكروا قليلا فإنّ المسير الصحيح سيكون نصب أعينهم،و سيسرون فيه دون أدنى إفراط و لا تفريط،و هذه الدقه و اللطافه القرآنيه في أمثال هذه الدقائق من صور فصاحه القرآن و بلاغته العميقه.

و على كلّ حال،فإنّ الآيه أعلاه تشبهه ما جاء في الآيه(٨)من سوره العنكبوت،حيث تقول: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ و قد أوردنا في ذيل الآيه(٨)من سوره العنكبوت سبب نزول لها ذكر في بعض التفاسير.

## بحثان

## اشاره

### ١-من هو لقمان؟

لقد ورد اسم«لقمان»في آيتين من القرآن في هذه السوره،و لا- يوجد في القرآن دليل صريح على أنّه كان نبيا أم لا،كما أنّ أسلوب القرآن في شأن لقمان يوحي بأنّه لم يكن نبيا،لأنّه يلاحظ في القرآن أنّ الكلام في شأن الأنبياء عادة يدور حول الرساله و الدعوه إلى التوحيد و محاربه الشرك و انحرافات البيئه،و عدم

المطالبه بالأجر و المكافأه، و كذلك بشاره الأمم و إنذارها، فى حين أنّ أيا من هذه الأمور لم يذكر فى شأن لقمان، و الذى ورد هو مجموعته مواعظ خاصه مع ولده (رغم شموليتها و عموميتها)، و هذا دليل على أنه كان رجلا حكيما و حسب.

و

فى حديثه عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «حقا أقول: لم يكن لقمان نبيا، و لكن كان عبدا كثيرا التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه و منّ عليه بالحكمه».

و جاء فى بعض التواريخ: أنّ لقمان كان عبدا أسود من سودان مصر، و لكنّه إلى جانب وجهه الأسود كان له قلب مضىء و روح صافيه، و كان يصدق فى القول من البدايه، و لا يمزج الأمانه بالخيانه، و لم يكن يتدخل فيما لا يعنيه (1).

و احتمال بعض المفسرين نبوته، لكن - كما قلنا - لا يوجد دليل على ذلك، بل لدينا شواهد واضحه على نقيض ذلك.

و

جاء فى بعض الروايات: أنّ شخصا سأل لقمان: ألم تكون ترعى معنا؟ قال:

نعم.

قال الرجل: فمن أين أتاك كل هذا العلم و الحكمه؟ قال: قدر الله، و أداء الأمانه، و صدق الحديث، و الصمت عما لا يعينى (2).

و

ورد كذلك فى ذيل الحديث الذى نقلناه عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «كان لقمان نائما نصف النهار، إذ جاءه نداء: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفه تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت: إن خيرنى ربى قبلت العافيه، و لم أقبل البلاء، و إن عزم على فسمعا و طاعه، فإننى أعلم أنه إن فعل بى ذلك أعانى و عصمنى».

فقال الملائكه: دون أن يراهم: لم يا لقمان؟ قال: لأنّ الحكم أشدّ المنازل و أكدها، يغشاها الظلم من كل مكان، إن وقى فبالحرى أن ينجو، و إن أخطأ طريق الجته، و من يكن فى الدنيا ذليلا و فى

ص: ٤٠

١-١) -قصص القرآن. شرح أحوال لقمان.

٢-٢) -مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.



الآخره شريفا خير من أن يكون فى الدنيا شريفا و فى الآخره ذليلا، و من يخيّر الدنيا على الآخره تفته الدنيا و لا يصيب الآخره.

فتعجبت الملائكه من حسن منطقه، فنام نومه فاعطى الحكمه، فانتبه يتكلم بها» (١).

## ٢- صور من حكمه لقمان

لقد ذكر بعض المفسرين بعضا من كلمات لقمان الحكيمه مناسبه للمواعظ التى وردت فى آيات هذه السوره، و نحن نذكر هنا مختصرا منها:

أ- كان لقمان يقول لابنه: يا بنى، إن الدنيا بحر عميق، و قد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله، و اجعل شراعها التوكل على الله، و اجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمه الله، و إن هلكت فبذنوبك (٢).

و

قد ورد نفس هذا المطلب ضمن كلام الإمام الكاظم عليه السلام مع هشام بن الحكم بصوره أكمل، نقلا عن لقمان الحكيم: «يا بنى، إن الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، و حشوها الإيمان، و شراعها التوكل، و قيمها العقل، و دليلها العلم، و سكاها الصبر» (٣).

ب- و فى حوار آخر مع ابنه حول آداب السفر يقول:

يا بنى، سافر بسيفك و خفك و عمامتك، و خباثك و سقائك، و خيوطك و مخزك، و تزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت و من معك، و كن لأصحابك موافقا إلا فى معصيه الله عزّ و جلّ.

يا بنى، إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم فى أمرك و أمورهم.

ص: ٤١

١-١ - مجمع البيان الجزء ٨ صفحه ٣١٦ ذيل الآيه مورد البحث.

٢-٢ - مجمع البيان. ذيل الآيه مورد البحث.

٣-٣ - اصول الكافي، المجلد الأول، صفحه ١٣ كتاب العقل و الجهل.

و أكثر التبسم في وجوههم.

و كن كريما على زادك بينهم.

و إذا دعوك فأجبهم، و إذا استعانوا بك فأعنههم.

و استعمل طول الصمت، و كثره الصلاة، و سخاء النفس بما معك من دابته أو ماء أو زاد.

و إذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم.

و اجهد رأيك إذا استشاروك، ثم لا تعزم حتى تثبت و تنظر، و لا تجب في مشوره حتى تقوم فيها و تقعد، و تنام و تأكل و تصلي، و أنت مستعمل فكرتك و حكمتك في مشورته، فإن من لم يحض النتيجة من استشاره سلبه الله رأيه.

و إذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم.

و اسمع لمن هو أكبر منك سنا.

و إذا أمروك بأمر، و سألوكم شيئا فقل: نعم، و لا تقل: لا، فإن (لا) عى و لؤم.

يا بنى، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء، صلها و استرح منها فإنها دين.

و صل في جماعه و لو على رأس زج.

و إن استطعت أن لا تأكل طعاما حتى تبدئ فتصدق منه فافعل.

و عليك بقراءة كتاب الله (١).

ج- و ثمه قصه معروفه أيضا عن لقمان، و هى أن مولاة دعاه- يوم كان عبدا- فقال: اذبح شاه، فأتنى بأطيب مضغتين منها، فذبح شاه، و أتاه بالقلب و اللسان.

و بعد عدّه أيام أمره أن يذبح شاه، و يأتيه بأخبث أعضائها، فذبح شاه و أتاه بالقلب و اللسان، فتعجب و سأله عن ذلك فقال: إن القلب و اللسان إذا طهرا فهما أطيب من كل شيء، و إذا خبنا كانا أخبث من كل شيء (٢).

ص: ٤٢

١-١ - المصدر السابق.

٢-٢ - تفسير البيضاوى و الثعلبى، و لكن نقل فى مجمع البيان جزءه الأول فقط.

و ننهى هذا البحث بحديث

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «و الله ما اوتى لقمان الحكمة لحسب و لا مال و لا بسط فى جسم و لا جمال، و لكنّه كان رجلاً قويّاً فى أمر الله، متورّعا فى الله، ساكتاً سكيناً عميق النظر، طويل التفكير، حديد البصر.

و لم ينم نهارة قطّ - أى أوّله - و لم يتكئ فى مجلس قطّ - و هو عرف المتكبرين - و لم يتفل فى مجلس قوم قطّ، و لم يعبث بشيء قطّ، و لم يره أحد من الناس على بول و لا غائط قطّ، و لا على اغتسال لشده تستره و تحفظه فى أمره.

و لم يمرّ بين رجلين يقتتلان أو يختصمان إلاّ أصلح بينهما، و لم يسمع قولاً استحسنته من أحد قطّ إلاّ سأله عن تفسيره و عمّن أخذه، و كان يكثر مجالسه الفقهاء و العلماء، و يتعلّم من العلوم ما يغلب به نفسه، و يجاهد به هواه، و كان لا يظعن إلاّ فيما ينفعه، و لا ينظر إلاّ فيما يعنيه، فبذلك اوتى الحكمة و منح القضيّه» (1).

ص: ٤٣

---

١ - ١) مجمع البيان بتلخيص.

إشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْفُلْكَ مَثَاقِلَ حَبِّهِ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرِهِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَا أَيُّهَا اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَإِقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

التفسير

إشاره

أثبت كالجبل، و عامل الناس بالحسنى!

كانت اولى مواعظ لقمان عن مسأله التوحيد و محاربه الشرك، و ثانيها عن حساب الأعمال و المعاد، و التى تكمل حلقه المبدأ و المعاد، فيقول: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْفُلْكَ مَثَاقِلَ حَبِّهِ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرِهِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَا أَيُّهَا اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .  
القيامه و يضعها للحساب إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

«الخردل»: نبات له حبات سوداء صغيرة جدًا يضرب المثل بصغرها، وهذا التعبير إشاره إلى أن أعمال الخير و الشرّ مهما كانت صغيرة لا قيمه لها، و مهما كانت خفيّة كخردله في بطن صخره في أعماق الأرض، أو في زاويه من السماء، فإنّ الله اللطيف الخبير المطلع على كلّ الموجودات، صغيرها و كبيرها في جميع أنحاء العالم، سيحضرها للحساب و العقاب و الثواب، و لا يضيع شيء في هذا الحساب.

و الضمير في «إنها» يعود إلى الحسنات و السيئات، و الإحسان و الإساءة (١).

إنّ الالتفات و التوجّه إلى هذا الأطلاع التامّ من قبل الخالق سبحانه على أعمال الإنسان و علمه بها، و بقاء كلّ الحسنات و السيئات محفوظة في كتاب علم الله، و عدم ضياع و تلف شيء في عالم الوجود هذا، هو أساس كلّ الإصلاحات الفرديّة و الاجتماعيّة، و هو قوّه و طاقه محرّكه نحو الخيرات، و سدّ منيع من الشرور و السيئات. و ذكر السماوات و الأرض بعد بيان الصخره، هو في الواقع من قبيل ذكر العامّ بعد الخاصّ.

و

في حديث روى عن الإمام الباقر عليه السلام: «اتّقوا المحقّرات من الذنوب، فإنّ لها طالبا، يقول أحدكم: أذنب و أستغفر، إنّ الله عزّ و جلّ يقول: نَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ. و قال عزّ و جلّ: إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٢).

و بعد تحكيم أسس المبدأ و المعاد، و التي هي أساس كلّ الاعتقادات الدينيّة، تطرّق لقمان إلى أهمّ الأعمال، أي مسأله الصلاة، فقال: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَهَمُّ عَلاقِهِ وَ ارْتِبَاطٍ مَعَ الخَالِقِ، و الصلاة تنور قلبك، و تصفّى روحك، و تضيء حياتك، و تطهّر روحك من آثار الذنب، و تقذف نور الإيمان في أنحاء

ص: ٤٥

١- ١) احتمال البعض أنّ الضمير أعلاه ضمير الشأن و القصّه، أو يعود إلى مفهوم الشرك، و كلا الاحتمالين بعيد.

٢- ٢) نور الثقلين، الجزء ٤، صفحته ٢٠٤.

وجودك، و تمنعك عن الفحشاء و المنكر.

و بعد الصلاه يتطرق لقمان إلى أهمّ دستور اجتماعي، أي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فيقول: وَ أُمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

و بعد هذه الأوامر العمليّه المهمّيه الثلاثه، ينتقل إلى مسأله الصبر و الاستقامه، و التي هي من الإيمان بمنزله الرأس من الجسد، فيقول: وَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

من المسلم أنه توجد مشاكل و عقبات كثيره في سائر الأعمال الاجتماعيه، و خاصّه في مسأله الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و من المسلم أيضا أنّ أصحاب المصالح و المتسلّطين، و المجرمين و الأنايين لا يستسلمون بهذه السهوله، بل يسعون إلى إيذاء و اتّهام الأمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر، و لا يمكن الانتصار على هذه المصاعب و العقبات بدون الصبر و التحمّل و الاستقامه أبدا.

«العزم» بمعنى الإراده المحكمه القويّه، و التعبير ب عَزَمِ الْأُمُورِ هنا إمّا بمعنى الأعمال التي أمر الله بها أمرا مؤكّدا، أو الأمور و الأعمال التي يجب أن يمتلك الإنسان فيها إرادته فولاذيه و تصميمها راسخا، و أيّا من هذين المعنيين كان فإنّه يشير إلى أهمّيه تلك الأعمال.

و التعبير ب«ذلك» إشاره إلى الصبر و التحمّل، و يحتمل أيضا أن يعود إلى كلّ الأمور و المسائل التي ذكرت في الآيه أعلاه، و من جملتها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، إلا أنّ هذا التعبير قد ورد بعد مسأله الصبر في بعض الآيات القرآنيه الاخرى، و هذا يدعم و يقوى الاحتمال الأوّل.

ثمّ انتقل لقمان إلى المسائل الأخلاقيه المرتبطه بالناس و النفس، فيوصي أولا بالتواضع و البشاشه و عدم التكبر، فيقول: وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أَيْ لَا تَعْرِضْ بوجهك عن الناس وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

«تصعّر»: من مادّه (صعّر)، وهى فى الأصل مرض يصيب البعير فيؤدّى إلى اعوجاج رقبته.

و«المرح»: يعنى الغرور و البطر الناشئ من النعمه.

و«المختال»: من مادّه (الخيال) و(الخيلاء)، وتعنى الشخص الذى يرى نفسه عظيما و كبيرا،نتيجه سلسله من التخيّلات و الأوهام.

و«الفخور»: من مادّه (الفخر) و يعنى الشخص الذى يفتخر على الآخرين.

و الفرق بين كلمتى المختال و الفخور، أنّ الاولى إشاره إلى التخيّلات الذهنيه للكبر و العظمه، أمّا الثانيه فهى تشير إلى أعمال التكبر الخارجى.

و على هذا، فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جدّا و أساس توهين و قطع الروابط الاجتماعيه الصميميه: إحداهما التكبر و عدم الاهتمام بالآخرين، و الاخرى الغرور و العجب بالنفس، و هما مشتركتان من جهه دفع الإنسان إلى عالم من التوهّم و الخيال و نظره التفوّق على الآخرين، و إسقاطه فى هذه الهاويه، و بالتالى تقطعان علاقته بالآخرين و تعزلانه عنهم، خاصّه و أنّه بملاحظه الأصل اللغوى ل«صعّر» سيّضح أنّ مثل هذه الصفات مرض نفسى و أخلاقى، و نوع من الانحراف فى التشخيص و التفكير، و إلاّ فإنّ الإنسان السالم من الناحيه الروحيه و النفسيه لا يبتلى مطلقا بمثل هذه الظنون و التخيّلات.

و لا- يخفى أنّ مراد لقمان لم يكن مسأله الإعراض عن الناس، أو المشى بغرور و حسب، بل المراد محاربه كلّ مظاهر التكبر و الغرور، و لما كانت هذه الصفات تظهر فى طليعه الحركات العاديه اليوميّه، فإنّه وضع إصبعه على مثل هذه المظاهر الخاصّه.

ثمّ بين فى الآيه التاليه أمرين و سلوكين أخلاقيين إيجابيين فى مقابل النهيين عن سلوكين سلبيين فى الآيه السابقه فيقول: ابتغ الاعتدال فى مشيك: و أفصد فى مشيك و ابتغ الاعتدال كذلك فى كلامك و لا ترفع صوتك عاليا و اغضض من

إِنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي الْحَقِيقَةِ أَمْرَتَا بَصِفَتَيْنِ، وَنَهَتْهُمَا عَنْ صِفَتَيْنِ:

فَالنَّهْيُ عَنِ «التَّكْبَرِ» وَ«العَجَبِ»، فَإِنَّ أَحَدَهُمَا يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَتَكَبَّرَ الْإِنْسَانُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَالْآخَرُ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَظُنَّ الْإِنْسَانَ أَنَّهُ فِي مَرْتَبَةِ الْكَمَالِ وَ أَسْمَى مِنَ الْآخَرِينَ، وَبِالتَّالِي سَيُغْلَقُ أَبْوَابَ التَّكَامُلِ بِوَجْهِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَقَارَنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِينَ.

وَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ مَقْتَرِنَتَانِ غَالِبًا، وَلَهُمَا أَسْلُ مُشْتَرَكٌ، إِلَّا أَنَّهُمَا قَدْ تَفْتَرَقَانِ أحيانًا.

أَمَّا الْأَمْرُ بِصِفَتَيْنِ، فَهُمَا رِعَايَةُ الْإِعْتِدَالِ فِي الْعَمَلِ وَ الْكَلَامِ، لِأَنَّ التَّأَكِيدَ عَلَى الْإِعْتِدَالِ فِي الْمَشْيِ أَوْ إِطْلَاقِ الصَّوْتِ هُوَ مِنْ بَابِ الْمِثَالِ فِي الْحَقِيقَةِ.

وَ الْحَقُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَتَّبِعُ هَذِهِ النَّصَائِحَ الْأَرْبَعَ مُوَفَّقٌ وَ سَعِيدٌ وَ نَاجِحٌ فِي الْحَيَاةِ، وَ مَحْبُوبٌ بَيْنَ النَّاسِ، وَ عَزِيزٌ عِنْدَ اللَّهِ.

وَ مِمَّا يَسْتَحَقُّ الْإِنْتِبَاهَ أَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ نَسْمَعَ أَصْوَاتًا أَرْعَجَ مِنْ أَصْوَاتِ الْحَمِيرِ فِي مَحِيطِ حَيَاتِنَا، كَصَوْتِ سَحْبٍ بَعْضِ الْقَطْعِ الْفَلْزِيهِ إِلَى بَعْضِهَا الْآخَرَ، حَيْثُ يَحْسُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ سَمَاعِهِ بِأَنَّ لِحْمَهُ يَتَسَاقَطُ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ لَا تَمْتَلِكُ صِفَةً عَامَّةً، إِضَافَةً إِلَى وَجُودِ فَرْقٍ بَيْنِ الْمَرْعَجِ وَ الْقَبِيحِ مِنَ الْأَصْوَاتِ، وَ الْحَقُّ هُوَ أَنَّ صَوْتَ الْحَمَارِ أَقْبَحُ مِنْ كُلِّ الْأَصْوَاتِ الْعَادِيَةِ الَّتِي يَسْمَعُهَا الْإِنْسَانُ، وَ بِهِ شَبَّهَتْ صَرَخَاتُ وَ نَعْرَاتُ الْمَغْرُورِينَ الْبَلَهَ.

وَ لَيْسَ الْقَبِيحُ مِنْ جِهَةِ ارْتِفَاعِ الصَّوْتِ وَ طَرِيقَتِهِ فَحَسَبَ، بَلْ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ بِلَا سَبَبٍ أحيانًا، لِأَنَّ بَعْضَ الْمَفْسِّرِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ أَصْوَاتَ الْحَيَوَانَاتِ تَعْبَّرُ غَالِبًا عَنْ حَاجَتِهِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ يَطْلُقُ صَوْتَهُ أحيانًا بِدُونِ مَبْرَرٍ أَوْ دَاعٍ، وَ بِدُونِ أَىِّ



حاجه أو مقدّمه! وربما كان ما ورد في بعض الروايات من أنّ الحمار كلّما أطلق صوته فقد رأى شيطاناً، لهذا السبب.

وقال البعض: إنّ صراخ كلّ حيوان تسييح إلا صوت الحمار! و على كلّ حال، فإنّنا إذا تجاوزنا كلّ ذلك، فإنّ كون هذا الصوت قبيحاً من بين الأصوات لا يحتاج إلى بحث، و إذا رأينا في الروايات المرويّة عن الإمام الصادق عليه السّلام، و التي فسّرت هذه الآية بالعطسه بصوت عال، أو الصراخ عند التكلّم و التحدّث، فإنّه في الحقيقة مصداق واضح لذلك (١).

## تعليقات

### اشاره

#### ١- آداب المشى

صحيح أنّ المشى مسأله سهله و بسيطه، إلا أنّ نفس هذه المسأله السهله يمكن أن تعكس أحوال و أوضاع الإنسان الداخليه و الأخلاقيه، و قد تحدّد ملامح شخصيته، لأنّ روحه الإنسان و أخلاقه تنعكس في طيات كلّ أعماله، كما قلنا سابقاً، و قد يكون العمل الصغير حاكياً عن روحه متأصّله أحياناً. و لما كان الإسلام قد اهتمّ بكلّ أبعاد الحياه، فإنّه لم يهمل شيئاً في هذا الباب أيضاً.

ففي حديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله: «من مشى على الأرض اختيالاً لعنته الأرض و من تحتها و من فوقها» (٢).

و

في حديث آخر عن النّبي الأكرم صلّى الله عليه و آله أنّه نهى أن يختال الرجل في مشيه، و قال: «من لبس ثوباً فاختم فيه خسف الله به من شفير جهنّم، و كان قرين قارون

ص: ٤٩

١-١) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

٢-٢) ثواب الأعمال و أمالي الصدوق، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، الجزء ٤، صفحہ ٢٠٧.

لأنه أوّل من اختال!« (١).

و كذلك

ورد عن الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك و تعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم و قسّمه عليها و فرقه فيها- إلى أن قال- و فرض على الرجلين أن لا- تمشى بهما إلى شيء من معاصي الله، و فرض عليهما المشى إلى ما يرضى الله عزّ و جلّ، فقال تعالى: وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا و قال: وَ أَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ (٢).

و قد نقل ذلك عن نبي الإسلام العزيز صلّى الله عليه و آله، و ذلك أنّه

كان قد مرّ من طريق، فرأى مجنوناً قد اجتمع الناس حوله ينظرون إليه، فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟» فقالوا:

على مجنون يصرع، فنظر إليهم النّبي صلّى الله عليه و آله و قال: «ما هذا بمجنون! ألا أخبركم بالمجنون حقّ المجنون؟» قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: «إنّ المجنون: المتبختر في مشيه، الناظر في عطفه، المحرّك جنبيه بمنكبيه، فذلك المجنون و هذا المبتلى» (٣).

## ٢- آداب الحديث

لقد وردت إشاره إلى آداب الحديث في مواضع لقمان، و قد فتح في الإسلام باب واسع لهذه المسألة، و ذكرت فيه آداب كثيرة من جملتها:

- طالما لم تكن هناك ضروره للحديث و التكلّم، فإنّ السكوت خير منه، كما نرى ذلك

في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «السكوت راحه للعقل» (٤).

و

جاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليهما السّلام: «من علامات الفقه:

العلم و الحلم و الصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة» (٥).

و قد ورد التأكيد في روايات اخرى على أنّه لا ينبغي للمؤمن أن يسكت في

ص: ٥٠

١-١ المصدر السابق.

٢-٢ اصول الكافي، الجزء الثاني، صفحہ ٢٨ باب (أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها).

٣-٣ بحار الأنوار، ج ٧٦، صفحہ ٥٧.

٤-٤) الوسائل، الجزء صفحہ ٥٣٢.

٥-٥) المصدر السابق.

المواضع التي يلزم فيها الكلام، وأن الأنبياء بعثوا بالكلام لا بالسكوت، وأن وسيله الوصول إلى الجنه و الخلاص من النار هي الكلام في الموضوع المناسب (١).

### ٣- آداب العشره

لقد اهتمت الروايات الإسلاميه الوارده عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمه أهل البيت عليهم السلام بمسأله التواضع و حسن الخلق و الملاطفه في المعامله، و ترك الخشونه و الجفاء في المعاشره، اهتماما قل نظيره في الموارد الاخرى، و أفضل و أبلغ شاهد في هذا الباب هي الروايات الإسلاميه نفسها، و نذكر منها هنا نماذج:

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: «اللق أخاك بوجه منبسط» (٢).

في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق» (٣).

جاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «البرّ و حسن الخلق يعمران الديار، و يزيدان في الأعمار» (٤).

نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أكثر ما تلج به امتي الجنه تقوى الله و حسن الخلق» (٥).

عن علي عليه السلام في شأن التواضع: «زينه الشريف التواضع» (٦).

و أخيرا نطالع

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «التواضع أصل كلّ خير

ص: ٥١

١-١ المصدر السابق.

٢-٢ بحار الأنوار، الجزء ٧٤، صفحہ ١٧١.

٣-٣) اصول الكافي، الجزء ٢، باب حسن الخلق و ما بعده صفحه ٨١، ٨٢.

٤-٤) المصدر السابق.

٥-٥) المصدر السابق.

٦-٦) بحار الأنوار، الجزء ٧٥، صفحه ١٢٠.

نفس، و مرتبه رفيعه، و لو كان للتواضع لغه يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب.. و من تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده.. و ليس لله عزّ و جلّ عباده يقبلها و يرضاها إلا و بابها التواضع» (١).

ص: ٥٢

---

١-١) بحار الأنوار، الجزء ٧٥، صفحه ١٢١.

اشاره

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

التفسير

بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ و المعاد و طريقه الحياه، و خطط و برامج القرآن الأخلاقيه و الاجتماعيه، و لأجل إكمال البحث، تتجه الآيات إلى بيان نعم الله تعالى لتبعث في الناس حسن الشكر..الشكر الذي يكون منبعاً لمعرفة

اللّٰهُ و طاعه أوامره (١) ، فيوجه الخطاب لكلّ البشر، فيقول: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ .

إنّ لتسخير الموجودات السماويه و الأرضيه للإنسان معنى واسعاً يشمل الأمور التي في قبضته و إختياره، و يستخدمها برغبته و إرادته في طريق تحصيل منافعه ككثير من الموجودات الأرضيه، كما تشمل الأمور التي ليست تحت تصرّفه و إختياره، لكنّها تخدم الإنسان بأمر الله جلّ و علا كالشمس و القمر. و بناء على هذا فإنّ كلّ الموجودات مسخّره بإذن الله لنفع البشر، سواء كانت مسخّره بأمر الإنسان أم لا، و على هذا فإنّ اللام في (لكم) لام المنفعه (٢) .

ثمّ تضيف الآية: وَ أَشْبَعَكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً .

«أشبع» من مادّه (سبع) و هي في الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل، ثمّ اطلق على النعم الكثيره الوفيه أيضاً.

هناك اختلاف بين المفسّرين في المراد من النعم الظاهره و الباطنه في هذه الآية..

فالبعض اعتقد أنّ النعمه الظاهره هي الشىء الذي لا- يمكن لأى أحد إنكاره كالخلق و الحياه و أنواع الأرزاق، و النعم الباطنه إشاره إلى الأمور التي لا يمكن إدراكها من دون دقّه و مطالعه ككثير من القوى الروحيه و الغرائز المهمّه.

و البعض عدّ الأعضاء الظاهره هي النعم الظاهره، و القلب هو النعمه الباطنه.

و البعض الآخر اعتبر حسن الصوره و الوجه و القامه المستقيمه و سلامه الأعضاء النعمه الظاهره، و معرفه الله هي النعمه الباطنه.

ص: ٥٤

١-١) اعتقد بعض المفسّرين كالألوسى في روح المعاني، و الفخر الرازى في التفسير الكبير، بأنّ هذه الآيات مرتبطه بالآيات التي سبقت مواعظ لقمان، حيث تخاطب المشركين: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ و تقول في الآيات مورد البحث: أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ . إلّا أنّ آخر هذه الآية و الآيات التي بعدها، و الروايات الوارده في تفسيرها تتناسب مع عموميه الآية.

٢-٢) كانت لنا بحوث اخرى حول تسخير الموجودات للإنسان في ذيل الآية (٢) من سوره الرعد.



فى حديث عن الرسول الأعمظم صلى الله عليه و آله أنّ ابن عبّاس سأله عن النعمه الظاهره و الباطنه فقال صلى الله عليه و آله: «يا بن عبّاس، أمّا ما ظهر فالإسلام و ما سوى الله من خلقك، و ما أفاض عليك من الرزق، و أمّا ما بطن فستر مساوى عملك و لم يفضحك به» (١).

فى حديث آخر عن الباقر عليه السّلام: «النعمه الظاهره: النبى صلى الله عليه و آله و ما جاء به النبى من معرفه الله، و أمّا النعمه الباطنه ولايتنا أهل البيت و عقد مودّتنا» (٢).

إلاّ أنّه لا- توجد أيّه منافاه بين هذه التفاسير فى الحقيقه، و كلّ منها يبيّن مصداقا بارزا للنعمه الظاهره و النعمه الباطنه دون أن يحدّد معناها الواسع.

و تتحدّث الآيه فى النهايه عمّن يكفر بالنعم الإلهيه الكبيره العظيمه، و التى تحيط الإنسان من كلّ جانب، و يهّب إلى الجدل و محاربه الحقّ، فتقول: «مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ وَ بَدَلُ أَنْ يَعْرِفَ وَ يَقْدِرَ هَبَهُ وَ عَطَاءُ كُلِّ هَذِهِ النعم الظاهره و الباطنه، فإنّه يتّجه إلى الشرك و الجحود نتيجه الجهل.

و لكن ما هو الفرق بين «العلم» و «الهدى» و «الكتاب المنير»؟ لعلّ أفضل ما يمكن أن يقال فى ذلك هو أنّ «العلم»: إشاره إلى الإدراكات التى يدركها الإنسان عن طريق عقله، و «الهدى»: إشاره إلى المعلمين و القاده الربّانيين و السماويين، و العلماء الذين يأخذون بيده فى هذا المسير و يوصلونه إلى الغايه و الهدف، و المراد من «الكتاب المنير»: الكتب السماويه التى تملأ قلب الإنسان نورا عن طريق الوحي.

إنّ هذه الجماعه العنيه فى الحقيقه لا يمتلكون علما، و لا يتّبعون مرشدا و هاديا، و لا يستلهمون من الوحي الإلهى، و لما كانت طرق الهدايه منحصره بهذه

١-١) مجمع البيان، ذيل الآيه مورد البحث.

٢-٢) المصدر السابق.

الأمر الثلاثة فإن هؤلاء لما تركوها سقطوا في هاويه الضلال و الضياع و وادى الشياطين.

و تشير الآيه التاليه إلى المنطق الضعيف السقيم لهذه الفئه،فتقول: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَّيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا و لما لم يكن اتّباع الآباء الجهله المنحرفين جزءا من أئى واحد من الطرق الثلاثه المذكوره أعلاه للهدايه، فإنّ القرآن ذكره بعنوان الطريق الشيطاني، و قال: أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (١).

إنّ القرآن-فى الحقيقه-يزيح هنا الغطاء عن اتّباع سنّه الآباء و الأجداد الزائفه، و يبين الوجه الحقيقى لعمل هؤلاء و الذى هو فى حقيقته اتّباع الشيطان فى مسير جهنّم.

أجل، إنّ قياده الشيطان بذاتها تستوجب أن يخالفها الإنسان و إن كانت مبطنه بالدعوه إلى الحقّ، فمن المسلّم أنّه غطاء و خدعه، و الدعوه إلى النار كافيّه لوحدها أيضا للمخالفه بالرغم من أنّ الداعى مجهول الحال، فإذا كان الداعى الشيطان، و دعوته إلى نار جهنّم المستعره، فالأمر واضح.

هل يوجد عاقل يترك دعوه أنبياء الله إلى الجنّه، و يلهث وراء دعوه الشيطان إلى جهنّم؟! ثمّ تطرقت الآيه التاليه إلى بيان حال مجموعتين: المؤمنین الخلّص، و الكفّار الملوّثين، و تجعلهم مورد اهتمامها فى المقارنه بينهم، فقالت: وَمَنْ يُشِركِ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ .

و المراد من تسليم الوجه إلى الله سبحانه، هو التوجّه الكامل و بكلّ الوجود إلى ذات الله المقدّسه، لأنّ الوجه لما كان أشرف عضو فى البدن، و مركزا لأهمّ

ص: ٥٦

١ - ١) اعتبر المفسّرون (لو) هنا شرطيه كالمعتاد، و جزاؤها محذوف، و التقدير: لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير أ يتبعونه.

الحواسّ الإنسانيه، فإنه يستعمل كناية عن ذاته.

و التعبير ب وَهُوَ مُحْسِنٌ من قبيل ذكر العمل الصالح بعد الإيمان.

و الاستمساك بالعره الوثقى تشبيه لطيف لهذه الحقيقه، و هى أنّ الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر الماديّه و الارتقاء إلى أعلى قمم المعرفه و المعنويات و تسامى الروح، إلى واسطه و وسيله محكمه مستقرّه ثابته، و ليست هذه الوسيله إلاّ الإيمان و العمل الصالح، و كلّ سبيل و متكأ غيرهما متهرئ متخرق هاو و سبب للسقوط و الموت، إضافة إلى أنّ ما يبقى هو هذه الوسيله، و كلّ ما عداها فان، و لذلك فإنّ الآيه تقول فى النهايه: وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .

جاء فى حديث نقل فى تفسير البرهان عن طرق العامه عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام عن النبى الأكرم صلّى الله عليه و آله: «و سيكون بعدى فتنه مظلّمه، الناجى منها من تمسك بالعره الوثقى، فقيل: يا رسول الله، و ما العره الوثقى؟ قال: ولايه سيّد الوصيّين، قيل: يا رسول الله، و من سيّد الوصيّين؟ قال: أمير المؤمنين، قيل:

يا رسول الله و من أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين و إمامهم بعدى، قيل:

يا رسول الله، و من مولى المسلمين و إمامهم بعدك؟ قال: أخى على بن أبى طالب» (١).

و قد رويت روايات اخرى فى هذا الباب تؤيد أنّ المراد من العره الوثقى مودّه أهل البيت عليهم السلام، أو حبّ آل محمّد صلّى الله عليه و آله، أو الأئمّه من ولد الحسين عليهم السلام (٢).

و قد قلنا مرارا: إنّ هذه التفاسير بيان للمصدايق الواضحه، و لا تتنافى مع المصدايق الاخرى كالتوحيد و التقوى و أمثال ذلك.

ثم تطرقت الآيه التاليه إلى بيان حال الفئه الثانيه، فقالت: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ لِأَنَّكَ قَدْ أَذَيْتَ وَاجِبَكَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.

ص: ٥٧

١- ١) تفسير البرهان، الجزء ٣، صفحہ ٢٧٩ ذیل الآيه مورد البحث.

٢- ٢) لمزيد الإيضاح راجع تفسير البرهان، الجزء ٣، صفحہ ٢٧٨ و ٢٧٩.

و مثل هذه التعبيرات التي وردت مرارا في القرآن، تبين أنّ النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ يتألم و يتعذب كثيرا عند ما يرى الجاهلين العنودين يتركون سبيل الله مع تلك الدلائل البينه و العلامات الواضحه، و يسلكون سبيل الغي و الضلال، و كان يغتم إلى درجه أنّ الله تعالى كان يسلى خاطره فى عدّه مرّات، و هذا دأب و حال المرشد و القائد الحريص المخلص.

فلا- تحزن أن تكفر جماعه من الناس، و يظلموا و يجوروا و هم متنعمون بالنعمة الإلهية و لا- يعاقبون، فلا عجله فى الأمر، إذ: إلتنا مَرَجِعُهُمْ فَنَسَبُهُمْ بِمَا عَمِلُوا فَإِنَّا مَطَّلَعُونَ عَلَى أَسْرَارِهِمْ وَ تِيَاتِهِمْ كَأَطْلَاعِنَا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، ف: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

إنّ تعبير: إنّ الله يتبى الناس فى القيامة بأعمالهم، أو أنّه تعالى يتبىهم بما كانوا فيه يختلفون، قد ورد فى آيات كثيرة من القرآن المجيد، و بملاحظه أنّ (نبتكم) من مادّه (نبا) و النبأ- على ما أورده الراغب فى مفرداته- يقال للخبر الذى ينطوى على محتوى و فائده مهمه، و هو صريح و خال من كلّ أشكال الكذب، سيّضح أنّ هذه التعبيرات تشير إلى أنّ الله سبحانه يفضى و يفضح أعمال البشر بحيث لا يبقى لأحد أى اعتراض و إنكار، فهو يظهر ما عمله الناس فى هذه الدنيا و نسوه أو تناسوه، و يهيؤه للحساب و الجزاء، و حتّى ما يخطر فى قلب الإنسان و لم يطلع عليه إلاّ الله تعالى، فإنّه سبحانه سيذكرهم بها.

ثمّ يضيف بأنّ تمتع هؤلاء بالحياه لا ينبغى أن يثير عجبك، لأننا نمتّعهم قليلاً ثمّ نضطرّهم إلى عذابٍ غليظٍ ذلك العذاب الأليم المستمر.

إنّ هذا التعبير لعلّه إشاره إلى أنّ هؤلاء لا يتصوّروا أنّهم خارجون عن قبضه قدره الله سبحانه، بل إنّه يريد أن يمهل هؤلاء لفتنه و إتمام الحجّه و الأهداف الاخرى، و إنّ هذا المتاع القليل من جانبه أيضاً، و كم يختلف حال هؤلاء الذين

يجزّون و يسحبون بذلّه و إكراه إلى العذاب الإلهى الغليظ، و حال أولئك الذين وضعوا كلّ وجودهم فى طريق العبوديه لله سبحانه، و استمسكوا بالعروه الوثقى، فهم يعيشون فى هذه الدنيا طاهرين صالحين، و فى الآخره يتنعمون بجوار رحمة الله.

ص: ٥٩

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَهُ أَثْحَارٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بُعْثُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)

التفسير

اشاره

عشر صفات لله سبحانه:

بينت الآيات الستة أعلاه مجموعه من صفات الله سبحانه، وهي عشر صفات

رئيسيه، أو عشره أسماء من الأسماء الحسنى:

الغنى، الحميد، العزيز، الحكيم، السميع، البصير، الخبير، الحق، العلى، والكبير.

هذا من جهه، و من جهه اخرى فإن الآيه الاولى تتحدّث عن «خالقيه» الله، و الآيه الثانيه عن «مالكيته» المطلقه، و الثالثه عن «علمه» اللامتناهى، و الآيه الرابعه و الخامسه عن «قدته» اللامتناهيه. و الآيه الأخيره تخلص إلى هذه النتيجة، و هى أنّ الذى يمتلك هذه الصفات و يتمتع بها هو الله تعالى، و كلّ ما دونه باطل أجوف حقير.

مع ملاحظه هذا البحث الإجمالى نعود إلى شرح الآيات، فتقول الآيه الاولى:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

هذا التعبير -و الذى يلاحظ فى آيات القرآن الاخرى، كالأيه (٦١-٦٣) من سوره العنكبوت، و الآيه (٣٨) من الزمر، و الآيه (٩) من الزخرف- يدلّ من جهه على أنّ المشركين لم يكونوا منكرين لتوحيد الخالق مطلقا، و لم يكونوا يستطيعون ادعاء كون الأصنام خالقه، إنّما كانوا معتقدين بالشرك فى عباده الأصنام و شفاعتها فقط. و من جهه اخرى يدلّ على كون التوحيد فطرياً و أنّ هذا النور كامن فى طينه و طبيعه كلّ البشر.

ثمّ تقول: إذا كان هؤلاء معترفين بتوحيد الخالق ف قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

ثمّ تتطرّق إلى «مالكيه» الله، لأنّه بعد ثبوت كونه خالقا لا حاجه إلى دليل على كونه مالكا، فتقول: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . و من البديهي أنّ الخالق و المالك يكون مدبرا لأمر العالم أيضا، و بهذا تثبت أركان التوحيد الثلاثة، و هى:

«توحيد الخالقيه» و «توحيد المالكيه» و «توحيد الربوبيه». و الذى يكون على هذا الحال فإنّه غنى عن كلّ شىء، و أهل لكلّ حمد و ثناء، و لذلك تقول الآيه فى النهايه: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

إنه غنى على الإطلاق، وحميد من كل جهه، لأن كل موهبه في هذا العالم تعود إليه، وكل ما يملكه الإنسان فإنه صادر منه و خزائن كل الخيرات بيده، وهذا دليل حي على غناه.

ولما كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذى يصدر عن المرء باختياره، وكل حسن نراه في هذا العالم فهو من الله سبحانه، فإن كل حمد و ثناء منه، فحسبى إذا مدحنا جمال الزهور، و وصفنا جاذبيه العشق الملكوتى، وقد رنا إشار الشخص الكريم، فإننا فى الحقيقه نحمده، لأن هذا الجمال و الجاذبيه و الكرم منه أيضا.. إذن فهو حميد على الإطلاق.

ثم تجسد الآيه التاليه علم الله اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جدًا، وقبل ذلك نرى لزوم ذكر هذه المسأله، وهى طبقا لما جاء فى تفسير على بن إبراهيم:

إن قوما من اليهود عند ما سألو النبي صلى الله عليه و آله حول مسأله الروح، و أجابهم القرآن بأن قل الروح من أمر ربى و ما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً صعب هذا الكلام عليهم، و سألو النبي صلى الله عليه و آله: هل أن هذا فى حقنا فقط؟ فأجابهم النبي صلى الله عليه و آله:

«بل الناس عامه»، قالوا: فكيف يجتمع هذا يا محمّد؟! أترعم أنك لم تؤت من العلم إلا قليلاً، و قد أُوتيت القرآن و أُوتينا التوراه، و قد قرأت: و من يؤت الحكمة - وهى التوراه - فقد أُوتى خيراً كثيراً هنا نزلت الآيه و لو أن م في الأرض من شجره أقلام... - الآيه مورد البحث - و أوضحت أن علم الإنسان مهما كان واسعاً فإنه فى مقابل علم الله عزّ و جلّ ليس إلا ذره تافهه، و الذى يعدّ كثيراً فى نظر كم، هو قليل جدًا عند الله (1).

و قد بيّنا نظير هذه الروايه عن طريق آخر فى ذيل الآيه (١٠٩) من سوره الكهف.

ص: ٦٢



و على كل حال، فإن القرآن الكريم و لأجل تجسيد علم الله اللامتناهى يقول:

وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

«يمدّه» من مادّه (المداد) و هى بمعنى الحبر أو المادّه الملوّنه التى يكتبون بها، و هى فى الأصل من (مدّ) بمعنى الخطّ، لأنّ الخطوط تظهر على صفحہ الورق بواسطة جزّ القلم.

و نقل بعض المفسّرين معنى آخر لها، و هو الزيت الذى يوضع فى السراج و يسبّب إناره السراج. و كلا المعنيين فى الواقع يرجعان إلى أصل واحد.

«الكلمات» جمع «كلمه»، و هى فى الأصل الألفاظ التى يتحدّث و يتكلّم بها الإنسان، ثمّ أطلقت على معنى أوسع، و هو كلّ شىء يمكنه أن يبيّن المراد و المطلوب، و لما كانت مخلوقات هذا العالم المختلفه يبيّن كلّ منها ذات الله المقدّسه و عظمته، فقد أطلق على كلّ موجود (كلمه الله)، و استعمل هذا التعبير خاصّه فى الموحودات الأشرف و الأعظم، كما نقرأ فى شأن المسيح فى الآيه (١٧١) من سوره النساء: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ تَمَّ اسْتَعْمَلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ بِمَعْنَى عِلْمِ اللَّهِ لِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ.**

و الآن يجب أن نفكر بدقّه و بشكل صحيح بأنّه قد يكفى أحيانا قلم واحد مع مقدار من الحبر لكتابه كلّ المعلومات التى تتعلّق بإنسان ما، بل قد يكون من الممكن أن يسجّل أفراد آخرون مجموعه معلوماتهم على الأوراق بنفس ذلك القلم، إلا أنّ القرآن يقول: لو أنّ كلّ الأشجار الموجوده على سطح الأرض تصبح أقلاما—نحن نعلم أنّه قد تصنع من شجره ضخمه، من ساقها و أغصانها، آلاف، بل ملايين الأقلام، و مع الأخذ بنظر الإعتبار المقدار العظيم للأشجار الموجوده فى الأرض، و الغابات التى تغطّى الكثير من الجبال و السهول، و عدد الأقلام الذى سينتج منها..

و كذلك لو كانت كل البحار و المحيطات الموجوده، و التي تشكل ثلاثه ارباع الكره الأرضيه تقريبا، بذلك العمق الساحق، تصيح حيرا، عند ذلك يتضح عظمه ما سيكتب، و كم من العلوم يمكن كتابتها بهذا المقدار من الأقلام و الحبر! سيما مع ملاحظه مضاعفه ذلك بإضافه سبعة أبحر اخرى، و كل واحد منها يعادل كل محيطات الأرض، و بالأخص إذا علمنا أن عدد السبعه هنا لا- يعنى العدد، بل للكثرة و الإشاره إلى البحار التي لا عدد لها، فعند ذلك ستتضح سعه علم الله عز و جل و ترمى أطرافه، و مع ذلك فإن كل هذه الأقلام و المحابر تنتهى و لكن علومه سبحانه لا تعرف النهايه.

هل يوجد تجسيد و تصوير للنهايه أروع و أبلغ و أجمل من هذا التجسيد؟ إن هذا العدد حى و ناطق إلى الحد الذى يصطحب معه أمواج فكر الإنسان إلى الآفاق اللامحدوده، و يغرقها فى الحيره و الهيبه و الجلال.

إن الإنسان يشعر مع هذا البيان البليغ الواضح أن معلوماته مقابل علم الله كالصفر مقابل اللانهايه، و يليق به أن يقول فقط: إن علمى قد أوصلنى إلى أن أطلع على جهلى، فحتى التشبيه بالفطره من البحر لتبيان هذه الحقيقه لا يبدو صحيحا.

و من جمله المسائل اللطيفه التي تلاحظ فى الآيه: أن الشجره قد وردت بصيغه المفرد، و الأقلام قد وردت بصيغه الجمع، و هذا تبيان لعدد الأقلام الكثيره التي تنتج من شجره واحده بساقها و أغصانها.

و كذلك التعبير ب(البحر) بصيغه المفرد مع (الف و لام) الجنس ليشمل كل البحار و المحيطات على وجه الأرض، خاصه و أن كل بحار العالم و محيطاته متصلة ببعضها، و هى فى الواقع بحكم بحر واسع.

و الطريف فى الأمر أنه لا يتحدث فى مورد الأقلام عن أقلام إضافيه و مساعده، أما فيما يتعلق بالبحار فإنه يتحدث عن سبعة أبحر اخرى، لأن القلم يستهلك قليلا أثناء الكتابه، و الذى يستهلك أكثر هو الحبر.

انتخاب كلمه (سبع) للكثرة فى لغة العرب، ربّما كان بسبب أنّ السابقين كانوا يعتقدون أنّ عدد كواكب المنظومه الشمسيه سبعة كواكب-و فى أنّ ما يرى اليوم بالعين المجزّده من المنظومه الشمسيه سبعة كواكب لا- أكثر-و مع ملاحظه أنّ الأسبوع دوره زمانيه كامله تتكوّن من سبعة أيّام لا أكثر،و أنّهم كانوا يقسّمون كلّ الكره الأرضيه إلى سبع مناطق،و كانوا قد وضعوا لها اسم الأقاليم السبعه،سيّضح لماذا انتخب عدد السبعه كعدد كامل من بين الأعداد،و استعمل لبيان الكثره (1).

بعد ذكر علم الله اللامحدود،تحدّث الآيه الاخرى عن قدرته اللامتناهيه، فتقول: **مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْسًا وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .**

قال بعض المفسّرين: أنّ جمعا من كفّار قريش كانوا يقولون من باب التعجّب و الاستبعاد لمسأله المعاد: إنّ الله قد خلقنا بأشكال مختلفه،و على مدى مراحل مختلفه،فكنا يوما نطفه،و بعدها صرنا علقه،و بعدها صرنا مضغه،ثمّ أصبحنا تدريجيّا على هيئات و صور مختلفه،فكيف يخلقنا الله جميعا خلقا جديدا فى ساعه واحده؟! فنزلت الآيه مورد البحث فأجابتهم.

إنّ هؤلاء كانوا غافلين فى الحقيقه عن مسأله مهمّه،و هى أنّ هذه المفاهيم كالصعوبه و السهوله،و الصغير و الكبير يمكن تصوّرها من قبل موجودات لها قدره محدوده كقدرتنا،إلا أنّها أمام قدره الله اللامتناهيه تكون متساويه،فلا يختلف خلق إنسان واحد عن خلق جميع البشر مطلقا،و خلق موجود ما فى لحظه واحده أو على مدى سنين طوال بالنسبه إلى قدرته المطلقه.

و إذا كان تعجّب كفّار قريش من أنّه كيف يمكن فصل الأجساد عن بعضها و إرجاع كلّ منها إلى محلّه بعد أن كانت الطبائع مختلفه،و الإشكال متغايره، و الشخصيات متنوّعه،و ذلك بعد أن تحوّل بدن الإنسان إلى تراب و تطايرت

ص: ٦٥

١-١) تحدّثنا حول (علم الله المطلق)فى ذيل الآيه (١٠٩)من سوره الكهف.

ذرات ذلك التراب؟! فإن علم الله اللامتناهى، وقدرته اللامحدوده تجيبهم عن سؤالهم، فإنه قد جعل بين الموجودات روابط و علاقات بحيث أن الواحد منها كالمجموعه، و المجموعه كالواحد.

و أساسا فإن انسجام و ترابط هذا العالم بشكل ترجع كل كثره فيه إلى الواحده، و خلقه مجموع البشر تتبع خلقه إنسان واحد.

و إذا كان تعجب هؤلاء من قصر الزمان، لأنه كيف يمكن أن تطوى المراحل التي يطويها الإنسان خلال سنين طوال من كونه نطفه إلى مرحله الشباب، فى لحظات قصيره؟! فإن قدره الله تجيب على هذا التساؤل أيضا، فإننا نرى فى عالم الأحياء أن أطفال الإنسان يحتاجون لمدّه طويله ليتعلّموا المشى بصوره جيده، أو يصبخوا قادرين على الاستفاده من كل أنواع الأغذيه، فى حين أننا نرى الفراخ بمجرد أن تخرج من البيضه تنهض و تسير، و تأكل دونما حاجه حتّى للام، و هذه الظاهره تبيّن أن هذه الأمور لا تعنى شيئا أمام قدره الله عزّ و جلّ.

إن ذكر كون الله «سميعا و بصيرا» فى نهايه الآيه قد يكون جوابا عن إشكال آخر من جانب المشركين، و هو على فرض أن جميع البشر على اختلاف خلقتهم، و بكلّ خصوصياتهم يبعثون و يحيون فى ساعه واحده، لكن كيف ستخضع أعمالهم و كلامهم للحساب، فإن الأعمال و الأقوال امور تفنى بعد الوجود؟! فيجيب القرآن بأنّ الله سميع و بصير، قد سمع كلّ كلامهم، و رأى كلّ أعمالهم، علاوه على أن الفناء المطلق لا معنى و لا وجود له فى هذا العالم، بل إنّ أعمالهم و أقوالهم موجوده دائما.

و إذا تجاوزنا ذلك فإنّ الجملة أعلاه تهديد لهؤلاء المعاندين، بأنّ الله سبحانه مطلع على أقوالكم و مؤامراتكم، بل و حتّى على ما فى قلوبكم و ضمائركم.

الآيه التاليه تأكيد و بيان آخر لقدرة الله الواسعه، و قد وجهت الخطاب إلى النّبي صلّى الله عليه و آله فقالت: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ

لخدمه الناس و تأمين احتياجاتهم كُلُّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

«الولوج» فى الأصل بمعنى «الدخول»، و دخول الليل فى النهار و النهار فى الليل قد يكون إشاره إلى طول و قصر الليل و النهار التدريجى على مدار السنه، حيث ينقص شىء من أحدهما تدريجياً، و يضاف على الآخر بصوره غير محسوسه، لتتكوّن الفصول الأربعة للسنه بخصائصها و آثارها المباركه. (و ليست هناك إلاّ نقطتان على سطح الأرض لا يوجد فيهما هذا التغيير التدريجى و الفصول الأربعة: إحداهما: النقطه الحقيقيه للقطب الشمالى و الجنوبى حيث يكون الليل هناك سنّه أشهر، و النهار سنّه أشهر طوال السنه، و الاخرى خطّ الإستواء الدقيق حيث يتساوى ليله و نهاره كلّ السنه).

أو إشاره إلى أنّ تبادل الليل بالنهار و النهار بالليل لوجود الغلاف الجوى لا يحدث بصوره مفاجئه فيتعرّض الإنسان و كلّ الموجودات الحيّه للأخطار المختلفه حينئذ، بل إنّ أشعه الشمس تتوغّل من حيث طلوع الفجر فى أعماق الظلام أولاً، ثمّ يتسع و يزداد ضوء النهار حتّى يعمّ كلّ أرجاء السماء، و على العكس تماما ممّا يحدث عند انتهاء النهار و دخول الليل.

و هذا الانتقال التدريجى و المنظّم بدقه متناهيه من مظاهر قدره الله تعالى.

و من الطبيعى أنّ هذين التفسيرين لا يتنافيان، و يمكن أن يجتمعا فى معنى الآيه و تفسيرها.

أمّا فى مورد تسخير الشمس و القمر و سائر الكواكب السماويه للبشر، فإنّ المراد -و كما قلنا سابقا أيضا- تسخيرها فى سبيل خدمه الإنسان، و بتعبير آخر فإنّ اللام فى سَخَّرَ لَكُمْ لَام النفع لا الإختصاص، و قد ورد هذا التعبير فى القرآن المجيد فى شأن الشمس و القمر، و الليل و النهار، و الأنهار و البحار و السفن، و كلّ هذه مبيّنه لعظمه شخصيّه الإنسان، و سعه نعم الله عليه حيث أنّ كلّ الموجودات

الأرضيه و السماويه مسخره و مطيعه له بأمر الله تعالى، و مع كل هذا التسخير فليس من الإنصاف أن يعصى الله سبحانه و لا يطع أوامره (١).

و جمله كل يجرى إلى أجل مسمى إشارة إلى أن هذا النظام الدقيق لا يستمر إلى الأبد، بل إن له نهاية بانتهاء الدنيا، و هو ما ذكر في سورة التكويد: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ...

إن ارتباط جمله أن الله بما تعملون خبير بهذا البحث سيتضح بملاحظه ما قلناه آنفا، لأن الله الذى جعل الشمس و القمر العظيمين خاضعين لنظام دقيق، و عاقب بين الليل و النهار بذلك النظام الخاص آلاف و ملايين السنين، كيف يمكن أن تخفى عليه أعمال البشر؟ نعم.. إنه يعلم الأعمال، و كذلك يعلم التيات و الأفكار.

و تقول الآيه الأخيره، كاستخلاص نتيجه جامعہ كليہ ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه الباطل و أن الله هو العلي الكبير (٢).

إن مجموع البحوث التى وردت فى الآيات السابقه حول كون الله خالقاً و مالكا، و عن علمه و قدرته اللامتناهيين، أثبتت هذه الأمور، و أن الحق هو الله وحده، و كل شىء غيره زائل و باطل و محدود و محتاج، و العلى و الكبير الذى يسمو على كل شىء، و يجل عن كل وصف، هو ذاته المقدسه، و على قول الشاعر:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

و كل نعيم لا محاله زائل

و يمكن إيضاح هذا الكلام بالتعبير الفلسفى كما يلى:

ص: ٦٨

١- ١) كان لنا بحث مفصّل حول تسخير الشمس و القمر و الموجودات الاخرى للإنسان فى ذيل الآيه (٢) من سورة الرعد، و الآيه (٣٢) من سورة إبراهيم.

٢- ٢) «الباء» فى (بأن الله هو الحق) بالرغم من أنها تبدو فى بادئ الأمر سببيه، و ربّما اعتبر بعض المفسرين كالألوسى فى روح المعانى مضمون هذه الآيه سببا للمطالب السابقه، إلا أن سياق الآيات و ذكر الصفات السابقه- أى الخالقيه و المالكيه و العلم و القدره و علاماتها فى عالم الخلقه- ظاهر فى أنها جميعا كانت شاهده على هذه النتيجه، و بناء على هذا، فإن محتوى هذه الآيه نتيجه للآيات السابقه لا سببا لها.

إنَّ الحقَّ إشاره إلى الوجود الحقيقي الثابت، و في هذا العالم فإنَّ الوجود الحقيقي القائم بذاته و الثابت المستقرَّ الخالد هو الله فقط، و كلَّ ما عداه لا- وجود له بذاته و هو عين البطلان، حيث إنه يستمدَّ وجوده عن طريق الارتباط بذلك الوجود الحقَّ الدائم، فإذا انقطع الفيض عنه لحظه فإنَّه سيفنى و يمحي في ظلمات الفناء و العدم، و بهذا فإنَّه كلَّما قوى ارتباط الموجودات الاخرى بوجود الله تعالى فإنَّها تكتسب بتلك النسبه حقًا أكبر.

و على كلِّ حال، و كما قلنا سابقا، فإنَّ هذه الآيات مجموعها من عشر صفات من صفات الله تعالى، و عشره أسماء من أسمائه، و تشمل على أدلّه قويّه- لا يمكن إنكارها- و على بطلان كلِّ أنواع الشرك، و لزوم التوحيد في كلِّ مراحل العبوديه.

اشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

التفسير

اشاره

في دوامه البلاء!

يدور البحث و الحديث في هاتين الآيتين أيضا عن نعم الله سبحانه، و أدله التوحيد في الآفاق و الأنفس، فالحديث في الآيه الاولى عن دليل النظام، و في الآيه الثانيه عن التوحيد الفطري، و هما في المجموع تكملان البحوث التي وردت في الآيات السابقه.

تقول الآيه الاولى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ (١) لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

ص: ٧٠

١- ١) «الباء» في (بنعمه الله) يمكن أن تكون باء السببيه، أو باء المصاحبه، إلا أن الاحتمال الأول هو الأنسب.



لا شك أنّ حركة السفن على سطح المحيطات تتمّ بمجموعه من قوانين الخلقه:

-فحركة الرياح المنتظمه من جهه.

-و الوزن الخاصّ للخشب أو المواد التي تصنع منها تلك السفينه من جانب آخر.

-و مستوى كثافه الماء من جانب ثالث.

-و مقدار ضغط الماء على الأجسام التي تسبح فيه من جهه رابعه.

و حينما يحدث اختلال في واحد من هذه الأمور فإنّ السفينه إمّا أن تغرق و تنزل إلى قعر البحر، أو تنقلب، أو تبقى حائره لا تهتدى إلى سبيل نجاتها في وسط البحر.

غير أنّ الله جلّ و علا الذي أراد أن يجعل البحار الواسعه أفضل السبل و أهمّها لسفر البشر، و نقل المواد التي يحتاجونها من نقطه إلى اخرى، قد هيأ و يسّر هذه الشروط و الظروف، و كلّ منها نعمه من نعمه تعالى.

إنّ عظمه قدره الله سبحانه في ميدان المحيطات، و صغر الإنسان مقابلها، تبلغ حدّا بحيث إنّ كلّ البشر في العالم القديم-الذي كانت السفن تعتمد على الرياح في حركتها- لو اجتمعوا ليحرّكوا سفينه وسط البحر عكس اتّجاه ريح عاصف قويّه لما استطاعوا.

و اليوم أيضا، حيث حلّت المولّدات و المكائن العظيمه محلّ الهواء، فإنّ هبوب العواصف قد يبلغ من الشدّه أحيانا بحيث يحرك و يهزّ أعظم السفن، و قد يحطّمها أحيانا.

و التأكيد الذي ورد في نهايه الآيه على أوصاف (صبار) و (شكور) إمّا أن يكون من باب أنّ الحياه الدنيا مجموعه من البلاء و النعمه، و كلاهما طريق و محلّ للاختبار، حيث إنّ الصمود و التحمّل أمام الحوادث الصعبه، و الشكر على النعم يشكّلان مجمل ما يجب على الإنسان، و لذا نقل كثير من المفسّرين

عن الرّسول

ص: ٧١

الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، و نصف شكر» (١).

أو أن يكون إشاره إلى لزوم وجود هدف لأجل إدراك آيات الله العظيمة في ميدان الخلقه، و هذا الهدف هو شكر المنعم المقترن بالصبر و التحمل من أجل دقه و تفحص أكبر.

و بعد بيان نعمه حركه السفن في البحار، و التي كانت و لا تزال أكبر و أنفع وسائل حمل و نقل البضائع و البشر، أشارت هذه الآية إلى صورته اخرى لهذه المسأله، فقالت: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

«الظلل» جمع ظلّه، و قد ذكر المفسرون لها عدّه معان:

- فيقول الراغب في مفرداته: الظلّه سحابه تظلّ، و أكثر ما تقال لما يستوخم و يكره.

- و البعض اعتبرها بمعنى المظله الكبيره، من مادّه الظلّ.

- و البعض اعتبرها بمعنى الجبل.

و بالرغم من أنّ هذه المعانى -من حيث تعلّقها بالآيه مورد البحث- لا تختلف كثيرا عن بعضها، إلاّ أنّه بملاحظه أنّ هذه الكلمه قد وردت مرارا في القرآن بمعنى السحاب الذى يظلّ، و بملاحظه أنّ تعبير (غشيهم) يناسب معنى السحاب أكثر، فيبدو أنّ هذا التفسير هو الأقرب.

أى إنّ أمواج البحر العظيمة تهيج فتحيط بهم كأنّ سحابا قد أظلمهم بظلّ مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفا و عاجزا رغم كلّ تلك القوى و الإمكانيات الظاهرية التى أعدّها لنفسه، و يجد يده قاصره عن كلّ شيء و مكان، و تقف كلّ الوسائل العاديه و الماديّه عن العمل، و لا يبقى له أى بصيص أمل إلاّ النور الذى

ص: ٧٢

١-١) تفسير مجمع البيان، و القرطبي، و الفخر الرازى، و الصافى.

يشع من أعماق روحه و فطرته، فيزيح عن قلبه حجب الغفلة، و يقول له: هل يوجد أحد يستطيع إنقاذك؟ نعم، إنه الذى تطيع أوامره أمواج البحر.. أنه خالق الماء و الهواء و التراب.

هنا يحيط التوحيد الخالص بكل قلبه و يغمره، و يعتقد بأن الدين و العبادة مختصه به سبحانه.

ثم تضيف الآية إن الله سبحانه لما نجاهم من الهلكة انقسم الناس قسمين: **فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ (١)**. و هؤلاء وفوا بعهدهم و لم ينقضوه، و لم ينسوا منه الله عليهم فى تلك اللحظات الحساسة.

أما القسم الثانى فإنهم نسوا كل ذلك، و استولى جيش الشرك و الكفر على معسكر قلوبهم.

و اعتبر بعض المفسرين الآية أعلاه إشاره إلى إسلام «عكرمه بن أبى جهل»، إذ أن النبى صلى الله عليه و آله عفا عن جميع الناس عند فتح مکه غير أربعة نفر أحدهم عكرمه بن أبى جهل، إذ أهدر دمهم، و أمر بقتلهم حيثما وجدوا، لأنهم لم يتركوا أى سيئه أو جريمه ضد الإسلام و المسلمين إلا- عملوها، و لذلك اضطرت عكرمه إلى الفرار من مکه، فتوجه إلى البحر الأحمر و ركب السفينه، فأخذت بأطرافه ريح عاصف، فقال بعض أهل السفينه لبعضهم الآخر: تعالوا نترك الأصنام و نتضرع إلى الله وحده و نسأله لطفه، فإن آلهتنا هذه لا- تنفع شيئاً! فقال عكرمه: إذا لم ينفذنا غير توحيدنا فى البحر، فلن ينفذنا فى البر سواه أيضاً، اللهم إن أعطيك عهداً- إذا نجيتنى من هذه المحنة- لآتين محمداً صلى الله عليه و آله و أبايه، فإننى أعلم أنه كريم عفو.

و أخيراً نجا، و أتى إلى النبى صلى الله عليه و آله (٢).

ص: ٧٣

١- (١) «مقتصد» من مادّه قصد، بمعنى الاعتدال فى العمل، و الوفاء بالعهد.

٢- (٢) مجمع البيان، ذيل الآيه مورد البحث، و وردت هذه الحادّثه فى (اسد الغابه فى معرفه الصحابه) ج ٤، صفحہ ٥ بتفاوت

وقد ورد في التواريخ الإسلاميه أنّ عكرمه قد أصبح في صفّ المسلمين الحقيقيين، و استشهد في معركة اليوموك أو أجنادين.

و تضيف الآيه في النهايه وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

(خَتَّار) من الختر، بمعنى نقض العهد، وهذه الكلمه صيغه مبالغه، لأنّ المشركين و العاصين يتوجهون إلى الله مرارا، و يقطعون على أنفسهم العهود، و يندرون الندور، إلاّ أنّهم بمجرد أن يهدأ طوفان الحوادث ينقضون عهودهم بصوره متلاحقه، و يكفرون بنعم الله عليهم.

إنّ تعبير «خَتَّار» و «كفور» الذي ورد في نهايه هذه الآيه، هو في الحقيقه مقابل تعبير «صَبَّار» و «شكور» الذي ورد في نهايه الآيه السابقه- فالكفران في مقابل الشكر، و نقض العهد في مقابل الصبر و الثبات على العهد- لأنّ الوفاء بالعهد لا يتم إلاّ من قبل الثابتين الصامدين.. أولئك الذين إذا توهّج الإيمان الفطري في أعماق أرواحهم فلا- يدعون هذا النور الإلهي ينطفئ مرّه اخرى و تتكاثف عليه الحجب.

(٢)

يسير.

ص: ٧٤

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ  
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا ذَا  
تَكْسَبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

التفسير

اشاره

سعه علم الله:

في هاتين الآيتين اللتين هما آخر آيات سورة لقمان، تلخيص للمواعظ والنصائح السابقة ولأدلة التوحيد والمعاد، وتوجيه الناس إلى الله واليوم الآخر وتحذير من الغرور الناشئ من الدنيا والسيطان، ثم الحديث عن سعه علم الله سبحانه وشموله لكل شيء، فتقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا.

إنَّ الدستور الأوَّل هو التوجُّه إلى المعاد، فالدستور الأوَّل يحيى فى الإنسان قوَّة المراقبه، و الثَّانى ينمى روح الثواب و العقاب، و لا شكَّ أنَّ الإنسان الذى يعلم أنَّ شخصا خيرا و مَطَّلعا على كلِّ أعماله يراه و يعلم به و يسجِّل كلَّ أعماله، و من ناحيه اخرى يعلم أنَّ محكمه عادله ستتسكَّل للتحقيق فى كلِّ جزئيات أعماله، لا يمكن أن يتلوَّث بأدنى فساد و معصيه.

جمله لا يَجْزى من مادّه الجزاء، و «الجزاء» و «الجزاء» ورد بمعنيين من الناحيه اللغويه:

أحدهما: المكافأه و المعاقبه مقابل شىء، كما يقال: جزّاه الله خيرا.

و الآخر: الكفايه و النيايه و التحمّل للشىء عن الآخرين، كما جاء فى الآيه مورد البحث: لا يَجْزى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ .

و من الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصل واحد، لأنَّ الثواب و العقاب يحلّان محلَّ العمل و ينوبان عنه، و هما بمقداره أيضا- تأملوا ذلك-.

على كلِّ حال، فإنَّ كلَّ إنسان فى ذلك اليوم مشغول بنفسه، و مبتلى بمعطيات أعماله و آثارها إلى درجه أنه لا ينظر إلى أحد و لا يهتم به، حتّى و إن كان أبوه، أو ابنه الذى كانت تربطه به أقرب الروابط، فلا يفكّر أحد بآخر مطلقا.

و هذه الآيه نظير ما ورد فى بدايه سوره الحجّ فى الحديث حول القيامه و الزلزله: يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .

و ممّا يستحقّ الانتباه أنه يعتبر ب لا يَجْزى فى مورد الأب، و هى صيغه المضارع، أمّا فى شأن الابن فإنه يعبر باسم الفاعل (جاز) و هذا التفاوت فى التعبير لعلّه من باب التنوّع فى الكلام، أو إشاره إلى واجب و مسئوليّه الابن تجاه الأب، لأنَّ اسم الفاعل يؤدّى معنى الدوام و التكرار أكثر.

و بتعبير آخر، فإنَّ المتوقّع من العواطف الأبويه أن يتحمّل الأب مقدارا من العذاب عن ابنه، كما كان فى الدنيا يتحمّل المصاعب و المشاكل فى سبيله، لكن من

الابن أن يتحمّل مصائب الأب أكثر وفاء لحقوق الأبوه المترتبه عليه، في حين أن أيا منهما لا يتحمّل أدنى مشكله عن الآخر، و كل منهما مشغول بأعماله، و حائر في أمره و نفسه.

و تحذّر الآيه في النهايه البشر من شيئين، فتقول: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ أَي الشيطان.

في الواقع، يلاحظ هنا نهيان في مقابل الأمرين اللذين كانا في بدايه الآيه، فإنّ الإنسان إذا نمت فيه مسأله التوجه إلى الله، و الخوف من الحساب و الجزاء، فلا يخاف عليه من الانحراف و الفساد، إلا من طريقين:

أحدهما: أن تغلب زخارف الدنيا و زبرجها الحقائق في عينيه بصور اخرى، و تسلب منه القدره على التشخيص، لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ الخطايا و أساسها.

و الآخر: أن تخدعه و ساوس الشيطان و تغزه، و تبعده عن المبدأ و المعاد.

فإذا أغلق طريقي نفوذ المعصيه و الذنب هذين، فسوف لا يهدده أي خطر، و على هذا فإنّ الدساتير و البنود الأربعة أعلاه تمثّل مجموعه كامله من برنامج نجاه و خلاص الإنسان.

و في آخر آيه من هذه السوره، و بمناسبة البحث الذي جاء في الآيه السابقه حول يوم القيامة، يدور الكلام عن العلوم المختصه بالله سبحانه، فتقول: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَمَطَّلِعَ عَلَى جَمِيعِ جَزَائِهِ وَ تَفَاصِيلِهِ...

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

فكأنّ مجموع هذه الآيه جواب عن سؤال يطرح في باب القيامة، و هو نفس السؤال الذي سأل المشركون به النبي صلّى الله عليه و آله مرارا و تكرارا، و قالوا: متى هو؟ (1)، فيجيبهم القرآن عن سؤالهم، و يقول: لا يعلم أحد بموعد قيام القيامة إلا الله

ص: ٧٧

سبحانه، و طبقا لصريح آيات اخرى، فَإِنَّ اللَّهَ أَخْفَى هَذَا الْعِلْمَ عَنِ الْجَمِيعِ: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا (١)، و ذلك كى لا يحيط الغرور و الغفله بأطراف البشر.

ثمّ تقول الآيه: إِنَّ مَسْأَلَةَ الْقِيَامَةِ لَيْسَتْ هِيَ الْمَسْأَلَةُ الْوَحِيدَةُ الْخَافِيَةُ عَلَيْكُمْ، ففى حياتكم اليوميه، و من بين أقرب المسائل المرتبطه بحياتكم و مماتكم، مسائل كثيره تجهلونها..

أنتم لا تعلمون زمان نزول قطرات المطر، و التى ترتبط بها حياه كل الكائنات الحيه، و إنّما تتوقّعونها على أساس الحدس و الظنّ و التخمين.

و كذلك زمان تكوّنكم فى بطون الامّهات و خصائص الجنين فلا علم لأحد منكم بذلك.

و مستقبلكم القريب، أى حوادث الغد، و كذلك مكان موتكم و توديعكم للحياه، خاف على الجميع.

فإذا كنتم جاهلين بهذه المسائل القريبه من حياتكم و المتّصله بها، فلا مجال للعجب من عدم علمكم بلحظه قيام القيامه (٢).

و نقل فى الدرّ المنثور: أنّ رجلا- يقال له «الوراث»، من بنى «مازن بن حفصه»، جاء إلى النّبي صلّى الله عليه و آله، فقال: يا محمّد، متى تقوم الساعه؟ و قد أجذبت بلادنا فمتى تخصب؟ و قد تركت امرأتى حبلى فمتى تلد؟ و قد علمت ما كسبت اليوم فما ذا أكسب غدا؟ و قد علمت بأى أرض ولدت فأبى أرض أموت؟ فنزلت هذه الآيه (٣).

ص: ٧٨

١-١) سورة طه، ١٥.

٢-٢) صحيح أنّ جملة (ينزل الغيث) فى الآيات أعلاه لا تتحدّث عن مسأله علم الله- و لهذا السبب فإنّ البعض اعتبر هذه الجملة استثناء من بين هذه الجمل، و جعلها مبيّنه لقدره الله لا- علمه، إلّا- أنّ انسجام الجمل الخمس مع بعضها من جهه، و الروايات المتعدّده التى وردت فى نهج البلاغه و كتب اخرى- و سنشير إليها قريبا- من جهه اخرى، قرينه على أنّها ترتبط بعلم الله أيضا.

٣-٣) تفسير الدرّ المنثور، طبقا لنقل تفسير الميزان، الجزء، ١٦، صفحه ٢٤١.



## ١- أنواع الغرور و الخدع!

إنّ الآيات أعلاه تحذّر من الانخداع و الاغترار بزخارف الحياه الدنيا و بهارجها، ثمّ تتحدّث عن خدع الشيطان و مكائده، و تعلن عن خطورته، لأنّ الناس عدّه أقسام:

فبعضهم ضعيف و عاجز إلى الحدّ الذى يكفى لخداعه و التغيرير به مجرد رؤيه زخارف الدنيا.

أمّا القسم الذى يمتلك مقاومه أكثر، فلا بدّ أن تزداد الوسوس الشيطانيه لازدياد مقاومتهم، و يتحد لإضلالهم و خداعهم الشيطان الداخلى و الخارجى.

و تعبيرات الآيه أعلاه تحذير لأفراد كلا الفئتين.

و ممّا يجدر ذكره أنّ (الغرور) على وزن «جسور» يعنى كلّ موجود خدّاع، و إنّما فسّروها بالشيطان لأنّه مصداقها الواضح فى الحقيقه، و إلّا- فإنّ كلّ إنسان خدّاع، و كلّ كتاب مضلّ، و أىّ مقام و منصب يوسوس، و كلّ موجود يخدع الإنسان و يضلّه فإنّه يدخل فى المفهوم الواسع لهذه الكلمه، اللهمّ إلّا أن نعطى للشيطان من سعه المعنى بحيث يشمل كلّ المعانى المتقدّمه، و لهذا فإنّ الراغب فى مفرداته يقول: فالغرور كلّ ما يغرّ الإنسان من مال و جاه و شهوه و شيطان، و قد فسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين.

و قد فسّرها البعض بالدنيا لخداعها و غرورها، كما نقرأ فى نهج البلاغه: «تغرّ و تضرّ و تمرّ» (١).

## ٢- خداع الدنيا

لا شكّ أنّ كثيرا من مظاهر الحياه الدنيا غارّه و مضلّه، و قد تشغل الإنسان بها

ص: ٧٩

أحيانا حتى يغفل عن كل شيء، ولا يشتغل إلا بها، ولذلك نقرأ

في بعض الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله بعضهم: أي الناس أثبت رأيا؟ قال: «من لم يغره الناس من نفسه، ولم تغره الدنيا بتشويقها» (١).

ولكن، ومع هذه الحال، فإن في طيات مشاهد هذه الدنيا الخداعه المختلفه، مشاهد و حوادث ناطقه معبره عن زوال هذا العالم، و كون زخارفه و زباجه جوفاء خاليه بأبلغ تعبير و أوضحه، تلك الحوادث تستطيع أن توقف كل إنسان عاقل، بل و تجعل الأغبياء عاقلين حكماء.

ففي حديث: أن أمير المؤمنين عليا عليه السلام سمع رجلا يذم الدنيا و كان يعدّها خداعه، فقال عليه السلام: «أيها الدائم للدنيا المغترّ بغورها، المخدوع بأباطيلها، أ تفتّر بالدنيا ثم تدمّها؟ أنت المتجرّم عليها، أم هي المتجرّمه عليك؟ متى استهوتك؟ أم متى غرتك؟ أم بمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع امهاتك تحت الثرى...؟! إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عافيه لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزود منها، و دار موعظه لمن اتّعظ بها، مسجد أحياء الله، و مصلى ملائكه الله، و مهبط وحى الله، و متجر أولياء الله...» (٢).

### ٣- هذه العلوم الخمسه مختصه بالله

إنّ أسلوب الآيه أعلاه يحكى أنّ العلم بالقيامه، و نزول المطر، و وضعيه الجنين في رحم الام، و الأمور التي سيقوم بها الإنسان في المستقبل، و محلّ موته منحصر بالله، و لا سبيل للآخرين إلى العلم بذلك، إضافة إلى هذا فإنّ الروايات الواردة في

ص: ٨٠

١- ١) من لا يحضره الفقيه، وفقا لنقل نور الثقلين، المجلد ٤، صفحه ٢١٧.

٢- ٢) نهج البلاغه، الحكم القصار، جمله ١٣١.

تفسير هذه الآية تؤكد هذه الحقيقة، و من جملتها ما

ورد في حديث: «إِنَّ مَفَاتِيحَ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ» (١).

و

جاء في روايه اخرى وردت في نهج البلاغه: أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَوْمًا يَخْبُرُ بِحَوَادِثِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتَتَحَدَّثُ عَنِ الْغَيْبِ وَتَعْلَمُ بِهِ؟ فَتَبَسَّمَ الْإِمَامُ، وَقَالَ لَهُ: «يَا أَخَا كَلْبٍ (لَأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مِنْ بَنِي كَلْبٍ)، لَيْسَ هُوَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلَّمَ مِنْ ذِي عِلْمٍ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ مَا عَدَدَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ... فَيَعْلَمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَ قَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَ سَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَ مَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، وَ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مِرَاقِفًا، فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَ مَا سِوَى ذَلِكَ فَعَلِمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ وَ دَعَا لِي بِأَنْ يَعْيَهُ صَدْرِي وَ تَضَطَّمَ عَلَيْهِ جَوَانِحِي» (٢).

و يظهر من هذه الروايات جليًا أَنَّ المراد من عدم علم الناس بهذه الأمور، جهلهم بكلِّ خصوصياتها و جزئياتها، فمثلاً: إذا وضعت تحت تصرف الإنسان يوماً ما وسائل معينه—و لم يحلَّ ذلك اليوم إلى الآن—بحيث يطَّلَعُ تماماً على كون الجنين ذكراً أو أنثى، فإنَّ هذا الأمر برغم كونه تطوُّراً علمياً هاماً لا يعدُّ شيئاً، لأنَّ الاطِّلاعَ على الجنين و العلم به يعنى أن نعلم كلَّ خصائصه الجسميه، القبح و الجمال، الصحَّة و المرض، الاستعدادات الداخليه، الذوق العلمى و الفلسفى و الأدبى، و سائر الصفات و الكيفيات الروحيه، و هذا الأمر لا يتمُّ لغير الله سبحانه.

و كذلك ما يتعلَّق بالمطر، فمتى ينزل؟ و أيه منطقته يصيب و يهطل عليها؟ و أى مقدار—على وجه الدقَّة—سينزل فى البحر؟ و ما مقدار ما ينزل فى الصحراء

ص: ٨١

١-١) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

٢-٢) نهج البلاغه. الخطبه ١٢٨.

و المنحدرات و الجبال؟ لا يعلم بذلك إلا الله تعالى.

و كذلك شأن حوادث الغد، و الأيام التاليه، و خصوصياتها و جزئياتها.

و من هنا يتضح جيّدا جواب السؤال الذى يطرح هنا غالبا، حيث يقولون: إننا نقرأ فى التواريخ و الروايات المتعدده أن أئمه أهل البيت عليهم السّلام، بل و حتّى بعض أولياء الله من غير الأئمه، قد أخبروا بموتهم، أو بينوا و حدّدوا مكان دفنهم، و من جملتها الحوادث المتعلّقه بكرىبلاء، فقد قرأنا مرارا فى الروايات أن النّبي صلّى الله عليه و آله، أو أمير المؤمنين عليه السّلام و الأنبياء السابقين قد أخبروا بشهادته الإمام الحسين عليه السّلام و أصحابه بأرض كربلاء.

و فى كتاب اصول الكافى يلاحظ باب فى علم الأئمه بزمان و فاتهم (١).

و الجواب هو: إنّ العلم بجزء من هذه الأمور، علما إجماليا- و هذا العلم أيضا عن طريق التعليم الإلهى- لا ينافى مطلقا اختصاص العلم التفصيلى بها بذات الله المقدّسه.

ثمّ إنّ هذا الإجمال أيضا- و كما قلنا- ليس ذاتيا و مستقلا، بل هو عرضى و حصل بالتعليم الإلهى، بالمقدار الذى يريده الله و يرى فيه الصّلاح، و لذلك نرى

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أحد أصحابه سأله: هل يعلم الإمام الغيب؟ قال: «لا، و لكن إذا أراد الله أن يعلم الشىء أعلمه الله ذلك» (٢).

و قد وردت فى باب علم الغيب، و كيفيه علم الأنبياء و الأئمه به روايات كثيره سنبحثها فى نهايه الآيات المناسبه، إلا أنّ من المسلّم أنّ هناك علوما لم يطّلع عليها و لا يعلم بها أحد إلا الله عزّ و جلّ (٣).

ص: ٨٢

١- ١) اصول الكافى، المجلّد الأوّل، ص ٢٠٢ باب أنّ الأئمه يعلمون متى يموتون.

٢- ٢) اصول الكافى، المجلّد الثّانى، ص ٢٠١ باب نادر فيه ذكر الغيب.

٣- ٣) لدينا فى كتاب الكافى روايات عديده فى أنّ لله علما لا يعلمه إلا هو، و علما علّمه الملائكه و الأنبياء و الأئمه. المجلّد الأوّل، صفحه ١٩٩ باب أنّ الأئمه عليهم السّلام يعلمون جميع العلوم التى خرجت إلى الملائكه.

اللهم نور قلوبنا بنور العلم، وهب لنا من علمك اللامتناهي.

اللهم اعصمنا زخارف هذه الدنيا، ولا يغرننا الشيطان و هوى أنفسنا.

إلهنا اجعلنا متبهيين دائما إلى إحاطه علمك، و جنبنا أن نعمل بين يديك ما يخالف رضاك و يجلب سخطك.

نهايه سوره لقمان

ص: ٨٣



## سوره السجده

### اشاره

مكيه و عدد آياتها ثلاثون آيه

ص: ٨٥





## أسماء هذه السوره:

المعروف أنّ هذه السوره نزلت في مكّه، إلا أنّ البعض الآخر يرى أنّ الآيات ١٨-٢٠ مدنيه، في حين لا تلاحظ أيه قرينه أو علامه في هذه الآيات على كونها مدنيه.

اسم هذه السوره في بعض الروايات، وكذلك المشهور على لسان المفسرين:

(سوره السجده)، أو (الم السجده)، و يسمونها أحيانا (سجده لقمان) لتمييزها عن سوره (حم السجده)، لأنها جاءت بعد سوره لقمان.

و ذكرت في بعض الروايات باسم (الم تنزيل).

و ذكر «الفخر الرازي» و «الآلوسي» أنّ من جمله أسمائها (سوره المضاجع)، و هو إشاره إلى الآية (١٦) من هذه السوره: تَنجِي فِي جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ....

## فضل تلاوه سورة السجده:

ورد في حديث عن الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «من قرأ الم تنزِيل، و تبارك الذي بيده الملك، فكأنما أحْيى ليله القدر» (١).

و

روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السَّلَام في حديث آخر: «من قرأ سورة السجده في كلِّ ليله جمعه أعطاه الله كتابه بيمينه، و لم يحاسبه بما كان منه، و كان من رفقاء محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ أَهْلِ بَيْتِهِ» (٢).

و لَمَّا كانت قد وردت في هذه السوره بحوث واسعة عن المبدأ و المعاد، و عقاب المجرمين في يوم القيامة، و دروس محذره ترتبط بالمؤمنين و الكافرين، فلا شكَّ أنَّ تلاوتها-التلاوه التي تكون مصدرا و منبعا للتفكير، و بالتالي مبدءا للتصميم و الحركة- قادره على أن تصنع من الإنسان مثالا متكاملا تشمله كلُّ هذه الفضيله و الفخر، و أن يكون أثرها كإحياء ليله القدر، و نتيجتها أن يكون في مصافِّ أصحاب اليمين، و نيل افتخار محبِّه النَّبِيِّ وَ آلِهِ صلوات الله عليهم.

## محتوى سورة السجده:

هذه السوره بحكم كونها من السور المكيه تتابع بقوّه الخطوط الأصليه للسور

ص: ٨٨

١-١) مجمع البيان، الجزء ٨، صفحہ ٣٢٤.

٢-٢) مجمع البيان، الجزء ٨، صفحہ ٣٢٥.

المكّيّه، أى البحث فى المبدأ و المعاد، و البشاره و الإنذار، و على العموم تنقسم مباحثها إلى عدّه أقسام:

١-الكلام عن عظمه القرآن، و نزوله من قبل ربّ العالمين، و نفي اتّهامات الأعداء عنه.

٢-ثمّ البحث حول آيات الله سبحانه فى السماء و الأرض، و تدبير هذا العالم.

٣-بحث آخر حول خلق الإنسان من «التراب» و«النفثه» و«الروح الإلهيّه»، و منحه وسائل تحصيل العلم، أى العين و الاذن و العقل من قبل الله تعالى.

٤-ثمّ تتحدّث بعد ذلك عن القيامة و الحوادث التى تسبقها، أى الموت، و ما بعدها، أى السؤال و الحساب.

٥-٦-بحوث مؤثره تهزّ الوجدان عن البشاره و الإنذار، تبشّر المؤمنين بجنّه المأوى، و تهدّد الفاسقين بعذاب جهنّم الشديد.

٧-و فى السوره إشاره قصيره إلى تاريخ بنى إسرائيل، و قصّه موسى عليه السّلام و انتصارات هذه الامّه.

٨-و كذلك تشير-مناسبه لبحث البشاره و الإنذار-إلى أحوال قوم آخرين من الأمم السابقيه، و مصيرهم المؤلم.

٩-١٠-ثمّ تعود مرّه اخرى إلى مسأله التوحيد و آيات عظمه الله، و تنهى السوره بتهديد الأعداء المعاندين.

و بهذا فإنّ الهدف الأصلي للسوره تقويه أسس الإيمان بالمبدأ و المعاد، و إيجاد دفعه قويّه فى المحتوى الداخلى للإنسان نحو التقوى، و الابتعاد عن العصيان

و التمرّد و الطغيان، و التوجّه إلى مقام الإنسان الرفيع، و هذا المعنى كان يحظى بالأهميّة القصوى خاصّه في بدايه حركة الإسلام، و في محيط مكّه.

ص : ٩٠

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا لَمَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)

التفسير

اشاره

عظمه القرآن، و المبدأ و المعاد:

مرّه اخرى نواجه الحروف المقطعه (الف-لام-ميم) فى هذه السوره، و هذه هى المرّه الخامسه عشره التى نرى فيها مثل هذه الحروف فى بدايه السور القرآنيه.

و لقد بحثنا بصورة مفصلة فى بدايه سوره البقره، و آل عمران و الأعراف التفسير المختلفه لهذه الحروف. و البحث الذى جاء بعد هذه الحروف مباشره حول أهميته القرآن يبين مره اخرى هذه الحقيقه، و هى أنّ الم إشاره إلى عظمه القرآن، و القدره على إظهار عظمه الله سبحانه، و هذا الكتاب العظيم الغنى المحتوى، و الذى هو معجزه محمد صلى الله عليه و آله الخالده يتكوّن من حروف المعجم البسيطة التى يعرفها الجميع.

تقول الآيه: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١). هذه الآيه- فى الواقع- جواب عن سؤالين: الأوّل عن محتوى هذا الكتاب السماوى، فتقول فى الجواب: إنّ محتواه حقّ و لا مجال لأدنى شكّ فيه. و السؤال الثّانى يدور حول مبدع هذا الكتاب، و فى الجواب تقول: إنّ هذا الكتاب من قبل ربّ العالمين.

و يحتمل فى التفسير أيضا أنّ جملة مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جاءت دليلا و برهانا لجملة لَا رَيْبَ فِيهِ، فكأنّ سائلا يسأل: ما هو الدليل على أنّ هذا الكتاب حقّ، و لا مجال للشكّ فيه؟ فتقول: الدليل هو أنّه من ربّ العالمين الذى يصدر منه كلّ حقّ و حقيقه.

ثمّ إنّ التأكيد على صفه ربّ العالمين من بين صفات الله سبحانه قد يكون إشاره إلى أنّ هذا الكتاب مجموعه من عجائب عالم الخلقه، و عصاره حقائق عالم الوجود، لأنّه من ربّ العالمين.

و ينبغى الالتفات أيضا إلى أنّ القرآن لا يريد هنا الاكتفاء بالادّعاء الصرف، بل يريد أن يقول: إنّ الشىء الظاهر للعيان لا يحتاج إلى البيان، فإنّ محتوى هذا

ص: ٩٢

---

١ - ١) - «تنزيل الكتاب» خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا) و جملة لَا رَيْبَ فِيهِ صفته، و (من ربّ العالمين) صفه اخرى. و احتمال البعض أن تكون الجمل الثلاث أخبارا متعاقبه. إلّا- أنّ المعنى الأوّل أنسب. و على كلّ حال فإنّ (تنزيل) مصدر جاء بمعنى اسم المفعول، و إضافته إلى الكتاب من قبيل إضافه الصفه إلى الموصوف. و يحتمل أيضا أن يكون المصدر بمعناه الأصلي و يؤدّى معنى المبالغه.

الكتاب شاهد بنفسه على صحته و أحقيته.

ثم يشير إلى التهمة التي طالما وجهها المشركون و المنافقون إلى هذا الكتاب السماوى العظيم حيث قالوا: إن هذا الكتاب من تأليف مجيد. و قد ادعى كذبا بأنه من الله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ (١) فيقول جوابا على ادعاء هؤلاء الزائف: بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ أدلّه أحقيته واضحه و بينه فيه من خلال آياته.

ثم يتطرق إلى الهدف من نزوله، فيقول: لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ .

فبالرغم من أنّ دعوه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مبشّره و منذره، و أنه بشير قبل أن يكون نذيرا، إلا أنه يجب التأكيد على الإنذار أكثر مع القوم الضالين المعاندين.

و جملة لعلهم يهتدون إشاره إلى أنّ القرآن يهئ أرضيه الهدايه، إلا أنّ التصميم و اتّخاذ القرار النهائى موكول و مرتبط بنفس الإنسان.

و هنا يطرح سؤالان:

١- من هم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم أى نذير قبل النبى صلى الله عليه و آله؟ ٢- ألم يقل القرآن الكريم: وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . (٢)

قال جمع من المفسرين فى جواب السؤال الأول: المراد قبيله قريش التى لم يكن لها نذير قبل نبى الإسلام.

و قال البعض الآخر: المراد مرحلة الفتره و الفاصله الزمنية بين نبوه عيسى عليه السلام و ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

إلا- أنّ أيا من هذين الجوابين لا يبدو صحيحا، لأنّ الأرض لا تبقى خاليه من حجّه الله مطلقا، و فى كلّ عصر و زمان لا بدّ من وجود نبى أو وصى نبى لإتمام

ص: ٩٣

١- ١) «أم» هنا بمعنى «بل»، و احتمال البعض أنّ فى الجملة تقديرا، و كانت فى الأصل: أ يعترفون به أم يقولون افتراه- تفسير «الفخر الرازى و أبى الفتوح»- إلا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا.

٢- ٢) فاطر، ٢٤.

بناء على هذا، يبدو أنّ المراد من «النذير» هنا النبيّ الكبير الذي يوضّح وبيّن دعوته مقرونه بالمعجزات و في محيط واسع، و معلوم أنّ مثل هذا النذير لم يَقم في الجزيرة العربية و بين قبائل مكّه.

و في الإجابة عن السؤال الثّاني ينبغي أن يقال: إنّ معنى جملة: **وَإِنْ مِنْ أُمَّهِ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** هو أنّ كلّ أمّه كان لها نذير، إلاّ أنّه لا يلزم حضوره بنفسه في كلّ مكان، بل يكفي أن يصل صوت دعوه أنبياء الله العظام بواسطة أوصيائهم إلى أسمع كلّ البشر في العالم.

و هذا يشبه قولنا: إنّ كلّ أمّه كان لها نبي من اولى العزم، و لها كتاب سماوى، فمعنى هذا الكلام أنّ صوت هذا النبيّ و كتابه السماوى قد وصل عن طريق وكلائه و أوصيائه لكلّ تلك الامّه على طول التاريخ.

بعد بيان عظمه القرآن و رساله النبيّ صلى الله عليه و آله تطرقت الآيه التاليه إلى أساس آخر من أهم أسس و دعائم العقائد الإسلاميه، فتقول: **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (١)**.

و قلنا مرارا: إنّ المراد من **سِتَّةِ أَيَّامٍ** في هذه الآيات: ستّ مراحل، لأنّ أحد معانى اليوم في المحادثات اليوميّه: المرحله، كما نقول: كان النظام المستبدّ يحكمنا بالأمس، و اليوم يحكمنا نظام الشورى، في حين أنّ الحكومات المستبدّه كانت تحكم آلاف السنين، إلاّ أنّهم يعبرون عن تلك المرحله باليوم.

و من جهه اخرى، فقد مرّت فترات و مراحل مختلفه على السماء و الأرض:

فيوما كانت كلّ كواكب المنظومه الشمسيه كتله واحده مذابه.

١ - ١) لفظ الجلاله في هذه الجملة مبتدأ، و (الذى) خبره. و احتملت في تركيب هذه الجملة احتمالات اخرى، من جملتها، أنّ لفظ الجلاله خبر لمبتدأ محذوف، أو أنّ لفظ الجلاله مبتدأ و خبره (ما لكم من دونه من ولى) إلاّ أنّ هذين الاحتمالين لا يبدوان مناسبين بتلك الدرجه.



- وفي يوم آخر انفصلت السيارات عن الشمس و بدأت تدور حولها.

- وفي يوم كانت الأرض كتله نار ملتهبه.

- وفي يوم آخر أصبحت بارده و جاهزه لحياء النباتات و الحيوانات، ثم وجدت الكائنات الحيه عبر مراحل مختلفه.

و قد أوردنا شرحا مفصّلا لهذا المعنى و المراحل الستّ بصوره مفصّله فى ذيل الآيه (٥٤) من سوره الأعراف.

و من البديهي أنّ قدره الله اللامتناهيه كافيه لإيجاد كلّ هذا العالم فى لحظه، بل و فى أقلّ منها، إلا أنّ هذا النظام التدريجي يبيّن عظمه الله و علمه و تدبيره فى جميع المراحل بصوره أفضل.

فمثلا: إذا طوى الجنين فى لحظه واحده كلّ مراحل تكامله و ولد، فإنّ عجائبه ستبقى بعيده عن نظر الإنسان، أمّا عند ما نراه يطوى فى كلّ يوم و أسبوع-طوال هذه التسعه أشهر-أشكالا عجيبه جديده، فستتعرّف أكثر على عظمه الله سبحانه.

و بعد مسأله الخلق تتطرّق الآيه إلى مسأله حاكميه الله سبحانه على عالم الوجود، فتقول: إنّ الله تعالى بعد ذلك استوى على عرش قدرته و سيطر على جميع الكائنات: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

كلمه (العرش) كما قلنا سابقا، تعنى فى الأصل الكراسى الطويله القوائم، و تأتي عاده كناية عن القدره، كما نقول فى تعبيراتنا اليوميه: تكسرت قوائم عرش فلان، أى إنّ قدرته و حكومته قد زالت.

بناء على هذا، فإنّ استواء الله على العرش لا يراد منه المعنى الجسمى بأن يكون لله عرش كالملوك يجلس عليه، بل بمعنى أنّه خالق عالم الوجود، و كذلك الحاكم على كلّ العالم (١).

ص: ٩٥

١-١) لمزيد التوضيح حول هذا الكلام راجع ذيل الآيه (٥٤) من سوره الأعراف.

و تكمل الآيه مراحل التوحيد بالإشاره إلى توحيد «الولاية» و«الشفاعه»، فتقول: **مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ** .

فمع هذا الدليل الواضح، بأنّ كونه سبحانه خالفا دليل على كونه حاكما، و الحاكميه دليل على توحيد الولي و الشفيع و المعبود، فلما ذا تنحرفون و تضلون و تتمسكون بالأصنام؟ أ فلا تتذكرون! في الحقيقه، إنّ المراحل الثلاث للتوحيد التي انعكست في الآيه أعلاه يعتبر كلّ منها دليلا على الاخرى، فتوحيد الخالقيه دليل على توحيد الحاكميه، و توحيد الحاكميه دليل على توحيد الولي و الشفيع و المعبود.

و هنا طرح بعض المفسرين سؤال، و هو أنّ الجملة الأخيره تقول: ما لكم من دون الله من ولي و لا شفيع، و معناها أنّ وليكم و شفيعكم الوحيد هو الله سبحانه وحده، فهل من الممكن أن يشفع أحد عنده؟ و يمكن الإجابة على هذا السؤال من ثلاثه جوانب:

١- بملاحظه أنّ جميع الشفعاء لا يشفعون إلا بإذنه تعالى: **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** (١)، يمكن القول بأنّ الشفاعة بالرغم من كونها من قبل الأنبياء و أولياء الله، إلا أنّها تعود إلى الله سبحانه، سواء كانت الشفاعة لغفران الذنوب و العفو عن العاصين، أم للوصول إلى النعم الإلهيه، و الشاهد على هذا الكلام الآيه التي وردت في بدايه سوره «يونس» بمضمون هذه الآيه تماما، حيث تقول:

**يُدَبَّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** . (٢)

٢- إنّنا عند التوسل بالله نتوسل بصفاته، فنستمدّ من رحمته و رحمانيته، من كونه غفارا غفورا، و من فضله و كرمه، فكأننا قد جعلناه شفيعا إلى نفسه، و نعتبر هذه الصفات واسطه بينها و بين ذاته المقدسه، و إن كانت صفاته عين ذاته في

ص: ٩٤

١- (١) البقره، ٢٥٥.

٢- (٢) يونس، ٣.

الحقيقه، وهذا هو نفس الشيء الذي جاء في دعاء كميل في عبارته على عليه السلام العميقه المعنى: «و استشفع بك إلى نفسك».

٣- المراد من «الشفيع» هنا: الناصر و المعين، و نحن نعلم أنّ الناصر و الولي و المعين هو الله وحده، و ما قيل من أنّ الشفاعة هنا بمعنى الخلق و تكميل النفوس يعود في الحقيقه إلى نفس هذا المعنى.

و تشير الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث إلى توحيد الله سبحانه في البدايه، ثم إلى مسأله «المعاد»، و بهذا تكمل هنا فروع و أركان التوحيد الثلاثه التي اتضحت في الآيات السابقه- (توحيد الخالق و الحاكميه و العبوديه)- بذكر توحيد الربوبيه، أى تدبير عالم الوجود من قبل الله سبحانه فقط، فتقول: إنّ الله يدبّر امور العالم من مقام القرب منه إلى الأرض: يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ .

و بتعبير آخر، فإنّ الله سبحانه قد جعل عالم الوجود من السماء إلى الأرض تحت أمره و تدبيره، و لا يوجد مدبّر سواه في هذا العالم (١).

ثم تضيف: ثُمَّ يَعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ و المراد من هذا اليوم يوم القيامه.

و توضيح ذلك: أنّ المفسرين قد تحدّثوا كثيرا في تفسير هذه الآيه، و احتملوا احتمالات عديده مختلفه:

١- فاعتبرها بعضهم إشاره إلى قوس الصعود و النزول لتدبير العالم في هذه الدنيا.

٢- و ذهب آخرون إلى أنها إشاره إلى ملائكه الله الذين يطوون المسافه بين السماء و الأرض في خمسمائه سنه، و يرجعون بهذه المدّه أيضا، و هو مشغولون

ص: ٩٧

١- ١) طبقا للتعبير الأوّل فإنّ «السماء» بمعنى مقام القرب من الله، و طبقا للتعبير الثّاني فإنّ «السماء» تعنى نفس هذه السماء - تأملوا ذلك-.

بتدبير هذا العالم بأمر الله سبحانه.

٣-و يعتبرها البعض الآخر إشاره إلى مراحل التدبير الإلهي في هذا العالم، و يعتقدون أنّ مراحل التدبير الإلهي في هذا العالم كلّ ألف سنة، و يأمر الله سبحانه ملائكته بتدبير أمر السماء و الأرض في كلّ ألف سنة، و بعد انتهاء مرحله الألف سنة هذه تبدأ مرحله اخرى.

إنّ هذه التفاسير علاوه على أنّها تطرح مطالب غامضه و مبهمه، فإنّها لا تمتلك قرينه و شاهدا من نفس الآيه أو من آيات القرآن الاخرى.

و في اعتقادنا أنّ المراد من الآيه-بقرينه آيات اخرى من القرآن، و كذلك الروايات الواردة في تفسير الآيه-شئ آخر، و هو أنّ الله سبحانه خلق هذا العالم، و نظم و دبّر السماء و الأرض بتدبير خاصّ، و ألبس البشر و الموجودات الحيّه الاخرى لباس الحياه، إلاّ أنّه يطوى هذا التدبير في نهايه العالم، فتظلم الشمس، و تفقد النجوم أشعتها، و بتعبير القرآن ستطوى السماوات حتّى ترجع إلى حالتها قبل توسّع هذا العالم يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (١)، و بعد طي هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج و مشروع عالمي جديد أوسع، أي سيبدأ عالم آخر بعد انتهاء هذه الدنيا.

و هذا المعنى قد ورد في آيات القرآن الاخرى، و من جملتها الآيه (١٥٦) من سوره البقره: □ □ □ إنا لله و إنا إليه راجعون .

و جاء في الآيه (٢٧) من سوره الروم: □ وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .

و نقرأ في الآيه (٣٤) من سوره يونس: □ □ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَتَى تُؤَفَّكُونَ .

ص: ٩٨

بملاحظه هذه التعبيرات، والتعبيرات الاخرى التي تقول: **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ (١)**، يتضح أنّ الآيه مورد البحث تتحدث أيضا عن بدايه و نهايه العالم و قيام يوم القيامه، و الذي يعبرون عنه أحيانا ب«قوس النزول» و«قوس الصعود».

بناء على هذا فإنّ معنى الآيه يصبح: إنّ الله سبحانه يدبّر أمر هذا العالم من السماء إلى الأرض - يبدأ من السماء و ينتهي بالأرض - ثمّ يعود كلّ ذلك إليه في يوم القيامه.

و نطالع في تفسير على بن إبراهيم في ذيل هذه الآيه: يعنى الأمور التي يدبّرها، و الأمر و النهى الذي أمر به، و أعمال العباد، كلّ هذا يظهر يوم القيامه فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنه من سنّى الدنيا.

و هنا سؤال، و هو: إنّنا نرى في الآيه (٤) من سوره المعارج في شأن طول يوم القيامه: **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** فكيف يمكن الجمع بين الآيه مورد البحث، و التي عيّنت مقداره بألف سنه فقط، و آيه سوره المعارج؟! و

قد ورد الجواب عن هذا السؤال في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام روى في (أمالي الشيخ الطوسي) أنّه قال: «إنّ في القيامه خمسين موقفا، كلّ موقف مثل الف سنه ممّا تعدّون، ثمّ تلا هذه الآيه: في يوم كان مقداره خمسين الف سنه» (٢).

و من الطبيعي أنّ هذه التعبيرات لا- تنافى عدم كون المراد من عدد الألف و الخمسين ألفا، العدد و الحساب هنا، بل كلّ منهما لبيان الكثره و الزياده، أى إنّ في القيامه خمسين موقفا يجب أن يتوقّف الإنسان في كلّ موقف مدّه طويله جدّا.

ص: ٩٩

١-١) سوره هود، ١٢٣.

٢-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٢١، و تفسير الصافي ذيل الآيه مورد البحث.

## إساءة الاستفادة من آية يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

لقد اتخذ بعض أتباع المذاهب المصطنعه المبتدعه (١) الآية أعلاه وسيله و دليلا لتوجيه مسلكهم و مذهبهم، و أرادوا أن يطبقوا هذه الآية على مرادهم بارتكاب المغالطات و الاشتباهات و ادعوا أن المراد من «الأمر» في الآية: الدين و المذهب، و «التدبير»: يعنى إرسال الدين، و «العروج»: يعنى رفع و نسخ الدين! و استنادا إلى هذا فإن كل مذهب أو دين لا يمكنه أن يعمر أكثر من ألف سنة، و يجب أن يترك مكانه لدين آخر، و بهذا فإنهم يقولون: إننا نقبل القرآن، لكن، و استنادا إلى نفس هذا القرآن فإن دينا آخر سيأتي بعد مرور الف سنة! و الآن نريد أن نبحث و نحلل الآية المذكوره بحثا محايدا، لنرى هل يوجد فيها ارتباط بما يدعيه هؤلاء، أم لا؟ و نغض النظر عن أن هذا المعنى بعيد عن مفهوم الآية إلى الحد الذي لا يخطر على ذهن أى قارئ خالى الذهن.

إننا نرى -بعد الدقه- أن ما يقولونه لا ينسجم مع مفهوم الآية، بل إنه مشكل بصورة واضحة من جهات كثيره:

١- إن تفسير كلمه «الأمر» بالدين لا دليل عليه، بل تنفى آيات القرآن الاخرى ذلك، لأن كلمه الأمر قد استعملت فى آيات اخرى بمعنى أمر الخلق، مثل **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٢).

و قد استعملت كلمه الأمر فى هذه الآية، و آيات اخرى مثل: الآية ٥٠/ سورة القمر، الآية (٢٧) من سورة المؤمنون، الآية (٥٤) من سورة الأعراف، (٣٢) من سورة إبراهيم، (١٢) من سورة النحل، (٢٥) من سورة الروم، (١٢) من سورة الجاثية، بمعنى الأمر التكويني، لا بمعنى تشريع الدين و المذهب.

ص: ١٠٠

١- ١) «البهائيه و البابيه».

٢- ٢) سورة يس، ٨٢.

و أساسا فإنَّ كلَّ مورد يأتي الكلام فيه عن السماء و الأرض، و الخلق و الخلقه و أمثال ذلك، فإنَّ «الأمر» يأتي بهذا المعنى (فتأمل).

٢- كلمة «التدبير» تستعمل أيضا في مورد الخلقه و الخلق و تنظيم وضع عالم الوجود، لا بمعنى إنزال الدين و الشريعة، و لذلك نرى في آيات القرآن الأخرى- و الآيات يفسّر بعضها بعضا- أنّ هذه الكلمه لم تستعمل مطلقا في مورد الدين و المذهب، بل استعملت كلمه «التشريع» أو «التنزيل» أو «الإنزال»:

- شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا . (١)

- وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٢).

- نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ . (٣)

٣- إنّ الآيات التي قبل و بعد هذه الآيه مرتبطه بالخلقه و خلق العالم، و لا ترتبط بتشريع الأديان، لأنّ الكلام في الآيه السابقه كان عن خلق السماء و الأرض في ستّه أيام- و بعبارة اخرى ستّ مراحل- و الكلام في الآيه التاليه عن خلق الإنسان.

و لا- يخفى أنّ تناسب و انسجام الآيات يوجب أن تكون هذه الآيه المتوسّطه لآيات الخلقه مرتبطه بمسأله الخلقه و تدبير أمر الخلق، و لهذا فإننا إذا طالعنا كتب التفسير التي كتبت قبل مئات السنين فإننا لا نجد أحدا قد احتمل أن تكون الآيه متعلقه بتشريع الأديان، بالرغم من أنّهم احتملوا احتمالات مختلفه، فمثلا: مؤلّف تفسير «مجمع البيان»- و هو من أشهر التفاسير الإسلاميه، و مؤلّفه عاش في القرن السادس الهجري- لم ينقل عن أحد علماء الإسلام قولا يدّعى فيه أنّ الآيه ترتبط بتشريع الأديان، مع أنّه ذكر أقوالا مختلفه في تفسير الآيه أعلاه.

ص: ١٠١

١- (١) الشورى، ١٣.

٢- (٢) المائده، ٤٤.

٣- (٣) آل عمران، ٣.

٤- إن كلمة «العروج» تعنى الصعود و الارتفاع، لا- نسخ الأديان و زوالها، و لا- يلاحظ العروج فى أى موضع من القرآن بمعنى النسخ- و هذه الكلمه قد ذكرت فى خمس آيات من القرآن، و لا تؤدى هذا المعنى فى أى منها- بل تستعمل كلمه النسخ أو التبدل و أمثالهما فى مورد الأديان.

إن الأديان و الكتب السماويه فى الأساس ليست كأرواح البشر تعرج إلى السماء مع الملائكه بعد انتهاء العمر، بل إن الأديان المنسوخه، موجوده فى الأرض، إلا أنها تسقط عن الإعتبار فى بعض مسائلها، فى حين أن أصولها تبقى على قوتها.

و الخلاصه: فإن كلمه العروج علاوه على أنها لم تستعمل فى أى موضع من القرآن بمعنى نسخ الأديان، فهى لا تتناسب مع مفهوم نسخ الأديان، لأن الأديان المنسوخه لا تعرج إلى السماء.

٥- إضافه إلى كل ما مرّ فإنّ هذا المعنى لا ينطبق على الواقع الحقيقى العينى، لأنّ الفاصله بين الأديان السابقه لم تكن ألف سنه فى أى مورد! فمثلا: الفاصله بين ظهور موسى و المسيح عليهم السّلام أكثر من (١٥٠٠) سنه، و الفاصله بين المسيح عليه السّلام و ظهور نبي الإسلام العظيم صلّى الله عليه و آله أقلّ من (٦٠٠) سنه، و كما تلاحظون فإنّ أيّا من هذين الموردين لا ينطبق على الألف سنه التى يقول بها هؤلاء، بل إنّ الفاصله بين الواقع و ما يدّعون كبيره.

و ذكروا أنّ الفتره الزمنيه بين ظهور نوح عليه السّلام الذى كان من أنبياء اولى العزم، و واضع دعائم الدين و الشريعه الخاصّه، و بين محطّم الأصنام الصنديد إبراهيم عليه السّلام الذى كان نبيا آخر من ذوى الشرائع أكثر من (١٦٠٠) سنه، و الفتره بين إبراهيم و موسى عليهما السّلام أقلّ من (٥٠٠) سنه.

من هذا الموضوع نخلص إلى هذه النتيجة، و هى أنّه لم تكن هناك فتره و لا- فاصله، و لو من باب المثال، بين أحد الأديان و المذاهب و بين الدين الذى يليه



٦-و إذا غضضنا النظر عن كل ما مرّ، فإنّ بدعه «السيد على محمد باب» والتي تحمل أتباعه لأجل الدفاع عنها كلّ هذه التوجيهات الباطله لا تتناسب مع هذا الحساب، لأنّه باعترافهم ولد سنه ١٣٢٥ هجرى، و كان بدء دعوته سنه ١٢٦٠ هجرى قمرى، و بملاحظه أنّ بدايه دعوه الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله التي كانت بثلاثه عشر عاما قبل الهجره، فإنّ الفاصله بين الإثنين تكون (١٢٧٣) أى بإضافه (٢٧٣) فما ذا نضع بهذا الفارق الكبير؟ و بأيّ خطّه سنتجاهله؟ ٧-و لو تركنا جانبا كلّ هذه الإيرادات السنّه، و صرفنا النظر عن هذه الردود الواضحه، و جعلنا أنفسنا مكان القرآن، و أردنا أن نقول للبشرية: كونوا بانتظار نبيّ جديد بعد مرور ألف سنه، فهل هذا يصحّ طرح هذا المفهوم بالشكل الذى ذكرته الآيه، حتّى لا يتنبه و يطّلع أحد من العلماء و غير العلماء أدنى اطلاع على معنى الآيه على مدى الإثني أو الثلاثه عشر قرنا، ثمّ يأتى جماعه بعد مرور (١٢٧٣) عام ليّدعوا أنّهم اكتشفوا اكتشافا جديدا، و أزاحوا الغطاء عنه، و هو مع ذلك لا يتجاوز إطار قبولهم أنفسهم لا قبول الآخرين؟! ألم يكن الأحسن و الأكثر حكمه و عقلا أن يقال مكان هذه الجملة: ابشركم بأنّ نبيا بهذا الاسم سيظهر بعد ألف سنه، كما قال عيسى عليه السّلام فى شأن نبي الإسلام صلّى الله عليه و آله:

وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . (١)

و على كلّ حال، فهذه المسأله قد لا تستحقّ بحثا بهذا المقدار إلاّ أنّه لتنبيه و إيقاظ جيل الشباب المسلم، و اطلاعهم على المكائد التي هيأها الاستعمار العالمى، و المسالك و المذاهب التي ابتدعتها لتضعيف جبهه الإسلام، لم يكن لنا سبيل إلاّ أن يعلموا و يطّلعوا على جانب من منطق هؤلاء، و عليهم الباقي.

ص: ١٠٣

إشاره

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَيَدَأُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسِيلَهُ مِنْ  
سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)

التفسير

إشاره

مراحل خلق الإنسان العجيبه!

إن الآيات-مورد البحث-إشاره و تأكيد في البدايه على بحوث التوحيد التي مرّت في الآيات السابقه،و التي كانت تتلخص في  
أربع مراحل: توحيد الخالقيه، و الحاكميه، و الولايه،و الربوبيه،فتقول: ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

من البديهي أنّ من يريد أن يدبّر امور السماء و الأرض،و أن يكون حاكما عليها،و يتعهد و يقوم بمهام مقام الولايه و الشفاعه و  
الإبداع،يجب أن يكون مطلعاً على كلّ شىء،الظاهر و الباطن،حيث لا يمكن أن يتمّ أى من هذه الأمور بدون الاطلاع و سعه  
العلم.

و فى نفس الوقت الذى يجب أن يكون هذا المدبّر عزيزاً قوياً لا يقهر ليقوى على القيام بهذه الأعمال المهمّة، ينبغى أن تقترن هذه العزّة باللطف و الرحمة، لا الخشونه و الغلظه.

ثمّ تشير الآيه التاليه إلى نظام الخلقه الأحسن و الأكمل بصوره عامّه، و مقدّمه لبيان خلق الإنسان و مراحل تكامله بشكل خاصّ: **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَا يَحْتَاجُهُ، وَ بَتَعْبِيرٍ آخَرَ: فَإِنَّ تَشْيِيدَ صِرْحِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ قَدْ قَامَ عَلَى أَسَاسِ النَّظَامِ الْأَحْسَنِ، أَيْ قَامَ عَلَى نِظَامٍ دَقِيقٍ سَالِمٍ لَا يُمْكِنُ تَخْيِيلُ نِظَامٍ أَكْمَلَ مِنْهُ.**

لقد أوجد سبحانه بين كلّ الموجودات علاقته و انسجاماً، و أعطى كلّاً منها ما يطلبه على لسان الحال.

إذا نظرنا إلى وجود الإنسان، و أخذنا بنظر الإعتبار كلّ جهاز من أجهزته، فسنرى أنّها خلقت من ناحيه البناء و الهيكل، و الحجم، و وضع الخلايا، و طريقه عملها، بشكل تستطيع معه أن تؤدّى وظيفتها على النحو الأحسن، و فى الوقت ذاته فقد وضعت بين الأعضاء روابط قويّه بحيث يؤثّر و يتأثّر بعضها ببعض الآخر بدون استثناء.

و هذا المعنى هو الحاكم تماماً فى العالم الكبير مع المخلوقات المتنوّعه، و خاصّه فى عالم الكائنات الحيّه، مع تلك التشكيلات و الهيئات المختلفه جدّاً.

و الخلاصه: فإنّه هو الذى أودع أنواع العطور البهيجه فى الأزهار المختلفه، و هو الذى يهبّ الروح للتراب و الطين و يخلق منه إنساناً حراً ذكياً عاقلاً، و من هذا التراب المخلوط يخلق أحيانا الأزهار، و أحيانا الإنسان، و أحيانا اخرى أنواع الموجودات الاخرى، و حتّى التراب نفسه خلق فيه ما ينبغى أن يكون فيه.

و نرى نظير هذا الكلام فى الآيه (٥٠) من سوره «طه» من قول موسى و هارون عليهما السلام: **رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .**

و هنا يطرح سؤال حول خلق الشرور و الآفات، و كيفية انسجامها مع النظام العالم الأحسن، و سنبحثه إن شاء الله تعالى فيما بعد.

بعد هذه المقدّمه الآفقيه يدخل القرآن بحث الأنفس، و كما تحدّث في بحث الآيات الآفقيه عن عدّه أقسام للتوحيد، فإنّه يتحدّث هنا عن عدّه مواهب عظيمه في مورد البشر:

يقول أولاً: وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ لِيَبَيِّنَ عَظَمَهُ وَ قَدْرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَيْثُ خَلَقَ مِثْلَ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْجَلِيلِ الْعَظِيمِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَوْجُودِ الْبَسِيطِ الْحَقِيرِ، هَذَا مِنْ جَانِبِ، وَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ يَحَدِّرُ الْإِنْسَانَ وَ يَذْكُرُهُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ، وَ إِلَى أَيْنَ سَتَذْهَبُ؟! وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتَحَدَّثُ عَنْ خَلْقِ آدَمَ، لَا كُلَّ الْبَشَرِ، لِأَنَّ اسْتِمْرَارَ نَسْلِهِ قَدْ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ، وَ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ بِشَكْلِ مُسْتَقِلٍّ، وَ نَفَى فَرْضِيَّتِهِ تَحْوُلِ الْأَنْوَاعِ (وَ عَلَى الْأَقْلِ فِي مَوْجِدِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ).

و بالرغم من أنّ البعض أراد أن يفسّر هذه الآيه بحيث تناسب و تلائم فرضيه تكامل الأنواع، بأنّ خلق الإنسان يرجع إلى أنواع سافله، و هي تنتهي أخيراً إلى الماء و الطين، إلّا أنّ ظاهر الآيه ينفي وجود أنواع اخرى من الموجودات الحيّه - و هم يدّعون أنّها أنواع لا تحصي - تفصل بين آدم و الطين، بل إنّ خلق الإنسان قد تمّ من الطين مباشره و بدون واسطه. و لم يتحدّث القرآن عن أنواع الكائنات الحيّه الاخرى.

و هذا المعنى يتّضح أكثر عند ملاحظه الآيه (٥٩) من سوره آل عمران، حيث تقول: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ .

و يقول في الآيه (٢٦) من سوره الحجر: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

و يستفاد من مجموع الآيات أنّ خلق آدم قد تكوّن من التراب و الطين كخلق

مستقل، و من المعلوم أنّ فرضيه تطور الأنواع لم تكن مسأله علميه قطعيه لنحاول تفسير الآيات أعلاه بشكل آخر بسبب تضادها و تعارضها مع هذه الفرضيه، و بتعبير آخر: طالما لا- توجد قرينه واضحه على خلاف ظواهر الآيات فيجب أن نطبّقها بمعناها الظاهر، و كذلك الحال في مورد خلق آدم المستقلّ.

ثمّ تشير الآيه بعدها، إلى خلق نسل الإنسان، و كيفيه تولّد أولاد آدم في مراحل، فتقول: **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** .

«جعل» هنا بمعنى الخلق، و «النسل»: بمعنى الأولاد و الأحفاد في جميع المراحل.

«السلاله» في الأصل، بمعنى العصاره الخالصه لكلّ شيء، و المراد منها هنا نطفه الإنسان التي تعتبر عصاره كلّ وجوده، و مبدأ حياه و تولّد الذريّه و استمرار النسل.

إنّ هذا السائل الذي يبدو تافها لا- قيمه له و لا مقدار فإنّه يعدّ من الناحيه البنائيه و الخلايا الحيويه التي تسبح فيه، و كذلك تركيب السائل الخاصّ الذي تسبح فيه الخلايا رقيقا و دقيقا و معقّدا إلى أبعد الحدود، و يعتبر من آيات عظمه الله سبحانه، و علمه و قدرته. و كلمه «مهين» التي تعنى الضعيف إشاره إلى وضعه الظاهري، و إلاّ فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

و تشير الآيه التاليه إلى مراحل تكامل الإنسان المعقّده في عالم الرحم، و كذلك المراحل التي طواها آدم عند خلقه من التراب، فتقول: **ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** .

«سوّاه» من التسويه، أي الإكمال، و هذه إشاره إلى مجموع المراحل التي يطويها الإنسان من حال كونه نطفه إلى المرحله التي تتّضح فيها جميع أعضاء

بدنه، وكذلك المراحل التي طواها آدم بعد خلقه من التراب حتى نفخ الروح (١).

والتعبير بـ«النفخ» كناية عن حلول الروح في بدن الإنسان، فكأنه شبه الحال بالهواء والتنفس، بالرغم من أنه لا هذا ولا ذاك.

فإن قيل: إن نطفه الإنسان منذ استقرارها في الرحم -بل وقبل ذلك- كانت كائنا حيا وعلى هذا فأى معنى لنفخ الروح؟ قلنا في الجواب: إن النطفه عند ما تنعقد في البدايه ليس لها إلا نوعا من «الحياه النباتيه»، أى التغذيه و النمو فقط، أما الحس و الحركه التى هى علامه «الحياه الحيوانيه»، وكذلك قوه الإدراكات التى هى علامه الحياه الإنسانيه، فلا أثر عن كل ذلك.

إن تكامل النطفه فى الرحم تصل إلى مرحله تبدأ عندها بالحركه، و تحيا و تنبعث فيها القوى الإنسانيه الاخرى تدريجيا، و هذه هى المرحله التى يعبر عنها القرآن بنفخ الروح.

أما إضافة «الروح» إلى «الله» فهى «إضافه تشريفيه»، أى إن روحا ثمينه و شريفه بحيث أن من المناسب أن تسمى «روح الله» قد دبت في الإنسان و نفخت فيه، و هذا يبين حقيقه أن الإنسان و إن كان من ناحيه البعد المادى يتكوّن من الطين و الماء، إلا أنه من البعد المعنوى و الروحى يحمل «روح الله».

إن أحد طرفى وجوده ينتهى إلى التراب، و طرفه الآخر يتصل بعرش الله، فإنّه خليط من الملائكه و الحيوان، و لوجود هذين البعدين فإنّ منحني صعوده و نزوله، و تكامله و انحطاطه واسع جدًا (٢).

ص: ١٠٨

١- ١) البعض يعتبر هذه الآيه إشاره إلى مراحل التكامل الجنينى فقط، و البعض الآخر احتمال أن تكون إشاره إلى مراحل تكامل آدم بعد خلقه من التراب، لأنّ عين هذه التعبيرات قد جاء فى آيات اخرى من القرآن. إلا أنه لا مانع من أن تعود إلى الإثنين، لأنّ خلق آدم من التراب، و نسله من منى، طوى و يطوى هذه المراحل.

٢- ٢) بحثنا فى هذا الباب فى ذيل الآيه (٢٩) من سوره الحجر.

و أشار القرآن فى آخر مرحله-و التى تعتبر المرحله الخامسه فى خلق الإنسان-إلى نعمه الاذن و العين و القلب،و من الطبيعى أن المراد هنا ليس خلقه هذه الأعضاء،لأن هذه الخلقه تتكوّن قبل نفخ الروح،بل المراد حسّ السمع و البصر و الإدراك و العقل.

و التأكيد على هذه الحواس الثلاث فقط من بين كلّ الحواس «الظاهره»و «الباطنه»،لأنّ أهمّ حسّ ظاهرى يربط الإنسان بالعالم الخارجى رابطه قويّه هو السمع و البصر،فالأذن تدرك الأصوات،و خاصّه أنّ التربيه و التعليم يتمّ بواسطتها، و العين و سيله النظر إلى العالم الخارجى و مشاهدته مشاهد هذا العالم المختلفه، و قوّه العقل أهمّ حسّ باطنى لدى الإنسان،و بتعبير آخر فإنّه حاكم على وجود البشر.

و الجدير بالذكر أنّ «أفتده» جمع «فؤاد»بمعنى «قلب»و لكن مفهومها أدقّ من القلب حين يقصد بها عاده الحنكه و الفطانه فى الفرد، و بهذا يبيّن الله تعالى فى هذه الآيه أهمّ وسائل المعرفه و الإدراك الظاهريه و الباطنيه فى الإنسان،لأنّ العلوم و المعارف إمّا أن يحصل عليها الإنسان بواسطه «التجربه»فالوسيله هى السمع و البصر،أو عن طريق التحليل و الاستدلال العقلى،و الوسيله لذلك هو العقل و الفؤاد كما ورد التعبير عنه فى هذه الآيه،و حتّى الإدراك الحاصل من الوحي أو الإشراق و الشهود القلبي يتمّ بواسطه هذه الوسيله أيضا،أى «الأفتده».

و لو فقد الإنسان هذه الوسائل للمعرفه،فسوف يخسر قيمته تماما و يصبح مجرد كمّيّه مهمله من المادّه و التراب،و لهذا نجد الآيه الشريفه محل البحث تؤكّد فى ختامها على مسأله الشكر لهذه النعم العظيمه على الإنسان و تقول قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ و ذلك إشاره إلى أنّ الإنسان مهما سعى فى أداء شكر هذه النعم و المواهب العظيمه،فمع ذلك لا يؤدّى حقّ الشكر.

## كيفية خلق آدم من التراب:

رغم أنّ الآيات القرآنية تحدّثت أحيانا عن خلق الإنسان من «طين» (كآيات محلّ البحث)، و كما ورد في قصّه آدم و إبليس في قوله تعالى:

فَسَجِدُوا لِلَّهِ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا

(١)

و أحيانا اخرى عن الخلق من الماء مثل: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ، (٢) إلا أنّ من المعلوم أنّ هذه جميعا تعود إلى مطلب واحد، و حتّى عند الكلام عن خلق آدم من التراب، مثل إنّ مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ . (٣) لأنّ المراد: التراب الممتزج بالماء، أى الطين.

## و من هنا تتضح عدّه نقاط:

١- أنّ الذين احتملوا أنّ المراد من خلق الإنسان من التراب، هو أنّ أفراد البشر يتغذّون على النباتات-سواء كانت التغذية بصوره مباشره أو غير مباشره- و أنّ النباتات كلّها من التراب-قد جانبوا الصواب، لأنّ آيات القرآن يفصّل بعضها بعضا، و الآيات أعلاه إشاره إلى شخص آدم الذى خلق من التراب.

٢- أنّ كلّ هذه الآيات دليل على نفى فرضيه التكامل-و على الأقل في مورد الإنسان، و أنّ نوع البشر الذى ينتهى بآدم له خلق مستقلّ.

و ما قيل من أنّ آيات الخلق من التراب إشاره إلى نوع الإنسان الذى يعود إلى الموجودات أحاديه الخليه بآلاف الوسائط، و هى أيضا قد جاءت طبقا للفرضيات الأخيره-من الطين الموجود على جانب المحيطات، أمّا نفس آدم فقد كان فردا انتخب من بين نوع البشر، و لم يكن له خلق مستقلّ، بل إنّ امتيازه كان

ص: ١١٠

١-١) سورة الإسراء، الآية ٦١.

٢-٢) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.





فى صفاته الخاصه..هذه الفرضيه لا تتناسب مع ظواهر آيات القرآن بأى وجه من الوجوه.

و تؤكد مجدداً أنّ مسأله تحوّل الأنواع ليست قانوناً علمياً مسلماً، بل هى مجرد فرضيه-لأنّ الشىء الذى امتدّ أصله إلى ملايين السنين و خفى فيها، فمن المسلم أنّه لا يخضع للتجربه و المشاهده، و لا يمكن أن يكون فى مصاف القوانين العلميه الثابته-بل هى فرضيه لتوجيه ظاهره تنوع الأجناس التى ظهرت إلى الوجود توجيهاً تخمينياً، و نحن نعلم أنّ الفرضيات فى حاله تغير و تحوّل دائماً حيث تخلى الساحة أمام الفرضيات الجديده.

بناء على هذا، فإنّه لا يمكن الاعتماد عليها مطلقاً فى المسائل الفلسفيه التى تحتاج إلى أسس مسلّمه قطعيه.

و قد أوردنا إيضاحاً مفصّلاً حول أسس فرضيه تكامل الأنواع، و عدم صحّتها، تحت عنوان (القرآن و خلق الإنسان) فى ذيل الآيه (٢٨) من سوره الحجر.

و فى نهايه هذا البحث نرى لزاماً ذكر هذه المسأله، و هى أنّه ليس لفرضيه التكامل أى ارتباط بمسأله التوحيد و معرفه الله، و لا تعتبر دليلاً-على نفى عالم ما وراء الطبيعه، لأنّ الإعتقاد التوحيدي يقول: إنّ العالم قد خلق من قبل الله سبحانه، و إنّّه هو الذى أعطى كلّ خواص الموجودات، و يشملها بفيضه فى جميع المراحل.

إنّ هذا المعنى يمكن أن يقبله المعتقد بنظريه (ثبوت الأنواع) كما يقبله من يذهب إلى (تطور الأنواع)، غير أنّ المشكله الوحيدّه التى يواجهها المعتقد بفرضيه تحوّل الأنواع هى أنّ هذه الفرضيه لا تتناسب مع التفصيل الذى بيّنه القرآن الكريم حول خلق آدم، حيث يذكر كيفيّة خلقه من التراب و الطين.

بناء على هذا فإنّنا نفى فرضيه التكامل لهذا السبب فقط، لا بسبب مخالفتها لمسأله التوحيد. هذا من الناحيه التفسيريه.

أما من الناحية العلميه-أى العلوم الطبيعیه-فإننا ننفى فرضیه التكامل-و كما أشير إلى ذلك-من جهه عدم امتلاكها الأدله القطعيه  
على ثبوتها.

ص: ١١٢

إشاره

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصِرْنَا وَرَبَّنَا وَسْمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

التفسير

إشاره

الندم و طلب الرجوع:

تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلي حول المعاد، ثم تبين و تبحث حال المجرمين في العالم الآخر، وهي في المجموع تتمه للبحوث السابقة التي تحدثت حول المبدأ، إذ أن البحث عن المبدأ و المعاد مقترنان غالبا في القرآن المجيد

فتقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَتَسَاءَلُونَ بِاسْتِعْرَابِ بَأْنِنَا إِذَا مِتْنَا وَتَحَوَّلَتْ أَسْدَانُنَا إِلَى تَرَابٍ وَانْدَثَرَتْ تَمَامًا فَهَلْ سَوْفَ نَخْلُقُ مِنْ جَدِيدٍ: وَ قَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .

إِنَّ التَّعْبِيرَ بِضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَصْبِحُ تَرَابًا بَعْدَ مَوْتِهِ كَسَائِرِ الْأَتْرَابِ وَ يَتَفَرَّقُ هَذَا التَّرَابُ نَتِيجَةً الْعَوَامِلِ الطَّبِيعِيَّةِ وَ غَيْرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَ لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى يَعِيدَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي الْقِيَامَةِ مَرَّةً أُخْرَى.

إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُنْكَرِينَ قُدْرَةَ اللَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ بَلْ هُمْ بِإِقْلَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ فَإِنَّهُمْ يَنْكُرُونَ مَرَحِلَةَ لِقَاءِ اللَّهِ وَ الْحِسَابَ وَ الثَّوَابَ وَ الْعِقَابَ وَ لِتَبْرِيرِ حَرِيهِ الْعَمَلِ وَ لِيَعْمَلُوا مَا يَرِيدُونَ! وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَشْبَهُ كَثِيرًا الْآيَاتِ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ الْقِيَامَةِ الَّتِي تَقُولُ: أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانِهِ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . (١)

بِنَاءً عَلَى هَذَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا قَاصِرِينَ مِنْ نَاحِيَةِ الْاسْتِدْلَالِ، وَ لَكِنْ شَهَوَاتِهِمْ حَجَبَتْ قُلُوبَهُمْ، وَ نِيَّاتِهِمْ السَّيِّئَةَ مَنَعَتْهُمْ مِنْ قَبُولِ مَسْأَلَةِ الْمَعَادِ، وَ إِلَّا فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَعْطَى قِطْعَةَ الْمَغْنَطِيسِ الْقُوَّةَ الَّتِي تَجْذِبُ إِلَى نَفْسِهَا ذَرَّاتِ الْحَدِيدِ الصَّغِيرَةِ جَدًّا وَ الْمَتَنَاطِرَةَ فِي طَيِّبَاتِ أَطْنَانِ مِنْ تَرَابِ الْأَرْضِ مِنْ خِلَالِ جَوْلِهِ سَرِيعِهِ فِي تَلْكَ الْأَرْضِ، وَ تَجْمَعُهَا بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ بَيْنَ ذَرَّاتِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ مِثْلَ هَذِهِ الْجَازِيَةِ الْمُتَقَابِلَةِ.

مِنْ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكُرَ أَنَّ الْمِيَاهَ الْمَوْجُودَةَ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ - وَ أَكْثَرَ جِسْمِ الْإِنْسَانِ مَاءٌ - وَ كَذَلِكَ الْمَوَادِّ الْغِذَائِيَّةِ، كَانَتْ ذَرَّاتِهَا مُتَنَاطِرَةً فِي زَاوِيَةِ مِنَ الْعَالَمِ قَبْلَ أَلْفِ عَامٍ مِثْلًا، وَ كُلُّ قِطْرَةٍ فِي مَحِيطٍ، وَ كُلُّ ذَرَّةٍ فِي إِقْلِيمٍ، إِلَّا أَنَّهَا تَجْمَعَتْ عَنْ طَرِيقِ

ص: ١١٤

السحاب و المطر و العوامل الطبيعيه الاخرى، و كوّنت الوجود الإنسانى فى النهايه، فأى داع للعجب من أن تجتمع و ترجع إلى حالها الأول بعد تلاشيها و تبعثرها؟! و تجيب الآيه هؤلاء عن طريق آخر، فتقول: لا- تتصوّروا أنّ شخصيتكم بأبدانكم و أجسامكم، بل بأرواحكم، و هى باقيه و محفوظه: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

إذا لا حظنا أنّ معنى «يتوفّاكم»- من ماده «توفّى»(على وزن تصدّى)، هو الإستيفاء، فإنّ الموت سوف لا يعنى الفناء، بل نوع من قبض الملائكه لروح الإنسان التى تشكّل أهمّ من وجود الإنسان.

صحيح أنّ القرآن يتحدّث عن المعاد الجسمانى، و يعتبر رجوع الروح و الجسم المادى فى المعاد حتمياً، إلا أنّ الهدف من الآيه أعلاه هو بيان أنّ هذه الأجزاء المادى التى شغلتم بها فكركم تماماً ليست هى أساس شخصيته الإنسان، بل الأساس هو الجوهر الروحى الذى جاء من قبل الله تعالى و إليه يرجع.

و فى المجموع يمكن أن يقال: إنّ الآيتين أعلاه تجيبان منكرى المعاد بهذا الجواب: إذا كان إشكالكم فى تفرّق الأجزاء الجسميه، فإنّكم تقرّون بقدره الله سبحانه و لا تنكرونها، و إذا كان إشكالكم فى اضمحلال و فناء شخصيه الإنسان على أثر تناثر تلك الذرات، فلا يصحّ ذلك لأنّ أساس شخصيته الإنسان يستند إلى الروح.

و هذا الإيراد لا يختلف عن شبهه (الآكل و المأكول) المعروفه، كما أنّ جوابه فى الموردین يشبه جواب تلك الشبهه (1).

و ثمّه مسأله ينبغى التوجّه إليها، و هى أنّ فى بعض آيات القرآن نسب التوفّى

ص: ١١٥

١-١) لمزيد الإيضاح حول شبهه (الآكل و المأكول) و جوابها المفصّل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه (٢٦٠) من سوره البقره.

إلى الله سبحانه: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْمَأْنُفَسَ حِينَ مَوْتِهَا، (١) و في بعضها إلى مجموعته من الملائكة: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ... (٢). و في الآيات مورد البحث نسب قبض الأرواح إلى ملك الموت، إلا- أنه لا- منافاه بين هذه التعبيرات مطلقا، فإن لملك الموت معنى الجنس، و هو يطلق على كل الملائكة، أو هو إشاره إلى كبير الملائكة و زعيمها، و لما كان الجميع يقبضون الأرواح بأمر الله سبحانه، فقد نسب الفعل إلى الله عز و جلّ.

ثم تجسّد وضع هؤلاء المجرمين الكافرين و منكري المعاد الذين يندمون في القيامة أشدّ الندم على ما كان منهم لدى مشاهدته مشاهدها و مواقفها المختلفه.

فتقول: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (٣).

ستعجب حقّا! هؤلاء النادمون الناكسو الرؤوس هم أولئك المتكبرون العتاه العصاه الذين لم يكونوا يذعنون في الدنيا لأية حقيقه؟! إلا- أنهم الآن يتغيرون تماما عند رؤيه مشاهد القيامة و يصلون إلى مستوى الشهود، لكنّ هذا الوعي و تغيير الموقف سريع الزوال، فإنهم- و طبقا لآيات القرآن الاخرى- لو رجعوا إلى هذه الدنيا لعادوا إلى حالتهم الأولى، الأنعام/الآيه ٢٨.

«الناكس» من مادّه (نكس) على وزن (كلب) بمعنى انقلاب الشيء، و هنا يعني خفض الرأس إلى الأسفل و طأطأته.

تقديم «أبصرنا» على «سمعنا» لأنّ الإنسان يرى المشاهد و المواقف أولا، ثم يسمع استجواب الله و الملائكة.

ص: ١١٤

١- (١) الزمر، ٤٢.

٢- (٢) النحل، ٢٨.

٣- (٣) (لو) في الآيه الشريفه شرطيه، شرطها جمله (و ترى..) و جزاؤها محذوف، و التقدير: «و لو ترى إذ المجرمون... لرأيت عجبا». و في جمله (ربنا أبصرنا) حذف تقديره: يقولون ربنا أبصرنا.

و يتبين ممّا قلناه أنّ المراد من «المجرمين» هنا الكافرون، و خاصّه منكرى القيامة.

و على كلّ حال، فليست هذه المرّة الاولى التى نواجه فيها هذه المسأله فى آيات القرآن، و هى أنّ المجرمين يندمون أشدّ الندم عند مشاهدته نتائج الأعمال و العذاب الإلهي، و يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فى حين أنّ مثل هذا الرجوع غير ممن فى السنّه الإلهيه، كما أنّ رجوع الطفل إلى رحم الأمّ، و الثمره المقطوفه إلى الشجره غير ممكن.

و الجدير بالذكر أنّ طلب المجرمين الوحيد هو الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا، و من هنا يتّضح جيّدا أنّ رأس مال النجاه الوحيد فى القيامة هو الأعمال الصالحه.. تلك الأعمال التى تنبع من قلب طاهر ملئ بالآيمان، و تتمّ بخالص التيه.

و لما كان كلّ هذا الإصرار و التأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز الله سبحانه عن أن يلقى نور الإيمان فى قلوب هؤلاء، فإنّ الآيه التاليه تضيف: **وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى**.

فمن المسلم أنّ الله تعالى يمتلك مثل هذه القدره، إلا أنّ الإيمان الذى يتحقّق و يتمّ بالإجبار لا قيمه له، و لذا فالمشيئه الإلهيه أرادت أن ينال الإنسان شرف كونه مختارا، و أن يسير فى طريق التكامل بحريته و إختياره، و لذلك تضيف فى النهايه لقد قرّرت أن أخلق الإنسان مختارا **وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**.

أجل.. إنّ المجرمين سلكوا هذا الطريق بسوء اختيارهم، و لذلك فهم مستحقّون للعقاب، و نحن قد قطعنا على أنفسنا أن نملأ جهنّم منهم.

و بملاحظه ما قلناه، و بملاحظه مئات الآيات القرآنيه التى تعتبر الإنسان موجودا مختارا ذا إرادته، و مكلفا بتكاليف، و مسئولا عن أعماله، و قابلا للهدايه



بواسطه الأنبياء و تهذيب النفس و تربيتها، فإنَّ كلَّ توهم يبتنى على أنَّ الآيه أعلاه دليل على الجبر- كما ظنَّ ذلك الفخر الرازى و أمثاله- واضح البطلان.

و لعلَّ الجملة الشديده القاطعه أعلاه إشاره إلى أن لا- تتصوِّروا أنَّ رحمه الله الواسعه تمنع من عقاب المجرمين الفسقه و الظالمين، و أن لا تغتروا بآيات الرحمه و تعدوا أنفسكم بمأمن من العذاب الإلهى، فإنَّ لرحمته موضعا، و لغضبه موضعا.

إنَّه عزَّ و جلَّ سيفى بوعيده حتما- و خاصه بملاحظه لام القسم فى جملة (لأملأن) و نون التوكيد فى آخرها- و سيملاً جهنم من أصحابها هؤلاء، و إن لم يفعل فذلك خلاف الحكمة، و لذلك تقول الآيه التاليه: **إِنَّا سَنَقُولُ لِأَصْحَابِ النَّارِ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .**

مره اخرى يستفاد من هذه الآيه أنَّ نسيان محكمه القيامه العادله هو الأساس لكلِّ تعاسه و شقاء للإنسان، لأنَّه سيرى نفسه فى هذه الصوره حرًا إزاء ارتكاب القبائح و الظلم و العدوان.

و كذلك يستفاد من الآيه بوضوح أنَّ العقاب الأبدى للفرد معلول لما ارتكبه من أعمال فى دار الدنيا، لا لشيء آخر.

و ضمنا يتضح أنَّ المراد من «نسيان الله» هو عدم رعايته و نصرته لهم، و إلا- فإنَّ جميع العالم حاضر دوما عند الله، و لا معنى للنسيان بالنسبه له عزَّ و جلَّ.

## مسألان

### اشاره

### ١- استقلال الروح و أصلتها

الآيه الاولى من الآيات مورد البحث، و التى لها دلالة على قبض الأرواح بواسطه ملك الموت، من أدلّه استقلال روح الإنسان، لأنَّ التعبير بالتوفى (و الذى

يعنى القبض) يوحى بأن الروح تبقى بعد انفصالها عن البدن و لا تفتنى.

و التعبير عن الإنسان فى الآيه بالروح أو النفس فى الآيه أعلاه شاهد آخر على هذا المعنى، لأنّ الروح-وفق نظريه الماديين- ليست إلاّ الخواص الفيزيائية و الكيميائية للخلايا المخيّه، و هى تفتنى بفنائها، تماماً كما تفتنى حركات عقارب الساعه بعد فنائها و تحطّمها. و طبقاً لهذه النظرية فإنّ الروح ليست هى المحافظه على شخصيه الإنسان، بل هى جزء من خواصّ جسمه تتلاشى عند تلاشى جسمه.

و لدينا أدلّه فلسفيه عديده على أصاله الروح و استقلالها، ذكرنا بعضاً منها فى ذيل الآيه (٨٥) من سوره الإسراء، و المراد هنا بيان الدليل النقلى على هذا الموضوع، حيث تعتبر الآيه أعلاه من الآيات الدالّه على هذا المعنى.

## ٢- ملك الموت

يستفاد من آيات القرآن المجيد أنّ الله سبحانه يدبّر امور هذا العالم بواسطه مجموعه من الملائكه، كما فى الآيه (٥) من سوره النازعات حيث يقول:

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا وَ نَعْلَمُ أَنَّ السَّعَةَ الْإِلَهِيَّةَ قَدْ جَرَتْ عَلَى أَنْ تَمْضَى الْأُمُورُ بِأَسْبَابِهَا.

و قسم من هؤلاء الملائكه هم الملائكه الموكّلون بقبض الأرواح، و الذين أشارت إليهم الآيات (٢٨ و ٣٣) من سوره النحل، و بعض الآيات القرآنيه الاخرى، و على رأسهم ملك الموت.

و قد رويت أحاديث كثيره فى هذا الباب، تبدو الإشاره إلى بعضها لازمه من جهات:

-١

فى حديث روى عن الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله أنّه قال: «الأمراض و الأوجاع كلّها بريد الموت و رسل الموت! فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: يا أيّها العبد، كم خبر بعد خبر؟ و كم رسول بعد رسول؟ و كم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر

ص: ١١٩

الذى ليس بعدى خبر! وأنا الرّسول أجب ربّك طائعا أو مكرها.

فإذا قبض روحه و تصارخوا عليه، قال: على من تصرخون؟ و على من تبكون؟ فو الله ما ظلمت له أجلا، و لا أكلت له رزقا، بل دعاه ربّه، فليبك الباكي على نفسه، و إنّ لى فيكم عودات و عودات حتّى لا ابقى فيكم أحدا» (١).

طالعوا هذا الحديث المروّع مرّه اخرى، فقد أخفيت فيه حقائق كثيره.

٢-و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «دخل رسول الله على رجل من الأنصار يعوده، فإذا ملك الموت عند رأسه، فقال رسول الله: يا ملك الموت، ارفق بصاحبى فإنه مؤمن، فقال: أبشر يا محمّد، فإننى بكلّ مؤمن رفيق، و اعلم يا محمّد، أنّى لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله، فأقوم فى جانب الدار فأقول: و الله، ما لى من ذنب، و إنّ لى لعوده و عوده، الحذر الحذر، و ما خلق الله من أهل بيت و لا مدر و لا شعر و لا وبر، فى برّ و لا بحر إلّا و أنا أتصفّحهم فى كلّ يوم و ليله خمس مرّات حتّى أنّى لأعرف بصغيرهم و كبيرهم منهم بأنفسهم» (٢).

و قد وردت روايات اخرى بهذا المضمون فى مختلف المصادر الإسلاميه، تحذّر جميعا كلّ البشر أنّ المسافه بينهم و بين الموت ليست كبيره! و من الممكن جدّا أن ينتهى كلّ شىء فى لحظه قصيره.

أ يحسن بالإنسان و الحال هذه أن يغترّ و ينخدع بزخارف هذه الدنيا و زبرجها، و يتلوّث بأنواع المعاصى و الظلمات، و يبقى غافلا عن عاقبه أعماله!؟

ص: ١٢٠

١-١) مجمع البيان ذيل الآيه مورد البحث، و تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٢٥.

٢-٢) تفسير الدرّ المنتور طبقا لنقل الميزان، الجزء ١٦، صفحہ ٢٥٥.

اشاره

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٢٠)

التفسير

اشاره

جوائز عظيمه لم يطلع عليها أحد!

إنَّ طريقه القرآن هي أنه يبين كثيرا من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضها، لتكون مفهومه و مستقره في القلب تماما، وهنا أيضا بعد الشرح و التفصيل الذي مرَّ

فى الآيات السابقة حول المجرمين و الكافرين، فإنه يتطرق إلى صفات المؤمنين الحقيقيين البارزه، و يبين أصولهم العقائديه، و برامجهم العمليه بصوره مضغوطه ضمن آيتين بذكر ثمان صفات (١)، فيقول أولاً: **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**.

التعبير ب(إنما) الذى يستعمل عادة لإفاده معنى الحصر، يبين أن كل من يتحدث عن الإيمان و يتمشقه به، و لا يمتلك الخصائص و الصفات التى وردت فى هذه الآيات، فإنه لا يكون فى صف المؤمنين الواقعيين، بل هو شخص ضعيف الإيمان. لقد بينت فى هذه الآيه أربع صفات:

١- أنهم يسجدون بمجرد سماعهم آيات الله، و التعبير ب خَرُّوا بدل سَجَدُوا إشارة إلى نكته لطيفه، و هى أن هؤلاء المؤمنين ينجذبون إلى كلام الله لدى سماعهم آيات القرآن و يهيمون فيها بحيث يسجدون لا إرادياً (٢). نعم.. إن أول خصائص هؤلاء هو العشق الملتهب، و العلاقه الحميمه بكلام محبوبهم و معشوقهم.

لقد ذكرت هذه الصفه و الخاصيه فى بعض آيات القرآن الاخرى كأحد أبرز صفات الأنبياء، كما يقول الله سبحانه فى شأن جمع من الأنبياء العظام: **إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**. (٣) ص: ١٢٢

١- ١) ينبغى الالتفات إلى أن الآيه الاولى هى اولى السجودات الواجبه فى القرآن الكريم، و إذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعاً لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الاحتياط فى وضع الجبهه على ما يصح السجود عليه. ٢- ٢) يقول الراغب فى المفردات: (خَرُّوا) فى الأصل من مآده الخير، أى صوت الماء و أمثاله حين انحداره من مرتفع إلى منخفض، و استعماله هذا التعبير فى شأن الساجدين إشارة إلى أن هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبيح فى لحظه هويهم إلى الأرض للسجود. ٣- ٣) سوره مريم، الآيه ٥٨.

و بالرغم من أن الآيات هنا ذكرت بصوره مطلقه،و لكن من المعلوم أن المراد منها غالباً الآيات التي تدعو إلى التوحيد و محاربه الشرك.

٣-٢-علامتهم الثانيه و الثالثه تسبيح الله و حمده،فهم ينزهون الله تعالى عن النقائص من جهه،و من جهه اخرى فإنهم يحمده و يثنون عليه لصفات كماله و جماله.

٤-و الصفه الاخرى لهؤلاء هي التواضع و ترك كل أنواع التكبر،لأن الكبر و الغرور أول درجات الكفر و الجحود،و التواضع أمام الحق و الحقيقه أولى خطوات الإيمان! إن الذين يسيرون في طريق الكبر و العجب لا يسجدون لله،و لا يسبحونه و لا يحمده،و لا يعترفون بحقوق عباده! إن هؤلاء صنما عظيما،و هو أنفسهم! ثم أشارت الآيه الثانيه إلى أوصاف هؤلاء الاخرى،فقلت: **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ (١)** فيقومون في الليل،و يتجهون إلى ربهم و محبوبهم و يشرعون بمناجاته و عبادته.

نعم..إن هؤلاء يستيقظون و يحيون قدرا من الليل في حين أن عيون الغافلين تغط في نوم عميق،و حينما تتعطل برامج الحياه العاديه،و تقل المشاغل الفكرية إلى أدنى مستوى،و يعم الهدوء و الظلام كل الأرجاء،و يقل خطر التلوث بالرياء في العباده،و الخلاصه:عند توفر أفضل الظروف لحضور القلب،فإنهم يتجهون بكل وجودهم إلى معبودهم،و يطأطئون رؤوسهم عند أعتاب معشوقهم،و يخبرونه بما في قلوبهم،فهم أحياء بذكره،و كؤوس قلوبهم طافحه بحبه و عشقه.

ثم تضيف: **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا .**

ص: ١٢٣

١ - ١) «تتجافى» من مادّه «جفا»،و هي في الأصل بمعنى القطع و الحمل و الإبعاد،و(الجنوب)جمع جنب،و هو الجانب،و (المضاجع)جمع مضجع،و هو محل النوم،و إبعاد الجانب عن محل النوم كناية عن النهوض من النوم و التوجه إلى عباده الله في جوف الليل.

و هنا تذكر الآيه صفتين آخرين لهؤلاء هما: «الخوف» و«الرجاء»، فلا يأمنون غضب الله عزّ وجلّ، ولا يأسون من رحمته، و التوازن بين الخوف و الرجاء هو ضمان تكاملهم و توغّلهم في الطريق إلى الله سبحانه، و الحاكم على وجودهم دائما، لأنّ غلبه الخوف تجرّ الإنسان إلى اليأس و القنوط، و غلبه الرجاء تغرى الإنسان و تجعله في غفله، و كلاهما عدوّ للإنسان في سيره التكاملي إلى الله سبحانه.

و ثامن صفاتهم، و آخرها في الآيه أنّهم و ممّا رزقناهم يُنْفِقُونَ .

فهم لا- يهبون من أموالهم للمحتاجين و حسب، بل و من علمهم و قوتهم و قدرتهم و رأيهم الصائب و تجاربهم و رصيدهم الفكرى، فيهبون منها ما يحتاج إليه الغير.

إنّهم ينبوع من الخير و البركه، و عين فؤاره من ماء الصالحات العذب الصافى الذى يروى العطاشى، و يغنى المحتاجين بحسب استطاعتهم.

نعم.. إنّ أوصاف هؤلاء مجموعه من العقيدة الرصينه الثابته، و الإيمان القوىّ و العشق الملتهب لله، و العباده و الطاعه، و السعى و الحرکه الدؤوبه، و معونه عباد الله في كلّ المجالات.

ثمّ تطرقت الآيه التاليه إلى الثواب العظيم للمؤمنين الحقيقيين الذين يتمتّعون بالصفات المذكوره في الآيتين السابقتين، فتقول بتعبير جميل يحكى الأهميه الفائقه لثوابهم: **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .**

التعبير ب **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ** و كذلك التعبير ب **قُرَّةِ أَعْيُنٍ** مبين لعظمه هذه المواهب و العطايا التى لا عد لها و لا حصر، خاصه و أنّ كلمه (نفس) قد وردت بصيغه النكره فى سياق النفسى، و هى تعنى العموم و تشمل كلّ النفوس حتّى ملائكه الله المقربين و أولياء الله.

و التعبير ب **قُرَّةِ أَعْيُنٍ** من دون الإضافه إلى النفس، إشاره إلى أنّ هذه النعم

الإلهية التي خصّصت كثواب و جزاء للمؤمنين المخلصين في الآخرة، في هيئته تكون معها قرّة لعيون الجميع.

(قرّة) مادّة القرّ، أى البرودة، و من المعروف أنّ دموع الشوق بارده دائما، و أنّ دمع الغمّ و الحسره حارّ محرق، فالتعبير بقرّة أعينٍ يعنى فى لغه العرب الشىء الذى يسبّب بروده عين الإنسان، أى أنّ دموع الشوق و الفرح تجرى من أعينهم، و هذه كناية لطيفه عن منتهى الفرح و السرور و السعاده.

و

فى حديث عن النبى الأكرم صلّى الله عليه و آله: «إنّ الله يقول: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر» (1).

و ثمّه سؤال طرحه المفسّر الكبير العلامه «الطبرسى» فى (مجمع البيان) و هو:

لماذا اخفى هذا الثواب و الجزاء؟ ثمّ يذكر ثلاثه أجوبه لهذا السؤال:

١- أنّ الأمور المهمه و القيمه لا يمكن إدراك حقيقتها بسهوله من خلال الألفاظ و الكلام، و لذلك فإنّ إخفاءها و إبهامها يكون أحيانا أكثر تحفيزا، و أبعث على النشاط، و هو أبلغ من ناحيه الفصاحه.

٢- أنّ الشىء الذى يكون قرّة للأعين، يكون عاده مترامى الأطراف إلى الحدّ الذى لا يصل علم ابن آدم إلى جميع خصوصياته.

٣- لمّا كان هذا الجزاء قد جعل لصلاه الليل المستوره، فإنّ المناسب أن يكون ثواب هذا العمل عظيما و مخفيا أيضا. و ينبغى الالتفات إلى أنّ جملة تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ فى الآيه السابقه إشاره إلى صلاه الليل.

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «ما من حسنه إلّا و لها ثواب مبيّن فى القرآن، إلّا صلاه الليل، فإنّ الله عزّ اسمه لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها، قال: فلا تعلم

ص: ١٢٥

(١- ١) نقل هذا الحديث كثير من المفسّرين، و من جملتهم الطبرسى فى مجمع البيان، و الآلوسى فى روح المعانى، و القرطبى فى تفسيره. و قد أورده المحدثان المشهوران البخارى و مسلم فى كتبهما أيضا.



نفس ما اخفى لهم من قرّه أعين» (١).

و بغضّ النظر عن كلّ ذلك، فإنّ عالم القيامة -و كما أشرنا إلى ذلك سابقا-عالم أوسع من هذا العالم سعه لا- تحتل المقارنه، فهو أوسع حتّى من الحياه الدنيا بالقياس إلى حياه الجنين فى رحم الامّ، و أبعاد ذلك العالم لا يمكن إدراكها عاده بالنسبه لنا نحن السجناء داخل الجدران الأربعة للدنيا، و لا يمكن تصوّره من قبل أحد.

إنّنا نسمع كلاما عنه فقط، و نرى شبحه من بعيد، لكنّنا ما لم ندرك و لم نر ذلك العالم، فإنّ من المحال إدراك أهميته و عظّمته، كما أنّ إدراك الطفل فى بطن الامّ لنعم هذه الدنيا-على فرض امتلاكه العقل و الإحساس الكامل-غير ممكن.

و قد ورد نفس هذا التعبير فى شأن الشهداء فى سبيل الله، ذلك أنّ الشهيد عند ما يقع على الأرض تقول له الأرض: مرحبا بالروح الطيبه التى خرجت من البدن الطيب، أبشر فإنّ لك ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر (٢).

و تبين الآيه التاليه المقارنه التى مرّت فى الآيات السابقه بصيغه أكثر صراحه، فتقول: أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا .

لقد وردت الجملة بصيغه الاستفهام الإنكارى، ذلك الاستفهام الذى ينبعث جوابه من عقل و فطره كلّ إنسان بأنّ هذين الصنفين لا يستويان أبدا، و فى الوقت نفسه، و للتأكيد، فقد أوضحت الآيه عدم التساوى بصوره أوضح بذكر جمله: لا يَسْتَوُونَ .

لقد جعل «الفاسق» فى مقابل «المؤمن» فى هذه الآيه، و هذا دليل على أنّ للفسق مفهوما واسعا يشمل الكفر و الذنوب الاخرى، لأنّ هذه الكلمه أخذت فى الأصل من جمله (فسقت الثمره) إذا خرجت من قشرها، ثمّ أطلقت على الخروج

ص: ١٢٦

١- ١) مجمع البيان. ذيل الآيات مورد البحث.

٢- ٢) مجمع البيان، ج ٢ ذيل الآيه (١٧١) من آل عمران، و التفسير الأمثل، ذيل نفس الآيه.

على أوامر الله و العقل و عصيانها، و نعلم أنّ كلّ من كفر، أو ارتكب معصيه فقد خرج على أوامر الله و العقل.

و ممّا يجدر ذكره أنّ الثمره ما دامت فى قشرها فهى سالمه، و بمجرد أن تخرج من القشر تفسد، و بناء على هذا فإنّ فسق الفاسق كفسق الثمره، و فساده كفسادها.

و نقل جمع من المفسرين الكبار فى ذيل هذه الآيه

أنّ «الوليد بن عقبه» قال يوماً لعلّى عليه السّلام: أنا أبسط منك لساناً، و أحدّ منك سناناً! إشاره إلى أنّه -بظنّه- يفوق علياً فى الفصاحه و الحرب، فأجابه على عليه السّلام: «ليس كما تقول يا فاسق»، إشاره إلى أنّك أنت الذى اتّهمت بنى المصطلق بوقوفهم ضدّ الإسلام فى قصّه جمع الزكاه منهم، فكذبك الله و عدّك فاسقاً فى الآيه (٦) من سوره الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا... (١)﴾.

و أضاف البعض هنا بأنّ آيه: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا نزلت بعد هذه المحاوره، لكن يبدو من ملاحظه أنّ السوره مورد البحث (سوره السجده) نزلت فى مكّه، و قصّه الوليد و بنى المصطلق وقعت فى المدينه، فهذا من قبيل تطبيق الآيه على مصداق واضح لها.

و بناء على ما ذهب بعض المفسرين من أنّ الآيه أعلاه و الآيتين بعدها مدينه، لا يبقى إشكال من هذه الجبهه، و لا مانع من أن تكون هذه الآيات الثلاث قد نزلت بعد المحاوره أعلاه.

و على كلّ حال، فلا- بحث و لا- جدال فى إيمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام العميق المتأصل، و لا فى فسق الوليد، حيث أشير فى آيات القرآن لكلا الإثنين.

ص: ١٢٧

١- ١) أورد هذه الروايه العلامه الطبرسى فى مجمع البيان، و القرطبى فى تفسيره، و الفاضل البرسوى فى روح البيان. و ممّا يستحقّ الانتباه أنّنا نقرأ فى كتاب (اسد الغابه فى معرفه الصحابه) أنّه لا خلاف بين المطلعين على تفسير القرآن و العالمين به فى أنّ آيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا﴾ نزلت فى حقّ الوليد بن عقبه فى قصّه بنى المصطلق.

و تبيّن الآيه التاليه عدم المساواه هذه بصوره أوسع و أكثر تفصيلا،فتقول: **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ** (١) **ثُمَّ تَصِيفُ الْآيَةَ بِأَنَّ هَذِهِ الْجَنَّاتِ قَدْ أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ لِاسْتِقْبَالِهِمْ فِي مَقَابِلِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ: نَزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .**

إنّ التعبير ب«نزلا»،و الذى يقال عاده للشىء الذى يهيئونه لاستقبال و إكرام الضيف،إشاره لطيفه إلى أنّ المؤمنين يستقبلون و يخدمون دائما كما هو حال الضيف،فى حين أنّ الجهنّيين- كما سيأتى فى الآيه الآتية- كالسجناء الذين يأملون الخروج منها فى كلّ حين،ثمّ يعادون فيها! و ما ورد فى الآيه(١٠٢)من سوره الكهف: **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَزُلًا فَإِنَّهُ مِنْ قَبِيلِ فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** و هو كناية عن أنّه يعاقب و يعذب هؤلاء بدل إكرامهم،و يهدّدون مكان بشارتهم.

و يعتقد البعض أنّ«النزل»أول شىء يستقبل به الضيف الوارد لتوّه-كالشأى و العصير فى زماننا-و بناء على هذا فإنّه إشاره لطيفه إلى أنّ جنّات المأوى بتمام نعمها و بركاتها هى أول ما يستقبل به ضيوف الرحمن،ثمّ تتبعها المواهب فى بركات اخرى لا يعلمها إلاّ الله سبحانه.

و التعبير ب **فَلَهُمْ جَنَّاتٌ** لعله إشاره إلى أنّ الله سبحانه لا يعطيهم بساتين الجنّه عاريه،بل يملكهم إياها إلى الأبد،بحيث لا يعكّر هدوء فكرهم احتمال زوال هذه النعم مطلقا.

و تطرقت الآيه التاليه إلى النقطه التى تقابل هؤلاء،فتقول: **وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ** فهؤلاء محلّدون فى هذا المكان المرعب بحيث أنّهم **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ** الذى **كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ .**

ص: ١٢٨

١-١) «المأوى»من مادّه(أوى)بمعنى انضمام شىء إلى شىء آخر،ثمّ قيلت للمكان و المسكن و المستقرّ.

مرّه اخرى نرى هنا العذاب الإلهى قد جعل فى مقابل «الكفر و التكذيب»، و الثواب و الجزاء فى مقابل «العمل»، و هذا إشاره إلى أنّ الإيمان لا- يكفى لوحده، بل يجب أن يكون حافظا و باعثا على العمل، إلا أنّ الكفر كاف لوحده للعذاب، و إن لم يرافقه و يقترن به عمل.

بحث

إشاره

أصحاب الليل!

ورد لجملة: **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** تفسيران فى الروايات الإسلاميه:

أحدهما: تفسيرها بصلاه «العشاء»، و هو يشير إلى أنّ المؤمنين الحقيقيين لا ينامون بعد صلاه المغرب و قبل صلاه العشاء مخافه أن يغلب عليهم النوم فتفوتهم صلاه العشاء (لأنّ المعتاد فى ذلك الزمان أنّهم كانوا يستريحون فى أوّل الليل- و كانوا يفرّقون بين صلاتى المغرب و العشاء، طبقا لاستحباب التفريق بين الصلوات الخمس، و كانوا يؤدّون كلا منهما فى وقت فضيلتها) فربّما لم يستيقظوا لصلاه العشاء إذا ما ناموا بعد صلاه المغرب مباشره.

و قد روى هذا التفسير ابن عباس عن النبى صلى الله عليه و آله طبقا لنقل الدرّ المنثور، و كذلك روى فى أمالى الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام (1).

و ثانيهما: أنّها فسرت بالقيام و النهوض من النوم و المضجع لأداء صلاه الليل فى أغلب الرّوايات و كلمات المفسرين:

ففى روايه عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أخبرك بالإسلام أصله و فرعه و ذروه سنامه»؟ قال: بلى، جعلت فداك، قال: «أما أصله فالصلاه،

ص: ١٢٩

(١-١) الدرّ المنثور و أمالى الشيخ طبقا لنقل تفسير الميزان الجزء ١٦ صفحه ٢٤٨.

و فرعه الزكاه، و ذروه سنامه الجهاد! ثم قال: «إن شئت أخبرتك بأبواب الخير»؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: «الصوم جنّه، و الصدقه تذهب بالخطيئه، و قيام الرجل فى جوف الليل بذكر الله، ثم قرأ:

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ

(١)

روى فى (تفسير مجمع البيان) عن معاذ بن جبل، قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه و آله فى غزوه تبوك، و قد أصابنا الحرّ ففرّق القوم، فإذا رسول الله صلى الله عليه و آله أقربهم منى، فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله، أنبئنى بعمل يدخلنى الجنّه، و يباعدنى من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم و إنّه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله و لا تشرك به شيئاً، و تقيم الصلاه المكتوبه، و تؤدى الزكاه المفروضه، و تصوم شهر رمضان».

قال: «و إن شئت أنبأتك بأبواب الخير» قال: قلت: أجل يا رسول الله، قال:

«الصوم جنّه، و الصدقه تكفر الخطيئه، و قيام الرجل فى جوف الليل يبتغى وجه الله» ثم قرأ هذه الآيه تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ (٢).

و بالرغم من عدم وجود المانع من أن يكون للآيه معنى واسعاً يشمل البقاء على يقظته فى أوّل الليل لصلاه العشاء، إضافة إلى النهوض فى السحر لصلاه الليل، إلاّ أنّ الدقه فى مفهوم (تتجافى) تعكس المعنى الثانى فى الذهن أكثر، لأنّ ظاهر الجمله أنّ الجنوب قد اضطجعت و هدأت فى المضاجع، ثم تجافت و ابتعدت عنها، و هذا يناسب القيام آخر الليل لأداء الصلاه، و بناء على هذا فإنّ المجموعه الاولى من الروايات من قبيل شموليه المفهوم و إلغاء الخصوصيه.

و بالرغم من أنّ هذه الروايات القليله تبدو كافيه حول أهميه هذه الصلاه المباركه، إلاّ أنّ الروايات الإسلاميه قد أولت هذه العباده اهتماماً عظيماً قلّ أن

ص: ١٣٠

١-١) اصول الكافى، الجزء ٢، باب دعائم الإسلام صفحه ٢٠ حديث ١٥، و المصدر السابق.

٢-٢) مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث، و تفسير نور الثقلين، الجزء ٤، صفحه ٢٢٩.

تحدّث بهذا المقدار عن عباده اخرى.

لقد اهتمّ أنصار الحقّ و محبّوه و سالكو طريق الفضيله كثيرا بهذه العباده الخاليه من الرياء،و التي تنير القلب و تصفّيه من كلّ الشوائب.

و من الممكن أن لا- يوفّق البعض إلى هذه العباده المباركه دائما،و لكن ما المانع من أن يسعى الفرد إلى نيل هذا التوفيق في بعض الليالي،و في الوقت الذي يرخى الليل سدوله،و تهدأ الأصوات و تنام العيون يكون الجو مهيبا لحضور القلب،يهبّ إلى مناجاه الله و ينور قلبه بنور عشق الحبيب و محبّته (١).

ص: ١٣١

---

١-١) كان لنا بحث آخر حول أهميته صلاه الليل و طريقتها في ذيل الآيه (٧٩) من سوره الإسراء.

اشاره

وَ لَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)

التفسير

اشاره

عقوبات تربويه:

بعد البحث الذى مرّ فى الآيات السابقه حول المجرمين و عقابهم الأليم، فإنّ الآيات مورد البحث تشير إلى أحد الألفاظ الإلهيه الخفيه و هى موارد العذاب الخفيف فى الدنيا ليتّضح أنّ الله سبحانه لا- يريد أن يبتلى عبد بالعذاب الخالد أبدا، و لذلك يستخدم كلّ وسائل التوعيه لنجاته، فيرسل الأنبياء، و ينزل الكتب السماويه، و ينعم و يبتلى بالمصائب، و إذا لم تنفع أيّه وسيله منها فليس إلا نار الجحيم.

تقول الآيه: وَ لَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

من المسلم أنّ «العذاب الأدنى» له معنى واسعاً يتضمّن أغلب الاحتمالات التى

كتبها المفسرون بصورة منفصلة:

فمن جملتها، أنّ المراد المصائب والآلام والمشقة.

أو القحط والجفاف الشديد الذى دام سبع سنين و ابتلى به المشركون فى مكّه حتّى اضطروا إلى أكل أجساد الموتى! أو الضربه القاصمه التى نزلت عليهم فى غزوه بدر، وأمثال ذلك.

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد عذاب القبر، أو العقاب فى الرجعه فلا يبدو صحيحا، لأنّه لا يناسب جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى عن أعمالهم.

من البديهي أنّ العذاب موجود فى هذه الدنيا أيضا، بحيث إذا نزل أغلقت أبواب التوبه، وهو عذاب الاستئصال، أى العذاب و العقوبات التى تنزل لفناء الأقسام العاصين حينما لا تنفع و لا تؤثّر فيهم أى وسيله توعيه و تنبيه.

و أمّا «العذاب الأكبر» فيعنى عذاب يوم القيامة الذى يفوق كلّ عذاب حجما و ألما.

و هناك التفاتة أشار إليها بعض المفسّرين فى أنّه لما ذا جعل «الأدنى» فى مقابل «الأكبر»، فى حين أنّه يجب إمّا أن يقع الأدنى مقابل الأبعد، أو الأصغر فى مقابل الأكبر؟ و ذلك أنّ لعذاب الدنيا صفتين: كونه صغيرا، و قريبا، و ليس من المناسب التأكيد على صغره عند التهديد، بل يجب التأكيد على قربيه. و لعذاب الآخرة صفتان أيضا:

كونه بعيدا و كبيرا، و المناسب فى شأنه التأكيد على كبره و عظمته لا بعده -تأملوا جيدا-.

و تقدّم أنّ التعبير ب(لعلّ) فى جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بسبب أنّ الإحساس بالعقوبات التحذيره ليس علّه تامّه للوعى و اليقظه، بل هو جزء العلّه، و يحتاج إلى أرضيته مهياّه، و بدون هذا الشرط لا يحقّق النتيجة المطلوبه، و كلمه (لعلّ) إشاره إلى هذه الحقيقه.



و تتضح من هذه الآيه إحدى حكم المصائب و الابتلاءات و الآلام التي تعتبر من المسائل الملحّه و المثيره للجدل في بحث التوحيد و معرفه الله و عدله.

و ليس في هذه الآيه فحسب، بل أشير في آيات اخرى من القرآن إلى هذه الحقيقه، و من جملتها في الآيه (٩٤) من سوره الأعراف وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ .

و لئلا لم تنفع أيّه و سيله من وسائل التوعيه و التنبيه، حتّى العذاب الإلهي، لم يبق طريق إلاّ انتقام الله من هؤلاء القوم الذين هم أظلم الناس، و كذلك تقول الآيه التاليه: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ .

فلم تؤثر فيهم النعمه الإلهيه، و لا العذاب و الابتلاءات التحذيريه، و على هذا فلا أحد أظلم منهم، و إذا لم ينتقم من هؤلاء فممن الانتقام؟ من الواضح - و بملاحظه الآيات السابقه - أنّ المراد من «المجرمين» هنا هم منكرو المبدأ و المعاد الذين لا إيمان لهم.

و قد وصف جماعه من الناس في آيات القرآن مرارا بأنهم (أظلم) من الباقين، و بالرغم من تعبيراتها المختلفه إلاّ أنّها تعود جميعا إلى أصل الكفر و الشرك، و بناء على هذا فإنّ معنى (أظلم) الذي يعتبر صيغه تفضيل يتطابق مع هذه المصدايق.

و التعبير ب(ثم) في الآيه، و الذي يدلّ عاده على التراخي، لعلّه إشاره إلى أنّ أمثال هؤلاء يعطون فرصه و مجالا كافيا للتفكير و البحث، و لا تكون معاصيهم الابتدائيه سببا لانتقام الله أبدا، إلاّ أنّهم سيستحقّون انتقام الله عزّ و جلّ بعد انتهاء الفرصه اللازمه.

و يجب الالتفات إلى أنّ التعبير ب«الانتقام» يعنى العقوبه في لسان العرب، و مع أنّ معنى الكلمه أصبح في المحادثات اليوميّه يعنى تشفى القلب و إبراد الغليل من العدو، إلاّ أنّ هذا المعنى لا وجود له في الأصل اللغوي، و لذلك فإنّ هذا التعبير قد

استعمل مرارا في شأن الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد، في حين أنّه سبحانه أسمى و أعلى من هذه المفاهيم، فهو لا يفعل شيئا إلاّ وفق الحكمة.

ص: ١٣٥

إشارة

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)

التفسير

إشارة

شروط الإمامة: الصبر والإيمان:

تشير الآيات مورد البحث إشارة قصيره و عابره إلى قصه «موسى» عليه السلام و بنى إسرائيل لتسلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و المؤمنين الأوائل و تطيب خواطرهم، و تدعوهم إلى الصبر و التحمل و الثبات أمام تكذيب و إنكار المشركين التى أشير إليها فى الآيات السابقه، و لتكون بشاره للمؤمنين بانتصارهم على القوم الكافرين العنودين كما انتصر بنو إسرائيل على أعدائهم و أصبحوا أئمة فى الأرض.

و لما كان موسى عليه السلام نبيا جليلا يؤمن به كل من اليهود و النصارى، فإنه يكون حافزا على توجه أهل الكتاب نحو القرآن و الإسلام.

تقول الآيه أولا: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ أَى فلا

تشكُّ أو تتردّد في أنّ «موسى» قد تلقّى آيات الله، و قد جعلنا كتاب موسى «التوراه» وسيله لهدايه بنى إسرائيل وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ .

ثمّه اختلاف بين المفسّرين في عوده الضمير في قوله: مِنْ لِقَائِهِ، و قد احتملوا في ذلك سبعة احتمالات أو أكثر، إلا أنّ أقربها هو عودته إلى الكتاب - كتاب موسى السماوى، أى «التوراه» - كما يبدو، و له معنى المفعول و فاعله موسى، و بناء على هذا فإنّ المعنى الكلّى لهذه الجملة يصبح: لا تشكُّ في أنّ موسى عليه السّلام تلقّى الكتاب السماوى الذى القى إليه من قبل الله تعالى.

و الشاهد القويّ على هذا التّفسير هو أنّه قد وردت في الآيه أعلاه ثلاث جمل، تتحدّث الجملتين الاولى و الأخيره عن التوراه قطعاً، فمن المناسب أن تتابع الجملة الوسط هذا المعنى أيضاً، لا أن تتحدّث عن القيامة أو القرآن المجيد حيث ستكون جملة معترضه في هذه الصوره، و نعلم أنّ الجملة المعترضه خلاف الظاهر، و ما دمنّا في غنى عنها فلا ينبغي التوجّه إليها.

السؤال الوحيد الذى يبقى في هذا التّفسير هو استعمال كلمه «لقاء» في مورد الكتاب السماوى، حيث إنّ هذه الكلمه قد استعملت في القرآن الكريم غالباً بإضافتها إلى الله أو الربّ أو الآخره و أمثالها، و هى إشاره إلى القيامة. و لهذا السبب رجّح البعض كون الآيه أعلاه تتحدّث أولاً عن نزول التوراه على موسى، ثمّ تأمر نبيّ الإسلام صلّى الله عليه و آله أن لا تشكُّ في لقاء الله و مسأله المعاد، ثمّ تعود إلى مسأله التوراه، لكن في هذه الصوره ينهار الانسجام بين جمل هذه الآيه و يزول التناسب فيما بينها.

غير أنّه ينبغي الالتفات إلى أنّ تعبير «لقاء» و إن لم يستعمل في القرآن في مورد الكتب السماويه، إلا أنّ الإلقاء و التلقّى قد استعمل مراراً في هذا المعنى، كما في الآيه (٢٥) من سوره القمر: أَلْقَى الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا .

و نقرأ في قصّه سليمان و ملكه سبأ أنّها قالت عند ما وصلتها رساله سليمان: إِنِّي

أَلْقَىٰ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ .

و في نفس هذه السوره «سوره سليمان» في الآيه (٦) نقرأ في شأن القرآن الكريم وَ إِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ .

بناء على هذا فإن فعل الإلقاء و التلقى قد استعمل مرارا في هذا المورد، بل و حتى نفس فعل اللقاء قد استعمل في مورد صحيفه أعمال الإنسان، فنقرأ في الآيه (١٣) من سوره الإسراء: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا .

و من مجموع ما قلناه يتضح ترجيح هذا التفسير على سائر الاحتمالات التي احتملت في الآيه أعلاه (١) .

لكن ينبغي الالتفات إلى أن النبي صلى الله عليه و آله لم يشك في مثل هذه المسائل مطلقا، بل إن مثل هذه التعبيرات تستعمل عادة لتأكيد المطلوب، و ليكون نموذجا للآخرين .

ثم تشير الآيه التاليه إلى الأوسمه و المفاخر التي حصل عليها بنو إسرائيل في ظل الاستقامه و الإيمان لتكون درسا للآخرين، فتقول: وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

لقد ذكرت الآيه هنا شرطين للإمامه: أحدهما: الإيمان و اليقين بآيات الله عز و جل، و الثاني: الصبر و الاستقامه و الصمود. و هذا الأمر ليس مختصا بنبي

ص: ١٣٨

١ - ١) ذهب بعض المفسرين إلى أن مرجع الضمير في (لقائه) إلى موسى، و بناء على هذا يصبح المعنى: لا شك يا محمد بأنك ستلتقى بموسى، و اعتبروا ذلك إشارة إلى لقائه به في ليله المعراج أو في يوم القيامة. و هذا المعنى لا يبدو منسجما مع مفهوم الجملة. و قال البعض الآخر: إن الضمير يرجع إلى الكتاب، و المراد منه القرآن، أى: لا تدع أيها النبي للشك في أن هذا القرآن وحي إلهي إلى نفسك سيلا، و هذا المعنى و إن كان يتلائم مع آيات بدايه السوره، إلا أنه لا يتلاءم كثيرا مع الجمل الاخرى الموجوده في نفس هذه الآيه. إضافة إلى أن الكتاب في الآيه مورد البحث بمعنى التوراه، فلا ينسجم معه عود الضمير إلى القرآن - و توجيه هذا المعنى بأن المراد مطلق الكتاب السماوى لا يقلل من كونه خلاف الظاهر. و قال بعض المفسرين: إن الضمير في (لقائه) يعود إلى الله، و هذه الجملة إشارة إلى أنه لا شك أبدا في مسأله المعاد، و هذا المعنى و إن كان يتفق و ينسجم مع الآيات السابقه، إلا أنه لا يتلاءم من أى وجه تقريبا مع نفس الآيه مورد البحث. و من هنا يتضح أن ما ورد في بعض التفاسير من أن الآيه إشارة إلى التقاء خطي و برنامجي موسى و نبي الإسلام، مطلب ذوقى لا يناسب المفهوم الواقعى لألفاظ الآيه، و بناء على هذا فإن أوضح التفاسير و أجلاها ما أوردها أعلاه.

إسرائيل، بل هو درس لكل الأمم، ولجميع مسلمي الأمس و اليوم و الغد بأن يحكموا أسس يقينهم، و لا يخافوا من المشاكل التي تعترضهم في طريق التوحيد، و أن يتحلّوا بالصبر و المقاومه ليكونوا أئمة الخلق و قاده الأمم و مرشديها في تاريخ العالم.

التعبير ب(يهدون) و(يوقنون) بصيغه الفعل المضارع دليل على استمرار هاتين الصفتين طيله حياه هؤلاء، لأنّ مسأله القيادة لا تخلو لحظه من المشكلات، و يواجه شخص القائد و إمام الناس مشكله جديده في كلّ خطوه، و يجب أن يهّب لمواجهةها مستعينا بقوه اليقين و الاستقامه المستمره، و يديم خطّ الهدايه إلى الله سبحانه.

و الجدير بالانتباه أنّ الآيه تقيد الهدايه بأمر الله، فتقول: يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا و هذا هو المهمّ في أمر الهدايه بأن تنبع من الأوامر الإلهيه، لا من أمر الناس، أو تقليد هذا و ذاك، أو بأمر من النفس و الميول القلبيه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديثه العميق المحتوى، بالاستناد إلى مضامين القرآن المجيد: «إِنَّ الْأئِمَّةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ إِمَامَان: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى:

و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، لا بأمر الناس، يقدمون أمر الله قبل أمرهم، و حكم الله قبل حكمهم، و قال: و جعلناهم أئمة يدعون إلى النار، يقدمون أمرهم قبل أمر الله، و حكمهم قبل حكم الله، و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ و جلّ» (١).

ثمّ أنّ المراد من الأمر هنا هل هو الأمر التشريعي، أم الأمر التكويني؟ ظاهر الآيه يعطى المعنى الأوّل، و تعبيرات الروايات و المفسرين تؤيد ذلك، إلاّ أنّ بعض كبار المفسرين اعتبروه بمعنى الأمر التكويني.

ص: ١٣٩

و توضيح ذلك: أنّ الهدايه قد وردت فى الآيات و الروايات بمعنيين: «تبيان الطريق»، و «الإيصال إلى المطلوب»، و كذلك هدايه الأئمه الإلهيين تتخذ صورتين: فيكتفون أحيانا بالأمر و النهى، و أحيانا اخرى ينفذون إلى أعماق القلوب المستعدّه و الجديره بالهدايه ليوصلوها إلى الأهداف التربويه و المقامات المعنويه.

و قد استعملت كلمه «الأمر» فى بعض آيات القرآن بمعنى «الأمر التكويني»، مثل: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (١)، و جمله **يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** فى الآيه مورد البحث إشاره إلى هذا المعنى أيضا، أى **إِنَّ أَوْلَئِكَ كَانُوا أَتَمَّهُ يَنْفِذُونَ إِلَى النُّفُوسِ الْمُسْتَعِدَّةِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ، وَ يَسُوقُونَهَا إِلَى الْأَهْدَافِ التَّرْبَوِيَّةِ وَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالِيَةِ (٢).**

إنّ هذا المعنى يستحقّ الملاحظه و الانتباه، و هو أحد شؤون الإمامه، و فروع و طرق الهدايه، إلا أنّ حصر جمله: **يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** بهذا المعنى لا- يوافق ظاهر الآيه، لكن لا مانع من أن نفسّر كلمه الأمر فى هذه الجملة بمعناها الواسع الذى يتضمّن الأمر التكويني و التشريعى، و يجمع كلا معنئى الهدايه فى الآيه، و هذا المعنى ينسجم مع بعض الأحاديث الواردة فى تفسير هذه الآيه.

و لكن، و على كلّ حال، لا يمكن أن يصل الإمام و الهادى إلى هذا المقام إلا فى ظلّ اليقين و الاستقامه فقط.

و يبقى سؤال، و هو: هل المراد من هؤلاء الأئمه فى بنى إسرائيل هم الأنبياء الذين بعثوا إليهم، أم أنّ العلماء الذين كانوا يهدون الناس إلى الخيرات بأمر الله يدخلون فى هذه الزمره؟ الآيه ساكته عن ذلك، و اكتفت بالقول بأننا قد جعلنا منهم أئمه، لكن بملاحظه

ص: ١٤٠

١-١) سورة يس، الآيه ٨٢.

٢-٢) تفسير الميزان، المجلد الأول، صفحہ ٢٧٥.

جملة:(جعلنا)يرجح في رأينا أن المراد هم الأنبياء الذين نصبوا بأمر الله في هذا المنصب.

ولمّا كانوا بنوا إسرائيل-كسائر الأمم-قد اختلفوا بعد هؤلاء الأئمة الحقيقيين، و سلكوا مسالك مختلفة، فإنّ الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أجل..إنّ مصدر و منبع الاختلاف دائما هو مزج الحقّ بالأهواء و الميول،و لمّا كانت القيامة يوما لا- معنى فيه للأهواء و الميول،حيث تمحى و يتجلّى الحقّ بأجلى صورته،فهناك ينهى الله سبحانه الاختلافات بأمره،و هذه أيضا إحدى فلسفات المعاد.تأملوا ذلك.

## ملاحظه

## اشاره

## صمود و استقامه القاده الإلهيين

قلنا:إنّه قد ذكر في الآيات مورد البحث شرطان للأئمة:الأول:الصبر و الثبات، و الآخر:الإيمان و اليقين بآيات الله.

و لهذا الصبر و الثبات فروعا و أشكالا كثيره:

فيكون أحيانا أمام المصائب التي تحلّ بالإنسان.

و اخرى مقابل الأذى الذي يحيق بأصحابه و مؤيديه.

و ثالثه في مقابل التعديات و الألسن البذيئه التي تنال مقدّساته.

و اخرى في مقابل المنحرفين فكريا.

و اخرى أمام الجاهلين الحمقى.

و اخرى أمام العلماء الخبثاء.

و الخلاصه:فإنّ القائد الواعى الرشيد يجب أن يصمد أمام كلّ هذه المشاكل



و غيرها، و لا ينسحب من ميدان الصراع و الحوادث، و لا يجزع و ييأس، و لا يفقد زمام الأمور من يده، و لا يضطرب و لا يندم حتى يحقق هدفه الكبير.

و قد روى فى هذا الباب حديث جامع و رائع عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه: إن من صبر صبر قليلا(و بعده الظفر) و إن من جزع جزع قليلا(و من بعده الخسران).

ثم قال: عليك بالصبر فى جميع أمورك، فإن الله عزّ و جلّ بعث محمّدا فأمره بالصبر و الرفق، فقال: وَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا و قال: اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

فصبر رسول الله حتى نالوه بالعظائم و رموه بها-فسمّوه ساحرا و مجنونا و شاعرا، و كذبوه فى دعوته-فضاق صدره، فأنزل الله عزّ و جلّ عليه: وَ لَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَضَيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ -أى إن هذه العبادة تمنحك الاطمئنان و الهدوء-.

ثم كذبوه و رموه فحزن لذلك، فأنزل الله عزّ و جلّ: قَدْ نَعَلْنَا إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا .

فألزم النبى نفسه الصبر، فتعدّوا فذكروا الله تبارك و تعالى و كذبوه، فقال: قد صبرت فى نفسى و أهلى و عرضى و لا صبر لى على ذكر إلهى، فأنزل الله عزّ و جلّ:

وَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ، فصبر النبى فى جميع أحواله.

ثم بشر فى عترته بالأئمة و وصفوا بالصبر، فعند ذلك قال: الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فشكر الله عزّ و جلّ ذلك له، فأباح له قتال المشركين، فقتلهم الله على يدى رسول الله و أحبائه، و جعل له ثواب صبره مع ما ادّخر له فى

الآخرة».

ثم

أضاف الإمام الصادق عليه السّلام: «فمن صبر و احتسب لم يخرج من الدنيا حتّى يقرّ الله له عينه فى أعدائه مع ما يدّخر له فى الآخرة» (١).

ص: ١٤٣

---

١- (١) اصول الكافى، الجزء ٢، صفحہ ٧٢ باب الصبر باختصار قليل.

اشاره

أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي بَصِيرَةٍ (٢٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ (٣٠)

التفسير

اشاره

يوم انتصارنا:

كانت الآيات السابقه ممزوجه بتهديد المجرمين من الكفار، و تقول الآيه الاولى من الآيات مورد البحث إكمالاً لهذا التهديد: أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ (١) فهؤلاء يسيرون بين الخرائب و يرون آثار أولئك الأقسام

ص: ١٤٤

١-١) فاعل (لم يهد) يفهم من جمله كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ و التقدير: أو لم يهد لهم كثره من أهلكتنا.

الذين هلكوا من قبلهم يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ (١).

نقع مساكن «عاد» و«ثمود» المدمره، و مدن «قوم لوط» الخربه فى طريق هؤلاء إلى الشام، و كانت هذه المساكن مقرًا و مركزا للأقوام الأقوياء المنحرفين، و طالما حذّرهم الأنبياء فلم يؤثّر فيهم ذلك، و أخيرا طوى العذاب الإلهى ملفّ حياتهم، و كان المشركون يَمْزُونَ على تلك الخرائب فكأنّ لكلّ بيوت هؤلاء و قصورهم المتهدّمه مائه لسان، تصيح بهؤلاء أن يتبّهوا، و تبين لهم و تحدّثهم بنتيجه الكفر و الانحطاط، لكنّهم لم يعبّثوا بها و يلتفتوا إليها، و كأنّهم فقدوا أسماعهم تماما، و لذلك تضيف الآيه فى النهايه: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ .

و تشير الآيه التاليه إلى أحد أهمّ النعم الإلهيه التى هى أساس عمران كلّ البلدان، و وسيله حياه كلّ الكائنات الحيه، ليّضح من خلالها أنّ الله سبحانه كما يمتلك القدره على تدمير بلاد الضالّين المجرمين، فإنّه قادر على إحياء الأراضى المدمره و الميته، و منح عباده كلّ نوع من المواهب، فتقول: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ .

«الجرز» تعنى الأرض القاحله التى لا- ينبت فيها شىء قطّ، و هى فى الأصل من مادّه (جرز) على وزن (مرض) بمعنى «القطع»، فكأنّ النباتات قد اجتثّت من مثل هذه الأرض، أو أنّ الأرض نفسها قد قطعت تلك النباتات.

و الطريف هنا أنّه قد عبّر ب: (نسوق الماء) و هو إشاره إلى طبيعه الماء توجب- بحكم ثقله- أن يكون على الأرض و فى المنخفضات، و بحكم كونه مائعا يجب أن ينزل إلى أعماق الأرض، إلّا أنّه عند ما يصله أمرنا يفقد طبيعته، و يتحوّل إلى بخار خفيف يتحرّك إلى كلّ الجهات بهبوب النسيم.

ص: ١٤٥

١ - ١) ذكر أغلب المفسّرين فى تفسير الآيه ما ذكرناه أعلاه، إلّا- أنّ البعض احتمل أن تكون جمله يَمْشُونَ بيانا لحال المهلكين، أى أنّ أولئك الأقوام كانوا فى غفله تامّه عن العذاب الإلهى، و كانوا يسيرون فى مساكنهم و يتنعمون بها، إذ أتاهم عذاب الله بغته و أهلكتهم. إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا.

نعم، إن هذه السحب السابحة فى السماء بحار كبيره من المياه العذبه ترسل إلى الأراضى اليابسه بأمر الله و معونه الرياح.

و الواقع أنه لو لا المطر فإن كثيرا من الأراضى لا ترى حتى القطره الواحده من الماء، و إذا افترضنا أن هناك أنهارا غزيره المياه فإن تلك المياه لا- تصل إلى أغلب الأراضى، إلا أننا نرى أنه ببركه هذه الرحمه الإلهيه قد نبتت و نمت الأعشاب و الغابات و الأشجار الكثيره جدا على قمم كثير من الجبال و الوديان الوعره و التلال المرتفعه، و هذه القدره العجيبه للمطر على الرى لا يستطيع القيام بها شىء آخر.

«زرعا» له هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع العشب و الشجر، و إن كان يستعمل أحيانا فى مقابل الشجر.

و يمكن أن يكون تقديم الدواب و الأنعام على البشر فى هذه الآيه لأن تغذيه الحيوانات تعتمد على النبات، فى حين أن البشر يتغذى على النبات و على لحوم الحيوانات.

أو من جهة أن النبات بمجرد نموه يصبح غذاء للحيوانات، و تستطيع الاستفادة منه و هضمه، فى حين أن استفاده الإنسان من النباتات، تتأخر حتى تحمل الشجره و تنضج الثمره.

و الطريف هنا أن جمله: **أَفَلَا يُبْصِرُونَ** قد وردت فى نهايه الآيه مورد البحث، فى حين أن الآيه السابقه التى كانت تتحدث عن أطلال قصور الأقوام الغابره قد ختمت بجمله: **أَفَلَا يَسْمَعُونَ**.

و علّه هذا الاختلاف هو أن الجميع يرون بأعم أعينهم منظر الأراضى الميتة و هى تحيا على أثر نزول الأمطار و نمو نباتها و ينعم ثمرها، فى حين أنهم يسمعون المسائل المرتبطه بالأقوام السابقين كإخبار غالبا.

و استفاد من مجموع الآيتين أعلاه أن الله تعالى يقول لهؤلاء العصاه

المتمردين: انتبهوا جيّدا، وافتحوا عيونكم و أسمعكم، فاسمعوا الحقائق، وانظروا إليها، وتفكروا كيف أمرنا الرياح يوما أن تحطم قصور قوم عاد و مساكنهم و تجعلها أطلالا- و آثارا، و فى يوم آخر نأمر ذات الرياح أن تحمل السحاب الممطر إلى الأراضى الميّته البور لتحى تلك الأراضى و تجعلها خضراء نضرة، ألا تستسلمون و تدعون لهذه القدره؟! و لما كانت الآيات السابقه تهدد المجرمين بالانتقام، و تبشّر المؤمنين بالإمامه و النصر، فإنّ الكفار يطرحون هذا السؤال غرورا و استكبارا و تعلّلا بأنّ هذه التهديدات متى ستتحقق؟ كما يذكر القرآن ذلك: **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .**

فيجيبهم القرآن مباشرة، و يأمر النبى صلى الله عليه و آله أن قل **يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** أى: إذا كان مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهى الذى سمعتموه من النبى لتؤمنوا، فإنّ الوقت قد فاتكم، فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئا.

و ممّا قلنا يتّضح أنّ المراد من «يوم الفتح» يوم نزول «عذاب الاستئصال»، أى العذاب الذى يقطع دابر الكافرين، و لا يدع لهم فرصه الإيمان. و بتعبير آخر فإنّ عذاب الاستئصال نوع من العذاب الدنيوى، لا من عذاب الآخرة، و لا من العقوبات الدنيويه المعتاده، بل هو العذاب الذى ينهى حياه المجرمين بعد إتمام الحجّه.

و الشاهد على هذا القول امور:

أ: إذا كان المراد العقوبات الدنيويه المعتاده، أو الانتصارات الشبيهه بانتصار المسلمين فى معركة بدر و يوم فتح مكّه - كما قال ذلك بعض المفسّرين - فإنّ جمله: **لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ لَا تَصْحَحْ حِينْذ،** لأنّ الإيمان كان مفيدا حينذاك، و أبواب التوبه كانت مفتحه يوم الإنتصار فى بدر، و فى يوم فتح مكّه.

ب: إذا كان المراد من يوم الفتح يوم القيامة- كما ارتضى ذلك بعض المفسرين- فإن ذلك لا يناسب جملة: **وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** لأن إعطاء الفرصه و عدمه يرتبط بالحياه الدنيا، إضافة إلى أن «يوم الفتح» لم يستعمل بمعنى يوم القيامة فى أى موضع من القرآن الكريم.

ج: إن التعبير بالفتح فى مورد عذاب الاستئصال يلاحظ مرارا فى القرآن، مثل الآية (١١٨) من سوره الشعراء، حيث يقول نوح: **فَأَفْتَحْ بَنِيَّ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** و هو إشاره إلى عقوبه الطوفان.

و ورد نظير هذا المعنى فى الآية (٧٧) من سوره المؤمنون أيضا.

إلا- أن المراد إذا كان عذاب الاستئصال فى الدنيا فإنه يتفق مع ما قلناه أعلاه، و ينسجم مع كل القرائن، و هو فى الواقع تهديد للكافرين و الظالمين بأن لا تطلبوا تحقق الوعد بالفتح للمؤمنين و وقوع عذاب الاستئصال على الكافرين، فإن طلبكم إذا تحقق فسوف لا تجدون الفرصه للإيمان، و إذا وجدتم الفرصه و آمنتم فإن إيمانكم سوف لا يقبل.

و هذا المعنى خاصه يتلاءم كثيرا مع الآيات السابقه التى تحدثت عن هلاك الأقسام المتمردين الطاغين الذين كانوا يعيشون فى القرون الماضيه، و ابتلوا بالعذاب الإلهى و الفناء، لأن كفار مكه إذا سمعوا الكلام الذى ورد فى الآيتين السابقتين فإنهم سيطلبون تحقق مثل هذا الموضوع فى حقهم، إلا أن القرآن الكريم يحذرهم بأن لا يطلبوا مثل هذا الطلب، فإن العذاب إذا نزل لا يبقى لهم شىء.

و أخيرا تنهى الآية الأخيره هذه السوره-سوره السجده-بتهديد بليغ عميق المعنى، فتقول: **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ**.

الآن، حيث لم تؤثر فى هؤلاء البشاره و لا الإنذار، و لا هم أهل منطق و استدلال ليعرفوا الله سبحانه بمشاهده الآثار الإلهيه فى خفايا الخلقه فيعبده،

و ليس لهم وجدان حى يترنم فى أعماقهم بنغمه التوحيد فيسمعونها، فأعرض عنهم، و انتظر رحمه الله سبحانه، و لينتظروا عذابه  
فإنهم لا يستحقون سواه.

اللهم اجعلنا ممن يسلم و يؤمن عند رؤيه أول علامات الحق و آياته.

اللهم أبعد عنا روح الكبر و الغرور و العناد و نجنا منها.

اللهم عجل بنصر جند الإسلام على جنود الكفر و الاستكبار و الاستعمار.

نهايه سوره السجده

ص: ١٤٩





## سوره الأحزاب

### اشاره

مدتيه و عدد آياتها ثلاث و سبعون آيه

ص: ١٥١



### سبب التسميه و فضلها:

هذه السوره نزلت فى المدينه باتفاق علماء الإسلام، و مجموع آياتها (٧٣) آيه، و لما كان جزء مهم من هذه السوره يتحدث عن أحداث غزوه الأحزاب (الخدق) فإن هذا الاسم قد اختير لها.

و يكفى فى فضل هذه السوره أن نقرأ

فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «من قرأ سوره الأحزاب و علمها أهله... اعطى الأمان من عذاب القبر» (١).

و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «من كان كثير القراءة لسوره الأحزاب كان يوم القيامة فى جوار محمد صلى الله عليه و آله و أزواجه» (٢).

و قد قلنا مرارا: إن هذه الفضائل لا تنال بالتلاوه الخاليه من الروح، و العاريه من كل أنواع الفكر و العمل، بل التلاوه التى تكون مبدأ للتفكر الذى يضىء آفاق الإنسان يظهر آثاره فى أعماله و سلوكه.

### محتوى سوره الأحزاب:

إن هذه السوره من أغنى سور القرآن المجيد و أجزائها ثمارا، و تتابع و تبحث

ص: ١٥٣

١-١) مجمع البيان، المجلد ٨، صفحه ٣٣٤. بدايه سوره الأحزاب.

٢-٢) المصدر السابق.

مسائل متنوّعه و كثيره جدًا فى باب اصول الإسلام و فروعہ.

و يمكن تقسيم الأبحاث التى وردت فى هذه السوره إلى سبعة أقسام:

الأول: بدايه السوره التى تدعو الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ وَتَرْكِ اتِّبَاعِ الْكَافِرِينَ وَمَقْتِرِحَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَتَبَشُّرِهِ بِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ سَيُدْعِمُهُ وَيُنْصِرُهُ فِي مَقَابِلِ اسْتِنكَارِ هَؤُلَاءِ.

الثانى: أشار إلى بعض خرافات زمان الجاهليه، كالظهار، حيث كانوا يعتبرونه سببا للطلاق و افتراق الرجل عن امرأته، و كذلك مسأله التبتى، و أكدت على بطلانها، و حصرت العلاقات و الروابط العائليه و السببيه بالروابط الواقعيه و الطبيعيه.

الثالث: و هو أهم أقسام هذه السوره، و يرتبط بمعركه «الأحزاب» و حوادثها المرعبه، و انتصار المسلمين المعجز على الكفار، و إعاقات و تخرصات و تعذّر المنافقين، و نقضهم لعهودهم، و قد بينت فى هذا المجال قوانين رائعه و جامعہ.

الرابع: يرتبط بزوجات النبى، حيث يجب أن يكن أسوه و أنموذجا أسمى لكل نساء المسلمين، و يصدر لهنّ فى هذا الباب أوامر مهمه.

الخامس: يتطرق إلى قصه «زينب بنت جحش» التى كانت يوما زوجه لزيد، و هو ابن النبى بالتبتى، و افتقرت عنه، فترجها النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَمْرِ اللهِ سَبْحَانَهُ، فأصبح هذا الزواج حربه بيد المنافقين، فأجابهم القرآن الجواب الكافى الشافى.

السادس: يتحدّث عن مسأله الحجاب، و التى ترتبط بالبحوث السابقه، و يوصى كل النساء المؤمنات بمراعاة هذا القانون الإسلامى.

السابع: الذى يشكّل الجزء الأخير، و يشير إلى مسأله المعاد المهمه، و طريق النجاه فى ذلك الموقف العظيم، و كذلك يشرح و يبين مسأله أمانه الإنسان العظمى، أى مسأله التعهد و التكليف و المسؤليه.

## اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)

## سبب النزول

لقد ذكر المفسرون هنا أسباب نزول مختلفه، تبحت كلها تقريبا موضوعا واحدا.

و من جملتها: إن هذه الآيات نزلت في شأن أبي سفيان و بعض آخر من رؤوس الكفر و الشرك الذين أخذوا الأمان من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بعد معركة أحد و دخلوا المدينة، و أتوا مع عبد الله بن أبي و جماعه من أصحابه، إلى النبي صلى الله عليه و آله، و قالوا:

يا محمد، لا تذكر آلهتنا اللات و العزى و مناه بسوء و قل: إن لها شفاعه لمن عبدها و ندعك و ربك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه و آله، فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا- يا رسول الله- في قتلهم،

فقال النبي صلى الله عليه و آله: «إني أعطيتهم الأمان» و أمر فأخرجوا من المدينة و نزلت الآية: وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ و أمرته أن لا يصغى لمثل هذه

اتبع الوحي الإلهي فقط:

إن من أخطر المنعطفات و المنحدرات التي تعترض طريق القاده الكبار قضيه اقتراحات الصلح و التنازل و الوفاق التي تطرح من قبل المخالفين، و تضع الخطوط الملتويه و الطرق المنحرفه إلى جانب طريق القاده، و تسعى لحرفهم عن مسيرهم الأصلي، و هذا إمتحان صعب و عسير لهؤلاء.

لقد بذل مشركو «مكه» و منافقو «المدينه» كل ما في وسعهم ليحزفوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عن خط التوحيد من خلال طرح مقترحات السلام و الاتفاق، و من جملتها ما قرأناه في سبب النزول، إلا- أن أولى آيات سوره الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم، و دعت النبي صلى الله عليه و آله إلى الاستمرار في أسلوبه الحاسم في خط «التوحيد» بدون أدنى تراجع و تنازل و مسالمة.

إن هذه الآيات بمجموعها تأمر النبي صلى الله عليه و آله بأربعة أوامر مهمه:

الأول: في مجال التقوى، و التي تهىء الأرضيه لكل برنامج آخر، فتقول:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ

إن حقيقه التقوى هي ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤوليه، و لو لا هذا الإحساس فإن الإنسان لا يندفع و لا يتحرك باتجاه أى برنامج بناء.

التقوى هي الهدف الأسمى للهدايه و الانتفاع بآيات الله، كما جاء في الآيه الثانيه من سوره البقره: هُدَى لِلْمُتَّقِينَ .

صحيح أن المرحله النهائيه للتقوى تحصل بعد الإيمان و العمل طبق أوامر الله

سبحانه، إلا أن مرحلتها الابتدائية تقع قبل كل هذه المسائل، لأن الإنسان إذا لم يحسّ بالمسؤولية داخلياً، فإنه لا يسعى للتحقق من دعوته الأنبياء و التثبّت منها، و لا يصغى إليها، و حتّى مسأله (دفع الضرر المحتمل) التي عدّها علماء الكلام و العقائد أساس و دعامة السعى إلى معرفه الله، فإنّها في الحقيقه فرع التقوى.

الثانى: نفى و رفض طاعه الكافرين: و لا- تُطع الكافرينَ و المُنافقينَ و تقول الآيه في النهايه تأكيداً لهذا الموضوع: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا فَإِنَّهُ تَعَالَى حِينَما يَأْمُرُكَ بِعَدَمِ إِتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ صَادِرٌ عَنِ حِكْمَتِهِ اللَّامِتْنَاهِيَةِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا اخْفَى فِي هَذَا الْإِتِّبَاعِ وَ الْمَهَادَنَةِ مِنَ الْمَصَائِبِ، الْأَلِيمِ، وَ الْمَفَاسِدِ الْجَمَّةِ.

و على كلّ حال، فإنّ أوّل وظيفه بعد التقوى و الإحساس بالمسؤوليه، هي غسل القلب و تصفيته من الغير، و اقتلاع الأشواك الضارّه المؤذيه من هذه الأرض المعنويه.

الثالث: نثر بذور التوحيد و اتّباع الوحي الإلهي، فيقول: وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ احْذَرْ فِإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا و بناء على هذا فإنّ الواجب الأوّل هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحلّ محلّها الملائكه، و أن تقلع الأشواك لتبذر محلّها الورود، و يجب أن تطهر الأرض من الطواغيت لتخلفهم حكومه الله و نظامه المقدّس.

و لما كانت هناك مشاكل كثيره، و تهديدات و مؤامرات، و معوّقات في الاستمرار في سلوك هذا الطريق، فإنّه تعالى يصدر الأمر الرابع بأنّ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا- فلو أنّ الف عدوّ يسعى لقتلك، فلا- تخش و لا- تخف منهم لأنّي ناصر ك و معينك.

و مع أنّ المخاطب في هذه الآيات هو النّبي صلّى الله عليه و آله، إلاّ أنّه خطاب لكلّ المؤمنين، و لعامة المسلمين، و هو و صفه طيبه تمنح الحياه، و دواء لبث النشاط و الحيويه في كلّ عصر و زمان.



وقال بعض المفسرين: إنَّ الخطاب بـ **يَا أَيُّهَا** خاصّ بالموارد التي يراد منها جلب انتباه العموم لمطلب ما، وإن كان المخاطب واحداً، بخلاف الخطاب بـ (يا) والذي يستعمل في الموارد التي يراد منها شخص المخاطب (1). ولَمَّا كانت هذه الآيات قد بدأت بـ **يَا أَيُّهَا** فإنها تؤكد كون الهدف من هذه الآيات هو العموم.

و الشاهد الآخر للتعميم، هو أنّ جملة: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** قد وردت بصيغته الجمع، وإذا كان المخاطب هو النبي صلى الله عليه وآله، فينبغي أن تقول الآية: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُ خَبِيرًا**.

ولا يخفى أنّ هذه الأوامر الموجهة إلى النبي صلى الله عليه وآله لا تعنى أنه كان مقصّراً في التقوى أو أنه يتبع الكافرين و المنافقين، بل إنّ لهذه الأوامر صفة التأكيد على واجبات النبي صلى الله عليه وآله من جهة، وهي درس و عبره لكل المؤمنين من جهة أخرى.

ص: ١٥٨

---

١-١) تفسير الفخر الرازي، المجلد ١٥، صفحته ١٩٠ ذيل الآيات مورد البحث.

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيْمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ لَمْ تَعْمَدْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٦)

## ادعاءات جوفاء:

تعقياً للآيات السابقة التي كانت تأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَتَّبِعَ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ فَقَطْ، وَلاَ يَتَّبِعَ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ، تَعَكَّسَ هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدْدِهَا عَاقِبَهُ اتِّبَاعُ هَؤُلَاءِ وَ أَنَّهُ يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى مَجْمُوعِهِ مِنَ الْخِرَافَاتِ وَ الْأَبَاطِيلِ، وَ قَدْ ذَكَرْتُ الْآيَةَ الْأُولَى مِنَ الْآيَاتِ مُورِدَ الْبَحْثِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْهَا، فَتَقُولُ أَوَّلًا: مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .

وَ قَدْ ذَكَرْتُ جَمْعَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ رَجُلًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَدْعَى «جَمِيلَ بْنِ مَعْمَرٍ» كَانَ عَجِيبَ الْحِفْظِ، وَ كَانَ يَدْعَى أَنَّ فِي جَوْفِهِ قَلْبَيْنِ كُلِّ مِنْهُمَا أَفْهَمُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَ لِذَلِكَ كَانَ مُشْرِكًا قَرِيشِيًّا يُسَمُّونَهُ: ذَا الْقَلْبَيْنِ! فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ وَ هَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، وَ فِيهِمْ جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ، تَلَقَّاهُ أَبُو سَفْيَانَ وَ هُوَ آخِذٌ بِيَدِهِ إِحْدَى نَعْلَيْهِ، وَ الْآخَرَى فِي رِجْلِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا مَعْمَرٍ، مَا حَالُ النَّاسِ؟ قَالَ: انْهَزَمُوا، قَالَ: فَمَا بِالكَ إِحْدَى نَعْلَيْكَ فِي يَدِكَ، وَ الْآخَرَى فِي رِجْلِكَ؟ فَقَالَ أَبُو مَعْمَرٍ: مَا شَعَرْتُ بِذَلِكَ، وَ كُنْتُ أَظُنُّهُمَا فِي رِجْلِي، فَعَرَفُوا يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا قَلْبٌ وَاحِدٌ لَمَّا نَسِيَ نَعْلَهُ فِي يَدِهِ (١). بَلْ لَمْ يَكُنْ يَعْقِلُ وَ يَفْهَمُ حَتَّى بِمَقْدَارِ ذِي الْقَلْبِ الْوَاحِدِ.

وَ الْمُرَادُ مِنَ «الْقَلْبِ» فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ «العقل».

وَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْكُفَّارِ وَ الْمُنَافِقِينَ، وَ عَدَمَ اتِّبَاعِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ يَدْعُو الْإِنْسَانَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْإِعْتِقَادَاتِ الْخِرَافِيَّةِ.

وَ بَعْضُ النَّظَرِ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ لِلْجُمْلَةِ مَعْنَى أَعْمَقَ، وَ هُوَ: أَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا قَلْبٌ وَاحِدٌ، وَ لاَ يَحْتَوِي هَذَا الْقَلْبُ وَ لاَ يَخْتَزِنُ إِلَّا عَشْقَ مَعْبُودٍ وَاحِدٍ، وَ عَلَى هَذَا فَإِنَّ

ص: ١٦٠

أولئك الذين يدعون إلى الشرك و الآلهه المتعدده ينبغي أن تكون لهم قلوب متعدده،ليجعلوا كل واحد منها بيتا لعشق معبود واحد! من المسلم أن شخصيّه الإنسان السليم شخصيه واحده،و خطّه الفكري واحد، و يجب أن يكون واحدا في وحدته و اختلاطه بالمجتمع،في الظاهر و الباطن،في الداخِل و الخارج،و في الفكر و العمل،فإن كل نوع من أنواع النفاق أز ازدواج الشخصيه أمر مفروض على الإنسان و على خلاف طبيعته.

إنّ الإنسان بحكم امتلاكه قلبا واحدا يجب أن يكون له كيان عاطفي واحد، و أن يخضع لقانون واحد..

و لا يدخل قلبه إلا حبّ معشوق واحد..

و يسلك طريقا معينا في حياته،بأن يتآلف مع فريق واحد،و مجتمع واحد،و إلا فإنّ التعدّد و التشتّت و الطرق المختلفه و الأهداف المتفرقه ستقوده إلى اللاهديه و الانحراف عن المسير التوحيدي الفطري.

و لهذا نرى

في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في تفسير هذه الآية: «لا يجتمع حبنا و حبّ عدونا في جوف إنسان،إنّ الله لم يجعل لرجل قلبين في جوفه، فيحبّ بهذا و يبغض بهذا،فأما محبنا فيخلص الحبّ لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه،فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه،فإن شارك في حبنا حبّ عدونا فليس منا و لسانه» (١).

و بناء على هذا فإنّ القلب مركز الاعتقاد الواحد،و ينفذ برنامجا عمليا واحدا، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعتقد بشيء حقيقه و ينفصل عنه في العمل،و ما يدعى بعض المعاصرين من أنّهم يمتلكون شخصيات متعدده،و يقولون:إننا قد قمنا بالعمل الفلاني سياسيا،و بذلك العمل دينيا،و الآخر اجتماعيا،و يوجهون بذلك

ص: ١٦١

---

١- ١) تفسير علي بن إبراهيم،طبقا لنقل نور الثقلين،المجلد ٤،صفحه ٢٣٤.

أفعالهم المتناقضه، فهو ناشئ من نفاقهم و سوء سريرتهم حيث يريدون أن يسحقوا بهذا الكلام قانون الخلقه.

صحيح أن أبعاد حياه الإنسان مختلفه، و لكن يجب أن يحكمها خطّ واحد، و تسير ضمن منهاج واحد.

ثم يتطرق القرآن إلى خرافه اخرى من خرافات الجاهليه، و هي خرافه «الظهار»، حيث أنّ المشركين كانوا إذا غضبوا على نساءهم، و أرادوا أن يبدوا تنفّرهم و عدم ارتياحهم، قالوا للزوجه: أنت على كظهر أمي فيعتبرها بمثابة أمه، و كان يعدّ هذا الكلام بمنزله الطلاق! يقول القرآن الكريم في تتمه هذه الآيه: **وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَمْ يَمْضِ الْإِسْلَامُ هَذَا الْقَانُونِ الْجَاهِلِي، و لم يصادق عليه، بل جعل عقوبه لمن يتعاطاه، و هي: أنّ من نطق بهذا الكلام فلا يحقّ له أن يقرب زوجته حتّى يدفع الكفّاره، و إذا لم يدفعها و لم يأت زوجته فإنّ لها الحقّ في أن تستعين بحاكم الشرع ليجبره على أحد أمرين: إمّا أن يطلقها وفقا لأحكام الإسلام و يفارقها، أو أن يكفّر و يستمرّ في حياته الزوجيه كالسابق (1).**

أى منطلق هذا الذى تصبح فيه زوجه الإنسان بمنزله أمه بمجرد أن يقول لها:

أنت على كظهر أمي؟! إنّ ارتباط و علاقته الامّ و الولد علاقته طبيعيه لا تتحقّق بمجرد الكلام مطلقا، و لذلك تقول الآيه ٢-سوره المجادله بصراحه: **إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا .**

و إذا كان هدف هؤلاء من إطلاق هذه الكلمات هو الإفتراق و الانفصال عن المرأه- (و هكذا كان في عصر الجاهليه، حيث كانوا يقولون هذه الكلمات بدل لفظ الطلاق)- فإنّ الانفصال عن المرأه لا يحتاج إلى مثل هذا الكلام القبيح السيء. ألا

ص: ١٦٢

(١-١) سيأتي- إن شاء الله تعالى- توضيح أكثر حول المسائل المرتبطه بالظهار في ذيل الآيات المناسبه في سوره المجادله.

يمكن أن يصرح بالطلاق بتعبير صحيح بعيد عن كل ذلك القبح؟ وقال بعض المفسرين: إن «الظهار» في الجاهلية لم يكن يؤدي إلى انفصال الرجل عن المرأة، بل إنه كان يجعل المرأة كالمعلقة لا يعرف حالها ومصيرها، وإذا كانت المسألة كذلك، فإن جنايه هذا العمل وقبحه ستكون أوضح، لأن كلمة لا معنى لها كانت تحرّم على الرجل علاقته الزوجية مع زوجته من دون أن تكون المرأة مطلّقة (١).

ثم تطرقت الآية إلى ثالث خرافه جاهلية، فقالت: وَمَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .

و توضيح ذلك: أنه كان من المتعارف في زمن الجاهلية أنهم كانوا ينتخبون بعض الأطفال كأولاد لهم، و يسمونهم أولادهم، و بعد هذه التسمية يعطونه كل الحقوق التي يستحقها الولد من الأب، فيرث الولد من تبنّاه، كما يرث المتبنّي الولد، و يجرى عليهما تحريم امرأة الأب أو زوجة الابن.

و قد نفى الإسلام هذه العادات غير المنطقية و الخرافية أشدّ النفي، بل -و كما سنرى- أنّ النبي صلّى الله عليه و آله أقدم -لمحو هذه السنّة المغلوطة- على الزواج من زوجة ولده المتبنّي «زيد بن حارثه» بعد أن طلقها زيد، ليّضح من خلال هذه السنّة النبوية أنّ هذه الألفاظ الجوفاء لا يمكن أن تغيّر الحقائق و الواقع، لأنّ علاقته البنوّه و الابنوّه علاقته طبيعيه لا تحصل أبدا من خلال الألفاظ و الاتفاقيات و الشعارات.

و مع أنّنا سنقول فيما بعد: أنّ زواج النبي بزوجه زيد المطلّقه قد أثار ضجّه عظيمه بين أعداء الإسلام، و أصبح حربه بيدهم للإعلام المضادّ السيء، إلا أنّ هذا العمل كان يستحقّ تحمّل كل ذلك الصخب الإعلامي لتخطيم هذه السنّة الجاهلية، و لذلك يقول القرآن الكريم بعد هذه الجملة: ذَلِكَم قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ .

ص: ١٦٣

(١-١) تفسير في ظلال القرآن، المجلّد ٦، صفحہ ٥٣٤، ذیل الآیہ مورد البحث.

إنكم تقولون: إن فلانا ولدى، و أنتم تعلمون علم اليقين أن الأمر ليس كذلك، فإن الأمواج الصوتيه فقط هي التي تخرج من أفواهكم و لا تنبع مطلقا من إعتقاد قلبي، و هذا كلام باطل ليس إلا و الله يقول الحق و هو يهتدي السبيل .

إن «قول الحق» يطلق على القول الذى ينطبق على الواقع الموضوعى تماما، أو أن يكون من الأمور الاعتباريه التى تنسجم مع مصالح كل أطراف القضيئه، و نعلم أن مسأله «الظهار» فى الجاهليه، أو «التبئى» الذى كان يستحق حقوق الأبناء الآخرين إلى حد كبير- لم يكونا من الموضوعات العينيه، و لا من الاعتباريات الحافظه لمصلحه عامه الناس.

ثم يضيف القرآن مؤكدا و موضحا الخط الصحيح و المنطقى للإسلام: اذعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله .

إن التعبير ب(أقسط) لا يعنى أنهم إن دعوهم بأسماء المتبئين لهم فإنه عدل، و إن دعوهم بأسماء آبائهم الواقعيين فإنه أعدل، بل - كما قلنا سابقا مرارا- إن صيغه (أفعل التفضيل) تستعمل فى بعض الموارد و لا تدل على الوصف المقابل لصفه ما، فمثلا نقول: من الأفضل أن يحتاط الإنسان و لا يلقى بنفسه فى الخطر، فلا يعنى هذا أن إلقاء النفس فى الخطر و التهلكه حسن، إلا أن الاحتياط أفضل منه، بل إن المراد المقارنه بين الحسن و القبح.

و تقول الآيه لرفع الأعدار و الحجج: فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم فى الدين و مواليتكم أى إن عدم معرفه آبائهم لا يكون دليلا- على أن تضعوا اسم شخص آخر كأب لهذا الابن، بل يمكنكم أن تخاطبهم كأخوانكم فى الدين أو أصدقائكم و مواليتكم.

(الموالى) جمع «مولى»، و قد ذكر المفسرون له معانى عديده، فالبعض فسره هنا بمعنى الصديق و الصاحب، و البعض الآخر بمعنى الغلام المعتق و المحزر، لأن بعض الأدياء كانوا عبيدا يشترون ثم يتحررون، و لما كان أصحابهم قد اهتموا

بهم و أحبّوهم فإنّهم كانوا يدعونهم كأبناء لهم.

و ممّا يجدر الإشارة إليه أنّ تعبير (مولى) فى مثل هذه الموارد كان يرتبط بالعبيد المحرّرين من جهة أنّهم كانوا يحتفظون بعلاقاتهم مع مالكيهم بعد تحرّرتهم، تلك العلاقات التى كانت تنوب عن اولى الأرحام فى بعض الجهات من الناحية الحقوقية، و كانوا يعبرون عن ذلك ب(ولاء العتق) و لذلك نقرأ فى الروايات الإسلاميه أنّ «زيد بن حارثه» بعد أن أعتقه النّبى كان يدعى زيد بن محمّد، حتّى نزل القرآن بالأمر أعلاه، فمن ذلك الحين

قال له النّبى صلّى الله عليه و آله: «أنت زيد بن حارثه»، و كان الناس يدعونه بعد ذلك: مولى رسول الله (١).

و قالوا أيضا: كان لأبى حذيفه غلام يدعى «سالما» فأعتقه و ادّعاه، فلمّا نزلت هذه الآيه كانوا يسمّونه: سالما مولى أبى حذيفه (٢).

و لكن ربّما يدعو الشخص إنسانا لغير أبيه لاعتياده ذلك سابقا، أو لسبق لسانه، أو لاشتباهه فى تشخيص نسب الأفراد، و هذا خارج عن حدود إختيار الإنسان، فإنّ الله العادل الحكيم لا يعاقب مثل هذا الإنسان، و لذا أردفت الآيه: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ (٣) وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً .

إنّّه تعالى يغفر لكم ما سبق، و يعفو عن السهو و النسيان و الاشتباه، أمّا بعد نزول هذا الحكم فإنّ الله عزّ و جلّ سوف لا يغفر لكم مخالفتكم إن صدرت عن عمد و قصد، فتدعون أفرادا بغير أسماء آبائهم، و تستمرون على اتّباع هذا العرف السيء بالدعوه لغير الأب.

و قال بعض المفسّرين: إنّ موضوع الخطأ يشمل الموارد التى يقول فيها

ص: ١٦٥

١- ١) روح المعانى، المجلّد ٢١، صفحہ ١٣١ ذيل الآيه مورد البحث.

٢- ٢) روح البيان، ذيل الآيه مورد البحث.

٣- ٣) قال المفسّرون: إنّ كلمه (ما) هنا موصوله، و هى من ناحيه الإعراب مبتدأ، و خبرها محذوف، و تقدير الجملة: لكن ما تعدّت قلوبكم فإنّكم تؤاخذون عليه.



الإنسان لآخر تحبباً: ولدى، أو يا بنى، أو يقول فيها لآخر احتراماً: يا أبت! وهذا الكلام صحيح-طبعاً- وهذه التعبيرات لا تعدّ ذنباً، لكن لا- لأجل عنوان الخطأ، بل لأنّ لهذه التعبيرات صفة الكنايه و المجاز، و قرينتها معها عاده، و القرآن ينفي التعبيرات الحقيقيه فى هذا الباب، لا المجازيه.

ثم تتطرق الآيه التاليه إلى مسأله مهمه اخرى، أى إبطال نظام «المؤاخاه» بينهم.

و توضيح ذلك: أنّ المسلمين لمّا هاجروا من مكّه إلى المدينه و قطع الإسلام كلّ روابطهم و علاقاتهم بأقاربهم و أقوامهم المشركين الذين كانوا فى مكّه تماماً، فقد أجرى النّبى صلّى الله عليه و آله بأمر الله عقد المؤاخاه بينهم و عقد عهد المؤاخاه بين «المهاجرين» و «الأنصار»، و كان يرث أحدهم الآخر كالأخوين الحقيقيين، إلّا أنّ هذا الحكم كان مؤقتاً و خاصّاً بحاله استثنائيه جدّاً، فلمّا اتسع الإسلام و عادت العلاقات السابقه تدريجياً لم تكن هناك ضروره لاستمرار هذا الحكم، فنزلت الآيه أعلاه و ألغت نظام المؤاخاه الذى كان يحلّ محلّ النسب، و جعل حكم الإرث و أمثاله مختصاً بأولى الأرحام الحقيقيين.

و بالرغم من أنّ نظام المؤاخاه كان نظاماً إسلامياً-على خلاف نظام التّبنيّ الذى كان نظاماً جاهلياً-و لكن كان من الواجب أن يبلغى بعد ارتفاع الحاله الموجه له، و هكذا حصل، غايه ما فى الأمر أنّ الآيه قبل أن تذكر هذا الحكم ذكرت حكمين آخرين- أى كون النّبى صلّى الله عليه و آله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، و كون نساء النّبى صلّى الله عليه و آله كامهاتهم- كمقدمه، فقالت: **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .**

و مع أنّ النّبى صلّى الله عليه و آله بمنزله الأب، و أزواجه بمنزله امهات المؤمنين إلّا أنّهم لا يرثون منهم مطلقاً، فكيف ينتظر أن يرث الابن المتبنيّ؟! ثمّ تضيف الآيه: **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**

و لكن مع ذلك، و من أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمين تماماً و ليكون بإمكان المؤمنين تعيين شيئا من الإرث لإخوانهم- و إن كان بأن يوصوا بثالث المال فإن الآيه تضيف فى النهايه: إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أَوْلِيَاءَ كُمْ مَعْرُوفًا .

و تقول فى آخر جملة تأكيداً لكل الأحكام السابقه، أو الحكم الأخير: كَانْ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا - فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن الكريم-.

كان هذا خلاصه تفسير الآيه أعلاه، و الآن يجب أن نتطرق إلى تفصيل كل واحد من الأحكام الأربعة التى وردت فى هذه الآيه:

١- ما هو المراد من كون النبى أولى بالمؤمنين؟ لقد ذكر القرآن فى هذه الآيه أولويه النبى صلى الله عليه و آله بالمسلمين بصوره مطلقه، و معنى ذلك أنّ النبى صلى الله عليه و آله أولى بالإنسان المسلم من نفسه فى جميع الصلاحيات التى يمتلكها الإنسان فى حق نفسه.

و مع أنّ بعض المفسرين فسروها بمسأله «تدبير الأمور الاجتماعيه»، أو «الأولويه فى مسأله القضاء»، أو «طاعه الأمر»، إلا أنّنا فى الواقع لا نمتلك أى دليل على انحصار الآيه فى أحد هذه الأمور الثلاث.

و إذا لاحظنا فى بعض الروايات الإسلاميه تفسير الأولويه ب«الحكومه»، فهو فى الحقيقه بيان لأحد فروع هذه الأولويه (١).

لذلك يجب أن يقال: إنّ النبى صلى الله عليه و آله أولى من كل إنسان مسلم فى المسائل الاجتماعيه و الفرديه، و كذلك فى المسائل المتعلقة بالحكومه و القضاء و الدعوه، و إنّ إرادته و رأيه مقدّم على إرادته أى مسلم و رأيه.

و لا- ينبغى العجب من هذه المسأله، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله معصوم و وكيل لله سبحانه، و لا يفكر و يقرّر إلا فى صالح المجتمع و الفرد، و لا يتبع الهوى أبداً، و لا يعتبر

ص: ١٦٧

(١-١) وردت هذه الروايات فى اصول الكافى، و كتاب علل الشرائع. راجع تفسير نور الثقلين، المجلد ٤، صفحه ٢٣٨-٢٣٩.

مصالحه مقدّمه على مصالح الآخرين و أهمّ منها، بل على العكس من ذلك، فهو يؤثّر و يقصد مصالح الامّة على مصالحه دائماً عند تعارض المصلحتين.

إنّ هذه الأولوية فرع من أولوية المشيئة الإلهية، لأنّ كلّ ما لدينا من الله سبحانه. إضافه إلى أنّ الإنسان لا يصل إلى أوج الإيمان إلاّ عند ما يضحى بأقوى العلائق و الدوافع فيه، و هو عشقه لذاته في طريق عشقه لذات الله و خلفائه، و لذلك نقرأ

في حديث: «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (١).

و

جاء في حديث آخر: «و الذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه و ماله و ولده و الناس أجمعين» (٢).

و كذلك

روى عنه صلّى الله عليه و آله: «ما من مؤمن إلاّ و أنا أولى الناس به فى الدنيا و الآخرة» (٣).

و يقول القرآن الكريم فى الآية (٣٦) من سورة الأحزاب هذه: مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .

و تؤكّد مرّه اخرى على أنّ هذا الكلام لا يعنى أنّ الله قد جعل أمر الناس تبعاً لأهواء و رغبات شخص ما، بل من جهة أنّ للنبي صلّى الله عليه و آله مقام العصمه، و بمصداق: مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ فَإِنَّ كَلَّ مَا يَقُولُهُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ و من الله، و هو أحرص و أرحم حتّى من الأب بهذه الامه.

إنّ هذه الأولوية فى الحقيقه تقع فى مسير منافع الناس فى جوانب الحكومه و تدبير المجتمع الإسلامى، و كذلك فى المسائل الشخصيه و الفرديه.

و يتبيّن من هذه الأدلّه أنّ هذه الأولوية تضع على عاتق النبي صلّى الله عليه و آله مسؤوليات ثقيه ضخمه، و لذلك نقرأ فى الروايه المشهوره الوارده فى مصادر الشيعه و السنّه،

ص: ١٦٨

١-١) تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢) المصدر السابق.

٣-٣) صحيح البخارى، المجلّد ٦، صفحه ١٤٥ تفسير سورة الأحزاب، و مسند أحمد، الجزء ٢، صفحه ٣٣٤.

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا- فَلِلْوَارِثِ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلِئِيَّ وَ عَلَيَّ» (١).

ينبغي الالتفات إلى أنّ «الضياع» هنا بمعنى الأولاد أو العيال الذين بقوا بدون معيل، والتعبير ب«الدين» قبلها قرينه واضح على هذا المعنى، لأنّ المراد بقاء الدين بدون مال يسدّد به.

٢-الحكم الثّاني في هذا الباب يتعلّق بأزواج النّبي حيث يعتبرن كأمّهات لكلّ المؤمنين، وهي طبعاً أمومه معنويه و روحيه، كما أنّ النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبٌ رُوحِيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ لِلْأُمَّةِ.

إنّ تأثير هذا الارتباط المعنوي كان منحصراً في مسأله حفظ احترام أزواج النّبي و حرمة الزواج منهنّ، كما جاء الحكم الصريح بتحريم الزواج منهنّ بعد وفاه النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في آيات هذه السوره، وإلاّ فليس لهذه العلاقه أدنى أثر من ناحيه الإرث و سائر المحرّمات النسبيه و السببيه، أي إنّ المسلمين كان من حقّهم أن يتزوّجوا بنات النّبي، في حين أنّ أيّ أحد لا- يستطيع الزواج من ابنه امّه. و كذلك مسأله كونهنّ أجنبيات، و عدم جواز النظر إليهنّ إلاّ للمحارم.

في حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ امرأه قالت لعائشه: يا امّه! فقالت:

لست لك لأمّ إنّما أنا أمّ رجالكم» (٢) و هو إشاره إلى أنّ الهدف من هذا التعبير هو حرمة التزويج، و هذا صادق في رجال الامّه فقط.

و ثمّه مسأله مطروحه، وهي احترامهنّ و تعظيمهنّ - كما قلنا- إضافة إلى قضيه عدم الزواج، و لذلك فإنّ نساء المسلمين كنّ قادرات على مخاطبه نساء النّبي

ص: ١٦٩

١- ١) نقل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عن النّبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في وسائل الشيعه، الجزء ٧، صفحته ٥٥١، و ورد هذا المضمون بتفاوت يسير في تفسير القرطبي، و روح المعاني في ذيل الآيات مورد البحث، و ورد أيضاً في صحيح البخاري، المجلد ٦، صفحته ١٤٥ تفسير سوره الأحزاب.

٢- ٢) مجمع البيان، و روح المعاني، ذيل الآيات مورد البحث.

بالأمّ بعنوان احترامهنّ.

و الشاهد لهذا القول، أنّ القرآن الكريم يقول: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ هَذَا يَعْنِي أَوْلِيَهُ النَّبِيُّ بِكُلِّ النِّسَاءِ وَ الرِّجَالِ، وَ ضَمِيرِ الْجُمْلَةِ التَّالِيَةِ يَعُودُ إِلَى هَذَا الْعُنْوَانِ الْوَاسِعِ الْمَعْنَى، وَ لِذَلِكَ نَقَرَأُ فِي الْعِبَارَةِ الَّتِي نَقَلْتُمْ عَنْ «أُمِّ سَلْمَةَ» - وَ هِيَ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - أَنَّهَا قَالَتْ: أَنَا أُمُّ الرِّجَالِ مِنْكُمْ وَ النِّسَاءِ (١).

وَ هُنَا يَطْرَحُ سَوْأَلٌ، وَ هُوَ: هَلْ أَنَّ تَعْبِيرَ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ يَتَنَاقَضُ مَعَ مَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ (٢) مِنْ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ: الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا فَكَيْفَ تَعْتَبِرُ نِسَاءَ النَّبِيِّ - وَ الْحَالُ هَذِهِ - أُمَّهَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَ لَمْ يُولَدُوا مِنْهُنَّ؟ وَ يَنْبَغِي فِي الْإِجَابَةِ عَلَى هَذَا السَّوْأَلِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى أَنَّ مَخَاطَبَةَ أَمْرَأَةٍ مَا بِالْأُمِّ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَسْمِيَّةِ أَوْ الرُّوحِيَّةِ..

فَأَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَسْمِيَّةِ: فَإِنَّ هَذِهِ الْمَخَاطَبَةَ تَكُونُ وَاقِعِيَّةً فِي حَالِهِ كَوْنِ الْإِنْسَانِ مَوْلُودًا مِنْهَا فَقَطْ، وَ هَذَا هُوَ الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِأَنَّ الْأُمَّ الْجَسْمِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ هِيَ الَّتِي تَلِدُهُ فَقَطْ.

وَ أَمَّا الْأَبُ أَوْ الْأُمُّ الرُّوحِيَّةِ، فَهُوَ الَّذِي لَهُ حَقٌّ مَعْنَوِيٌّ عَلَى الْإِنْسَانِ كَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ الَّذِي يَعْتَبَرُ الْأَبُ الرُّوحِيَّ لِلْأُمَّةِ، وَ لِأَجْلِهِ اكْتَسَبَتْ أَزْوَاجُهُ مَنْزِلَهُ وَ احْتِرَامَ الْأُمِّ.

وَ الْإِشْكَالُ الَّذِي كَانَ يُوْجِهُ إِلَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَوْرِدِ «الظَّهَارِ» أَنَّهُمْ عِنْدَ مَا كَانُوا يَخَاطَبُونَ أَزْوَاجَهُمْ بِخَطَابِ الْأُمِّ فَمِنْ الْمَسْلَمِ أَنَّ مَرَادَهُمْ لَيْسَ الْأُمُّ الْمَعْنَوِيَّةُ، بَلِ الْمَقْصُودُ أَنَّهُنَّ كَالْأُمَّ الْجَسْمِيَّةِ، وَ لِذَلِكَ كَانُوا يَعْدُونَهُ نَوْعًا مِنَ الطَّلَاقِ، وَ نَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّ الْجَسْمِيَّةَ لَا تَتَحَقَّقُ بِمَجْرَدِ الْأَلْفَاظِ، بَلْ إِنَّ شَرْطَ ذَلِكَ الْوِلَادَةَ الْجَسْمِيَّةَ، وَ بِنَاءً عَلَى هَذَا فَإِنَّ كَلَامَهُمْ كَانَ مُنْكَرًا وَ زُورًا.

ص: ١٧٠

أما في مورد أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فبالرغم من أَنَّهُنَّ لسن أمهات جسمياً، إلا أَنَّهُنَّ أمهات روحيات اكتساباً من مقام و احترام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ لَهُنَّ وَجوب الاحترام كأمهات. و إذا رأينا القرآن قد حرّم الزواج من أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في الآيات القادمة، فإن ذلك شأن آخر من شؤون احترامهنّ و احترام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كما سيأتي توضيح ذلك بصورة مفصّله إن شاء الله تعالى.

و هناك نوع ثالث من الأمهات في الإسلام و هي الأمّ المرضعه، و التي أشير إليها في الآية (٢٣) من سورة النساء: وَ أُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ إِلَّا أَنَّهُنَّ فِي الْحَقِيقَةِ فِرْعَ مِنْ فِرْعِ الْأُمِّ الْجَسْمِيَةِ.

٣- الحكم الثالث: مسأله أولويه أولى الأرحام في الإرث بالنسبه إلى الآخرين، لأنّ قانون الإرث في بدايه الإسلام- حيث قطع المسلمون علاقتهم بأقوامهم و أقاربهم على أثر الهجره- نظّم على أساس الهجره و المؤاخاه، أي أنّ المهاجرين كانوا يرثون بعضهم من بعض أو مع الأنصار الذين تأخوا معهم و لكن لم تكن هناك ضروره للاستمرار عليه بعد توسّع الإسلام و إعادته كثير من العلاقات القوميه و الرحميه السابقه نتيجة إسلام أقوامهم- (و ينبغي الالتفات إلى أنّ سورة الأحزاب قد نزلت في السنه الخامسه للهجره، و هي سنه «حرب الأحزاب») لذلك ثبتت أولويه أولى الأرحام بالنسبه إلى الآخرين.

و هناك قرائن على أنّ المراد من الأولويه هنا هي الأولويه الإلزاميه لا- الاستجابيه، لأنّ إجماع علماء الإسلام على هذا المعنى، إضافة إلى الروايات الكثيره الوارده في المصادر الإسلاميه، و التي تثبت هذا الموضوع.

و يجب هنا الالتفات إلى هذه المسأله بدقه، و هي: أنّ هذه الآيه بصدد بيان أولويه أولى الأرحام في مقابل الأجانب، لا بيان أولويه طبقات الإرث الثلاث بالنسبه إلى بعضها البعض، و بتعبير آخر، فإنّ المفضّل عليهم هنا هم المؤمنون و المهاجرون الذين ورد ذكرهم في متن القرآن: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ .

بناء على هذا فإن مفهوم الآيه يصبح: إن أولى الأرحام أولى من الأجنبي من ناحية الإرث، أما كيف يرث هؤلاء الأرحام؟ و على أى أساس و معيار؟ فإن القرآن سكت عن ذلك فى هذا الموضوع، مع أنه بحث الموضوع مفصلاً فى آيات سورة النساء (١).

٤-الحكم الزاج الذى ورد فى الآيه أعلاه كاستثناء، هو استفادته و انتفاع الأصدقاء و الأفراد المعينين الذين يخصهم الأمر من الأموال التى يتركها الإنسان كذكرى، و الذى بين بجملة: **إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أَوْلِيًّا** كَمَعْرُوفاً و مصداقه الواضح هو حكم الوصيه، حيث يستطيع الإنسان أن يتصرف فى ثلث أمواله و يضعه حيث يشاء، أو يوصى به لمن يشاء.

و بهذا فإن الإسلام عند ما وضع أساس الإرث على دعامة القرابه و الرحم بدل الروابط و العلاقات السابقه، لم يقطع وشائج الصله بين الإنسان و رفقاءه الذين يعزهم و باقى إخوته المسلمين تماماً، فالإنسان حرّ فى التصرف فى ماله من ناحية الكميّه و الكيفيه، إلا أنّ هذه الحرية مشروطه بأن لا تزيد على الثلث، و من الطبيعى أنّ الإنسان إذا لم يوص بشيء فإنّ كلّ أمواله تقسم بين أقاربه و ذوى رحمه طبقاً لقانون الإرث، و لا يترك له ثلث فى هذه الحاله (٢).

ص: ١٧٢

١ - ١) بناء على هذا، فإنّ استدلال بعض الفقهاء بهذا التعبير على أولويه طبقات الإرث بالنسبه إلى بعضها البعض لا يبدو صحيحاً، و ربّما سبب حرف الباء فى (أولى ببعض) مثل هذا الاشتباه، فظنّوا أنّ المفضلّ عليهم هنا هم البعض، فى حين أنّ القرآن الكريم ذكر صريحاً أنّ المفضلّ عليهم هم من المؤمنين و المهاجرين. نعم.. إنّ تعبير (أولو الأرحام) لا يستطيع أن يشعر بمفرده أنّ المعيار هو الرحم و القرابه، و أنّ درجه القرابه كلّما قويت و ارتفعت فستكون أحقّ بالتقدّم -لاحظوا ذلك-.

٢ - ٢) يعتقد جمع من المفسّرين أنّ الاستثناء فى جمله (إلا أن تفعلوا...) استثناء منقطع، لأنّ حكم الوصيه غير حكم الإرث، و لكننا نعتقد أن لا مانع من أن يكون الاستثناء هنا متصلاً، لأنّ جمله (و أولو الأرحام...) دليل على أن الأقارب أولى من الأجنبي بالنسبه إلى الأموال التى يتركها الميت، إلا أن يكون قد أوصى، فإنّ الموصى له يكون حينئذ أولى من الأرحام فى إطار الثلث، و هذا فى الحقيقه شبيه بالاستثناءات التى وردت فى آيات الإرث بصيغته (من بعد وصيه...).

وردت روايات كثيره عن أئمه أهل البيت عليهم السلام فى تفسير الآيه أعلاه فيما يتعلّق بأولى الأرحام، حيث فسّرت هذه الآيه فى بعض منها بمسأله «إرث الأموال»، كما هو المعروف بين المفسّرين، فى حين فسّرت فى البعض الآخر بمسأله «إرث الخلافه و الحكومه» فى آل النّبى صلّى الله عليه وآله و أئمه أهل البيت عليهم السلام.

و من جملتها ما نقرؤه

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام حينما سئل عن تفسير هذه الآيه، أنّه قال: «نزلت فى ولد الحسين عليه السلام». قيل: فى الموارث؟ قال: «لا، نزلت فى الإمرة» (١).

من البديهي أنّه ليس المراد من هذه الأحاديث نفي مسأله إرث الأموال، بل المراد لفت الانتباه إلى أنّ للإرث معنى واسعاً يشمل إرث الأموال و إرث الولاية و الخلافه.

و ليس لهذا التوارث أى وجه شبه مع مسأله توارث السلطنه فى سلسله الملوك و السلاطين، فإنّ التوارث هنا نتيجته للأهليه و اللياقه، و لذلك فإنّه يشمل من بين أولاد الأئمه من كانت له هذه الأهليه، و يشبه تماماً ما يريدّه إبراهيم عليه السّلام من الله سبحانه لذريّته، فيقول الله له: إنّ الإمامه و الولاية لا تنال الظالمين، بل هى خاصّه بالطاهرين لا يتألّ عهدي الظالمين .

و يشبه أيضاً ما نقوله فى الزيارات أمام قبور الشهداء فى سبيل الله، و من جملتها ما نقوله أمام قبر الإمام الحسين عليه السلام:

السّلام عليك يا وارث آدم، و وارث نوح، و وارث إبراهيم، و وارث موسى و عيسى و محمّد... فإنّ هذا الإرث فى الجوانب العقائديه و الأخلاقيه و المعنويه و الروحيه.

ص: ١٧٣

١- ١) أخرج هذه الأحاديث العلامة السيّد هاشم البحرانى فى تفسير البرهان، المجلّد ٣، صفحه ٢٩٢-٢٩٣، و من جملتها الحديث أعلاه، و الحديث (١٤) من سلسله الأحاديث هذه.



اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لَيْسَ لَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

التفسير

اشاره

ميثاق الله الغليظ:

لما كانت الآيات السابقة قد بينت الصلاحيات الواسعة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تحت عنوان (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فإن هذه الآيات تبين واجبات النبي صلى الله عليه وآله و سائر الأنبياء العظام الثقيله العظيمه، لأننا نعلم أن الصلاحيات تقترن دائما بالمسؤوليات، و حيثما وجد «حق» كان إلى جانبه «تكليف» و مسؤوليه، فإن هذين الأمرين لا يفترقان أبدا. بناء على هذا فإن النبي صلى الله عليه وآله إن كان له حق و صلاحيه واسعه، فإن عليه في المقابل مسؤوليات ضخمه.

تقول الآيه الأولى: وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا و على هذا فإنها تذكر أولا جميع الأنبياء في مسأله الميثاق، ثم تخص بالذكر منهم خمسة أنبياء هم أولو

العزم، و على رأسهم نبي الإسلام صلى الله عليه و آله لعظمته و جلالته و شرفه، و بعده الأنبياء الأربعة من أولى العزم حسب ترتيب ظهورهم، و هم: «نوح و إبراهيم و موسى و عيسى» عليهم السلام.

و هذا يوحى بأن الميثاق المذكور كان ميثاقا عاما أخذ من جميع الأنبياء، و إن كان أولو العزم متعهدين بذلك الميثاق و مسئولين عنه بصورة أشد. ذلك الميثاق الذى بين بتأكيد شديد جدا بجملة: **وَ أَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١)**.

المهم أن نعلم أى ميثاق هذا الذى أخذ من كل الأنبياء؟! للمفسرين هنا أقوال مختلفة يمكن القول أنها جميعا فروع مختلفة لأصل واحد، و هو تأديبه مسئوليه التبليغ و الرساله و القيادة و هدايه الناس فى كل الأبعاد و المجالات.

إن الأنبياء كانوا مكلفين جميعا بدعوه كل البشر إلى التوحيد قبل كل شىء، و كانوا مكلفين أيضا بأن يؤيد بعضهم بعضا، كما أن الأنبياء اللاحقين يصدقون و يؤكدون صحه دعوه الأنبياء السابقين. و الخلاصه: أن تكون الدعوه إلى جهه واحده، و أن يبلغ الجميع حقيقه واحده، و يوحدوا الأمم تحت رايه واحده.

و يمكن ملاحظه الشاهد على هذا الكلام فى سائر آيات القرآن أيضا، فنقرأ فى الآية (٨١) من سوره آل عمران: **وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حَكْمِهِ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَضْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .**

و ورد نظير هذا المعنى فى الآية (١٨٧) من سوره آل عمران، حيث تقول بصراحه: **وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ وَ عَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ اللَّهَ سبحانه قد أخذ الميثاق المؤكد من الأنبياء بأن يدعوا الناس إلى توحيد الله، و توحيد دين الحق و الأديان السماويه، و كذلك أخذه من علماء أهل**

ص: ١٧٥

١ - ١) الميثاق - كما يقول الراغب فى مفرداته - هو العقد المؤكد بيمين و عهد، و بناء على هذا فإن ذكر (غليظا) فى الآية تأكيد يضاف على هذا المعنى.

الكتاب بأن لا يقصروا في تبيان الدين الإلهي بكل ما في وسعهم، وأن لا يكتموا ذلك أبداً.

و تبين الآيه التاليه الهدف من بعثه الأنبياء و الميثاق الغليظ الذى أخذ منهم، فتقول: لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا.

للمفسرين تفسيرات كثيره لكلمه «الصادقين»، و من هم المقصودون بها؟ و أى سؤال هذا السؤال؟ إلا أن الذى يبدو منسجما مع آيات هذه السوره و آيات القرآن الاخرى، هو: أن المراد منهم المؤمنون الذين صدقوا ادعاءهم بالعمل، و أثبتوا صدقه بترجمته عمليا، و بتعبير آخر: فإنهم خرجوا من ساحه الاختبار و الامتحان الإلهي مرفوعى الرؤوس.

و الشاهد لهذا القول:

أولاً: إن «الصادقين» هنا وضعوا فى مقابل الكافرين، فيستفاد هذا المعنى بوضوح من قرينه المقابله.

ثانياً: نقرأ فى الآيه (٢٣) من هذه السوره: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَقُولُ الْآيَةُ (٢٤) مباشرة: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.

ثالثاً: عرفت الآيه (١٥) من سوره الحجرات، و الآيه (٨) من سوره الحشر (الصادقين) جيداً، ففى آيه الحجرات نقرأ: إِنَّمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.

و تقول آيه الحشر: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجْرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.

و بهذا يتضح أن المراد من الصادقين: هم الذين أثبتوا صدقهم و إخلاصهم فى ميادين حمايه دين الله و الجهاد و الثبات و الصمود أمام المشاكل و بذل الأرواح

أمّا ما هو المراد من سؤال الصادقين عن صدقهم؟ فيتّضح بملاحظه ما قلناه آنفا أنّ المراد هو: هل يثبتون إخلاص نيتهم في أعمالهم و يصدقون في ادّعائهم.. في الإنفاق و الجهاد و الثبات أمام الصعاب و المشاكل، و خاصّه صعوبات ميدان الحرب، أم لا؟ و أين سأل هذا السؤال؟ ظاهر الآية أنّه في القيامة، في محكمه العدل الإلهيه، و آيات القرآن العديده أيضا تخبر عن وقوع مثل هذا السؤال في القيامة بصوره عامّه.

إلاّ أنّه يحتمل أيضا أن يكون لهذا السؤال جانب عملي و يقع في الدنيا، حيث يخضع كلّ من يدّعي الإيمان للسؤال عن بعثه الأنبياء، و عمله هو الجواب على هذا السؤال، لأنّه سيقرّر فيما إذا كان صادقا في ادّعائه.

ص: ١٧٧

---

١-١) احتمال جمع من المفسّرين احتمالا آخر في معنى هذه الآية، و هو أنّ المراد من «الصادقين» هنا هم الأنبياء، حيث يسألون يوم القيامة عن مدى قيامهم و وفائهم بعهدهم و ميثاقهم؟ إلاّ أنّ الشواهد الثلاثة التي ذكرناها أعلاه تنفي هذا التفسير. و احتمال أيضا أن يكون المراد أعمّ من الأنبياء و المؤمنين، إلاّ أنّ التفسير الذي ذكر أعلاه أكثر انسجاما مع آيات هذه السوره و سائر آيات القرآن.

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا  
(٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ  
الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)

التفسير

إشاره

الامتحان الإلهي العظيم في مواجهه الأحزاب:

تتحدث هذه الآيات و الآيات الاخرى التالیه، و التي تشكّل بمجموعها سبع عشره آیه، عن أعسر الامتحانات و الاختبارات الإلهيه للمؤمنين و المنافقين، و اختبار مدى صدقهم في العمل، الذي بحث في الآيات السابقه.

إنّ هذه الآيات تبحث أحد أهمّ حوادث تاريخ الإسلام، أى عن «معركة الأحزاب»، تلك المعركة التي كانت في الواقع نقطه انعطاف في تاريخ الإسلام، و قلبت موازين القوى بين الإسلام و الكفر لصالح المسلمين، و كان ذلك النصر مفتاحا للانتصارات المستقبليه العظيمه، فقد انقصر ظهر الأعداء في هذه الغزوه،

و لم يقدرُوا بعد ذلك على القيام بأى عمل مهم.

إنَّ حرب الأحزاب-و كما يدلُّ عليها اسمها- كانت مجابهة شاملة من قبل عامَّة أعداء الإسلام و الفئات المختلفة التي تعرَّضت مصالحتها و منافعتها اللامشروعه للخطر نتيجة توسُّع و انتشار هذا الدين.

لقد اشعلت أوَّل شراره للحرب من قبل يهود «بنى النظير» الذين جاؤوا إلى مكَّة و أغروا «قريش» بحرب النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله، و وعدوهم بأن يساندوهم و يقفوا إلى جانبهم حتَّى النفس الأخير، ثمَّ أتوا قبيله «غطفان» و هيئوهم لهذا الأمر أيضا.

ثمَّ دعت هذه القبائل حلفاءها كقبيله «بنى أسد» و «بنى سليم»، و لَمَّا كان الجميع قد أحسَّ بالخطر فإنَّهم اتَّحدوا و اتَّفقوا على أن يقضوا على الإسلام إلى الأبد، و يقتلوا النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله، و يقضوا على المسلمين، و يغيروا على المدينة و يطفئوا مشعل الإسلام و نوره.

أمَّا المسلمون الذين رأوا أنفسهم أمام هذا الجحفل الجرَّار، فإنَّهم اجتمعوا للتشاور بأمر النَّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله، و قبل كلِّ شيء أخذوا برأى «سلمان الفارسى» و حفروا حول المدينة خندقا حتَّى لا يستطيع العدو عبوره بسهولة و يهجم على المدينة، و لهذا كان أحد أسماء هذه المعركة «معركة الخندق».

لقد مرَّت لحظات صعبة و خطره جدًّا على المسلمين، و كانت القلوب قد بلغت الحناجر، و كان المنافقون من جهة أخرى قد شَمروا عن السواعد و جدَّوا فى تأمرهم على الإسلام، و كذلك ضخامه عدد الأعداء و قلَّه عدد المسلمين- (ذكروا أنَّ عدد الكفَّار كان عشرة آلاف، أمَّا المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف) و استعداد الكفَّار من ناحية المعدَّات الحربية و تهيئته كافَّة المستلزمات، كلُّ ذلك قد رسم صورته كالحه للمصير المجهول فى أعين المسلمين.

إلاَّ أنَّ الله سبحانه أراد أن ينزل هنا آخر ضربه بالكفر، و يميِّز صفَّ المنافقين عن صفوف المسلمين، و يفضح المتأمِّرين، و يضع المسلمين الحقيقيين فى موضع

و أخيراً انتهت هذه الغزوه بانتصار المسلمين - كما سيأتى تفصيلاً ذلك - فقد هبت بأمر الله عاصفه هو جاء اقتلعت خيام الكفار و أتلفت وسائلهم، و ألفت فى قلوبهم الرعب الشديد، و أرسل سبحانه قوى الملائكة الغيبية لعون المسلمين.

و قد أضيف إلى ذلك تجلّى قدره و عظمه أمير المؤمنين على عليه السلام أمام عمرو بن عبد ودّ، فلاذ المشركون بالفرار من دون قدره على القيام بأى عمل.

نزلت الآيات السبع عشره من هذه السوره، و استطاعت بتحليلاتها الدقيقه و الفاضحه أن تستفيد من هذه الحادثه المهمه من أجل انتصار الإسلام النهائى و قمع المنافقين بأفضل وجه.

كان هذا عرضاً لمعركه الأحزاب التى وقعت فى السنه الخامسه للهجره (1)، و من هنا نتوجه إلى تفسير الآيات و نؤجل سائر جزئيات هذه الغزوه إلى بحث الملاحظات.

يلخص القرآن الكريم هذه الحادثه فى آيه واحده أولاً، ثم يتناول تبيان خصوصياتها فى الست عشره آيه الاخرى، فيقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ (كثيره جدا) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا و يعلم أعمال كل جماعه و ما قامت به فى هذا الميدان الكبير.

### و هنا جملة مطالب تستحقّ الدقه:

١- إنّ تعبير (اذكروا) يوحى بأنّ هذه الآيات نزلت بعد انتهاء الحرب و مضى فتره من الزمن أتاحت للمسلمين أن يحلّلوا فى عقولهم و أفكارهم ما كانوا قد رأوه ليكون التأثير أعمق.

ص: ١٨٠

٢- إنَّ التعبير ب«الجنود» إشاره إلى مختلف الأحزاب الجاهليه كقريش و غطفان و بنى سليم و بنى أسد و بنى فزاره و بنى أشجع و بنى مرّه، و كذلك إلى طائفه اليهود فى داخل المدينه.

٣- إنَّ المراد من جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا و التى نزلت لنصره المسلمين، هو «الملائكه» التى ورد نصرها للمؤمنين فى غزوه بدر فى القرآن المجيد بصراحه، و لكن كما بيّنا فى ذيل الآيه (٩) من سوره الأنفال، فإنّنا لا نمتلك الدليل على أنّ هذه الجنود الإلهيه اللامرئيه نزلت إلى الميدان و حاربت، بل إنّ القرائن الموجوده تبين أنّ الملائكه نزلت لرفع معنويات المؤمنين و شدّ عزيمتهم و إثاره حماسهم (١).

و تقول الآيه التاليه تجسيدا للوضع المضطرب فى تلك المعركه، و قوّه الأعداء الحربيه الرهيبه، و القلق الشديد لكثير من المسلمين: إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا .

يعتقد كثير من المفسرين أنّ كلمه (فوق) فى هذه الآيه إشاره إلى الجانب الشرقى للمدينه، و هو المكان الذى دخلت منه قبيله غطفان، و (أسفل) إشاره إلى غربها حيث دخلت منه قريش و من معها.

إذا لا حظنا أنّ «مكّه» تقع فى جنوب المدينه تماما، فمن الطبيعى أنّ قبائل المشركين أتت من الجنوب، لكن ربّما كان وضع الطريق و مدخل المدينه فى حاله بحيث إنّ هؤلاء قد داروا قليلا- حول المدينه و دخلوا من الغرب. و على كلّ حال فإنّ الجملة أعلاه إشاره إلى محاصره هذه المدينه من قبل مختلف أعداء الإسلام.

إنّ جملة زَاغَتِ الْأَبْصَارُ - بملاحظه أنّ «زاغت» من مادّه الزيغ، أى الميل إلى جانب واحد- إشاره إلى الحاله التى يشعر بها الإنسان عند الخوف و الاضطراب، حيث تميل عيناه إلى جهه واحده، و تتسمّر و تثبت على نقطه معيّنه،

ص: ١٨١



و يبقى متحيراً حينذاك.

و جمله بَلَعَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ كناية جميلة عن حاله القلق و الاضطراب، و إِلَّا فَإِنَّ الْقَلْبَ الْمَادَى لَا يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِهِ مطلقاً، و لا يصل في أى وقت إلى الحنجره.

و جمله وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا إشاره إلى أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ خَطَرَتْ عَلَى أَفْكَارِهِمْ ظُنُونٌ خَاطِئَةٌ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ وَصَلُوا بَعْدَ إِلَى مَرَحَلَةِ الْكَمَالِ فِي الْإِيمَانِ، وَ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ تَقُولُ عَنْهُمْ الْآيَةُ التَّالِيَةُ: إِنَّهُمْ زَلَزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا.

رَبِّمَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَفْكَرُ وَ يَظُنُّ بِأَنَّ سَنَنْهَزِمُ فِي نَهَائِهِ الْمَطَافِ، وَ يَنْتَصِرُ جَيْشُ الْعَدُوِّ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَ الْعِظْمَةِ، وَ قَدْ حَانَتْ نَهَائِهِ عُمَرُ الْإِسْلَامِ، وَ أَنَّ وَ عَوْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بِالنَّصْرِ سَوْفَ لَا تَتَحَقَّقُ مطلقاً.

من الطبيعي أَنَّ هَذِهِ الْأَفْكَارَ لَمْ تَكُنْ عَقِيدَةً رَاسِخَةً، بَلْ كَانَتْ وَسَاوِسَ حَدِثَتْ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِ الْبَعْضِ، وَ هَذَا شَبِيهٌ بِمَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ، حَيْثُ يَقُولُ:

وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ . (١)

و لا- شَكَّ أَنَّ الْمَخَاطَبَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَحَلُّ الْبَحْثِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَ جَمْلُهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا التَّى وَرَدَتْ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَ رَبِّمَا لَمْ يَلْتَفِتِ الَّذِينَ اعْتَبَرُوا الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْمَخَاطَبُونَ هُنَا إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، أَوْ لَعَلَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الظنون لا- تتناسب مع الإيمان و الإسلام، في حين أَنَّ ظُهُورَ مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ لَا يَتَعَدَّى كَوْنَهَا وَسُوسَةَ شَيْطَانِيَّةٍ، خَاصَّةً فِي تِلْكَ الظروف الصعبة المضطربة جدًّا، وَ هَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ بِالنسبة لضعفاء الإيمان، وَ الْحَدِيثِيُّ الْعَهْدُ بِالْإِسْلَامِ (٢) .

هنا كان الامتحان الإلهي قد بلغ أشده كما تقول الآية التالية:

ص: ١٨٢

١-١) آل عمران، الآية ١٥٤.

٢-٢) فسر جمع من المفسرين (الظنون) هنا بالمعنى الأعم من الظن السىء و الحسن، إلا أن القرائن الموجودة في هذه الآية و الآية التالية تبين أن المراد من الظنون هنا السيئه منها.

من الطبيعي أنّ الإنسان إذا احيط بالعواصف الفكرية، فإنّ جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الابتلاء، بل ستظهر عليه آثار الاضطراب و التزلزل، وكثيرا ما نرى أنّ الأشخاص المضطربين فكريا لا يستطيعون الاستقرار في مجلسهم و تنعكس و بشكل واضح اضطراباتهم الفكرية من خلال حركاتهم و صفقهم يدا بيد.

و أحد شواهد هذا القلق و الاضطراب الشديد ما نقلوه من أنّ خمسة من أبطال العرب المعروفين-و كان على رأسهم «عمرو بن عبد ود»-نزلوا إلى الميدان بغطرسه متميزه و اعتداد بالنفس كبير، فقالوا: هل من مبارز؟ سيما عمرو بن عبد ود الذي كان يرتجز و يسخر من المسلمين و يستهزئ بالجنّة و الآخرة، و كان يقول:

أيها المسلمون ألم تزعمو أنّ قتلاكم في الجنّة؟ فهل فيكم من يشاق إلى الجنّة؟ إلا أنّ السكوت ساد على معسكر المسلمين أمام سخريته و استهزائه و دعوته للبراز، و لم يجرأ أحد على مناجزته، إلا على بن أبي طالب عليه السّلام الذي هبّ لمبارزته، و حقّق نصرا كبيرا للمسلمين، و سيأتي ذلك مفصّلا في البحوث.

نعم... إنّ الحديد يزداد صلابه و جوده إذا عرض على النار، و المسلمون الأوائل كان يجب أن يوضعوا في بوتقه الحوادث الصعبة المرّه، و خاصّه في غزوات كغزوه الأحزاب، ليصبحوا أشدّ مقاومه و صلابه.

اشاره

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْطَارِهِمْ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ إِذَا لَا تُمَتِّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (١٧)

التفسير

اشاره

المنافقون في عرصه الأحزاب:

فار تَتَوَرَّ إِمْتِحَانِ حَرْبِ الْأَحْزَابِ، وَ ابْتَلَى الْجَمِيعَ بِهَذَا الْإِمْتِحَانِ الْكَبِيرِ الْعَسِيرِ،

و من الواضح أنّ الناس الذين يقفون ظاهراً في صفّ واحد في الظروف العاديه، ينقسمون إلى صفوف مختلفه في مثل هذه الموارد المضطربه الصعبه، و هنا أيضاً انقسم المسلمون إلى فئات مختلفه: فمنهم المؤمنون الحقيقيون، و فئه خواصّ المؤمنين، و جماعه ضعاف الإيمان، و فرقه المنافقين، و جمع المنافقين العنودين المتعصّبين، و بعضهم كان يفكر في بيته و حياته و الفرار، و جماعه كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، و البعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أو اصر الودّ مع المنافقين.

و الخلاصه: فإنّ كلّ واحد قد أظهر أسراره الباطنيه و ما ينطوى عليه في هذه القيامه العجيبه، و في يوم البروز هذا.

كان الكلام في الآيات السابقه عن جماعه المسلمين ضعفاء الإيمان، و الذين وقعوا تحت تأثير الوسواس الشيطانيه و الظنون السيئه، و تعكس اولى الآيات مورد البحث مقاله المنافقين و مرضى القلوب، فتقول: **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا .**

جاء في تأريخ حرب الأحزاب: أنّه خلال حفر الخندق، و بينما كان المسلمون مشغولين بحفر من الخندق، اصطدموا بقطعه حجر كبيره صلده لم يؤثر فيها أى معول، فأخبروا النبي صلّى الله عليه و آله بذلك، فأتى بنفسه إلى الخندق و وقف إلى جنب الصخره، و أخذ المعول، فضرب الحجر أوّل ضربه قويّه فانصدع قسم منه و سطع منه برق، فكبر النبي صلّى الله عليه و آله و كبر المسلمون.

ثمّ ضرب الحجر ضربه أخرى فتهشم قسم آخر و ظهر منها برق، فكبر النبي و كبر المسلمون، و أخيراً ضرب النبي ضربه الثالثه، فتحطمّ الباقي من الحجر و سطع برق، فكبر النبي صلّى الله عليه و آله و رفع المسلمون أصواتهم بالتكبير، فسأل سلمان النبي عن ذلك

فقال صلّى الله عليه و آله «أضاءت الحيره و قصور كسرى في البرقه الاولى، و أخبرني جبرئيل أنّ امتي ظاهره عليها، و أضاء لى في الثانيه القصور الحمر من أرض الشام

و الروم، و أخبرني أن أمتي ظاهره عليها، و أضاء لي في الثالثه قصور صنعاء، و أخبرني أن أمتي ظاهره عليها، فأبشروا «فاستبشر المسلمون.

فنظر المنافقون إلى بعضهم و قالوا: أ لا تعجبون؟ يعدكم الباطل و يخبركم أنه ينظر من يثرب إلى الحيره و مدائن كسرى و أنها تفتح لكم، و أنتم لا- تستطيعون أن تبرزوا؟ فأنزل الله: **وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١).**

و الحق أن مثل هذه الأخبار و البشارات اعتبرها المنافقون في ذلك اليوم خدعه و غرورا، إلا أن عين النبي صلى الله عليه و آله الملكوتيه كانت قادره على رؤيه فتح أبواب قصور ملوك ايران و الروم و اليمن من خلال الشرر المتطير من ذلك الحجر، و يبشّر هذه الامه المضحيه التي حملت القلوب على الأكف، و يزيح الستار عن أسرار المستقبل.

و ربّما لا- نحتاج إلى التذكير بأن المراد من الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم المنافقون، و ذكر هذه الجملة توضيح في الواقع لكلمه «المنافقين» التي وردت من قبل، و أى مرض أسوأ و أضرّ من مرض النفاق؟! لأنّ الإنسان السليم الذى له فطره إلهيه سليمه ليس له إلا وجه واحد، أما أولئك الذين لهم وجهان أو وجوه متلوّنه عديده فإنهم مرضى، حيث إنهم مبتلون دائما بالاضطراب و التناقض في الأقوال و الأفعال.

و الشاهد لهذا الأمر ما ورد في بدايه سوره البقره في وصف المنافقين، حيث تقول: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . (٢)**

ص: ١٨٤

١-١) الكامل لابن الأثير، الجزء ٢، صفحه ١٧٩. و ورد هذا الحادث بتفاوت يسير في سيره ابن هشام، و هو أن النبي صلى الله عليه و آله قال: أما الاولى فإنّ الله فتح على بها اليمن، و أما الثانيه فإنّ الله فتح على بها الشام و المغرب، و أما الثالثه فإنّ الله فتح على بها المشرق. و هذا الترتيب ينسجم مع التسلسل التاريخي لفتح هذه المناطق الثلاث.

٢-٢) البقره، الآيه ١٠.

ثم تتطرق الآية الاخرى إلى بيان حال طائفة اخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، والذين كانوا أخبث و أفسق من الباقين، فمن جانب تقول الآية عنهم: واذكر إذ قالت مجموعه منهم للأنصار: يا أهل المدينة (يثر) ليس لكم في هذا المكان موقع فلا تتوقفوا هنا وارجعوا إلى بيوتكم: وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا .

و خلاصه الأمر أنكم لا تقدرّون على عمل أيّ شيء في مقابل جحفل الأعداء اللجب، فانسحبوا من المعركة و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة و بنسائكم و أطفالكم إلى ذلّ الأسر، و بذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

و من جانب آخر: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .

كلمه (عوره) مأخوذه من مادّه (عار)، و تقال للشيء الذي يوجب ظهوره العار، و تقال أيضا للشقوق و الثقوب التي تظهر في اللباس أو جدران البيت، و كذلك للشغور الضعيفه و النقاط الحدودية التي يمكن اختراقها و تدميرها، و على ما يخافه الإنسان و يحذره، و المراد هنا البيوت التي ليس لها جدار مطمئن و باب محكم، و يخشى عليها من هجوم العدو.

و المنافقين بتقديمهم هذه الأعذار كانوا يريدون الفرار من ساحه الحرب و اعتزال القتال، و اللجوء إلى بيوتهم.

و جاء في روايه: أَنَّ طَائِفَهُ «بَنِي حَارِثَةَ» أَرْسَلُوا رَسُولًا مِنْهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ قَالُوا: إِنَّ بُيُوتَنَا غَيْرُ مَأْمُونَةٍ، وَ لَيْسَ هُنَاكَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ الْأَنْصَارِ يَشْبَهُ بُيُوتِنَا، وَ لَا مَانِعَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ «غُظْفَانَ» الَّذِينَ هَجَمُوا مِنْ شَرْقِ الْمَدِينَةِ، فَأُذِنَ لَنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى بُيُوتِنَا وَ نُدَافِعَ عَنْ نِسَائِنَا وَ أَوْلَادِنَا، فَأُذِنَ لَهُمُ النَّبِيُّ .

فبلغ ذلك «سعد بن معاذ» كبير الأنصار، فقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ: لَا تَأْذِنْ لَهُمْ، فَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ تَعَدَّوْا بِذَلِكَ كَلِمًا عَرَضَتْ لَنَا مَشْكَلَةٌ، إِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ،

فأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَرْجِعُوا.

و«يثرب» هو الاسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وبعد هجرته أصبح اسمها تدريجياً «مدينة الرسول»، و«مخففها المدينة».

ولهذه المدينة أسماء عديدة، ذكر لها الشريف المرتضى (رحمه الله عليه) أحد عشر اسماً آخر إضافة إلى هذين الاسمين، و من جملتها: طيبة، و طابه، و سكينه، و المحبوبة، و المرحومه، و القاصمه. و يعتقد البعض أن «يثرب» اسم لأرض هذه المدينة (١).

و

جاء في بعض الروايات أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: «لَا تَسْمُوا هَذِهِ الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ» وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّ يَثْرِبَ فِي الْأَصْلِ مِنْ مَادَّةِ «ثَرْبٍ» (عَلَى وَزْنِ حَرْبٍ) أَيْ اللَّوْمِ، وَ لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِيَرْضَى مِثْلَ هَذَا الْأِسْمِ لِهَذِهِ الْمَدِينَةَ الْمُبَارَكَةَ.

و على كل حال فإنَّ خطاب المنافقين لأهل المدينة ب(يا أهل يثرب) لم يكن خطاباً عشوائياً، و ربَّما كان الباعث لخطابهم بهذا الاسم أنَّهم كانوا يعلمون أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَشْمِزُّ مِنْ هَذَا الْأِسْمِ، أَوْ أَنَّهم كانوا يريدون إعلان عدم اعترافهم بالإسلام و اسم مدينة الرسول، أو أن يعودوا بأهلها إلى مرحلة الجاهلية! و تشير الآية التالية إلى ضعف إيمان هذه الفئة، فتقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ بَلَغَ بِهِمْ ضَعْفُ الْإِيمَانِ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّ جَيْشَ الْكُفْرِ لَوْ دَخَلَ الْمَدِينَةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَ صَوَّبَ، وَ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى الشَّرْكِ وَ الْكُفْرِ فَسَوْفَ يَقْبَلُونَ ذَلِكَ وَ يَسَارِعُونَ إِلَيْهِ:

وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا

من المعلوم أن أناساً بهذا الضعف و التزلزل و عدم الثبات غير مستعدين للقاء العدو و محاربتة، و لا هم متأهبون لتقبل الشهادة في سبيل الله، بل يستسلمون بسرعه و يغيرون مسيرهم، و بناء على هذا، فإنَّ المراد من كلمه «الفتنه» هنا هي

ص: ١٨٨

الشرك و الكفر، كما جاء فى آيات القرآن الاخرى، كآيئه (١٩٣) من سوره البقره:

غير أنّ بعض المفسرين احتملوا أن يكون المراد من «الفتنه» هنا: الحرب ضدّ المسلمين، بحيث إنّها لو عرضت على هؤلاء المنافقين لأجابوا إليها بسرعه، و يعينوا أصحاب الفتنة! إلا أنّ هذا التفسير لا يتلاءم مع ظاهر جمله: وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا وَ رَبِّمَا اختار أكثر المفسرين المعنى الأول لهذا السبب.

ثمّ يستدعى القرآن الكريم فئه المنافقين إلى المحاكمه، فيقول: وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا وَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ أَمَامَ تَعَاهِدِهِمْ.

و قال البعض: أنّ المراد من هذا العهد و الميثاق هو ذلك العهد الذى عاهد «بنو حارثه» عليه الله و رسوله يوم احد حينما قرّروا الرجوع عن ميدان القتال ثمّ ندموا بعد ذلك، فقطعوا العهد على أنفسهم أن لا يرتكبوا مثل هذه الأمور، إلا أنّهم فكّروا مرّه ثانيه فى معركه الأحزاب فى نقض عهدهم و ميثاقهم (١).

و يعتقد البعض أنّه إشاره إلى العهد الذى عاهدوا به رسول الله صلّى الله عليه و آله فى غزوه بدر، أو فى العقبه قبل هجره النبى (٢).

و لكن يبدو أنّ لآيئه أعلاه مفهوما واسعا يشمل هذه العهود و المواثيق، و كلّ عهودهم الاخرى.

إنّ كلّ من يؤمن و يبايع النبى صلّى الله عليه و آله يعاهده على أن يدافع عن الإسلام و القرآن و لو كلفه ذلك حياته.

و التأكيد على العهد و الميثاق هنا من أجل أنّه حتّى عرب الجاهليه كانوا يحترمون مسأله العهد، فكيف يمكن أن ينقض إنسان عهده و يضعه تحت قدميه بعد ادّعائه الإسلام؟

ص: ١٨٩

١-١) تفسير القرطبى، و تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢) نقل هذا القول الآلوسى فى روح المعانى.



و بعد أن أفشى الله سبحانه نيه المنافقين و بين أن مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين:

الأول: أنه يقول للنبي صلى الله عليه و آله: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَزْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

فافرضوا أنكم استطعتم الفرار، فلا يعدو الأمر حالين: إما أن يكون أجلكم الحتمي و موتكم قد حان، فأينما تكونوا يأخذ الموت بتلايبكم، حتى و إن كنتم فى بيوتكم و بين زوجاتكم و أولادكم.

و إن لم يكن أجلكم قد حان فستعمرون فى هذه الدنيا أياما قليلة اخرى تكون مقترنه بالذلّ و الهوان، و ستصبحون تحت رحمة الأعداء و فى قبضتهم، و بعدها ستلقون العذاب الإلهي.

إنّ هذا البيان يشبه ما ورد فى غزوه أحد، حيث أشار القرآن إلى فئه اخرى من المنافقين المثبتين للّعزائم، و المفزقين لوحده الصف: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ . (١)

و الثانى: ألم تعلموا أنّ كلّ مصائركم بيد الله، و لن تقدرّوا أن تفروا من حدود حكومه الله و قدرته و مشيئته: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا.

بناء على هذا، فإنكم إذا علمتم أنّ كلّ مقدراتكم بيده سبحانه، فأطيعوا أمره فى الجهاد الذى هو أساس العزّه و الكرامه و الشموخ فى الدنيا و عند الله، و حتى إذا تقرّر أن تنالوا و سام الشهاده فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابه صدر.

ص: ١٩٠

اشاره

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشَدَّحَهُ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسِنَةِ إِهْدَادًا سَهَّابًا هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَئَلُونَ عَنَ آلِئَابِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)

التفسير

اشاره

فئة المعوقين:

أشارت هذه الآيات إلى وضع فئة اخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب الأحزاب، وكانوا يدعون الآخرين أيضا إلى اعتزال القتال، فقالت: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا .

«المعوقين» من مادّة (عوق) على زنه (شوق) تعنى منع الشيء و محاوله صرف الآخرين عنه، و«البأس» فى الأصل يعنى (الشده)، و المراد منه هنا الحرب.

و يحتمل أن تكون الآيه أعلاه مشيره إلى فئتين: فئه من المنافقين الذين كانوا بين صفوف المسلمين -و تعبير (منكم) شاهد على هذا- و كانوا يسعون إلى صرف ضعاف الإيمان من المسلمين عن الحرب، و هؤلاء هم «المعوقون».

و الفئه الاخرى هم (المنافقون أو اليهود) الذين تنحّوا جانباً، و عند ما كانوا يلتقون بجنود النبي صلى الله عليه و آله كانوا يقولون: هلمّ إلينا و تنحوا عن القتال، و هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الجملة الثانيه.

و يحتمل أن تكون هذه الآيه بيانا لحالتين مختلفتين لفئه واحده، و هم الذين يعوقون الناس عن الحرب عند ما يكونون بينهم، و عند ما يعتزلونهم يدعون الناس إليهم.

و نقرأ فى روايه: أنّ أحد أصحاب النبي صلى الله عليه و آله جاء من ميدان حرب الأحزاب إلى داخل المدينه لحاجه، فرأى أخاه قد وضع أمامه الخبز و اللحم المشوى و الشراب، فقال له: أنت فى هذه الحال تلتذّ و رسول الله مشغول بالحرب، و هو بين الأسنّه و السيوف؟! فقال أخوه: يا أحمق! ابق معنا و شاركنا مجلسنا، فو الذى يحلف به محمّد أنّه لن يرجع من هذه المعركه! و سوف لن يدع هذا الجيش العظيم الذى اجتمع عليه محمّداً و أصحابه أحياء! فقال له الأول: أنت تكذب، و اقسم بالله لأذهبنّ إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و أخبره بما قلت، فجاء إلى النبي صلى الله عليه و آله و أخبره بما جرى، فنزلت الآيه.

و بناء على سبب النزول هذا، فإنّ كلمه (إخوانهم) وردت هنا بمعنى الإخوه الحقيقيين، أو بمعنى أصحاب المذهب و المسلك الواحد، كما سمّت الآيه (٢٧) سورة الإسراء المبدّرين إخوان الشياطين: إِنَّ الْمُبَدَّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .

و تضيف الآيه التاليه: إنّ الدافع لكلّ تلك العراقيل التى وضعوها أمامكم هو

أَنَّهُمْ بِخِلَاءٍ: أَشَدَّ حَهَّ عَلَيْهِمْ (١) لا- فى بذل الأرواح فى ساحه الحرب، بل هم بخلاء حتى فى المعونات الماديّه لتهيئه مستلزمات الحرب، و فى المعونه البدنيه فى حفر الخندق، بل و ييخلون حتى فى المساعده الفكرية، بخلا يقترن بالحرص المتزايد يوما! و بعد تبيان بخل هؤلاء و امتناعهم عن أى نوع من المساعده و الإيثار، تتطرق الآيه إلى بيان صفات اخرى لهم، و التى لها صفه العموم فى كلّ المنافقين، و فى كلّ العصور و القرون، فتقول: فَإِذَا لَجَأَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .

فلأنهم لما لم يذوقوا طعم الإيمان الحقيقى، و لم يستندوا إلى عماد قوى فى الحياه، فإنهم يفقدون السيطرة على أنفسهم تماما عند ما يواجهون حادثا صعبا و مأزقا حرجا، و كأنهم يواجهون الموت.

ثمّ تصنيف الآيه: فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُواكُمْ بِاللَّسِنِ حَدَادٍ أَشَدَّ حَهَّ عَلَى الْخَيْرِ فَيَأْتُونَ إِلَيْكُمْ كَأَنَّهُمْ هُمُ الْفَاتِحُونَ الْأَصْلِيُونَ و المتحمّلون أعباء الحرب، فيعربدون و يطلبون سهمهم من الغنائم، و هم كانوا أبخل من الجميع فى المشاركه فى الحرب و الثبات فيها.

«سلقوكم» من مادّه (سلق)، و هى فى الأصل بمعنى فتح الشىء بعصبيه و غضب، سواء كان هذا الفتح باليد أو اللسان، و هذا التعبير يستعمل فى شأن من يطلب الشىء بالزجر و أسلوب الأمر. و «الألسنه الحداد» تعنى الألسنه الجارحه المؤذيه، و هى هنا كناية عن الخشونه فى الكلام.

و تشير الآيه فى النهايه إلى آخر صفه لهؤلاء، و التى هى فى الواقع أساس كلّ شقائهم و تعاستهم، فقالت: أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ لَأَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ

ص: ١٩٣

١ - ١) «أشخه» جمع شحيح، من مادّه (الشخ)، أى البخل المقترن بالحرص، و محلّ الكلمه من الإعراب هنا برأى أكثر المفسرين (حال)، لكن ذلك لا ينافى أن تكون حالا فى مقام بيان العله. تأملوا ذلك.

منبعثه عن الإخلاص و الدافع الدينى الإلهى: وَ كَانَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

و ممّا مَرَّ نخلص إلى هذه النتيجة، و هى: أنّ المعوّقين كانوا منافقين يتميرون بالصفات التالىة:

١- أنّهم لم يكونوا أهل حرب أبدا، إلا بنسبه قليله جدا.

٢- لم يكونوا من أهل التضحية و الإيثار سواء بالمال و النفس، و لم يكونوا يتحملون أقلّ المصاعب و المتاعب.

٣- كانوا يفقدون توازنهم و شخصيتهم فى اللحظات الحرجه العاصفه من شدّه الخوف.

٤- يظنون أنّهم سبب كلّ الانتصارات، و لهم كلّ الفخر عند الانتصار.

٥- أنّهم كانوا أناسا بلا إيمان، و لم يكن لأعمالهم أيه قيمه عند الله تعالى.

و هذه الصفات هى التى تعرفنا بالمنافقين فى كلّ عصر و زمان، و فى كلّ مجتمع و فئه.

و هذا الوصف الدقيق الذى وصفهم القرآن به يمكن من خلاله معرفه من يشاركهم فى الفكر و السلوك، و كم نرى بأمّ أعيننا فى عصرنا من أمثالهم!! و تجسّد الآيه التالىة بتصوير أبلغ جبن و خوف هذه الفئه، فنقول: يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا مِنْ شَدَّةِ خَوْفِهِمْ وَ رَعِبِهِمْ، فقد خيم عليهم كابوس مخيف، فكأنّ جنود الكفر يمرّون دائما أمام أعينهم و قد سلّوا السيوف و مالوا عليهم بالرماح! إنّ هؤلاء المحاربين الجبناء، و المنافقين خائرى القلوب و القوى يخافون حتّى من ظلالهم، و ينطون على أنفسهم من الخوف لدى سماع صهيل الخيل و رغاء البعير، ظلّا أنّ جيوش الأحزاب قد عادت! ثمّ تضيف الآيه: وَ إِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ أَى منتشرون فى الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك و يتتبعون أخباركم و

فيسألون لحظه بلحظه من كل مسافر آخر الأخبار لئلا تكون الأحزاب قد اقتربت منهم، وهم مع ذلك يمتنون عليكم بأنهم كانوا يتابعون أخباركم دائماً!! و تضيف الآية في آخر جملة: و على فرض أنهم لم ينهزموا و يفروا من الميدان، بل بقوا معكم: وَ لَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا .

فلا تحزنوا و تقلقوا لذهابهم، و لا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنهم أناس لا قيمة لهم و لا صفة تحمد، و عدمهم أفضل من وجودهم! و حتى هذا القدر المختصر من العمل لم يكن لله أيضا، بل هو نتيجة الخوف من ملامه و تقريع الناس، و للتظاهر و الرياء، لأنه لو كان لله لكانوا يقفون و يثبتون في ساحة الحرب ما دام فيهم عرق ينبض.

إشاره

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَافُوًّا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَدُلُّوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (٢٥)

التفسير

إشاره

دور المؤمنين المخلصين في معركة الأحزاب:

يستمرّ الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفه و مخططاتهم و أدوارهم في غزوه الأحزاب، وقد تقدّم الكلام عن ضعفاء الإيمان و المنافقين و رؤوس الكفر و النفاق

والمعوقين عن الجهاد.

ويتحدّث القرآن المجيد في نهايه المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، ومعنوياتهم العاليه ورجولتهم و ثباتهم و سائر خصائصهم في الجهاد الكبير.

و يبدأ مقدّمه هذا البحث بالحديث عن النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، حيث كان إمامهم و قدوتهم، فيقول: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا .

فإنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خير نموذج لكم، لا- في هذا المجال و حسب، بل و في كلّ مجالات الحياه، فإنّ كلّ من معنوياته العاليه، و صبره و استقامته و صموده، و ذكائه و درايته، و إخلاصه و توجّبه إلى الله، و تسلّطه و سيطرته على الحوادث، و عدم خضوعه و ركوعه أمام الصعاب و المشاكل، نموذج يحتذى به كلّ المسلمين.

إنّ هذا القائد العظيم لا- يدع للضعف و العجله إلى نفسه سيلا- عند ما تحيط بسفينته أشدّ العواصف، و تعصف بها الأمواج المتلاطمه، فهو ربّان السفينه، و مرساها المطمئن الثابت، و هو مصباح الهدايه، و مبعث الراحة و الهدوء و الاطمئنان الروحي لركابها.

إنّه يأخذ المعول بيده ليحفر الخندق مع بقيه المؤمنين، فيجمع ترابه بمسحاه و يخرج به بوعاء معه، و يمزج مع أصحابه لحفظ معنوياتهم و التخفيف عنهم، و يرغبهم في إنشاد الشعر الحماسي لالهاب مشاعرهم و تقويه قلوبهم، و يدفعهم دائما نحو ذكر الله تعالى و يبشّره بالمستقبل الزاهر و الفتوحات العظيمه.

يحذّره من مؤامرات المنافقين، و يمنحهم الوعي و الاستعداد اللازم.

و لا- يغفل لحظه عن التجهيز و التسلّح الحربى الصحيح، و انتخاب أفضل الأساليب العسكريه، و لا يتوانى في الوقت نفسه عن اكتشاف الطرق المختلفه التى تؤدّى إلى بثّ التفرقه و إيجاد التصدّع في صفوف الأعداء.

نعم إنّه أسمى مقتدى، و أحسن أسوه للمؤمنين في هذا الميدان، و فى كلّ



«الاسوه» تعنى فى الأصل الحاله التى يتلبسها الإنسان لدى اتّباعه لآخر، وبتعبير آخر: هى التأسى و الاقتداء، و بناء على هذا فإنّ لها معنى المصدر لا الصفة، و معنى جمله: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ هُوَ أَنَّ لَكُمْ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ تَأْسِيًا وَ اقتداءً جيّداً، فإنّكم تستطيعون بالاقْتداء به و اتباعه أن تصلحوا أموركم و تسيروا على الصراط المستقيم.

و الطريف أنّ القرآن الكريم يعتبر هذه الاسوه الحسنه فى الآيه أعلاه مختصه بمن لهم ثلاث خصائص: الثقة بالله، و الإيمان بالمعاد، و أنّهم يذكرون الله كثيراً.

إنّ الإيمان بالمبدأ و المعاد هو سبب و باعث هذه الحركه فى الحقيقه، و ذكر الله يعمل على استمراره، إذ لا شك أنّ من لم يمتلئ قلبه بهكذا إيمان لا يقدر أن يضع قدمه موضع قدم النبي، و إذا لم يدم ذكر الله و يعمر قلبه به أثناء استمراره فى هذا الطريق، و يبعد الشياطين عنه، فسوف لا يكون قادراً على إدامه التأسى و الاقتداء.

و تجدر الإشارة إلى أنّ علياً عليه السّلام مع شهامته و شجاعته فى كلّ ميادين الحرب، و التى تمثّل معركة الأحزاب نموذجاً منها، و سيشار إليها فيما بعد،

يقول فى نهج البلاغه فيما روى عنه: «كُنّا إذا احمرّ البأس اتّقيناً برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فلم يكن أحدٌ منّا أقرب إلى العدو منه» (١).

بعد ذكر هذه المقدمه تطرقت الآيه التالیه إلى بيان حال المؤمنين الحقيقين، فقالت: وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا .

و لكن ما هذا الوعد الذى كان الله و رسوله قد وعدهم به؟ قال البعض: إنّه إشاره إلى الكلام الذى كان رسول الله قد تكلم به من قبل بأنّ

قبائل العرب و مختلف أعدائكم سيّتحدون ضدّكم قريبا و يأتون إليكم، لكن اعلموا أنّ النصر سيكون حليفكم فى النهايه، فلما رأى المؤمنون هجوم الأحزاب أيقنوا أنّ هذا ما وعدهم به رسول الله صلّى الله عليه و آله و قالوا: ما دام الجزء الأوّل من الوعد قد تحقّق، فمن المسلم أنّ جزأه الثّانى -أى النصر- سيّتحقّق بعده، و لذلك زاد إيمانهم و تسليمهم.

و قال البعض الآخر: إنّ هذا الوعد هو ما ذكره الله سبحانه فى الآيه (٢١٤) من سوره البقره حيث قال: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبُاسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ زُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ .**

أى إنّهم قيل لهم من قبل: إنّكم ستخضعون لامتحان عسير، فلما رأوا الأحزاب تيقنوا صدق إخبار الله و رسوله، و زاد إيمانهم و تسليمهم.

و من الطبعى أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان، خاصّه بملاحظه أنّ أحد الوعدين كان فى الأساس وعد الله، و الآخر وعد الرسول صلّى الله عليه و آله، و قد جاء معا فى الآيه مورد البحث، و يبدو أنّ الجمع بينهما مناسب تماما.

و تشير الآيه التّاليه إلى فئه خاصّه من المؤمنين، و هم الذين كانوا أكثر تأسيّا بالنّبي صلّى الله عليه و آله من الجميع، و ثبتوا على عهدهم الذى عاهدوا الله به، و هو التّضحيه فى سبيل دينه حتّى النفس الأخير، و إلى آخر قطره دم، فتقول: **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ مِنْ دُونِ أَنْ يَنْزَلَ أَوْ يُنْحَرَفَ وَ يَسْدُلُ الْعَهْدَ وَ يَغَيِّرُ الْمِيثَاقَ الَّذِي قَطَعَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَ مَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا .**

إنّهم لم ينحرفوا قيد أنمله عن خطّهم، و لم يألوا جهدا فى سبيل الله، و لم يتزلزلوا لحظه، بعكس المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين بعثتهم عاصفه الحوادث هنا و هناك و أفرزت الشدائد فى أدمغتهم الخاويه أفكارا جوفاء خبيثه... إنّ المؤمنين

وقفوا كالجبل الأشمّ و أثبتوا أنّ العهد الذي عاهدوا به لا يقبل النقض أو التراجع عنه.

إنّ لفظه (نحب) على زنه (عهد) تعنى العهد و النذر و الميثاق، و وردت أحيانا بمعنى الموت، أو الخطر، أو سرعه السير، أو البكاء بصوت مرتفع (١).

و هناك اختلاف بين المفسرين فى المعنى بهذه الآية.

يروى العالم المعروف (الحاكم أبو القاسم الحسكاني) -و هو من علماء السنّه- بسند عن على عليه السلام أنّه قال: «فينا نزلت رجالٌ صدّقوا ما عاهدوا الله عليه فأنا- و الله- المنتظر و ما بدلت تبديلا، و منّا رجال قد استشهدوا من قبل كحمزه سيّد الشهداء» (٢).

و قال آخرون: إنّ جملة من قضى نحبّه إشاره إلى شهداء بدر و أحد، و جملة:

و منهم من ينتظر

إشاره إلى المسلمين الصادقين الآخرين الذين كانوا بانتظار إحدى الحسينين: النصر، أو الشهاده.

و روى عن «أنس بن مالك» أيضا: أنّ عمّه «أنس بن النضر» لم يكن حاضرا فى غزوه بدر، فلمّا علم فيما بعد، و كانت الحرب قد وضعت أوزارها، أسف لعدم اشتراكه فى الجهاد، فعاهد الله على أن يشارك فى الجهاد إن وقعت معركة اخرى و يثبت فيها و إن زهقت روحه، و لذلك فقد شارك فى معركة احد، و حينما فرّ جماعه لم يفرّ معهم، و قاوم و صمد حتّى جرح ثم استشهد (٣).

و روى عن «ابن عباس» أنّه قال: إنّ جملة من قضى نحبّه إشاره إلى حمزه بن عبد المطلب و باقى شهداء احد، و أنس بن النضر و أصحابه (٤).

ص: ٢٠٠

١-١) -مفردات الراغب، و مجمع البيان، و لسان العرب مادّه نحب.

٢-٢) مجمع البيان، ذيل الآيه مورد البحث.

٣-٣) أورد هذه الروايات بتفاوت يسير أصحاب تفاسير القرطبي و فى ظلال القرآن، و مجمع البيان فى كتبهم.

٤-٤) مجمع البيان، ذيل الآيه مورد البحث.

و لا منافاه بين هذه التفاسير مطلقا، لأنّ للآيه مفهومها واسعا يشمل كلّ شهداء الإسلام الذين استشهدوا قبل معركة الأحزاب، و كلّ من كان منتظرا للنصر أو الشهاده، و كان على رأسهم رجال كحمزه سيّد الشهداء و على عليهما السّلام، و لذلك ورد في تفسير الصافي: أنّ أصحاب الحسين بكر بلاء كانوا كلّ من أراد الخروج للقتال و دّع الحسين عليه السّلام و قال: السّلام عليك يا ابن رسول الله، فيجيبه: و عليك السّلام و نحن خلفك، و يقرأ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ (١).

و يستفاد من كتب المقاتل أنّ الإمام الحسين عليه السّلام تلا هذه الآيه عند أجساد شهداء آخرين كمسلم بن عوسجه، و حين بلغه خبر شهادته «عبد الله بن يقطر» (٢).

و من هنا يتّضح أنّ للآيه مفهومها واسعا يشمل كلّ المؤمنين المخلصين الصادقين في كلّ عصر و زمان، سواء من ارتدى منهم ثوب الشهاده في سبيل الله، أم من ثبت على عهده مع ربّه و لم يتزعزع، و كان مستعدّا للجهد و الشهاده.

و تبين الآيه التاليه النتيجة النهائيه لأعمال المؤمنين و المنافقين في جملة قصيره، فتقول: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنٰفِقِينَ إِنْ شَاءَ فَلَا يَبْقَىٰ صِدْقٌ وَإِخْلَاصٌ وَ وفاء المؤمنين بدون ثواب، و لا ضعف و إعاقات المنافقين بدون عقاب.

و مع ذلك، و لكي لا يغلق طريق العوده و الإنابه بوجه هؤلاء المنافقين العنودين، فإنّ الله سبحانه قد فتح أبواب التوبه أمامهم بجملة: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ - إذا تابوا- و وصف نفسه بالغفور و الرحيم إنّ الله كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ليحيى فيهم الحركه نحو الإيمان و الصدق و الإخلاص و الوفاء بالتزاماتهم أمام الله و العمل بمقتضاها.

و لما كانت هذه الجملة قد ذكرت كنتيجه لأعمال المنافقين القبيحه، فإنّ بعض

ص: ٢٠١

١-١) تفسير الصافي ذيل الآيه مورد البحث.

٢-٢) نور الثقلين، المجلد ٤، صفحه ٢٥٩.

كبار المفسرين رأى على أساسها بأن الذنب الكبير فى القلوب التى لها قابليه الهدايه ربّما كان دفعا للحركه المضاده و الرجوع إلى الحقّ و الحقيقه، و قد يكون الشرّ مفتاحا للخير و الرشاد (١).

و تطرح الآيه الأخيره من هذه الآيات-و التى تتحدّث عن غزوه الأحزاب و تنهى هذا البحث-خلاصه واضحه لهذه الواقعه فى عباره مختصره،فتقول فى الجمله الاولى: وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا .

«الغيظ» يعنى (الغضب) و يأتى أحيانا بمعنى (الغمّ)، و هنا جاء مزيجا من المعنيين، فإنّ جيوش الأحزاب قد بذلت قصارى جهدها للانتصار على جيش الإسلام، لكنّها خابت، و رجع جنود الكفر إلى أوطانهم يعلوهم الغمّ و الغضب.

و المراد من «الخير» هنا الإنتصار فى الحرب، و لم يكن انتصار جيش الكفر خيرا أبدا، بل إنّه شرّ، و لما كان القرآن يتحدّث من وجهه نظرهم الفكرية عبّر عنه بالخير، و هو إشارة إلى أنّهم لم ينالوا أى نصر فى هذا المجال.

و قال البعض: إنّ المراد من «الخير» هنا (المال) لأنّ هذه الكلمه أطلقت فى مواضع اخرى بهذا المعنى، و من جملتها ما فى آيه الوصيه (١٨٠) من سوره البقره:

إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلَّذِينَ

و مع أنّ أحد الأهداف الأصليّه لمعسكر الكفر كان الحصول على غنائم المدينه و الإغاره على هذه الأرض، و هذا الباعث كان أهمّ البواعث فى عصر الجاهليه، لكننا لا نمتلك الدليل على حصر معنى (الخير) هنا بالمال، بل يشمل كلّ الانتصارات التى كانوا يطمحون إليها، و كان المال أحدها لكنهم حرّموا من الجميع.

و تضيف فى الجمله التاليه: وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ فَقَدْ هَيَأَ عَوَامِلَ بَحِيثٍ

ص: ٢٠٢

انتهت الحرب من دون حاجة إلى التحام واسع بين الجيشين، و من دون أن يتحمّل المؤمنون خسائر فادحة، لأنّ العواصف الهوجاء القارصه قد مزّقت أوضاع المشركين من جهه، و من جهه اخرى فإنّ الله تعالى قد ألقى الرعب و الخوف في قلوبهم من جنود الله التي لا- ترى، و من جهه ثالثه فإنّ الضربه التي أنزلها على بن أبي طالب عليه السّلام بأعظم بطل من أبطالهم، و هو «عمرو بن عبد ود»، قد تسبّبت في تبدّد أحلامهم و آمالهم، و دفعتهم إلى أن يللموا أمتعتهم و يتركوا محاصره المدينه و يرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبه و الخسران.

و تقول الآيه في آخر جمله: **وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** فمن الممكن أن يوجد أناس أقوياء، لكنهم ليسوا بأعزاء لا يقهرون، بل هناك من يقهرهم و من هو أقوى منهم، إلا- أنّ القوى العزيز الوحيد في العالم هو الله عزّ و جلّ الذي لا- حدّ لقدرته و قوّته و لا انتهاء، فهو الذي أنزل على المؤمنين النصر في مثل هذا الموقف العسير و الخطير جدّا بحيث لم يحتاجوا حتّى إلى النزال و تقديم التضحيات!

## بحوث

## اشاره

### ١- ملاحظات هامه في معركة الأحزاب

أ- إنّ معركة الأحزاب- و كما هو معلوم من اسمها- كانت حربا اتّحدت فيها كلّ القبائل و الفئات المختلفه التي تعادى الإسلام، للقضاء على الإسلام اليافع.

لقد كانت «حرب الأحزاب» آخر سعي للكفر، و آخر سعي للكفر، و آخر سهم في كناتته، و آخر استعراض لقوى الشرك، و لهذا قال النّبي صلّى الله عليه و آله: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» (١) عند ما تقابل أعظم أبطال العدو، و هو عمرو بن عبد ود، و بطل الإسلام الأوحد أمير

ص: ٢٠٣

١- ١) بحار الأنوار، المجلّد ٢٠، صفحہ ٢١٥، و نقل هذا الحديث عن الكراجكى.

المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، لأنّ انتصار أحدهما على الآخر كان يعنى انتصار الكفر على الإيمان، أو الإيمان على الكفر، وبتعبير آخر: كان عملا مصيريا يحدّد مستقبل الإسلام و الشرك، و لذلك فإنّ المشركين لم تقم لهم قائمه بعد انهزامهم فى هذه المواجهه العظيمه، و كانت المبادره و زمامها بيد المسلمين بعدها دائما.

لقد أفل نجم الأعداء، و انهدمت قواعد قوتهم، و لذلك نقرأ فى حديث

أنّ النبى صلّى الله عليه و آله قال بعد نهايه غزوه الأحزاب: «الآن تغزوهم و لا يغزونا» (١).

ب- ذكر بعض المؤرخين أنّ عدد أفراد جيوش الكفر كان أكثر من عشره آلاف محارب، و يقول «المقريزى» فى «الإمتاع»: إنّ قريشا أتت لوحدها بأربعه آلاف رجل، و ألف و ثلاثمائه فرس، و ألف و خمسمائه من الإبل، و نزلت عند حافه الخندق، و جاءت قبيله بنى سليم بسبعمائه رجل و التقوا بهم فى مرّ الظهران، و جاء «بنو فزاره» بألف، و كلّ من «بنى أشجع» و «بنى مرّه» بأربعمائه، و القبائل الاخرى أرسلت عددا من الرجال، فتجاوز مجموع كلّ من حضر عشره آلاف رجل.

فى حين أنّ عدد المسلمين لم يكن يتجاوز الثلاثه آلاف رجل، و كانوا قد جعلوا مخيمهم الأصلى أسفل جبل سلع، و كانت نقطه مرتفعه جنب المدينه مشرفه على الخندق، و كانوا يستطيعون عن طريق رماتهم السيطره على حركه المرور من الخندق.

على كلّ حال، فإنّ جيش الكفار قد حاصر المسلمين من جميع الجهات، و طالت هذه المحاصره عشرين يوما، و قيل خمسه و عشرين يوما، و على بعض الروايات شهرا (٢).

و مع أنّ العدو كان متفوقا على المسلمين من جهات مختلفه، إلاّ أنّه خاب فى النهايه كما قلنا، و رجع إلى دياره خالى الوفاض.

ص: ٢٠٤

١- ١) التاريخ الكامل لابن الأثير الجزء ٢ صفحه ١٨٤.

٢- ٢) بحار الأنوار، الجزء ٢٠، صفحه ٢٢٨.

ج-إنّ مسأله حفر الخندق قد تمّت-كما نعلم-بمشوره«سلمان الفارسي»، و كانت هذه المسأله أسلوبا دفاعيا معتادا في بلاد فارس آنذاك،و لم يكن معروفا في جزيره العرب إلى ذلك اليوم،و كان يعتبر ظاهره جديده،و كانت لإقامته في أطراف المدينه أهميه عظيمه،سواء من الناحيه العسكريه،أم من جهه إضعاف معنويات العدوّ و رفع معنويات المسلمين.

و لا توجد لدينا معلومات دقيقه عن صفات الخندق و دقائقه،فقد ذكر المؤرّخون أنّه كان من العرض بحيث لا يستطيع فرسان العدو عبوره بالقفز،و من المحتمّ أنّ عمقه أيضا كان بالقدر الذي إذا سقط فيه أحد لم يكن يستطيع أن يخرج من الطرف المقابل بسهوله.

إضافه إلى أنّ سيطره رماه المسلمين على منطقته الخندق كان يمكنهم من جعل كلّ من يحاول العبور هدفا و غرضا لسهامهم في وسط الخندق و قبل عبوره.

و أمّا من ناحيه الطول فإنّ البعض قد قدره باثنى عشر ألف ذراع(ستّه آلاف متر)استنادا إلى الروايه المعروفه التي تقول بأنّ النّبي صلّى الله عليه و آله كان قد أمر أن يحفر كلّ عشره رجال أربعين ذراعا من الخندق،و بملاحظه أنّ عدد جنود المسلمين-طبقا للمشهور-بلغ ثلاثه آلاف رجل.

و لا بدّ من الاعتراف بأنّ حفر مثل هذا الخندق،و بالألات البدائيه المستعمله في ذلك اليوم كان أمرا مضنيا و جهدا،خاصّه و أنّ المسلمين كانوا في ضيق شديد و حاجه ملّحه من ناحيه الزاد و الوسائل الاخرى.

و من المسلم أنّ حفر الخندق قد استغرق مدّه لا يستهان بها،و هذا يوحي بأنّ جيش المسلمين كان قد قدرّ و خمنّ و توقعّ التوقّعات اللازمه بدقّه كامله قبل أن يهجم العدوّ بحيث أنّ حفر الخندق كان قد تمّ قبل ثلاثه أيام من وصول جيش الكفّار.



د-ساحه إمتحان عظيمه إنَّ غزوه «الأحزاب» كانت محكًا و امتحانا عجيبا لكل المسلمين، و لمن كانوا يدعون الإسلام، و كذلك لأولئك الذين كانوا يدعون الحياد أحيانا، و كان لهم في الباطن ارتباط و تعامل مع أعداء الإسلام و يتعاونون معهم ضدَّ دين الله.

لقد تبين بوضوح تامّ موقع الفئات الثلاث-المؤمنون الصادقون، و ضعفاء الإيمان، و المنافقون-من خلال عملهم، و اتضح تماما القيم و المفاهيم الإسلاميه، فقد عكست كلّ من الفئات الثلاث في أتون الحرب الملتهبه حسن إيمانها أو قبحه، و إخلاص نياتها أو عدمه.

لقد كانت العاصفه هو جاء شديده لم تدع المجال لأيّ شخص أن يخفى ما في قلبه، و ظهرت امور في أقلّ من شهر، و كان يحتاج كشفها إلى سنين ربّما تكون طويله في الظروف الطبيعيه.

و هنا مسأله تستحقّ الانتباه، و هي أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله أثبت عمليا إيمانه الكامل بما جاء به من التعليمات الإلهيه و وفاءه التامّ لها من خلال مقاومته و صلابته، و رباطه جأشه، و توكله على الله، و اعتماده على نفسه، و كذلك أثبت للناس أنّه يطبق قبل الآخرين ما يأمرهم به من خلال مواساته للمسلمين و مساعدتهم في حفر الخندق، و تحمّله لمصاعب الحرب و مشاكلها.

ه-نزال على عليه السلام التاريخي لعمر بن عبد ودّ من المواقف الحساسه و التاريخيه لهذه الحرب مبارزه على عليه السلام لبطل معسكر العدو العظيم «عمر بن عبد ودّ»، فقد جاء في التواريخ أنّ جيش الأحزاب كان قد دعا أشدّاء شجعان العرب للاشتراك و المساهمه في هذه الحرب، و كان الأشهر من بين هؤلاء خمسه: عمرو بن عبد ودّ، و عكرمه بن أبي جهل، و هبيرة، و نوفل، و ضرار.

لقد استعدَّ هؤلاء في أحد أيام الحرب للمبارزه الفرديه، و لبسوا عدّه الحرب، و استطاعوا اختراق الخندق و العبور بخيولهم إلى الجانب الآخر من خلال نقطه ضيقه فيه، كانت بعيده نسيًا عن مرمى الرماه المسلمين، و أن يقفوا أمام جيش المسلمين، و كان أشهرهم «عمرو بن عبد وّد».

فتقدّم و قد ركب الغرور و الاعتداد بالنفس، و كانت له خبره طويله في الحرب، و رفع صوته طالبا من يبارزه.

لقد دوى نداؤه (هل من مبارز) في ميدان الأحزاب، و لما لم يجرأ أحد من المسلمين على قتاله اشتدّت جرأته و بدأ يسخر من معتقدات المسلمين، فقال: أين جنتكم التي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها؟ هل فيكم من أرسله إلى الجنّه، أو يدفعني إلى النار؟ و هنا أنشد أبياته المعروفه:

و لقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

و وقفت إذ جن المشجّع موقف البطل المناجز

إنّ السماحه و الشجاعه في الفتى خير الغرائز

فأمر النبي صلّى الله عليه و آله عند ذلك أن يخرج إليه رجل و يبعد شرّه عن المسلمين، إلا أنّ أحدا لم يجب رسول الله صلّى الله عليه و آله إلا على بن أبي طالب عليه السّلام،

فقال النبي صلّى الله عليه و آله: «إنّه عمرو» فقال على عليه السّلام: «و إن كان عمرو» فدعاه النبي صلّى الله عليه و آله و عمّمه، و قلّمه سيفه الخاصّ ذا الفقار، ثمّ دعا له فقال: «اللهم احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته».

فمشى على عليه السّلام إلى الحرب و هو يرتجز:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّه و بصيره و الصدق منجى كلّ فائر

إنّي لأرجو أن أقيم عليك نائحه الجنائر

قال النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله كلمته المعروفه: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» (١).

فلَمَّا التقيا دعاه أمير المؤمنين على عليه السّلام إلى الإسلام أولاً، فآبى، ثمّ دعاه إلى اعتزال الحرب، فرفض ذلك، و اعتبره عارا عليه، و فى الثالثه دعاه إلى أن ينزل عن ظهر جواده و يقاتله راجلا، فغضب عمرو قال: ما كنت أحسب أحدا من العرب يدعونى إلى مثل ذلك، فنزل من على ظهر فرسه و ضرب عليا عليه السّلام على رأسه، فتلقّاهما على عليه السّلام بمهاره خاصّه بدرعه، إلا أنّ السيف قدّه و شجّ رأس على عليه السّلام.

هنا استعمل على عليه السّلام أسلوبا خاصّا، فقال لعمرو: أنت بطل العرب، و أنا أقاتلك، فعلام حضر من خلفك؟ فلَمَّا التفت عمرو، ضربه على عليه السّلام على ساقه بالسيف، فسقط عمرو إلى الأرض، فثارت غبره ظنّ معها المنافقون أنّ عليا عليه السّلام قد قتل بسيف عمرو، غير أنّهم لَمَّا سمعوا التكبير قد علا علموا بانتصار على، و رأوا فجأه عليا عليه السّلام يرجع إلى معسكره رويدا رويدا و الدم ينزم من رأسه، و على شفّيته ابتسامه النصر، و كانت جثّه عمرو قد سقطت فى جانب من الميدان.

لقد أنزل مقتل بطل العرب المعروف ضربه قاصمه بجيش الأحزاب بدّدت آمالهم و حطّمت معنوياتهم، و هزمتهم نفسيا هزيمة منكره، و خابت آمالهم فى النصر و الظفر، و لذلك

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و آله فى حقّها: «لو وزن اليوم عملك بعمل جميع أمّه محمّد لرجح عملك على عملهم، و ذاك أنّه لم يبق بيت من المشركين إلاّ و قد دخله ذلّ بقتل عمرو، و لم يبق بيت من المسلمين، إلاّ و قد دخله عزّ يقتل عمرو» (٢).

ص: ٢٠٨

١ - (١) بحار الأنوار، المجلّد ٢٠، صفحه ٢١٥، ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه، المجلّد ٤، صفحه ٣٤٤ طبقا لنقل إحقاق الحقّ، الجزء ٦، صفحه ٩.

٢ - (٢) بحار الأنوار الجزء ٢٠ صفحه ٢١٦.

وقد أورد العالم السنّي المعروف «الحاكم النيسابوري» هذا القول، لكن بتعبير آخر:

«لمبارزه على بن أبي طالب لعمر بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال امتي إلى يوم القيامة» (١).

و الغايه من هذا الكلام واضح، لأنّ كلاً من الإسلام و القرآن كان على حافه الهاويه ظاهراً، و كان يمرّ بأحرج لحظاته و أصعبها، و لذلك كانت التضحيه في هذه الحرب أعظم التضحيات بعد تضحيات النبي صلّى الله عليه و آله، حيث حفظت الإسلام من السقوط و درأت عنه الخطر، و ضمنت بقاءه إلى يوم القيامة، و ببركه تضحيه الإمام عليه السلام تجدّر الإسلام و تأصل و شملت غصونه و أوراقه العالمين، و بناء على هذا فإنّ عباده الجميع مرهونه بعمله.

و ذكر البعض: أنّ المشركين أرسلوا رسولا - منهم ليشتري جثّه عمرو بعشره آلاف درهم - و ربّما كانوا يتصوّرون أنّ المسلمين سيفعلون بجثّه عمرو ما فعله قساة القلوب بجسد حمزه يوم أحد -

فقال النبي صلّى الله عليه و آله: «هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى!» و هناك موقف يستحقّ الذكر و الانتباه، و هو: أنّ اخت عمرو لمّا وصلت إلى جسد أخيها، و رأت أنّ عليا عليه السلام لم يسلبه درعه الثمينه قالت: ما قتله إلا كفؤ كريم (٢).

و- إجراءات النبي العسكريه و السياسيه في هذه الحرب كانت هناك مجموعه من العوامل المختلفه، و الأساليب العسكريه و السياسيه، و كذلك عامل العقيد و الإيمان، ساهمت في انتصار النبي صلّى الله عليه و آله و المسلمين في معركة الأحزاب، إضافة إلى التأييد الإلهي. عن طريق الرياح و العواصف الهوجاء

ص: ٢٠٩

١- ١) مستدرک الحاكم، الجزء ٣، صفحہ ٣٢.

٢- ٢) اعتمادنا في هذا الجانب على كتب: إحقاق الحق، بحار الأنوار، المجلد ٦، بحار الأنوار، المجلد ٢٠، تفسير الميزان، المجلد ١٦.

التي مزقت جيوش الأحزاب شرّ ممزق، وكذلك جنود الله الغيبين، و من جمله هذه العوامل و الإجراءات:

١- أنّ النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله أدخل بقبوله اقتراح حفر الخندق أسلوباً جديداً لم يكن موجوداً و معروفاً بين العرب إلى ذلك اليوم، و كان عاملاً مهماً في رفع معنويات المسلمين و كسر شوكة الكفار.

٢- المواقف و الحسابات الدقيقة للمسلمين، و الأساليب و المناورات العسكرية كانت عاملاً مؤثراً في عدم نفوذ العدو إلى داخل المدينة.

٣- قتل عمرو بن عبد ودّ على يد بطل الإسلام العظيم علي بن أبي طالب عليه الصلاة و السلام، و تبديد آمال الأحزاب بقتله يعدّ عاملاً مؤثراً آخر.

٤- الإيمان بالله، و التوكّل عليه، و الذي غرسه النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله في قلوب المسلمين، و سقاه المسلمون على امتداد الحرب بتلاوه القرآن و كلمات النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله المؤثّرة.

٥- أسلوب النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و روحه الكبيره، و اعتماده على نفسه الذي يمنح المسلمين قوّه و اطمئناناً.

٦- إضافه إلى ذلك، فإنّ عمل «نعيم بن مسعود» كان أحد العوامل المهمّة في إيجاد الفرقة بين جيوش الأحزاب.

ز- نعيم بن مسعود و بثّ الفرقة في جيش العدو! جاء «نعيم» إلى النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و كان قد أسلم لتوّه، و لم تعلم قبيلته (غطفان) بإسلامه، فقال: أسلمت و لم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك،

فقال له النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله: «إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذلنا عناً ما استطعت، فإنّما الحرب خدعه».

فانطلق نعيم بخطّه رائعه، و أتى يهود بني قريظه، و كانت له معهم صداقه في الجاهليه، فقال لهم: إنّي لكم صديق، و أنتم تعلمون ذلك، فقالوا: صدقت، و نحن لا ننتهمك أبداً، فقال: إنّ البلد بلدكم و به أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم، و إنّما قريش

و غطفان بلادهم غيرها، وإنما جاءوا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها، و إن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم و خلوا بينكم و بين الرجل، و لا- طاقه لكم به، فلا- تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا- يبرحوا حتى يناجزوا محمداً، فقالوا: قد أشرت برأى، فقبل بنو قريظه قوله.

ثم أتى أبا سفيان و أشراف قريش متخفياً، فقال: يا معشر قريش، إنكم قد عرفتم ودى إياكم و فراقى محمداً و دينه، و إني قد جئتكم بنصيحه فآكتموا عليّ، فقالوا: نفع، قال: تعلمون أنّ بنى قريظه قد ندموا على ما صنعوا بينهم و بين محمداً فبعثوا إليه: أنه لا يرضيك عنّا إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم و ندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك، فقالوا: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجالكم فلا تعطوهم رجلا واحداً و احذروا.

ثم جاء إلى غطفان قبيلته، فقال: تعلمون حسبي و نسبي، و أنا أودّكم، و لا أظنكم تشكّون في صدقي، فقالوا: نعم، فقال: لكم عندي خبر فآكتموه عليّ، فقالوا: نفع، فقال لهم ما قال لقريش. و كان ذلك ليله السبت من شوال سنة خمس من الهجرة.

فأرسل أبو سفيان و رؤساء غطفان جماعه إلى بنى قريظه فقالوا: إنّ الكراع و الخفّ قد هلكا، و إنّنا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمداً حتى نناجزه.

فأجابهم اليهود: إنّ غدا السبت، و هو يوم لا نعمل فيه، و لسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا و تدعونا حتى نناجز محمداً.

فلما بلغ ذلك قريشا و غطفان قالوا: و الله لقد حدّرتنا هذا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان: إنّنا لا نعطيكم رجلا واحداً فإن شئتم أن تخرجوا و تقاتلوا، و إن شئتم فاقعدوا.

و لما علمت اليهود بذلك قالوا: هذا و الله الذي قال لنا نعيم، فإنّ في الأمر حيله،

و هؤلاء لا يريدون القتال، و يريدون أن يغيروا و يرجعوا إلى ديارهم و يذروكم و محمّدا.

فأرسلوا إلى قريش و غطفان: إنا و الله لا نقاتل حتّى تعطونا رهنا، فأصرت قريش و غطفان على قولهما فوقع الاختلاف بينهم، و بعث الله سبحانه عليهم الريح فى ليل شاتيه قارصه البرد، قلعت خيامهم، و كفأت قدورهم.

لقد اتّحدت هذه العوامل، فحزم الجميع أمتعتهم و رجّحوا الفرار على القرار، و لم يبق منهم رجل فى ساحه الحرب (١).

ح- قصّه حذيفه جاء فى كثير من التواريخ أنّ «حذيفه اليماني» قال: و الله، لقد رأيتنا يوم الخندق و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا يعلمه إلاّ الله، و فى ليله من الليالى - بعد أن وقع الاختلاف بين جيش الأحزاب -

قال رسول الله صلّى الله عليه و آله: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقى فى الجنّه».

قال حذيفه: فو الله ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف و الجوع، فلمّا رأى النّبى صلّى الله عليه و آله ذلك دعانى، فقلت: لبيك،

قال: «اذهب فجنّنى بخبر القوم و لا تحدثنّ شيئا حتّى ترجع»، فأتيت القوم فإذا ريح الله و جنوده تفعل بهم ما تفعل، ما يستمسك لهم بناء، و لا تثبت لهم نار، و لا يطمئن لهم قدر، فأنتى لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله، ثمّ قال: يا معشر قريش، لينظر أحدكم من جلسه لئلا يكون هنا غريب، فبدأت بالذى عن يمينى، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقلت: حسنا.

ثمّ عاد أبو سفيان براحلته، فقال: يا معشر قريش - و الله - ما أنتم بدار مقام، هلك الخفّ و الحافر، و أخلفتنا بنو قريظه، و هذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء،

ص: ٢١٢

ثم عجل فركب راحلته و إنَّها لمعقوله ما حلَّ عقالها إلا بعد ما ركبها.

فقلت في نفسي: لو رميت عدوَّ الله و قتلته كنت قد صنعت شيئاً، فوترت قوسى ثم وضعت السهم فى كبد القوس، فلما أردت أن أطلقه ذكرت

قول رسول الله صلَّى الله عليه و آله:

«لا تحدثنَّ شيئاً حتَّى ترجع» و إنَّه طلب منى أن آتية بالخبر و حسب، حطت القوس ثم رجعت إلى رسول الله فأخبرته الخبر،

فقال النبى صلَّى الله عليه و آله: «اللهم أنت منزل الكتاب، سريع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهم أهزمهم و زلزلهم» (١).

ط- نتائج حرب الأحزاب لقد كانت حرب الأحزاب نقطه انعطاف فى تاريخ الإسلام، قلبت كفه التوازن العسكرى و السياسى لصالح المسلمين إلى الأبد. و يمكن تلخيص النتائج المثمره لهذه المعركه فى عدّه نقاط:

أ- فشل مساعى العدو، و تحطّم قواه.

ب- كشف المنافقين، و فضح الأعداء الداخلين الخطرين.

ج- جبران الذكرى الأليمه لهزيمة أحد.

د- قوّه المسلمين، و ازدياد هيبتهم فى قلوب الأعداء.

ه- ارتفاع معنويات المسلمين نتيجة للمعجزات العظيمه التى رأوها فى هذه المعركه.

و- تثبيت مركز النبى صلَّى الله عليه و آله فى داخل المدينه و خارجها.

ز- تهيؤ الأرضيه لتصفية المدينه و إنقاذها من شرّ بنى قريظه.

## ٢- النبى أسوه و قدوه

نعلم أن إختيار رسول الله من بين البشر إنّما هو من أجل أن يكونوا قدوه عمليه

ص: ٢١٣



للأمم، لأنَّ أهمَّ جانب من جوانب دعوه الأنبياء و أكثرها تأثيراً هي الدعوه العمليه، و لذلك فإنَّ علماء الإسلام اعتبروا العصمه شرطاً لمقام النبوه، و إحدى أدلتها و براهينها هي أنَّهم يجب أن يكونوا «قدوه» للناس، و «أسوه» للبشر.

و ممَّا يسترعى الانتباه أنَّ التأسى بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَآلِهِ الْوَارِد فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَدْ جَاءَ بِصُورِهِ مُطْلَقاً، وَ هَذَا يَشْمَلُ التَّأْسِيَّ فِي كَافَّةِ الْمَجَالَاتِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ هِيَ مَعْرَكَةُ الْأَحْزَابِ، وَ نَعْلَمُ أَنَّ أَسْبَابَ النَّزُولِ لَا تَحَدَّدُ مَفَاهِيمَ الْآيَاتِ بِهَا مُطْلَقاً، وَ لِذَلِكَ نَرَى فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ أَنَّ أَهَمَّ الْمَسَائِلِ وَ أَسْطَهَا قَدْ طُرِحَتْ فِي مَسْأَلَةِ التَّأْسِيِّ.

ففي حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى وَلاهِ الْأَمْرِ مَفْرُوضٌ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ إِجَابَهُ مِثْلَ ذَلِكَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَ أَهْلِ طَاعَتِهِ لِقَوْلِهِ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (١)».

و

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ أَمَرَ بِوَضُوئِهِ وَ سِوَاكَهُ فَوَضَعَ عِنْدَ رَأْسِهِ مِخْمَرًا» ثُمَّ يَبَيِّنُ كَيْفِيَةَ صَلَاةِ اللَّيْلِ الَّتِي كَانَ يَصَلِّيُهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَ يَقُولُ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢)».

و إذا ما اتَّخَذْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أُسْوَةً لَنَا فِي حَيَاتِنَا حَقًّا، فِي إِيمَانِهِ وَ تَوَكُّلِهِ، فِي إِخْلَاصِهِ وَ شَجَاعَتِهِ، فِي تَنْظِيمِ أَمْرِهِ وَ نِظَافَتِهِ، وَ فِي زَهْدِهِ وَ تَقْوَاهُ، فَإِنَّ أَسْلُوبَ حَيَاتِنَا سَيُخْتَلِفُ تَمَاماً، وَ سَيَعَمُّ الضِّيَاءُ وَ السَّعَادَةُ كُلَّ زَوَايَا حَيَاتِنَا وَ نَوَاحِيهَا.

يجب اليوم على كل المسلمين، و خاصه الشباب المؤمن، أن يقرأوا سيره نبينا الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ وَ يَحْفَظُوهَا، وَ يَجْعَلُوهُ قَدْوَةً وَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنَّ هَذَا التَّأْسِيَّ وَ الْاِقْتِدَاءَ بِهِ سَبِيلُ السَّعَادَةِ، وَ مِفْتَاحُ النَّصْرِ وَ الْعِزَّةِ.

ص: ٢١٤

١- (١) إحتجاج الطبرسي طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٥٥.

٢- (٢) وسائل الشيعة، المجلد ١، صفحہ ٣٥٦.

لقد وردت الوصية بذكر الله - وخاصة الذكر الكثير - مرارا في الآيات القرآنية، وقد أولته الروايات الإسلامية اهتماما كبيرا أيضا، حتى أننا نقرأ

في حديث عن أبي ذرٍّ أنه قال: دخلت المسجد فأتيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ... فقال لي: «عليك بتلاوه كتاب الله و ذكر الله كثيرا فإنه ذكر لك في السماء و نور لك في الأرض» (١).

و

جاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا ذكر العبد ربّه في اليوم مائة مرّة كان ذلك كثيرا» (٢).

و

في حديث آخر عن النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أ لا أخبركم بخير أعمالكم و أزكاها عند مليككم، و أرفعها في درجاتكم، و خير لكم من الدينار و الدرهم، و خير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلونهم و يقتلونكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله كثيرا» (٣).

لكن لا ينبغي أن يتصوّر أنّ المراد من ذكر الله بكلّ هذه الفضيله هو الذكر اللساني فقط، بل قد صرّحت الروايات الإسلامية أنّ المراد منه إضافة لما مرّ هو الذكر القلبي و العملي، أي أنّ الإنسان يذكر الله عند ما يواجه حراما فيتركه.

إنّ الهدف أن يجعل الإنسان الله نصب عينيه دائما، و يشعر بحضوره و شهادته الدائمة، و أن يغمر نور الله كلّ حياته، فيفكر فيه و يذكره دائما، و لا يغفل عن أوامره بل يطيعها.

إنّ مجالس الذكر ليست تلك المجالس التي يجتمع فيها جماعه من المغفلين و يشرعون في الطعام و الشراب، و تتخلّل مجالسهم تلك مجموعه من الأذكار

ص: ٢١٥

١-١) الخصال، طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ٤، ص ٢٥٧.

٢-٢) سفينة البحار، المجلد ١، صفحته ٤٨٤.

٣-٣) المصدر السابق.

المخترعه، و البدع التي يروجونها،

فقد ورد في حديث أنّ النبي صلّى الله عليه وآله قال: «بادرُوا إلى رياض الجنّة، قالوا: وما رياض الجنّة؟ قال: حلق الذكر» (١)، و المراد منها الحلقات التي تحيا فيها العلوم الإسلاميه، و تطرح البحوث التربويه التي تؤدّي إلى تهذيب الناس و تطهير المذنبين و تدفعهم إلى سبيل الله (٢).

ص: ٢١٦

---

١-١) سفينه البحار، المجلّد ١، ص ٤٨٦.

٢-٢) كان لنا بحث آخر حول أهمّيه ذكر الله و مفهومه ذيل الآيه (١٢٠) من سوره الرعد.

إشارة

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبَيْهِمْ وَقَدْ ذَفَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطُورُهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

التفسير

غزوه بنى قريظه انتصار عظيم آخر:

كان فى المدينة ثلاث طوائف معروفه من اليهود، وهم: بنو قريظه، و بنو النضير، و بنو قينقاع، و كانت هذه الطوائف قد عاهدت النبى صلى الله عليه و آله على أن لا- تعين عدوًا له و لا- يتجسسوا لذلك العدو، و أن يعيشوا مع المسلمين بسلام، إلا أن «بنى قينقاع» قد نقضوا عهدهم فى السنه الثانيه للهجره، و «بنو النضير» فى السنه الرابعه للهجره بأعدار شتى، و صمموا على مواجهه النبى صلى الله عليه و آله و انهارت مقاومتهم فى النهايه، و طردوا إلى خارج المدينة، فذهب «بنو قينقاع» إلى أذرعات الشام، و ذهب بعض

«بنى النصير» إلى خيبر، وبعضهم الآخر إلى الشام (١).

بناء على هذا فإن «بنى قريظة» كانوا آخر من بقى فى المدينة إلى السنه الخامسه للهجره حيث وقعت غزوه الأحزاب، و كما قلنا فى تفسير الآيات السبع عشره المتعلقه بمعركه الأحزاب، فإنهم نقضوا عهدهم فى هذه المعركه، و اتصلوا بمشركى العرب، و شهروا السيوف بوجه المسلمين.

بعد انتهاء غزوه الأحزاب و التراجع المشين و المخزى لقريش و غطفان و سائر قبائل العرب عن المدينة، فإنّ النبى صلّى الله عليه و آله طبقا للروايات الإسلاميه-عاد إلى منزله و خلع لامه الحرب و ذهب يغتسل، فنزل عليه جبرئيل بأمر الله و قال: لماذا ألقىت سلاحك و هذه الملائكه قد استعدت للحرب؟ عليك أن تسير الآن نحو بنى قريظه و تنهى أمرهم.

لم تكن هناك فرصه لتصفيه الحساب مع بنى قريظه أفضل من هذه الفرصه، حيث كان المسلمون فى حراهِ الإنتصار، و بنو قريظه يعيشون لوعه الهزيمه المرّه، و قد سيطر عليهم الرعب الشديد، و كان حلفاؤهم من قبائل العرب متعيين منهكى القوى خائرى الغزائم، و هم فى طريقهم إلى ديارهم يجزون أذيال الخيبه، و لم يكن هناك من يحميهم و يدافع عنهم.

هنا نادى مناد من قبل رسول الله صلّى الله عليه و آله بأن توجّهوا إلى بنى قريظه قبل أن تصلوا العصر، فاستعدّ المسلمون بسرعه و تهيئوا للمسير إلى الحرب، و ما كادت الشمس تغرب إلا و كانت حصون بنى قريظه المحكمه محاصره تماما.

لقد استمرت هذه المحاصره خمسّه و عشرين يوما، و أخير سلّموا جميعا- كما سيأتى فى البحوث- فقتل بعضهم، و أضيف إلى سجل انتصارات المسلمين انتصار عظيم آخر، و تطهّرت أرض المدينة من دنس هؤلاء المنافقين و الأعداء اللدودين

ص: ٢١٨

(١-١) الكامل لابن الأثير، المجلد ٢، صفحہ ١٣٧-١٧٣.

إلى الأبد.

وقد أشارت الآيات-مورد البحث-إشاره مختصره و دقيقه إلى هذه الحادثه، و كما قلنا فإنّ هذه الآيات نزلت بعد الإنتصار، و أوضحت أنّ هذه الحادثه كانت نعمه و موهبه إلهيه عظيمه، فتقول الآيه أولاً: **وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيِّصِيهِمْ .**

«الصياصى» جمع (صيصيه)، أى: القلعه المحكمه، ثم أطلقت على كلّ وسيله دفاعيه، كقرون البقر، و مخالب الديك. و يتّضح هنا أنّ اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم و حصونهم إلى جانب المدينه فى نقطه مرتفعه، و التعبير ب(أنزل) يدلّ على هذا المعنى.

ثمّ تضيف الآيه: **وَ قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَ أَخيراً بلغ أمرهم أنّكم فريقاً تقتلونَ وَ تأسرونَ فريقاً وَ أورتكم أرضهم وَ ديارهم .**

إنّ هذه الجمل تمثّل مختصراً و جانباً من نتائج غزوه بنى قريظه، حيث قتل جمع من أولئك الخائنين على يد المسلمين، و أسر آخرون، و غنم المسلمون منهم غنائم كثيره من جملتها أراضيهم و ديارهم و أموالهم.

و التعبير عن هذه الغنائم ب«الإرث» لأنّ المسلمين لم يبذلوا كثير جهد للحصول عليها، و سقطت فى أيديهم بسهولة كلّ تلك الغنائم التى كانت حصيله سنين طويله من ظلم و جور اليهود و استثماراتهم فى المدينه.

و تقول الآيه فى النهايه: **وَ أَرْضاً لَمْ تَطُوهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً .**

هناك اختلاف بين المفسّرين فى المقصود من **أَرْضاً لَمْ تَطُوهَا** و أى أرض هي؟ فاعتبرها البعض إشاره إلى أرض خيبر التى فتحت على أيدي المسلمين فيما بعد.

و اعتبرها آخرون إشاره إلى أرض مكّه.

ص: ٢١٩

و آخرون يعتقدون أنها إشاره إلى أرض الروم و فارس.

و يرى البعض أنها إشاره إلى جميع الأراضى و البلدان التى وقعت فى يد المسلمين من ذلك اليوم و ما بعده إلى يوم القيامة.

إلا أنّ أياً من هذه الاحتمالات لا يناسب ظاهر الآيه، لأنّ الآيه -بقريته الفعل الماضى الذى جاء فيها (أورثكم)- شاهده على أنّ هذه الأرض قد أصبحت تحت تصرّف المسلمين فى حادثه غزوه بنى قريظه، إضافة إلى أنّ أرض مكّه -و هى إحدى التفاسير السابقه- لم تكن أرضاً لم يطأها المسلمون، فى حين أنّ القرآن الكريم يقول: **وَ أَرْضاً لَمْ تَطُوهَا** .

و الظاهر أنّ هذه الجملة إشاره إلى البساتين و الأراضى الخاصه بنى قريظه، و التى لم يكن لأحد الحقّ فى دخولها، لأنّ اليهود كانوا يبذلون قصارى جهودهم فى سبيل الحفاظ على أموالهم و حصرها فيما بينهم.

و لو أغمضنا، فإنّها تتناسب كثيراً مع أرض «خير» التى أخذت من اليهود بعد مدّه ليست بالبعيده، و أصبحت فى حوزة المسلمين، حيث إنّ معركة «خير» وقعت فى السنه السابعه للهجره.

## بحوث

## إشاره

### ١- غزوه بنى قريظه و دوافعها

إنّ القرآن الكريم يشهد بأنّ الدافع الأساس لهذه الحرب هو دعم يهود بنى قريظه لمشركى العرب و مساندهم فى حرب الأحزاب، لأنه يقول: **الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ** .

إضافه إلى أنّ اليهود فى المدينه كانوا يعتبرون الطابور الخامس لأعداء الإسلام، و كانوا مجدّين فى الإعلام المضادّ للإسلام، و يغتزمون كلّ فرصه مناسبه

للبطش بالمسلمين و الفتك بهم.

و كما قلنا سابقا، فإنّ هذه الطائفة هي الوحيدة من الطوائف الثلاث (بنو القينقاع، و بنو النضير، و بنو قريظة) التي بقيت في المدينة عند نشوب معركة الأحزاب، فقد طردت الطائفتان الأوليان في السنة الثانيه و الرابعه للهجرة، و كان يجب أن تعاقب هذه الطائفة على أعمالها الخبيثة و جرائمها، لأنّها كانت أوقح من الجميع و أكثر علانيه في نقضها لميثاقها و اتّصالها بأعداء الإسلام.

## ٢- أحداث غزوه بنى قريظة

قلنا: إنّ النبي صلّى الله عليه و آله قد امر بعد انتهاء معركة الأحزاب مباشرة أن يحاسب بنى قريظة على أعمالهم، و يقال: إنّ المسلمين قد تعجّلوا الوصول إلى حصون بنى قريظة بحيث إنّ البعض قد غفل عن صلاه العصر فاضطّروا إلى قضائها فيما بعد، فقد أمر النبي صلّى الله عليه و آله أن تحاصر حصونهم، و دام الحصار خمسة و عشرين يوما، و قد ألقى الله عزّ و جلّ الرعب الشديد في قلوب اليهود، كما يتحدّث القرآن عن ذلك.

فقال «كعب بن أسد»- و كان من زعماء اليهود-: إني على يقين من أنّ محمّدا لن يتركنا حتّى يقاتلنا، و أنا أقترح عليكم ثلاثة امور اختاروا أحدها:

إمّا أن نبايع هذا الرجل و نؤمن به و نتبعه، فإنّه قد ثبت لكم أنّه نبي الله، و أنتم تجدون علاماته في كتبكم، و عند ذلك ستصان أرواحكم و أموالكم و أبناءكم و نساءكم، فقالوا: لا نرجع عن حكم التوراه أبدا، و لا نقبل بدلها شيئا.

قال: فإذا رفضتم ذلك، فتعالوا نقتل نساءنا و أبناءنا بأيدينا حتّى يطمئنّ بالنّا من قبلهم، ثمّ نسلّ السيوف و نقاتل محمّدا و أصحابه و نرى ما يريد الله، فإنّ قتلنا لم نقلق على أبنائنا و نساءنا، و إن انتصرنا فما أكثر النساء و الأولاد. فقالوا: أ نقتل هؤلاء المساكين بأيدينا؟! إذن لا خير في حياتنا بعدهم.

قال كعب بن أسد: فإن أبيتهم هذا أيضا فإنّ الليله ليله السبت، و أنّ محمّدا



و أصحابه يظنون أننا لا نهجم عليهم الليلة، فهلموا نبئتهم و نباغتهم و نحمل عليهم لعلنا نتصر عليهم. فقالوا: و لا نفعل ذلك، لأننا لا نهتك حرمه السبت أبدا.

فقال كعب: ليس فيكم رجل يعقل ليله واحده منذ ولدته امه.

بعد هذه الحادثة طلبوا من النبي صلى الله عليه و آله أن يرسل إليهم «أبا لبابه» ليتشاوروا معه، فلما أتاهم و رأى أطفال اليهود يبكون أمامه رق قلبه، فقال الرجال: أ ترى لنا أن نخضع لحكم محمد صلى الله عليه و آله؟ فقال أبو لبابه: نعم، و أشار إلى نحره، أى إنه سيقتلكم جميعا! يقول أبو لبابه: ما إن تركتهم حتى انتهت لخيانتي، فلم آت النبي صلى الله عليه و آله مباشرة، بل ذهبت إلى المسجد و أوثقت نفسى بعمود فيه و قلت: لن أبرح مكاني حتى يقبل الله توبتى، فقبل الله توبته لصدقه و غفر ذنبه و أنزل و آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ . (١)

و أخيرا اضطر بنو قريظه إلى أن يستسلموا بدون قيد أو شرط،

فقال النبي صلى الله عليه و آله:

«أ لا ترضون أن يحكم فيكم سعد بن معاذ؟» قالوا: بلى، فقال سعد: قد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومه لائم.

ثم أخذ سعد الإقرار من اليهود مجددا بأنهم يقبلون بما يحكم، و بعدها التفت إلى حيث كان النبي صلى الله عليه و آله واقفا فقال: حكمى فيهم نافذ؟ قال: نعم، فقال: أننى أحكم بقتل رجالهم المحاربين، و سبى نسائهم و ذراريهم، و تقسيم أموالهم.

و قد أسلم جمع من هؤلاء فنجوا (٢).

### ٣- نتائج غزوه بنى قريظه

إن الانتصار على أولئك القوم الظالمين العنودين قد حمل معه نتائج مشمره للمسلمين، و من جملتها:

ص: ٢٢٢

١- (١) سورة التوبة، الآية ١٠٢.

٢- (٢) سيره ابن هشام، المجلد ٣، صفحه ٢٤٤ و ما بعدها، و الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٨٥ و ما بعدها بتلخيص.

أ-تطهير الجبهه الداخليه للمدينه، واطمئنان المسلمين و تخلصهم من جواسيس اليهود.

ب-سقوط آخر دعامه لمشركى العرب فى المدينه، و قطع أملهم من إثارة القلاقل و الفتن داخليا.

ج-تقويه بنيه المسلمين الماليه بواسطه غنائم هذه الغزوه.

د-فتح آفاق جديده للانتصارات المستقبليه، و خاصه فتح «خير».

ه-تثبيت مكانه الحكومه الإسلاميه و هيبتها فى نظر العدو و الصديق، فى داخل المدينه و خارجها.

#### ٤- الآيات و تعبيراتها العميقه!

إن من جمله التعبيرات التى تلاحظ فى الآيات أعلاه أنها تقول فى مورد قتلى هذه الحرب: فَرِيقًا تَقْتُلُونَ أى أنها قدّمت (فريقا) على (تقتلون) فى حين أنها أخرت (فريقا) عن الفعل «تأسرون»! و قال بعض المفسرين فى تفسير ذلك: إن سبب هذا التعبير هو التأكيد على الأشخاص فى مسأله القتلى، لأن رؤساءهم كانوا فى جمله القتلى، أمّا الأسرى فإنهم لم يكونوا أناسا معروفين ليأتى التأكيد عليهم. إضافة إلى أن هذا التقديم و التأخير أدى إلى أن يقترن «القتل و الأسر»- و هما عاملا الانتصار على العدو- و يكون أحدهما إلى جنب الآخر، مراعاة للانسجام بين الأمرين أكثر.

و كذلك ورد إنزال اليهود من «صياصيههم» قبل جمله: وَ قَدَفَ فى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فى حين أن الترتيب الطبيعى على خلاف ذلك، أى أن الخطوه الاولى هى إيجاد الرعب، ثم إنزالهم من الحصون المنيعه. و سبب هذا التقديم و التأخير هو أن المهم بالنسبه للمسلمين، و المفروح لهم، و الذى كان يشكّل الهدف الأصلى هو تحطيم هذه القلاع المحصنه جدّا.

والتعبير بَأُورَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ يبين حقيقته أَنَّ اللهَ سبحانه قد سلطكم على أراضيهم وديارهم و أموالهم دون أن تبذلوا كثير جهد في هذه الغزوه.

و أخيراً فإنّ التأكيد على قدره الله عزّ و جلّ في آخر آيه: وَ كَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا إشاره إلى أنّه سبحانه قد هزم الأحزاب بالرياح و العواصف و الجنود الغيبين يوماً، و هزم ناصريهم-أى يهود بنى قريظه-بجيش الرعب و الخوف يوماً آخر.

ص: ٢٢٤

إشاره

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ إِنَّ كُنْتَ تُرِدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعُكَنَّ وَأَسَرِّحُكَنَّ سَرِيحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْأَدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

سبب النزول

ذكر المفسرون أسباب نزول عديده للآيات أعلاه، وهي لا تختلف عن بعضها كثيرا من جهة النتيجة.

و يستفاد من أسباب النزول هذه أنّ نساء النبي قد طلبن منه طلبات مختلفه فيما يتعلّق بزياده النفقه، أو لوازم الحياه المختلفه، بعد بعض الغزوات التي وقرت للمسلمين غنائم كثيره.

و طبقاً لنقل بعض التفاسير فإن «أم سلمه» طلبت من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خادماً لها، و طلبت «ميمونه» حله، و أرادت «زينب بنت جحش» قماشاً يمينياً خاصياً، و «حفصه» لباساً مصرياً، و «جويريه» لباساً خاصياً، و «سوده» بساطاً خبيرياً! و النتيجة أن كلا منهن طلبت شيئاً. فامتنع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عن تلبيه طلباتهن، و هو يعلم أن الاستسلام أمام هذه الطلبات التي لا تنتهي سيحمل معه عواقب وخيمه، و اعتزلهن شهراً، فنزلت الآيات أعلاه و خاطبتهن بنبره التهديد و الحزم الممتزج بالرأفة و الرحمة، بأنكن إن كنتن تردن حياه مملوءه بزخارف الدنيا و زيارجها فيمكنكن الانفصال عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ و الذهاب إلى حيث تردن، و إن فضلتن علاقتهن بالله و رسوله و اليوم الآخر، و اقتنعتن بحياه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ البسيطة و الباعثه على الفخر، فابقين معه، و تنعمن بمواهب الله العظيمه.

بهذا الجواب القاطع أجابت الآيات نساء النبي اللاتي كن يتوقعن رفاهيه العيش، و خيرتهن بين «البقاء» مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ و «مفارقتة».

## التفسير

### إشارة

### أما السعاده الخالده أو زخارف الدنيا!

لم يعزب عن أذهانكم أن الآيات الاولى من هذه السوره قد توجت نساء النبي بتاج الفخر حيث سمتهن ب (أمهات المؤمنين) و من البديهي أن المناصب و المقامات الحدياسه التي تبعث على الفخر تصاحبها مسؤوليات ثقيله، فكيف يمكن أن تكون نساء النبي أمهات المؤمنين و قلوبهن و أفكارهن مشغوله بحب الدنيا و مغرياتها؟ و هكذا ظنن، فإن الغنائم إذا سقطت في أيدي المسلمين فلا شك أن نصيبهن سيكون أفخرها و أثنها كبقية نساء الملوك و السلاطين، و يعطى لهن ما ناله

المسلمون بتضحيات الفدائيين الثائرين و دماء الشهداء الطاهره، في الوقت الذي يعيش هنا و هناك أناس في غايه العسره و الشظف.

و بغضّ النظر عن ذلك، فإنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله يجب أن لا يكون لوحده أسوه للناس بحكم الآيات السابقه، بل يجب أن تكون عائلته أسوه لباقي العوائل أيضا، و نساؤه قدوه للنساء المؤمنات حتّى تقوم القيامه، فليس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله ملكا و إمبراطورا ليكون له جناح خاصّ للنساء، و يغرق نساءه بالحليّ و المجوهرات الثمينه بنفسه.

و ربّما كان هناك جماعه من المسلمين المهاجرين الذين وردوا المدينه لا يزالون يقضون ليلهم على الصّفّه (و هي مكان خاصّ كان إلى جنب مسجد النبي) حتّى الصباح، و لم يكن لهم في تلك المدينه أهل و لا دار، و في مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يسمح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله لأزواجه أن يتوقّعن كلّ تلك الرفاهيه و التوقّعات الاخرى.

و يستفاد من بعض الروايات أنّ بعض أزواجه قد كلّمته بكلام خشن جاف، حتّى أنّهنّ قلن: لعلّك تظنّ إن طلقنا لا نجد زوجا من قومنا غيرك (1). هنا امر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أن يواجه هذه المسأله بحزم تامّ، و يوضّح لهنّ حاله الدائمي، فخاطبت الآيه الاولى من الآيات أعلاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله و قالت: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسْرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

«امتّعن» من مادّه متعه، و كما قلنا في الآيه (236) من سوره البقره، فإنّها تعنى الهديه التي تلائم أحوال المرأه. و المراد هنا المقدار المناسب الذي يضاف على المهر، و إن لم يكن المهر معينا فإنّه يعطيها هديه لائقه بحالها بحيث ترضيها و تسرّها، و يتمّ طلاقها و فراقها في جوّ هادئ مفعم بالحبّ.

«السراح» في الأصل من مادّه (سرح) أي الشجره التي لها ورق و ثمر، و

ص: ٢٢٧

«سرح الإبل»، أى: أطلقتها لتأكل من الأعشاب و أوراق الشجر، ثم أطلقت بمعنى أوسع على كل نوع من السراح و لكل شىء و شخص، و تأتى أحيانا كناية عن الطلاق، و يطلق (تسريح الشعر) على تمشيط الشعر و ترجيله، و فيه معنى الإطلاق أيضا. و على كل حال فإن المراد من «السراح الجميل» فى الآيه طلاق النساء و فراقهن فراقا مقترنا بالإحسان، و ليس فيه جبر و قهر.

و للمفسرين و فقهاء المسلمين هنا بحث مفصل فى أنه هل المراد من هذا الكلام أن النبى صلى الله عليه و آله قد خير نساءه بين البقاء و الفراق، و إذا ما انتخب الفراق فإنه يعتبر طلاقا بحد ذاته فلا يحتاج إلى إجراء صيغته الطلاق؟ أم أن المراد هو أنهن يخترن أحد السبيلين، فإن أردن الفراق أجرى النبى صلى الله عليه و آله صيغته الطلاق، و إلا- يبقين على حالهن؟ و لا شك أن الآيه لا تدل على أى من هذين الأمرين، و ما تصوّره البعض من أن الآيه شاهد على تخيير نساء النبى، و عدّوا هذا الحكم من مختصات النبى صلى الله عليه و آله، لأنه لا يجرى فى سائر الناس، لا يبدو صحيحا، بل إن الجمع بين الآيه أعلاه و آيات الطلاق يوجب أن يكون المراد الفراق عن طريق الطلاق.

و هذه المسألة مورد نقاش بين فقهاء الشيعة و السنّه، إلا- أن القول الثانى- أى الفراق عن طريق الطلاق- يبدو أقرب لظواهر الآيات، إضافة إلى أن لتعبير (أسرحكن) ظهورا فى أن النبى صلى الله عليه و آله كان يقدم على تسريحهن، خاصه و أن مادّه «التسريح» قد استعملت بمعنى الطلاق فى موضع آخر من القرآن الكريم (سوره البقره/الآيه ٢٢٩) (١).

و تضيف الآيه التاليه: **وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا.**

ص: ٢٢٨

١- ١) طالع التوضيح الأكثر فى هذا الباب فى الكتب الفقيهيه، و خاصه كتاب الجواهر، المجلد ٢٩، صفحہ ١٢٢ و ما بعدها.

لقد جمعت هذه الآيه كل أسس الإيمان و سلوكيات المؤمن، فمن جهة عنصر الإيمان و الإعتقاد بالله و الرسول و اليوم الآخر، و من جهة اخرى البرنامج العملى و كون الإنسان فى صفّ المحسنين و المحسنات، و بناء على هذا فإن إظهار عشق الله و حبه، و التعلق بالنبي و اليوم الآخر لا يكفى لوحده، بل يجب أن تنسجم البرامج العمليه مع هذا الحبّ و العشق.

و بهذا فقد بين الله سبحانه تكليف نساء النبي و واجبهنّ فى أن يكنّ قدوه و أسوه للمؤمنات على الدوام، فإن هنّ تحلين بالزهد و عدم الاهتمام بزخارف الدنيا و زينتها، و اهتمامن بالإيمان و العمل الصالح و تسامى الروح، فإنهنّ يبقين أزواجا للنبي و يستحقنّ هذا الفخر، و إلا فعليهنّ مفارقتة و البون منه.

و مع أنّ المخاطب فى هذه الآيه هو نساء النبي إلا- أنّ محتوى الآيات و نتيجهها تشمل الجميع، و خاصّه من كان فى مقام قياده الناس و إمامتهم و أسوه لهم، فإنّ هؤلاء على مفترق الطرق دائما، فإنّما أن يستغلّوا المنصب الظاهرى للوصول إلى الحياه الماديه المرفّهه، أو البقاء على حرمانهم لنوال رضى الله سبحانه و هدايه خلقه.

ثمّ تتناول الآيه التاليه بيان موقع نساء النبي أمام الأعمال الصالحه و الطالحه، و كذلك مقامهنّ الممتاز، و مسئولياتهنّ الضخمه بعبارات واضحه، فتقول: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

فأنتنّ تعشنّ فى بيت الوحى و مركز النبوه، و علمكنّ بالمسائل الإسلاميه أكثر من عامّه الناس لارتباطكنّ المستمر بالنبي صلى الله عليه و آله و لقائه، إضافة إلى أنّ الآخرين ينظرون إليكنّ و يتخذون أعمالكنّ نموذجا و قدوه لهم. بناء على هذا فإنّ ذنبكنّ أعظم عند الله، لأنّ الثواب و العقاب يقوم على أساس المعرفه، و معيار العلم، و كذلك مدى تأثير ذلك العمل فى البيئه، فإنّ لكنّ حظًا أعظم من العلم، و لكنّ موقع



حساس له تأثيره في المجتمع.

ويضاف إلى ذلك أنّ مخالفتك تؤذي النبي صلى الله عليه وآله من جهة، ومن جهة أخرى توجه ضربه إلى كيانه ومركزه، ويعتبر هذا بحد ذاته ذنباً آخر، ويستوجب عذاباً آخر.

والمراد من «الفاحشه الميئنه» الذنوب العلنيه، ونعلم أنّ المفسد التي تنجم عن الذنوب التي يقترفها أناس مرموقون تكون أكثر حينما تكون علنيه.

ولنا بحث في مورد «الضعف» و«المضاعف» سيأتي في البحوث.

أمّا قوله عزّ وجلّ: **وَكَانَ ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** فهو إشاره إلى أن لا تظنن أنّ عذابك وعقابك عسير على الله تعالى، وأنّ علاقتك بالنبي صلى الله عليه وآله ستكون مانعه منه، كما هو المتعارف بين الناس حيث يغضون النظر عن ذنوب الأصدقاء والأقرباء، أو يعيرونها أهميه قليله.. كلاً، فإنّ هذا الحكم سيجرى في حقك بكلّ صرامه.

أمّا في الطرف المقابل، فتقول الآيه: **وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا**.

«يقنت» من القنوت، وهو يعنى الطاعه المقرونه بالخضوع والأدب (1)، والقرآن يريد بهذا التعبير أن يأمرهنّ بأن يطعن الله ورسوله، ويراعين الأدب مع ذلك تماماً.

و نواجه هنا هذه المسأله مرّه اخرى، وهى أنّ مجرّد ادعاء الإيمان والطاعه لا يكفى لوحده، بل يجب أن تلمس آثاره بمقتضى وَتَعْمَلْ صَالِحًا .

«الرزق الكريم» له معنى واسع يتضمّن كلّ المواهب الماديه والمعنويه، و تفسيره بالجنّه باعتبارها مجمعا لكلّ هذه المواهب.

ص: ٢٣٠

## لما ذا يضاعف ثواب و عقاب المرموقين؟

قلنا: إن هذه الآيات و إن كانت تتحدث عن نساء النبي بأنهن إن أظعن الله فلهن أجر مضاعف، و إن ارتكبن ذنبا ميئنا فلهن عذاب الضعف بما اكتسبن، إلا أن الملاك و المعيار الأصلي لما كان امتلاك المقام و المكانه المرموقه، و الشخصيه الاجتماعيه البارزه، فإن هذا الحكم صادق فى حق الأفراد الآخرين الذين لهم مكانه و مركز اجتماعى مهم.

إن مثل هؤلاء الأفراد لا يرتبط سلوكهم و تصرفاتهم بهم خاصه، بل إن لوجودهم بعدين: بعد يتعلق بهم، و بعد يرتبط بالمجتمع، و يمكن أن يكون نمط حياتهم سببا لهدايه جماعه من الناس، أو ضلال اخرى.

بناء على هذا فإن لأعمالهم أثرين: أحدهما فردى، و الآخر اجتماعى، و لكل منهما ثواب و عقاب بهذا اللحاظ، و لذلك نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد» (١) ! و مضافا إلى ذلك، فإن العلاقة وثيقه بين مستوى العلميه و مقدار الثواب و العقاب، كما ورد ذلك فى بعض الأحاديث الشريفه، حيث نقرأ:

«إن الثواب على قدر العقل» (٢).

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنما يداق الله العباد فى الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول فى الدنيا» (٣).

بل

ورد فى روايه عن الإمام الصادق عليه السلام: إذا بلغت النفس هاهنا- و أشار بيده إلى حلقه- لم يكن للعالم توبه، ثم قرأ: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ

ص: ٢٣١

١- ١) اصول الكافي، المجلد الأول، ص ٣٧ باب لزوم الحجج على العالم.

٢- ٢) اصول الكافي، الجزء الأول، صفحه ٩ كتاب العقل و الجهل.

٣- ٣) المصدر السابق.

و من هنا يتّضح أنّه ربّما كان معنى المضاعف و المرّتين هنا هو الزيادة، فقد تكون ضعفين حيناً، و تكون أضعافاً مضاعفة حيناً آخر، تماماً كما في الأعداد التي لها صفة التّكثير، خاصّة و أنّ الراغب يقول في مفرداته في معنى الضعف:

ضاعفته: ضممت إليه مثله فصاعداً- تأملوا بدقّه- و الرواية التي ذكرناها قبل قليل حول التفاوت بين ذنب العالم و الجاهل إلى سبعين ضعفاً شاهد آخر على هذا الادّعاء.

إنّ تعدّد مراتب الأشخاص و اختلاف تأثيرهم في المجتمع نتيجة اختلاف مكاناتهم الاجتماعيّة، و كونهم أسوّه يوجب أن يكون الثواب و العقاب الإلهي بتلك النسبة.

و ننهي هذا البحث بحديث

عن الإمام السّجاد عليّ بن الحسين عليهما السّلام، و ذلك أنّ رجلاً قال له: إنكم أهل بيت مغفور لكم، فغضب الإمام و قال: «نحن أخرى أن يجرى فينا ما أجرى الله في أزواج النّبي صلّى الله عليه و آله من أن نكون كما تقول، إنّنا نرى لمحسنتنا ضعفين من الأجر، و لمسيئتنا ضعفين من العذاب، ثمّ قرأ الآيتين» (٢).

ص: ٢٣٢

١- ١) اصول الكافي، المجلّد الأوّل، صفحته ٣٨ باب لزوم الحجّة على العالم، و الآية (١٧) من سورة النساء.

٢- ٢) مجمع البيان، المجلّد ٨، صفحته ٣٥٤ ذيل الآية مورد البحث.

إشاره

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسِيْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

التفسير

إشاره

هكذا يجب أن تكون نساء النبي!

كان الكلام في الآيات السابقة عن موقع نساء النبي و مسئولياتهن الخطيره، و يستمر هذا الحديث في هذه الآيات، و تأمر الآيات نساء النبي صلى الله عليه و آله بسبعه أوامر مهمه.

فيقول سبحانه في مقدمه قصيره: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ

فإنَّ انتسابكُنَّ إلى النَّبِيِّ من جانب، ووجودكُنَّ في منزل الوحي و سماع آيات القرآن و تعليمات الإسلام من جانب آخر، قد منحكن موقعا خاصا بحيث تقدرن على أن تكن نموذجا و قدوة لكل النساء، سواء كان ذلك في مسير التقوى أم مسير المعصية، و بناء على هذا ينبغي أن تدركن موقعكُنَّ، و لا تنسين مسئولياتكُنَّ الملقاه على عاتقكُنَّ، و اعلمن أنَّكُنَّ إن اتقيتنَّ فلكنَّ عند الله المقام المحمود.

و بعد هذه المقدّمه التي هيأتها لتقبّل المسئوليات و تحمّلها، فإنّه تعالى أصدر أوّل أمر في مجال العفّه، و يؤكّد على مسأله دقيقه لتتّضح المسائل الاخرى في هذا المجال تلقائيا، فيقول:

□ **فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**

بل تكلمن عند تحدّثكُنَّ بجدّ و بأسلوب عاديّ، لا- كالنساء المتميّعات اللائئ يسعين من خلال حديثهنّ المليء بالعبارات المحرّكه للشهوه، و التي قد تقسرن بترخيم الصوت و أداء بعض الحركات المهيجه، أن يدفعن ذوى الشهوات إلى الفساد و ارتكاب المعاصي.

إنّ التعبير الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ تعبير بليغ جدّا، و مؤدّ لحقيقه أنّ الغريزه الجنسيه عند ما تكون في حدود الاعتدال و المشروعيه فهي عين السلامه، أمّا عند ما تتعدّى هذا الحدّ فإنّها ستكون مرضا قد يصل إلى حدّ الجنون، و الذي يعبرون عنه بالجنون الجنسي، و قد فضّل العلماء اليوم أنواعا و أقساما من هذا المرض النفسى الذي يتولّد من طغيان هذه الغريزه، و الخضوع للمفاسد الجنسيه و البيئات المنحطّه الملوّثه.

و يبيّن الأمر الثّانى في نهايه الآيه فيقول عزّ و جلّ: يجب عليكُنَّ التحدّث مع الآخرين بشكل لائق و مرضى لله و رسوله، و مقترنا مع الحقّ و العدل: **وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا .**

□ **إِنَّ جَمَلَهُ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ** إشاره إلى طريقه التحدّث، و جملة: **وَ قُلْنَ قَوْلًا**

إشاره إلى محتوى الحديث.

«القول المعروف» له معنى واسع يتضمّن كلّ ما قيل، إضافة إلى أنّه ينفي كلّ قول باطل لا فائده فيه ولا هدف من ورائه، وكذلك ينفي المعصية و كلّ ما خالف الحقّ.

ثمّ إنّ الجملة الأخيره قد تكون توضيحا للجملة الأولى لئلا يتصوّر أحد أنّ تعامل نساء النّبي مع الأجنبي يجب أن يكون مؤذيا و بعيدا عن الأدب الإسلامى، بل يجب أن يتعاملن بأدب يليق بهنّ، و فى الوقت نفسه يكون خاليا من كلّ صفه مهيجه.

ثمّ يصدر الأمر الثالث فى باب رعايه العفّه، فيقول: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى .

«قرن» من مادّه الوقار، أى الثقل، و هو كناية عن التزام البيوت. و احتمال البعض أن تكون من مادّه (القرار)، و هى لا- تختلف عن المعنى الأوّل كثيرا (1).

و«التبرّج» يعنى الظهور أمام الناس، و هو مأخوذ من مادّه (برج)، حيث يبدو و يظهر لأنظار الجميع.

لكن ما هو المراد من «الجاهلية»؟ الظاهر أنّها الجاهلية التى كانت فى زمان النّبي صلّى الله عليه و آله، و لم تكن النساء محجّبات حينها كما ورد فى التواريخ، و كنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهنّ مع إظهار نحوورهنّ و جزء من صدورهنّ و أقراطهنّ و قد منع القرآن الكريم أزواج النّبي من مثل هذه الأعمال.

و لا شكّ أنّ هذا الحكم عامّ، و التركيز على نساء النّبي من باب التأكيد الأشدّ، تماما كما نقول لعالم: أنت عالم فلا تكذب، فلا يعنى هذا أنّ الكذب مجاز و مباح

ص: ٢٣٥

١ - ١) طبعا يكون فعل الأمر (أقرن) فى صورته كونها من مادّه القرار، و حذفت الراء الاولى للتخفيف، و انتقلت فتحه الراء إلى القاف، و مع وجودها لا نحتاج إلى الهمزة، و تصبح (قرن) - تأملوا جيّدا -

للآخرين، بل المراد أنّ العالم ينبغي أن يتقى هذا العمل بصورة أكد.

إنّ هذا التعبير يبيّن أنّ جاهليه اخرى ستأتى كالجاهليه الاولى التى ذكرها القرآن، ونحن نرى اليوم آثار التتبؤ القرآنى فى عالم التمدّن المادى، إلا أنّ المفسّرين القدامى لم يتتبؤوا و يعلموا بمثل هذا الأمر، لذلك فقد جهدوا فى تفسير هذه الكلمه، و لذلك اعتبر البعض منهم الجاهليه الاولى هى الفاصله بين «آدم» و «نوح»، أو الفاصله بين عصر «داود» و «سليمان» حيث كانت النساء تخرج بثياب يتّضح منها البدن، و فسّروا الجاهليه العربيه قبل الإسلام بالجاهليه الثّانيه! و لكن لا حاجه إلى هذه الكلمات كما قلنا، بل الظاهر أنّ الجاهليه الاولى هى الجاهليه قبل الإسلام، و التى أشير إليها فى موضع آخر من القرآن الكريم- فى الآيه (١٤٣) من سوره آل عمران، و الآيه (٥٠) من سوره المائده، و الآيه (٢٦) من سوره الفتح- و الجاهليه الثّانيه هى الجاهليه التى ستكون فيما بعد، كجاهليه عصرنا. و سنبسّط الكلام حول هذا الموضوع فى بحث الملاحظات.

و أخير يصدر الأمر الرابع و الخامس و السادس، فيقول سبحانه: <sup>□</sup>وَ أَقِمْنَ الصَّلَاةَ <sup>□</sup>وَ آتِينَ الزَّكَاةَ <sup>□</sup>وَ أَطِعْنَ اللَّهَ <sup>□</sup>وَ رَسُولَهُ .

إذا كانت الآيه قد أكّدت على الصلاه و الزكاه من بين العبادات، فإنّما ذلك لكون الصلاه أهمّ وسائل الاتّصال و الارتباط بالخالق عزّ و جلّ، و تعتبر الزكاه علاقته متينه بخلق الله، و هى فى الوقت نفسه عباده عظيمه. و أمّا جملة: <sup>□</sup>أَطِعْنَ اللَّهَ <sup>□</sup>وَ رَسُولَهُ <sup>□</sup>فإنّه حكم كلّى يشمل كلّ البرامج الإلهيه.

إنّ هذه الأوامر الثلاثه تشير إلى أنّ الأحكام المذكوره ليست مختصه بنساء النّبى، بل هى للجميع، و إن أكّدت عليهنّ.

و يضيف الله سبحانه فى نهايه الآيه: <sup>□</sup>إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ <sup>□</sup>وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا .

إنّ التعبير ب(إنّما) و الذى يدلّ على الحصر عاده- دليل على أنّ هذه المنقبه

خاصّه بأهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله. و جملة (يريد) إشاره إلى إرادة الله التكوينية، و إلاّ فإنّ الإرادة التشريعيه -و بتعبير آخر لزوم تطهير أنفسهم- لا تنحصر بأهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله، فإنّ كلّ الناس مكلفون بأن يتطهروا من كلّ ذنب و معصيه.

من الممكن أن يقال: إنّ الإرادة التكوينية توجب أن يكون ذلك جبراً، إلاّ- أنّ جواب ذلك يتّضح من ملاحظه البحوث التي أوردناها في مسأله كون الأنبياء و الأئمّه معصومين، و يمكن تلخيص ذلك هنا بأنّ للمعصومين أهليه اكتسابيه عن طريق أعمالهم، و لهم لياقه ذاتيه موهوبه لهم من قبل الله سبحانه، ليستطيعوا أن يكونوا أسوه للناس.

و بتعبير آخر فإنّ المعصومين نتيجة للرعايه الإلهيه و أعمالهم الطاهره، لا يقدمون على المعصيه مع امتلاكهم القدره و الإختيار في إتيانها، تماماً كما لا نرى عاقلاً يرفع جمره من النار و يضعها في فمّه، مع أنّه غير مجبر و لا مكره على الامتناع عن هذا العمل، فهذه الحاله تنبعث من أعماق وجود الإنسان نتيجة المعلومات و الاطلاع، و المبادئ الفطريه و الطبيعيه، من دون أن يكون في الأمر جبر و إكراه.

و لفظه «الرجس» تعني الشئ القذر، سواء كان نجسا و قدراً من ناحيه طبع الإنسان، أو بحكم العقل أو الشرع، أو جميعها (1). و ما ورد في بعض الأحيان من تفسير «الرجس» بالذنب أو الشرك أو البخل و الحسد، أو الإعتقاد بالباطل، و أمثال ذلك، فإنّه في الحقيقه بيان لمصاديقه، و إلاّ- فإنّ مفهوم هذه الكلمه عامّ و شامل لكلّ أنواع الحماقات بحكم (الألف و اللام) التي وردت هنا، و التي تسمّى بألف و لام الجنس.

و «التطهير» الذي يعني إزاله النجس، هو تأكيد على مسأله إذهاب الرجس

ص: ٢٣٧

---

(١- ١) ذكر الراجب في مفرداته، في مادّه (رجس) المعنى المذكور أعلاه، و أربعه أنواع كمصاديق له.



و نفى السيئات، و يعتبر ذكره هنا بصيغه المفعول المطلق تأكيدا آخر على هذا المعنى.

و أما تعبير أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بِاتِّفَاقِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَ الْمَفْسِّرِينَ، وَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَفْهَمُ مِنْ ظَاهِرِ آيَةِ، لِأَنَّ الْبَيْتَ وَ إِنْ ذَكَرَ هُنَا بِصِيغِهِ مُطْلَقًا، إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ بَيْتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بِقَرِينَةِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَ الْوَالِحَةِ (١).

إِلَّا- أَنَّ هُنَاكَ اخْتِلَافًا فِي الْمَقْصُودِ بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ هُنَا؟ اعْتَقَدَ الْبَعْضُ أَنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ مُخْتَصٌّ بِنِسَاءِ النَّبِيِّ، لِأَنَّ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ وَ الْوَالِحَةَ تَتَحَدَّثُ حَوْلَ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، فَاعْتَبَرُوا ذَلِكَ قَرِينَةً عَلَى مَدْعَاهُمْ.

غَيْرَ أَنَّ الْإِتْبَاهَ إِلَى مَسْأَلِهِ فِي الْآيَةِ يَنْفِي هَذَا الْادِّعَاءَ، وَ هِيَ: أَنَّ الضَّمَائِرَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَ الْوَالِحَةِ، جَاءَتْ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ النِّسَاءِ، فِي حِينٍ أَنَّ ضَمَائِرَ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنَ الْآيَةِ قَدْ وَرَدَتْ بِصِيغَةِ جَمْعِ الْمَذْكَرِ، وَ هَذَا يُوحِي بِأَنَّ هُنَاكَ مَعْنَى آخَرَ هُوَ الْمُرَادُ، وَ لِذَلِكَ خَطَأً جَمَعَ آخَرُ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ خَطْوَهُ أَوْسَعُ وَ اعْتَبَرَ الْآيَةَ شَامِلَةً لِكُلِّ أَفْرَادِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ رِجَالًا وَ نِسَاءً.

وَ مِنْ جِهَةِ آخَرَى فَإِنَّ الرُّوَايَاتِ الْكَثِيرَةَ جَدًّا الْوَارِدَةَ فِي كُتُبِ الْفَرِيقَيْنِ تَنْفِي شَمُولِ الْآيَةِ لِكُلِّ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، وَ تَقُولُ: إِنَّ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْآيَةِ هُمُ خَمْسَةُ أَفْرَادٍ فَقَطْ، وَ هُمْ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ عَلِيٌّ وَ فَاطِمَةُ وَ الْحَسَنُ وَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ مَعَ وَجُودِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَعْتَبَرُ قَرِينَةً عَلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ، فَإِنَّ التَّفْسِيرَ الَّذِي يُمْكِنُ قَبُولُهُ هُوَ التَّفْسِيرُ الثَّلَاثِيُّ فَقَطْ، أَى اخْتِصَاصِ الْآيَةِ بِالْخَمْسَةِ الطَّيِّبَةِ.

وَ السُّؤَالُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَبْقَى هُنَا هُوَ: كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَطْرَحَ مُطَلِبُ فِي طَيِّبَاتِ الْبَحْثِ فِي وَاجِبَاتِ نِسَاءِ النَّبِيِّ وَ لَا يَشْمَلُهُنَّ هَذَا الْمَطْلَبُ؟

ص: ٢٣٨

١- ١) مَا ذَكَرَهُ الْبَعْضُ مِنْ أَنَّ «الْبَيْتَ» هُنَا إِشَارَةٌ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَ أَهْلِهِ هُمُ «الْمُتَّقُونَ»- لَا- يَتَنَاسَبُ مُطْلَقًا مَعَ سِيَاقِ الْآيَاتِ. لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ أَزْوَاجِهِ، لَا عَنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَ لَا يَوْجَدُ أَى دَلِيلَ عَلَى قَوْلِهِمْ.

وقد أجاب المفسر الكبير العلامة «الطبرسي» في مجمع البيان عن هذا السؤال فقال: ليست هذه المره الاولى التي نرى فيها في آيات القرآن أن تتصل مع بعضها و تتحدت عن مواضيع مختلفه، فإن القرآن ملئ بمثل هذه البحوث، و كذلك توجد شواهد كثيره على هذا الموضوع في كلام فصحاء العرب و أشعارهم.

و أضاف المفسر الكبير صاحب الميزان جوابا آخر ملخصه: لا دليل لدينا على أن جملة: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ...** قد نزلت مع هذه الآيات، بل يستفاد جيّدا من الروايات أن هذه القطعه قد نزلت منفصله، و قد وضعها الإمام مع هذه الآيات لدى جمعه آيات القرآن في عصر النبي صلى الله عليه و آله أو بعده.

و الجواب الثالث الذي يمكن أن يجاب به عن هذا السؤال هو: أن القرآن يريد أن يقول لزوجات النبي: إنكن بين عائله بعضها معصومون، و الذي يعيش في ظل العصمه و منزل المعصومين فإنه ينبغي له أن يراقب نفسه أكثر من الآخرين، و لا تنسين أن انتسابكن إلى بيت فيه خمسه معصومين يلقي على عاتقكن مسئوليات ثقيله، و ينتظر منه الله و عباده انتظارات كثيره.

و سنبحث في الملاحظات القادمه- إن شاء الله تعالى- روايات السنه و الشيعه الوارده في تفسير هذه الآيه.

و بينت الآيه الأخيره- من الآيات مورد البحث- سبع وظيفه و آخرها من وظائف نساء النبي، و نبهتهن على ضروره استغلال أفضل الفرص التي تتاح لهن في سبيل الإحاطه بحقائق الإسلام و العلم بها و بأبعادها، فتقول: **وَ اذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمِهِ .**

فإنكن في مهبط الوحي، و في مركز نور القرآن، فحتى إذا جلستن في البيوت فأنتن قادرات على أن تستفدن جيّدا من الآيات التي تدوى في فضاء بيتكن، و من تعليمات الإسلام و حديث النبي صلى الله عليه و آله الذي كان يتحدت به، فإن كل نفس من أنفاسه درس، و كل لفظ من كلامه برنامج حياه! و فيما هو الفرق بين «آيات الله» و «الحكمه»؟ قال بعض المفسرين: إن كليهما

إشاره إلى القرآن، غايه ما فى الأمر أنّ التعبير ب(الآيات) يبيّن الجانب الإعجازى للقرآن، و التعبير ب(الحكمه) يتحدّث عن المحتوى العميق و العلم المخفى فيه.

و قال البعض الآخر: إنّ «آيات الله» إشاره إلى آيات القرآن، و «الحكمه» إشاره إلى سنّه النبىّ صلّى الله عليه و آله مواعظه و إرشاداته الحكيمه.

و مع أنّ كلا- التفسيرين يناسب مقام و ألفاظ الآيه، إلّا- أنّ التفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ التعبير بالتلاوه يناسب آيات الله أكثر، إضافه إلى أنّ تعبير النزول قد ورد فى آيات متعدّده من القرآن فى مورد الآيات و الحكمه، كآيه (٢٣١) من سوره البقره: وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ وَ يَشْبِهُهُ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (١١٣) من سوره النساء.

و أخيرا تقول الآيه: إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا و هى إشاره إلى أنّه سبحانه مطّلع على أدقّ الأعمال و أخفاها، و يعلم نياتكم تماما، و هو خبير بأسراركم الدفينه فى صدوركم.

هذا إذا فسّرنا «اللطف» بالمطّلع على الدقائق و الخفيات، و أمّا إذا فسّر بصاحب اللطف، فهو إشاره إلى أنّ الله سبحانه لطيف و رحيم بكنّ يا نساء النبىّ، و هو خبير بأعمالكنّ أيضا.

و يحتمل أيضا أن يكون التأكيد على «اللطف» من جانب إعجاز القرآن، و على «الخبير» باعتبار محتواه الحكيمى. و فى الوقت نفسه لا منافاه بين هذه المعانى و يمكن جمعها.

## بحوث

## إشاره

### ١- آيه التطهير برهان واضح على العصمه:

اعتبر بعض المفسّرين «الرجس» فى الآيه المذكوره إشاره إلى الشرك أو الكبائر- كالزنا- فقط، فى حين لا يوجد دليل على هذا التحديد، بل إنّ إطلاق

الرجس- و خاصه بملاحظه ألفه و لامه، و هي ألف لام الجنس- يشمل كل أنواع الذنوب و المعاصي، لأن كل المعاصي رجس، و لذلك فإن هذه الكلمه أطلقت في القرآن على الشرك و الخمر و القمار و النفاق و اللحوم المحرّمه و النجسه و أمثال ذلك.

انظر الآيات: الحجّ- ٣٠، المائده- ٩٠، التوبه- ١٢٥، الأنعام- ١٤٥.

و بملاحظه أنّ الإراده الإلهيه حتميه التنفيذ و الوقوع، و أنّ جملة: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ** دليل على إرادته الحتميه، و خاصه بوجود كلمه (إنّما) الدالّه على الحصر و التأكيد، سيّضح أنّ إرادته الله سبحانه قد قطعت بأن يكون أهل البيت منزّهين عن كل رجس و خطأ، و هذا هو مقام العصمه.

و ثمّه مسأله تستحقّ الانتباه، و هي أنّه ليس المراد من الإراده الإلهيه في هذه الآيه الأوامر و الأحكام الإلهيه في مسائل الحلال و الحرام، لأنّ هذه الأحكام تشمل الجميع، و لا تختصّ بأهل البيت، و بناء على هذا فإنّها لا تتناسب مع مفهوم (إنّما).

إذن، فهذه الإراده المستمرّه نوع من الإمداد الإلهي الذي يعين أهل البيت على العصمه و الاستمرار فيها، و هي في الوقت نفسه لا تنافي حريه الإراده و الإختيار، كما فضلنا ذلك سابقا.

إنّ مفهوم هذه الآيه في الحقيقه هو عين ما

جاء في الزياره الجامعه: «عصمكم الله من الزلل، و آمنكم من الفتن، و طهركم من الدنس و أذهب عنكم الرجس و طهركم تطهيرا».

و ينبغي أن لا نشكّ بعد هذا الإيضاح في دلالة الآيه المذكوره على عصمه أهل البيت عليهم السلام.

## ٢- فيمن نزلت آيه التطهير؟

قلنا: إنّ هذه الآيه بالرغم من أنّها وردت ضمن الآيات المتعلّقه بنساء النبي، إلّا

أن تغيير سياقها- حيث تبدل ضمير الجمع المؤنث إلى ضمير الجمع المذكّر- دليل على أن لهذه الآية معنى و محتوى مستقلا عن تلك الآيات، و لهذا فحتّى أولئك الذين لم يعتبروا الآية مختّصه بمحمّد صلّى الله عليه و آله و على و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السّلام، فإنّهم اعتقدوا أنّ لها معنى واسعاً يشمل هؤلاء العظام و نساء النّبي صلّى الله عليه و آله.

إلا أنّ الروايات الكثيره التي بين أيدينا تبين أنّ هذه الآية خاصّه بهؤلاء الأجلاء، و لا تدخل الزوجات ضمن الآية، بالرغم من أنّهنّ يتمتّعن باحترام خاصّ، و نضع بين أيديكم بعضاً من هذه الروايات:

أ: الروايات التي رويت عن أزواج النّبي صلّى الله عليه و آله أنفسهنّ، و التي حدثن فيها: إنّ النّبي صلّى الله عليه و آله عند ما كل يتحدّث عن هذه الآية الشريفه سأله: أ نحن من أصحاب هذه الآية؟ فكان يجيب: بأنكّن إلى خير، و لكن لستنّ من أصحابها.

و من جملة الروايه التي

رواها «الثعلبي» عن «أم سلمه» في تفسيره، و ذلك أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله كان في بيتها إذ أتته فاطمه عليها السّلام بقطعه حرير، فقال النّبي صلّى الله عليه و آله: «ادعى لى زوجك و ابنيك- الحسن و الحسين-» فأتت به فطعموا، ثمّ ألقى عليهم النّبي صلّى الله عليه و آله كساء له خيرياً و قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى و عترتى فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً» فنزلت آيه التطهير، فقلت: يا رسول الله و أنا معهم؟ قال: «إنك إلى خير» و لكنك لست منهم (1).

و يروى «الثعلبي» أيضاً عن «عائشه» أنّها عند ما سئلت عن حرب الجمل و تدخلها في تلك الحرب المدمّره الطاحنه، قالت بأسف: كان ذلك قضاء الله.

و

عند ما سئلت عن على عليه السّلام قالت: تسأليني عن أحبّ الناس كان إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله، و زوج أحبّ الناس كان إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله؟ لقد رأيت علياً و فاطمه و حسناً و حسيناً عليهم السّلام، و جمع رسول الله صلّى الله عليه و آله بثوب عليهم ثمّ قال: «اللهم هؤلاء أهل

ص: ٢٤٢

---

١ - ١) روى الطبرسى في مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، هذا الحديث بهذا المضمون بطرق متعدده عن أم سلمه. راجع شواهد التنزيل، للحاكم الحسكاني، المجلد ٢، صفحہ ٥٦ و ما بعدها.

بيتي و حامتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» قالت: فقلت: يا رسول الله، أنا من أهلك! قال: «تنحى فإنك إلى خير» (١) -  
إلا أنك لست جزءا منهم-.

إن هذه الروايات تصرّح أنّ زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لسن جزءا من أهل البيت في هذه الآية.

ب: لقد

وردت روايات كثيرة جدًا بصوره مجمله في شأن حديث الكساء، يستفاد منها جميعا أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دعا عليا و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السلام - أو أنّهم أتوا إليه - فألقى عليهم عباة و قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا»، فنزلت الآية: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ...**

و قد روى العالم المعروف «الحاكم الحسكاني النيسابوري» هذه الروايات في (شواهد التنزيل) بطرق مختلفة عن رواه مختلفين (٢)

و هنا سؤال يلفت النظر، و هو: ماذا كان الهدف من جمعهم تحت الكساء؟ كأنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان يريد أن يحدّد هؤلاء و يعرّفهم تماما، و يقول: إنّ الآية أعلاه في حقّ هؤلاء خاصّة، لئلا يرى أحد أو يظنّ ظانّ أنّ المخاطب في هذه الآية كلّ من تربطه بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قرابه، و كلّ من يعدّ جزءا من أهله، حتّى جاء في بعض الروايات أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قد كرّر هذه الجملة ثلاث مرّات:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي و خاصّتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا» (٣).

ج: نقرأ في روايات عديدة اخرى أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بقي ستّة أشهر بعد نزول هذه الآية ينادى عند مروره من جنب بيت فاطمه سلام الله عليها و هو ذاهب إلى صلاه الصبح:

«الصلاه يا أهل البيت! إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا». و قد روى الحاكم الحسكاني هذا الحديث عن أنس بن

ص: ٢٤٣

١-١) مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

٢-٢) شواهد التنزيل، المجلّد ٢، صفحہ ٣١ و ما بعدها.

٣-٣) الدرّ المنثور ذيل الآية مورد البحث.

و روى ابن عباس أيضا هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله (٢).

و هنا مسأله تستحق الانتباه، و هى أن تكرار هذه الأمر ستّه أشهر أو ثمانيه أو تسعه أشهر بصوره مستمرّه جنب بيت فاطمه إنّما هو لبيان هذه المسأله تماما لئلا يبقى مجال للشكّ لدى أى شخص بأن هذه الآيه قد نزلت فى شأن هؤلاء النفر فقط، خاصّه و أنّ الدار الوحيدة التى بقى بابها مفتوحا إلى داخل المسجد بعد أن أمر الله نبيّه بأن تغلق جميع أبواب بيوت الآخرين، هى دار فاطمه عليها السّلام، و لا شكّ أنّ جماعه من الناس كانوا يسمعون ذلك القول من النبي صلى الله عليه وآله حين الصلاه هناك - تأملوا ذلك -.

و مع ذلك، فإنّ ممّا يثير العجب أنّ بعض المفسّرين يصرون على أنّ لآيه معنى عامّا تدخل فيه أزواج النبي، بالرغم من أنّ أكثر علماء الإسلام، السنّه منهم و الشيعه، قد حدّدوها بهؤلاء الخمسه.

و ممّا يستحقّ الالتفات أنّ عائشه - زوجه النبي لم تكن تدع شيئا فى ذكر فضائلها، و دقائق علاقتها بالنبي صلى الله عليه وآله بشهاده الروايات الإسلاميه، فإذا كانت هذه الآيه تشملها فلا بدّ أنّها كانت ستتحدّث بها فى المناسبات المختلفه، فى حين لم يرو شيء من ذلك عنها مطلقا.

د: رويت روايات عديده عن الصحابي المعروف «أبى سعيد الخدرى» تشهد بصراحه بأنّ هذه الآيه قد نزلت فى شأن هؤلاء الخمسه الأطهار: «نزلت فى خمسه: فى رسول الله، و على، و فاطمه، و الحسن، و الحسين» (٣). و هذه الرّوايات كثيره بحيث عدّها بعض المحقّقين متواتره.

ص: ٢٤٤

١-١) شواهد التنزيل، المجلد ٢، صفحه ١١.

٢-٢) الدر المنثور، ذيل الآيه مورد البحث.

٣-٣) شواهد التنزيل، الجزء ٢، صفحه ٢٥.

و ممّا قلناه نستنتج أنّ المصادر و رواه الأحاديث التي تدلّ على اختصاص الآية بالخمس المطهّره و حصرها بهم كثيره بحيث لا تدع لأحد المجال للشكّ في هذه الدلاله، حتّى أنّه ذكر في شرح (إحقاق الحقّ) أكثر من سبعين مصدرا من مصادر العامّة المعروفه، و أمّا مصادر الشيعة في هذا الباب فتربو على الألف (١). و قد روى صاحب كتاب (شواهد التنزيل) - و هو من علماء الإخوه السنّه المشهورين - أكثر من (١٣٠) حديثا في هذا الموضوع (٢).

و بغضّ النظر عن كلّ ذلك، فإنّ بعض أزواج النّبى قد قمن بأعمال طوال حياتهنّ تخالف مقام العصمه، و لا تناسب كونهنّ معصومات، كحادثه «حرب الجمل» التي كانت ثوره و خروجا على إمام الزمان، و التي تسببت في إراقه دماء كثيره، فقد بلغ عدد القتلى في هذه الحرب - عند بعض المؤرّخين - سبعة عشر ألف قتيل.

و لا شكّ أنّ هذه المعركه لا يمكن توجيهاها، بل إنّنا نرى أنّ عائشه نفسها قد أظهرت الندم بعدها، و قد مرّ نموذج من هذا الندم في البحوث السابقه.

إنّ انتقاص عائشه من خديجه - و التي هي من أعظم نساء المسلمين، و أكثرهنّ تضحيه و إيثارا، و أجلهنّ فضيله و قدرا - مشهور في تاريخ الإسلام، و قد ألم هذا الكلام رسول الله صلّى الله عليه و آله حتّى ظهرت على وجهه الشريف آثار الغضب و قال: «لا و الله ما أبدلنى الله خيرا منها، آمنت بى إذ كفر الناس، و صدّقتنى إذ كذّبنى الناس، و واستننى فى مالها إذ حرمنى الناس» (٣).

### ٣- هل أن الإراده الإلهيه هنا تكوينيه أم تشريعيه؟

مرّت الإشاره في طيّات تفسير هذه الآية إلى هذا الموضوع، و قلنا: إنّ الإراده

ص: ٢٤٥

١- ١) يراجع الجزء الثانى، من إحقاق الحقّ و هوامشه.

٢- ٢) يراجع المجلّد الثانى، من شواهد التنزيل، صفحه ١٠-٩٢.

٣- ٣) الإستيعاب، و صحيح البخارى، و صحيح مسلم. طبقا لنقل المراجعات صفحه ٢٢٩ رساله ٧٢.



فى جملة: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ إِرادَه تكوينه لا تشريعه.

و لمزيد التوضيح ينبغي أن نذكر بأن المراد من «الإرادة التشريعية» هى أوامر الله و نواهيه، فنعلم مثلا أن الله سبحانه يريد منا أداء الصلاة و الصوم و الحجّ و الجهاد، و هذه إرادته تشريعية. و من المعلوم أن الإرادة التشريعية تتعلّق بأفعالنا لا بأفعال الله عزّ و جلّ. فى حين أن الآيه أعلاه تتعلّق بأفعال الله سبحانه، فهى تقول:

إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ، و بناء على هذا فإنّ مثل هذه الإرادة يجب أن تكون تكوينيه، و مرتبطه بإرادته الله سبحانه فى عالم التكوين.

إضافه إلى ذلك، فإنّ مسأله الإراده التشريعيه فيما يتعلّق بالتقوى و العفّه لا تنحصر بأهل البيت عليهم السّلام، لأنّ الله قد أمر الجميع بالتقوى و التطهّر من الذنوب، و بذلك لا تكون لهم مزيّه و خاصيّه، لأنّ كلّ المكلفين مشمولون بهذا الأمر.

و على أيّه حال، فإنّ هذا الموضوع- أى الإراده التشريعيّه- مضافا إلى أنّه لا يناسب ظاهر الآيه، فإنّه لا يتناسب مع الأحاديث السابقه بأى وجه من الوجوه، لأنّ كلّ تلك الأحاديث تتحدّث عن فضيله ساميه و هبه مهمّه خاصّه بأهل البيت عليهم السّلام.

و من المسلم أيضا أنّ «الرجس» هنا لا- يعنى الرجس الظاهرى، بل هو إشاره إلى الأرجاس الباطنيه، و إطلاق هذه الكلمه ينفى انحصارها و كونها محدوده بالشرك و الكفر و الأعمال المنافيه للعفّه و أمثال ذلك، فإنّها تشمل كلّ الذنوب و المعاصى و المفاسد العقائديه و الأخلاقيه و العمليه.

و المسأله الاخرى التى ينبغى الالتفات إليها بدقه هى أنّ الإراده التكوينه التى تعنى الخلقه و الإيجاد، تعنى هنا «المقتضى» لا العله التامه لتكون موجب للجبّر و سلب الإختيار.

و توضيح ذلك، إنّ مقام العصمه يعنى حاله تقوى الله التى توجد عند الأنبياء و الأئمّه بمعونه الله سبحانه، لكن وجود هذه الحاله لا يعنى أنّهم غير قادرين على

ارتكاب المعصية، بل إنهم قادرون على إتيانها، غير أنهم يعفون أنفسهم و يجلون عنها التلوث بها باختيارهم، و يغضون الطرف عنها طوعاً، تماماً كالطبيب الحاذق الذى لا يتناول مطلقاً مادّة سمّيه جدّاً و هو يعلم الأخطار التى تنجم عن تناولها، و مع أنّه قادر على تناولها، إلا أنّ علومه و اطلاعه و مبادئه الفكرية و الروحية تدفعه إلى الامتناع إرادياً و اختياراً عن هذا العمل.

و يجب التذكير بهذه المسألة، و هى أنّ هذه التقوى موهبه خاصّه منحت للأنبياء لا للآخرين، لكن الله سبحانه قد منحهم إياها للمسؤوليات الثقيله الخطيره الملقاه على عاتقهم فى قياده الناس و إرشادهم، و بناء على هذا فإنّه امتياز يعود نفعه على الجميع، و هذه عين العداله، تماماً كالامتياز الخاصّ الذى منحه الله لطبقات العين و أغشيتها الرقيقه و الحساسه جدّاً، و التى يستفيد منها جميع البدن.

إضافه إلى أنّ الأنبياء تعظم مسؤولياتهم و واجباتهم بنفس المقدار الذى يتمتّعون بهذا المواهب الإلهيه و الامتيازات، فإنّ تركّ الاولى من قبلهم يعادل ذنباً كبيراً يصدر من الناس العاديين، و هذا معيار و تشخيص لخطّ العداله.

و النتيجة أنّ هذه الإراده إرادته تكوينيه فى حدود المقتضى -و ليست عله تامّه- و هى فى الوقت نفسه لا توجب الجبر و لا تسلب الإختيار و الإراده الإنسانيه.

#### ٤- جاهليه القرن العشرين!

مرّت الإشاره إلى أنّ جمعا من المفسّرين تورّطوا فى تفسير (الجاهليه الاولى) و كأنّهم لم يقدرّوا أن يصدّقوا ظهور جاهليه اخرى فى العالم بعد ظهور الإسلام، و أنّ جاهليه العرب قبل الإسلام ضئيله تجاه الجاهليه الجديده، إلا أنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم، حيث نرى مظاهر جاهليه القرن العشرين المرعبه، و يجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازيه.

إذا كان العرب فى زمان الجاهليه يغيرون و يحاربون، و إذا كان سوق عكاظ -

مثلاً-ساحه لسفك الدماء لأسباب تافهه عدّه مرّات، و قتل على أثرها أفراد معدودون، فقد وقعت في جاهليه عصرنا حروب ذهب ضحيتها عشرون مليون إنسان، و جرح و تعوّق أكثر من هذا العدد! و إذا كانت النساء «تبرّج» في زمن الجاهليه و يلقين خميرهنّ عن رؤوسهنّ بحيث كان يظهر جزء من صدورهنّ و نحورهنّ، و قلائدهنّ و أقراطهنّ، ففي عصرنا تشكّل نواد تسمّى بنوادى العراه- و نموذجها مشهور في بريطانيا- حيث يتعرّى أفرادها كما ولدتهم امهاتهم، و فضائح البلاجات على سواحل البحار و المسابح، بل و حتّى في الأماكن العامّه و على قارعه الطريق يخجل القلم من ذكرها.

و إذا كانت في الجاهليه «زانيات من ذوات الأعلام»، حيث كنّ يرفعن أعلاما فوق بيوتهنّ ليدعين الناس إلى أنفسهنّ، في جاهليه قرننا أناس يطرحون أمورا و مطالب في هذا المجال عبر صحف خاصّه، يندى لها الجبين، و لجاهليه العرب مائه مرتبه من الشرف على هذه الجاهليه.

و الخلاصه: ماذا نقول عن وضع المفاسد التي توجد في عصرنا الحاضر.. عصر التمدّن المادّي الآلى الخالى من الإيمان، فعدم الحديث عنها أولى، و لا ينبغي أن نلوّث هذا التفسير بذكرها.

إنّ ما قلناه كان جانبا من العبء الملقى على عاتقنا لبيان حياه الذين يتعدون عن الله تعالى، فإنّهم و إن امتلكوا آلاف الجامعات و المراكز العلميه و العلماء المعروفين، فهم غارقون في و حل الفساد و مستنقع الرذيله، بل إنّهم قد يضعون هذه المراكز العلميه و علماءها في خدمه هذه الفجائع و المفاسد أحيانا.

اشاره

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

سبب النزول

أورد جمع من المفسرين فى سبب نزول هذه الآيه أنه عند ما رجعت «أسماء بنت عميس» زوجه «جعفر بن أبى طالب» من الحبشه مع زوجها، جاءت إلى زوجات النبى، فسألتهن: هل نزل فىنا شيء من القرآن؟ فقلن: لا، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت:

«يا رسول الله إن النساء لفى خيبه و خسار. فقال: و مم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال. فأنزل الله تعالى هذه الآيه (التي طمأنت النساء بأنّ

لهنّ درجه عند الله مساويه للرجال، و أكدت على أنّ المعيار هو العقيدة و العمل و الأخلاق الإسلاميه).

## التفسير

### اشاره

#### شخصيه المرأه و مكانتها في الإسلام:

بعد البحوث التي ذكرت في الآيات السابقه حول واجبات أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله، فقد ورد في هذه الآيه كلام جامع عميق المحتوى في شأن كلّ النساء و الرجال و صفاتهم، و بعد أن ذكرت عشر صفات من صفاتهم العقائديه و الأخلاقيه و العمليه، بينت الثواب العظيم المعدّ لهم في نهايتها.

إنّ بعض هذه الصفات العشر تتحدّث عن مراحل الإيمان (الإقرار باللسان، و التصديق بالقلب و الجنان، و العمل بالأركان).

و القسم الآخر يبحث في التحكّم باللسان و البطن و الشهوه الجنسيه، و التي تشكّل ثلاثه عوامل مصيريه في حياه البشر و أخلاقهم.

و تحدّثت في جانب آخر عن مسأله الدفاع عن المحرومين، و الاستقامه أمام الحوادث الصعبه، أي الصبر الذي هو أساس الإيمان.

و أخيرا تتحدّث عن عامل استمرار هذه الصفات، أي «ذكر الله تعالى».

تقول الآيه: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ. أي المطيعين لأوامر الله و المطيعات.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد اعتبر الإسلام و الإيمان في الآيه بمعنى واحد، إلا أنّ من الواضح أنّ هذا التكرار يوحي بأنّ المراد منهما شيان مختلفان، و هو إشاره إلى المطلب الذي ورد في الآيه (١٤) من سوره الحجرات: قَالَتِ الْمَأْخَرَاتُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ! و هو إشاره إلى أنّ «الإسلام» هو الإقرار باللسان الذي يجعل الإنسان في صفّ

المسلمين، و يصبح مشمولاً بأحكامهم، إلا أن «الإيمان» هو التصديق بالقلب و الجنان.

و قد أشارت الروايات الإسلامية إلى هذا التفاوت في المعنى،

ففي روايه أن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام سأله عن الإسلام و الإيمان، و هل أنّهما مختلفان؟ فقال الإمام عليه السّلام: «إنّ الإيمان يشارك الإسلام، و الإسلام لا يشارك الإيمان»، فاستوضح الرجل الإمام أكثر فقال عليه السّلام: «الإسلام شهادته أن لا إله إلا الله و التصديق برسول الله صلّى الله عليه و آله، به حقت الدماء، و عليه جرت المناكح و المواريث، و على ظاهره جماعه الناس، و الإيمان الهدى و ما يثبت في القلوب، و ما ظهر من العمل به» (١).

«قانت» من مادّه (القنوت)، و هي - كما قلنا سابقاً - الطاعة المقترنه بالخضوع، الطاعة التي تنبع من الإيمان و الاعتقاد، و هذه إشاره إلى الجوانب العمليه للإيمان و آثاره.

ثم تطرقت إلى أحد أهمّ صفات المؤمنين الحقيقيين، أي حفظ اللسان، فتقول:

وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقَاتِ

و يستفاد من الروايات أنّ استقامه إيمان الإنسان و صدقه باستقامه لسانه و صدقه:

«لا يستقيم إيمان امرئ حتّى يستقيم قلبه، و لا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه» (٢).

و لَمّا كان الصبر و التحمّل و الصلابه أمام المشاكل و العقبات هو أساس الإيمان، و دوره و منزلته في معنويات الإنسان بمنزله الرأس من الجسد، فقد وصفتهم الآية بصفتهم الخامسة، فقالت: وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ .

و نعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقيه هو الكبر و الغرور و حبّ الجاه، و النقطة التي تقع في مقابله هي «الخشوع»، لذلك كانت الصفه السادسة:

ص: ٢٥١

١- ١) اصول الكافي، المجلد الثاني، صفحه ٢١ باب أن الإيمان يشرك الإسلام.

٢- ٢) المحجّه البيضاء، المجلد ٥، ص ١٩٣.

و إذا تجاوزنا حَبَّ الجاه، فإنَّ حَبَّ المال أيضا آفه كبرى، و عبادته و التعلُّق به ذلُّه خطيره مرّه، و يقابله الإنفاق و مساعده المحتاجين، لذلك كانت صفتهم السابعة: وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقَاتِ .

قلنا: إنَّ ثلاثة أشياء إذا تخلَّص الإنسان من شرّها، فإنّه سيبقى فى مأمن من كثير من الآفات و الشرور الأخلاقية، و هى: اللسان و البطن و الشهوة الجنسية، و قد أشير إلى الأوّل فى الصفه الرابعه، أمّا الشىء الثانى و الثالث فقد أشارت إليهما الآيه فى الصفتين الثامنه و التاسعه، فقالت: وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ وَ الْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحَافِظَاتِ .

و أخيرا تطرقت الآيه إلى الصفه العاشره التى يرتبط بها الاستمرار فى كلّ الصفات السابقه و المحافظه عليها، فقالت: وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ .

أجل.. إنَّ هؤلاء يجب أن يكونوا مع الله و يذكروه فى كلّ حال، و فى كلّ الظروف، و أن يزيحوا عن قلوبهم حجب الغفله و الجهل، و يبعدون عن أنفسهم همزات الشياطين و وساوسهم، و إذا ما بدرت منهم عشره فإنّهم يهبون لجيرانها فى الحال لئلاّ يحيدوا عن الصراط المستقيم.

و قد ذكرت تفاسير مختلفه ل«الذكر الكثير» فى الرّوايات و كلمات المفسّرين، و كلّها من قبيل ذكر المصداق ظاهرا، و يشملها جميعا معنى الكلمه الواسع. و من جملتها ما نقرؤه

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى الله عليه و آله: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضّئا و صلّيا كتبا من الذاكرين الله كثيرا و الذاكرات» (١).

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من بات على تسبيح فاطمه عليها السّلام كان من الذاكرين الله كثيرا و الذاكرات» (٢).

ص: ٢٥٢

١-١) تفسير مجمع البيان و تفسير القرطبي، ذيل الآيه مورد البحث.

٢-٢) مجمع البيان، ذيل الآيه مورد البحث.

و قال بعض المفسرين: إن «الذكر الكثير» هو الذكر حال القيام و القعود، و ذكر الله عند ما يأوى المرء إلى فراشه.

و على أى تقدير، فإنّ الذكر علامه الفكر، و الفكر مقدّمه للعمل، فليس الهدف هو الذكر الخالى من الفكر و العمل مطلقا.

ثمّ تبين الآيه فى النهايه الأجر الجزيل لهذه الفئة من الرجال و النساء الذين يتمتّعون بهذه الخصائص العشره بأنهم قد أعدّ الله لهم مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ غَسَلَ ذُنُوبَهُمُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي تَلَوُّثِ أَرْوَاحِهِمْ، بِمَاءِ الْمَغْفِرَةِ، ثُمَّ كَتَبَ لَهُمُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَقْدَارَهُ إِلَّا هُوَ.

و الواقع إنّ أحد هذين الأمرين يطرد كلّ المنغصات، و الآخر يجلب كلّ الخيرات.

إنّ التعبير ب«أجرا» دليل بنفسه على عظمته، و وصفه ب«العظيم» تأكيد على هذه العظمه، و كون هذه العظمه مطلقه دليل آخر على سعه أطرافها و تراميها، و من البديهي، أنّ الشئ الذى يعده الله عظيما يكون خارقا فى عظمته.

و ثمّه مسأله تستحقّ الانتباه، و هى أنّ جملة أعدّ قد وردت بصيغه الماضى، و هو بيان لحتميه هذا الأجر و الجزاء و عدم إمكان خلفه و عدم الوفاء به، أو أنّه إشارة إلى أنّ الجنّة و نعمها معدّه منذ الآن للمؤمنين.

**بحث**

**إشاره**

**مساواه الرجل و المرأه عند الله:**

يتصوّر البعض أحيانا أنّ الإسلام قد رجّح كفه شخصيه الرجال، و لا مكانه مهمّه للنساء فى برامج الإسلام، و ربّما كان منشأ هذا الاشتباه هو بعض الاختلافات الحقيقيه، و التى لكلّ منها فلسفه خاصّه.

ص: ٢٥٣



و مع غصّ النظر عن مثل هذه الاختلافات التي لها علاقه بالمكانات و المراكز الاجتماعيه و ظروفها الطبيعیه-فلا شكّ في عدم وجود أى فرق بين الرجل و المرأة في تعليمات الإسلام من الناحيه الإنسانيه و المقامات المعنويه، و الآيه المذكوره دليل واضح على هذه الحقيقه، لأنّها وضعت المرأة و الرجل في مرتبه واحده ككفتى ميزان لدى تبيانها خصائص المؤمنين، و أهمّ المسائل العقائديه و الأخلاقيه و العمليه، و وعدت الإثنين بمكافاه متكافئه و ثواب متساو بدون أى تفاوت و اختلاف.

و بتعبير آخر: لا- يمكن إنكار التفاوت الجسمى بين الرجل و المرأة، كما لا- يمكن إنكار التفاوت النفسى بينهما أيضا، و من البديهي أنّ هذا التفاوت ضرورى لإدامه نظام المجتمع الإنساني، كما أنّه يفرز آثارا و نتائج في بعض القوانين الحقوقيه للمرأة و الرجل، إلا أنّ الإسلام لم يطرح شخصيه المرأة الإنسانيه للمناقشه- كما فعل ذلك بعض القساوسه المسيحيين في القرون الماضيه- بأنّ المرأة هل هي إنسان في الواقع؟ و هل لها روح إنسانيه أم لا؟! و لم يكتف بذلك فحسب، بل أكّد على عدم الفرق بين الجنسين من ناحيه الروح الإنسانيه، و لذلك نقرأ في الآيه (٩٧) من سوره النحل مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

لقد أقرّ الإسلام للمرأة نفس الاستقلال الاقتصادي الذي أقرّه للرجل، على عكس كثير من قوانين العالم السابقه، بل و حتّى قوانين عالم اليوم التي لم تبح للمرأة الاستقلال الاقتصادي مطلقا.

من هنا، فإننا نلاحظ في علم الرجال الإسلامى جانبا خاصا يتعلّق بالنساء العالمات اللواتى كنّ في مصافّ الرواه و الفقهاء، و قد ذكرن كشخصيات مؤثره و فاعله في التاريخ الإسلامى.

و إذا رجعنا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، وحققنا في وضع النساء في ذلك المجتمع، و رأينا كيف أنهنَّ كنَّ محرومات من أبسط حقوق الإنسان، بل لم يكن المشركون يعتقدون بأنَّ لهنَّ حقَّ الحياه أحيانا، و لذلك كانوا يئذونهنَّ و هنَّ أحياء بعد ولادتهنَّ!! و كذلك إذا نظرنا إلى وضع المرأة في عالمنا المعاصر حيث أصبحت العوبه لا- إختيار لها و لا- إرادته في أيدي مجموعه من المتلبسين بلباس الإنسانيه و يدعون التمدن، فسوف ندرك جيدا بأنَّ الإسلام قد خدم المرأة أيما خدمه، و له حقَّ عظيم عليهنَّ (١)؟!

ص: ٢٥٥

---

١-١) كان لنا بحث آخر في هذا المجال في ذيل الآيه (٢٢٨) من سوره البقره، و كذلك ورد بحث آخر في ذيل الآيه (٩٧) من سوره النحل.

إشارة

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا (٣٨)

سبب النزول

نزلت هذه الآيات -على قول أغلب المفسرين- في قضيه زواج «زينب بنت جحش» -بنت عمه الرسول الأكرم- بزید بن حارثه مولى النبي صلى الله عليه وآله المعتمق، و كانت القصه كما يلي:

كانت خديجه قد اشترت قبل البعثة و بعد زواجها بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُبْتَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَعْتَقَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا طَرَدَتْهُ عَشِيرَتُهُ وَتَبَرَّأَتْ مِنْهُ تَبَنَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

و بعد ظهور الإسلام أصبح زيد مسلماً مخلصاً متفانياً، و أصبح له موقع ممتاز في الإسلام، و كما نعلم فإنه أصبح في النهاية أحد قوَّاد جيش الإسلام في معركة مؤتة و استشهد فيها.

و عند ما صمَّم النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى أَنْ يَنْتَخِبَ زَوْجَهُ لَزَيْدٍ، خَطَبَ لَهُ «زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ» -و التي كانت بنت «أُمِّيَّةِ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ»، أَيْ بِنْتُ عَمَّتِهِ- فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَظُنُّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَرِيدُ أَنْ يَخْطُبَهَا لِنَفْسِهِ، فَسَرَّتْ وَرَضِيَتْ، وَ لَكِنَّهَا لَمَّا عَلِمَتْ فِيمَا بَعْدَ أَنْ خَطَبَتْهُ كَانَتْ لَزَيْدٍ تَأَثَّرَتْ تَأَثُّراً شَدِيداً وَامْتَنَعَتْ، وَ كَذَلِكَ خَالَفَ أُخُوها عَبْدِ اللهِ هَذِهِ الخُطْبَةَ أَشَدَّ مَخَالَفَةً.

هنا نزلت الآيه الاولى من الآيات مورد البحث و حدّرت زينب و عبد الله و أمثالهما بأنهم لا يقدرّون على مخالفه أمر يراه الله و رسوله ضرورياً، فلما سمعا ذلك سلّما لأمر الله.

إنّ هذا الزواج لم يكن زواجا بسيطا- كما سنرى ذلك- بل كان مقدّمه لتحطيم سنّه جاهليه مغلوطة، حيث لم تكن أيه امرأه لها مكانتها و شخصيتها في المجتمع مستعدّه للاقتران بعد في زمن الجاهليه، حتّى و إن كان متمتعا بقيم إنسانيه عاليه.

غير أنّ هذا الزواج لم يدم طويلا، بل انتهى إلى الطلاق نتيجة عدم الانسجام و اختلاف أخلاق الزوجين، بالرغم من أنّ النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ مَصْرّاً عَلَى أَنْ لَا يَتِمَّ هَذَا الطَّلَاقِ.

بعد ذلك اتّخذ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَمْرِ اللهِ «زَيْنَبُ» زَوْجَهُ لَهُ لَتَعْوُضَ بِذَلِكَ فَشَلَهَا فِي زَوَاجِهَا، فَانْتَهَتْ الْمَسْأَلَةُ هُنَا، إِلَّا أَنَّ مَهْمَمَاتٍ وَ أَقَاوِيلَ قَدْ ظَهَرَتْ بَيْنَ النَّاسِ، وَ قَدْ اقْتَلَعَهَا الْقُرْآنُ وَ عَالَجَهَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي نَبَحْثُهَا، وَ سَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ، إِنَّ

تمرد عظيم على العرف:

نعلم أنّ روح الإسلام التسليم، و يجب أن يكون تسليمًا لأمر الله تعالى بدون قيد أو شرط، و قد ورد هذا المعنى في آيات مختلفة من القرآن الكريم، و بعبارات مختلفة، و من جملتها الآيه أعلاه، و التي تقول: **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعًا لإرادة الله تعالى، كما أنّ كلّ وجودهم من الشعر حتّى أخمص القدمين مرتبط به و مدعن له.

(قضى) هنا تعنى القضاء التشريعى، و القانون و الأمر و الحكم و القضاء، و من البديهي أنّ الله تعالى غنى عن طاعه الناس و تسليمهم، و لم يكن النبى صلّى الله عليه و آله ينظر بعين الطمع لهذه الطاعه، بل هى فى الحقيقه لمصلحتهم و منفعتهم، فإنهم قد يجهلونها لكون علمهم و آفاتهم محدوده، إلا أنّ الله تعالى يعلمها فيأمر نبيه بإبلاغها.

إنّ هذه الحاله تشبه تماما حاله الطبيب الماهر الذى يقول للمريض: إننى أبدا بعلاجك إذا أذعنت لأوامرى تماما، و لم تبد أى مخالفه تجاهها، و هذه الكلمات تبين غايه حرص الطبيب على علاج مريضه، و الله تعالى أسمى و أرحم بعباده من مثل هذا الطبيب، و لذلك أشارت الآيه إلى هذه المسأله فى نهايتها، حيث تقول:

**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا**

فسوف يضلّ طريق السعاده، و يسلك طريق الضلال و الضياع، لأنّه لم يعبأ بأمر

رَبِّ الْكُونِ الرَّحِيمِ، و بِأَمْرِ رَسُولِهِ، ذَلِكَ الْأَمْرُ الضَّامِنُ لْخَيْرِهِ وَ سَعَادَتِهِ، وَ أَيُّهُ ضَالَالَهُ أَوْ ضَحَّ مِنْ هَذِهِ؟! ثُمَّ تَنَاوَلْتَ الْآيَةَ التَّالِيَةَ قِصَّةَ «زَيْدٍ» وَ زَوْجَتِهِ «زَيْنَبَ» الْمَعْرُوفَةَ، وَ الَّتِي هِيَ إِحْدَى الْمَسَائِلِ الْحَسَّاسَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، وَ لَهَا ارْتِبَاطٌ بِمَسْأَلَةِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ الَّتِي مَرَّتْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، فَتَقُولُ: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ .

وَ الْمُرَادُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ نِعْمَةُ الْهُدَايَةِ وَ الْإِيمَانِ الَّتِي مَنَحَهَا لَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَ مِنْ نِعْمَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أَعْتَقَهُ وَ كَانَ يِعَامِلُهُ كَوَلَدِهِ الْحَبِيبِ الْعَزِيزِ .

وَ يَسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ شَجَارًا قَدْ وَقَعَ بَيْنَ زَيْدٍ وَ زَيْنَبَ، وَ قَدْ اسْتَمَرَّ هَذَا الشَّجَارُ حَتَّى بَلَغَ أَعْتَابَ الطَّلَاقِ، وَ بِمُلَاحَظَةِ جَمَلِهِ تَقُولُ حَيْثُ إِنَّ فِعْلَهَا مُضَارِعٌ، يَسْتَفَادُ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَنْصَحُهُ دَائِمًا وَ يَمْنَعُهُ مِنَ الطَّلَاقِ .

هَلْ أَنَّ هَذَا الشَّجَارَ كَانَ نَتِيجَةَ عَدَمِ تَكَافُؤِ الْحَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ بَيْنَ زَيْنَبَ وَ زَيْدٍ، حَيْثُ كَانَتْ مِنْ قَبِيلِهِ مَعْرُوفَةً، وَ كَانَ هُوَ عَبْدًا مَعْتَقًا؟ أَمْ كَانَ نَاتِجًا عَنْ بَعْضِ الْخَشُونَةِ فِي أَخْلَاقِ زَيْدٍ؟ أَوْ لَا هَذَا وَ لَا ذَاكَ، بَلْ لِعَدَمِ وَجُودِ انْسِجَامِ رُوحِي وَ أَخْلَاقِي بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ شَخْصَانِ جَيِّدِينَ، إِلَّا أَنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ مِنْ نَاحِيَةِ السَّلُوكِ وَ الْفِكْرِ وَ الطَّبَاعِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَسْتَمِرَّا فِي حَيَاةٍ مَشْتَرَكَةٍ؟ وَ مَهْمَا يَكُنِ الْأَمْرُ فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ إِلَى هُنَا لَيْسَتْ بِذَلِكَ التَّعْقِيدِ .

ثُمَّ تَضِيفُ الْآيَةَ: وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ .

لَقَدْ أَسْهَبَ الْمَفْسِّرُونَ هُنَا فِي الْكَلَامِ، وَ كَانَ تَسَامُحٌ بَعْضُهُمْ فِي التَّعْبِيرَاتِ قَدْ مَنَحَ الْأَعْدَاءَ حَرْبَهُ لِلطَّعْنِ، فِي حِينٍ يَفْهَمُ مِنَ الْقِرَائِنِ الْمَوْجُودَةِ فِي نَفْسِ الْآيَةِ، وَ سَبَبِ نَزُولِ الْآيَاتِ، وَ التَّأْرِيخِ، أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ لَيْسَ مَطْلَبًا وَ مَبْحَثًا مَعْقِدًا، وَ ذَلِكَ:

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَ قَدِ قَرَّرَ أَنْ يَتَّخِذَ «زَيْنَبَ» زَوْجَةً لَهُ إِذَا مَا فَشَلَ الصَّلْحُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَوَصَلَ أَمْرُهُمْ إِلَى الطَّلَاقِ لِجِبْرَانِ هَذِهِ النِّكْسَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِإِبْنِهِ عَمَّتَهُ زَيْنَبُ مِنْ جِزَاءِ طَلَاقِهَا مِنْ عَبْدِهِ الْمُعْتَقِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَلْقًا وَخَائِفًا مِنْ أَنْ يَعِيبَهُ النَّاسُ وَ يَثِيرَ مُخَالَفِيهِ ضِجَّةً وَ ضَوْضَاءً، مِنْ جِهَتَيْنِ:

الأولى: أَنَّ زَيْدًا كَانَ ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالتَّبْنِيِّ، وَكَانَ الْإِبْنُ الْمُتَبْنَى -طَبَقًا لِسُنَّةِ جَاهِلِيَّةِ- يَتَمَتَّعُ بِكُلِّ أَحْكَامِ الْإِبْنِ الْحَقِيقِيِّ، وَ مِنْ جَمَلَتِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ حُرْمَةَ الزَّوْاجِ مِنْ زَوْجَةِ الْإِبْنِ الْمُتَبْنَى الْمُطْلَقَةِ.

والأخرى: هِيَ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ مُطْلَقَهُ عَبْدَهُ الْمُعْتَقَ وَ هُوَ فِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَ الْمَكَانَةِ السَّامِيَةِ؟ وَ يَظْهَرُ مِنْ بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ صَمَّمَ عَلَى أَنْ يَقْدَمَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ رَغْمَ كُلِّ الْمَلَابَسَاتِ وَ الظُّرُوفِ، وَ فِي الْجِزَاءِ التَّالِيِ مِنَ الْآيَةِ قَرِينَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى.

بناءً عَلَى هَذَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ كَانَتْ مَسْأَلَةً أَخْلَاقِيَّةً وَ إِنْسَانِيَّةً، وَ كَذَلِكَ كَانَتْ وَسِيلَةً مُؤَثِّرَةً لِكَسْرِ سُنَّتَيْنِ جَاهِلِيَّتَيْنِ خَاطِئَتَيْنِ، وَ هُمَا: الْإِقْتِرَانُ بِمُطْلَقَةِ الْإِبْنِ الْمُتَبْنَى، وَ الزَّوْاجُ مِنْ مُطْلَقِهِ عَبْدٍ مُعْتَقٍ.

مِنَ الْمُسْلِمِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخَافَ النَّاسَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَ لَا يَدْعُ لِلضَّعْفِ وَ التَّرْزُلِ وَ الْخَشْيَةِ مِنْ تَأْلِيْبِ الْأَعْدَاءِ وَ شَايِعَاتِهِمْ إِلَى نَفْسِهِ سَبِيلًا، إِلَّا أَنَّ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَبْتَلِيَ الْإِنْسَانَ بِالْخَوْفِ وَ التَّرَدُّدِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، خَاصَّةً وَ أَنَّ أَسَاسَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَانَ إِخْتِيَارَ الزَّوْجَةِ، وَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَوْثَّرَ هَذِهِ الْأَقْوَايِلُ وَ الضَّجِيجُ عَلَى انْتِشَارِ أَهْدَافِهِ الْمُقَدَّسَةِ وَ تَوْسُّعِ الْإِسْلَامِ، وَ بِالتَّالِيِ سَتَوْثَّرَ عَلَى ضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ، وَ تَغْرَسَ فِي قُلُوبِهِمُ الشُّكَّ وَ التَّرَدُّدَ.

لِهَذَا تَقُولُ الْآيَةُ فِي مَتَابَعَةِ الْمَسْأَلَةِ: إِنَّ زَيْدًا لَمَّا أَنْهَى حَاجَتَهُ مِنْهَا وَ طَلَّقَهَا زَوْجَتَهَا لَكَ: فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوْجَتَهَا لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعِيَانِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا

و كان لا بد أن يتم هذا الأمر و كان أمر الله مفعولاً .

«الأدعياء» جمع «دعى»، أى الابن المتبنى، و«الوطر» هو الحاجه المهمه، و إختيار هذا التعبير فى مورد طلاق زينب للطف البيان، لثلاً يصرح بالطلاق الذى يعد عيباً للنساء، بل و حتى للرجال، فكأن كلاً من هذين الشخصين كان محتاجاً للآخر ليحيا حياه مشتركه لمدّه معينه، و افتراقهما كان نتيجة لانتفاء هذه الحاجه و نهايتها.

و التعبير ب زَوْجَانِهَا دليل على أن هذا الزواج كان زوجاً بأمر الله، و لذلك ورد فى التواريخ أن زينب كانت تفتخر بهذا الأمر على سائر زوجات النبى صلى الله عليه و آله، و كانت تقول: زَوْجَكُنْ أَهْلُوكُنْ و زَوْجِنِى اللهُ مِنَ السَّمَاءِ (١).

و مما يستحق الانتباه أن القرآن الكريم يبين بمنتهى الصراحه الهدف الأصلى من هذا الزواج، و هو إلغاء سنّه جاهليه كانت تقضى بمنع الزواج من مطلقات الأدعياء، و هذا بنفسه إشاره إلى مسأله كليّه، و هى أن تعدد زواج النبى صلى الله عليه و آله لم يكن أمراً عادياً بسيطاً، بل كان يرمى إلى أهداف كان لها أثرها فى مصير دينه.

و جملة كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا إشاره إلى وجوب الحزم فى مثل هذه المسائل، و كل عمل ينبغى فعله يجب أن ينجز و يتحقق، حيث لا معنى للاستسلام أمام الضجيج و الصخب فى المسائل التى تتعلق بالأهداف العامه و الأساسيه.

و يتضح من التفسير الواضح الذى أوردناه فى بحث الآيه أعلاه أن الادعاءات التى أراد الأعداء أو الجهلاء إسنادها لهذه الآيه لا أساس لها مطلقاً، و سنعطى فى بحث الملاحظات توضيحاً أكثر فى هذا الباب إن شاء الله تعالى.

و تقول الآيه الأخيره فى تكميل المباحث السابقه:

ص: ٢٤١

١- ١) الكامل لابن الأثير، المجلد ٢، ص ١٧٧. و مما يستحق الالتفات أن زواج النبى صلى الله عليه و آله من زينب قد تم فى السنه الخامسه للهجره، المصدر السابق.



مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ

فحيث يأمره الله سبحانه لا تجوز المداهنه فى مقابل أمره تعالى، و يجب تنفيذه بدون أى تردد.

إنَّ القاده الربانيين يجب أن لا يصغوا إلى كلام هذا و ذاك لدى تنفيذ الأوامر الإلهية، أو يراعوا الأجواء السياسيه و الآداب و الأعراف الخاطئه السائده فى المحيط، و ربّما كان هذا الأمر قد صدر لتمزيق هذه الأعراف المغلوطة، و لتحطيم البدع القبيحه.

إنَّ القاده الإلهيين يجب أن ينفذوا أمر الله بدون خوف من الملامه و العتاب و الضجّه و الغوغاء، و أن كونوا مصداق و لا يخافون لَوْمَةَ لِأَيْمٍ . (١)

إننا إذا أردنا أن نجلس و ننتظر رضا الجميع و سرورهم ثم ننفذ أمر الله سبحانه، فلنعلم أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه، لأن بعض الفئات لا ترضى حتى نستسلم لما تريد و تتبع دينها و فكرها، كما يقول القرآن الكريم ذلك: وَ لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . (٢)

و كذلك كان الأمر فى مورد الآيه التى نبحتها، لأنّ زواج النّبي صلّى الله عليه و آله من زينب كان يكتنفه فى أفكار الناس العامه إشكالان كما قلنا:

الأول: أنّ الزواج بمطلقه المدعى كان فى نظر أولئك كالزواج بزوجه الابن الحقيقى، و كانت هذه بدعه يجب أن تلغى.

و الآخر: أنّ زواج رجل مرموق له مكانته فى المجتمع كالنّبي صلّى الله عليه و آله من مطلقه غلام محرّر كان يعدّ عيبا و عارا، لأنّه يجعل النّبي و العبد فى مرتبه واحده، و هذه الثقافه الخاطئه كان يجب أن تفلح و تجتث من الجذور لتزرع مكانها القيم الإنسانيه، و كون الزوجين كفؤين لبعضهما إنّما يستقيم و يقاس على أساس الإسلام و الإيمان و التقوى و حسب.

ص: ٢٦٢

١- (١) المائده، ٥٤.

٢- (٢) البقره، ١٢٠.

و أساساً فإنّ مخالفه السنن و الأعراف، و اقتلاع الآداب و العادات الخرافيه و غير الإنسانيه يقترن عادة بالضجيج و الغوغاء و الصخب، و ينبغي أن لا يهتمّ الأنبياء بهذا الضجيج و الصخب مطلقاً، و لذلك تعقب الجمله التاليه فتقول: سُنَّهَ اللّٰهِ فِي الدِّينِ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ .

فلست الوحيد المبتلى بهذه المشكله، بل إنّ الأنبياء جميعاً كانوا يعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سنن مجتمعاتهم، و عند سعيهم لاجتثاث اصول الأعراف الفاسده منها.

و لم تكن المشكله الكبرى منحصره في محاربه هاتين السنتين الجاهليتين، بل إنّ هذا الزواج لما كان مرتبطاً بالنبي صلّى الله عليه و آله فإنّه يمكن أن يعطى الأعداء حربه اخرى ليعيبوا على النبي صلّى الله عليه و آله فعله، و يطعنوا في دينه، و سيأتي تفصيل ذلك.

و يقول الله سبحانه في نهايه الآيه تثبيتاً لاتباع الحزم في مثل هذه المسائل الأساسيه: وَ كَانَ أَمْرُ اللّٰهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا .

إنّ التعبير بـ قَدَرًا مَّقْدُورًا قد يكون إشاره إلى كون الأمر الإلهي حتمياً، و يمكن أن يكون دالاً على رعايه الحكمه و المصلحه فيه، إلا أنّ الأنسب في مورد الآيه أن يراد منه كلا المعنيين، أي أنّ أمر الله تعالى يصدر على أساس الحساب الدقيق و المصلحه، و كذلك لا بدّ من تنفيذه بدون استفهام أو تلكؤ.

و الطريف أنّنا نقرأ في التواريخ أنّ النبي صلّى الله عليه و آله قد أولم للناس و وليمه عامّه لم يكن لها نظير فيما سبق اقترانه بزوجاته (1)، فكأنّه أراد بهذا العمل أن يبيّن للناس أنّه غير قلق و لا خائف من السنن الخرافيه التي كانت سائده في تلك البيئه، بل إنّّه يفتخر بتنفيذ هذا الأمر الإلهي، إضافة إلى أنّه كان يطمح إلى أن يصل صوت إلغاء هذه السنّه الجاهليه إلى آذان جميع من في جزيره العرب عن هذا الطريق.

ص: ٢٦٣

١-١) يروى المفسّر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: فتروّجها رسول الله صلّى الله عليه و آله... و ما أولم على امرأه من نسائه ما أولم عليها، ذبح شاه، و أطعم الناس الخبز و اللحم حتّى امتدّ النهار. مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٦١.

## ١- أساطير كاذبه

مع أنّ القرآن الكريم كان غايه في الصراحه في قصّه زواج النّبي الأكرم صلّى الله عليه و آله من زينب، و في تبيان هذه المسأله، و الهدف من هذا الزواج، و أعلن أنّ الهدف هو محاربه سنّه جاهليه فيما يتعلّق بالزواج من مطلقه الابن المدّعى، إلاّ أنّها ظلّت مورد استغلال جمع من أعداء الإسلام، فحاولوا اختلاق قصّه غراميه منها ليشوّها بها صورته النّبي المقدّسه، و اتّخذوا من الأحاديث المشكوك فيها أو الموضوعه في هذا الباب آله و حربه يلوّحون بها.

و من جمله ذلك ما كتبه من أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله جاء إلى دار زيد ليسأل عن حاله، فما إن فتح الباب حتّى وقعت عينه على جمال زينب، فقال: «سبحان الله خالق النور! تبارك الله أحسن الخالقين» و اتّخذوا هذه الجملة دليلا على تعلّق النّبي صلّى الله عليه و آله بزینب.

في حين أنّ هناك دلائل واضحه-بغضّ النظر عن مسأله العصمه و النبوه- تكذّب هذه الأساطير:

الاولى: أنّ زينب كانت بنت عمّه النّبي صلّى الله عليه و آله، و قد تربّيا و كبرا معا في محيط عائلي تقريبا، و النّبي صلّى الله عليه و آله هو الذي خطبها بنفسه لزيد، و إذا كان لزينب ذلك الجمال الخارق، و على فرض أنّه استرعى انتباهه، فلم يكن جمالها أمرا خافيا عليه، و لم يكن زواجه منها قبل هذه الحادثه أمرا عسيرا، بل إنّ زينب لم تبد أي رغبه في الاقتران بزيد، بل أعلنت مخالفتها صراحه، و كانت ترجّح تماما أن تكون زوجه للنبي صلّى الله عليه و آله، بحيث أنّها سرّرت و فرحت عند ما ذهب النّبي صلّى الله عليه و آله لخطبتها ظلّنا منها بأنّ النّبي صلّى الله عليه و آله يخطبها لنفسه، إلاّ أنّها رضخت لأمر الله و رسوله بعد نزول هذه الآيه القرآنيه و تزوّجت زيدا.

مع هذه المقدمات هل يبقى مجال لهذا الوهم بأنّ النّبي صلّى الله عليه و آله لم يكن عالما بحال

زينب وجمالها؟ و أَى مجال لهذا الظنّ الخاطئ بأن يكون راغبا فى الزواج منها و لا يستطيع الإقدام عليه؟ و الثانى: أن زيدا عند ما كان يراجع النبى صلّى الله عليه و آله لطلاق زوجته زينب، كان النبى ينصحه مرارا بصرف النظر عن هذا الأمر، و هذا بنفسه شاهد آخر على بطلان هذه الادّعاءات و الأساطير.

و من جهه اخرى فإنّ القرآن الكريم قد أوضح الهدف من هذا الزواج بصراحه لئلا يبقى مجال لأقاويل اخرى.

و من جهه رابعه قرأنا فى الآيات المذكوره أعلاه أنّ الله تعالى يقول: قد كان فى حادثه زواج النبى بمطلّقه زيد أمر كان النبى يخشى الناس فيه، فى حين أنّ خشيته من الله أحقّ من الخشيه من الناس.

إنّ مسأله خشيه الله سبحانه توحى بأنّ هذا الزواج قد تمّ كتنفيذ لواجب شرعى، يجب عنده طرح كلّ الاعتبارات الشخصيه جانبا من أجل الله تعالى ليتحقّق هدف مقدّس من أهداف الرساله، حتّى و إن كان ثمن ذلك جراحات اللسان التى يلقاها جماعه المنافقين فى اتّهاماتهم للنبى، و كان هذا هو الثمن الباهض الذى دفعه النبى صلّى الله عليه و آله- و لا زال يدفعه إلى الآن- فى مقابل طاعه أمر الله سبحانه، و إلغاء عرف خاطئ و سنّه مبتدعه.

إلا أنّ هناك لحظات حرجه فى حياه القاده المخلصين تحتمّ عليهم أن يضخّوا و يعرّضوا أنفسهم فيها الاتّهام أمثال هؤلاء الأفراد ليتحقّق هدفهم! أجل.. لو كان النبى صلّى الله عليه و آله لم ير زينب من قبل مطلقا، و لم يكن يعرفها، و لم يكن لدى زينب الرغبه فى الاقتران به، و لم يكن زيد مستعدّا لطلاقها- و بغضّ النظر عن مسأله النبوه و العصمه- لكان هناك مجال لمثل هذه الأقاويل و التخريصات، لكن بملاحظه انتفاء كلّ هذه الظروف يتّضح كون هذه الأكاذيب مختلفه.

إضافه إلى أنّ تاريخ النبى صلّى الله عليه و آله لم يعكس أى دليل أو صورته تدلّ على وجود

رغبه خاصه لديه صلى الله عليه وآله في الزواج من زينب، بل هي كسائر الزوجات، بل ربما كانت أقل من بعض الزوجات من بعض الجهات، وهذا شاهد تاريخي آخر على نفى هذه الأساطير.

و نرى في نهايه المطاف ضروره الإشاره إلى احتمال أن يقول شخص: إن محاربه مثل هذه السنه الخاطئه واجب، و لكن أيه ضروره تدعو إلى أن يقتحم النبي صلى الله عليه وآله هذا الميدان بنفسه؟ فقد كان بإمكانه أن يطرح هذه المسأله و يبينها كقانون، و يرغب الآخرين في الزواج من مطلقه المتنبى.

غير أن مخالفه سنه جاهليه خاطئه -خاصه و أنها تتعلق بالزواج من أفرادهم دون شأن المقابل ظاهر- قد تكون غير مقبوله بالكلام و التقنين أحياناً، إذ يقول الناس: إذا كان هذا الأمر حسناً فلما ذا لم يفعله هو؟ لم لم يتزوج بمطلقه عبده المعتق و ابنه المتنبى؟ في مثل هذه الموارد ينهى الإقدام و الإجراء العملي كل هذه الأسئلة و الإشكالات، و عندها ستتكتفّر و تتلاشى تلك السنه الخاطئه. إضافه إلى أن هذا العمل كان بنفسه تضحيه و إيثاراً.

## ٢- روح الإسلام التسليم أمام الله

لا شك أن استقلال الإنسان الفكري و الروحي لا يسمح له أن يستسلم لأحد بدون قيد أو شرط، لأنه إنسان مثله، و من الممكن أن تكون له أخطاء و اشتباهات في المسائل.

أما إذا انتهت المسأله إلى الله العالم و الحكيم، و النبي الذي يتحدّث عنه و يسير بأمره، فإنّ عدم التسليم المطلق دليل على الضلال و الانحراف، حيث لا يوجد أدنى اشتباه في أوامره سبحانه. إضافه إلى أن أمره حافظ لمنافع الإنسان نفسه، و لا يعود شيء على ذاته المقدّسه، فهل يوجد إنسان عاقل يسحق مصالحه برجله

بعد تشخيص هذه الحقيقة؟ و مضافا إلى ذلك فإننا منه تعالى، و كل ما لدينا منه، و لا يمكن أن يكون لنا أمر و قرار إلا التسليم لإرادته و أمره، و لذلك ترى بين دفتي القرآن آيات كثيرة تشير إلى هذه المسألة:

فَمَرَّة تَقُول آيَه: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (١)

و تقول اخرى: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا . (٢)

و يقول القرآن في موضع آخر: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ . (٣)

إنَّ «الإسلام» أخذ من مادّه «التسليم»، و هو يشير إلى هذه الحقيقة، و بناء على هذا فإن كل إنسان يتمتع بروح الإسلام بمقدار تسليمه لله سبحانه.

ينقسم الناس عدّه أقسام من هذه الناحية: فقسم يسلمون لأمر الله في الموارد التي تنفعهم فقط، و هؤلاء في الحقيقة مشركون انتحلوا اسم الإسلام، و عملهم تجزئه لأحكام الله تعالى، فهم مصداق نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ فإيمانهم في الحقيقة إيمان بمصالحهم لا بالله تعالى.

و آخرون جعلوا إرادتهم تبعا لإرادة الله، و إذا تعارضت منافعهم الزائلة مع أمر الله سبحانه، فإنهم يعضون الطرف عنها و يسلمون لأمر الله، و هؤلاء هم المؤمنون و المسلمون الحقيقيون.

و القسم الثالث أسمى من هؤلاء، فهم لا يريدون إلا ما أراد الله، و ليس في

ص: ٢٦٧

١-١) النور، ٥١.

٢-٢) النساء، ٦٥.

٣-٣) النساء، ١٢٥.

قلوبهم إلا ما يشاءه سبحانه، فقد بلغوا مرتبه من التسامى لا يحبون معها إلا ما يحب الله، ولا يبغضون إلا ما أبغضه الله عزّ وجلّ.

هؤلاء هم الخاصّه و المخلصون و المقربون لديه، فقد صبغ التوحيد كلّ وجودهم، و غرقوا في حبّه، و فنوا في جماله (1).

ص: ٢٤٨

---

١-١) لقد أوردنا بحثاً آخر في هذا الباب في ذيل الآية (٦٥) من سورة النساء.

إشاره

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)

التفسير

إشاره

من هم المبلّغون الحقيقيون؟

تشير الآيه مورد البحث، ومناسبه للبحث الذي مرّ حول الأنبياء السابقين في آخر آيه من الآيات السابقة، إلى أحد أهم برامج الأنبياء العامه، فتقول: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ .

و كذلك الحال بالنسبه إليك، فينبغي أن لا تخش أحدا في تبليغ رسالات الله، و عند ما يأمرك الله سبحانه أن حطم سنّه جاهليه خاطئه في مسأله زواج مطلقه المتبني، و تزوج بزيب مطلقه زيد، فيجب أن لا تدع لأدنى قلق و خوف من قول هذا و ذاك في تأديه هذا التكليف إلى نفسك سييلا، فإنّ هذه سنّه جميع الأنبياء عليهم السلام.

إنّ عمل الأنبياء عليهم السلام في كثير من المراحل هو كسر مثل هذه السنن و الأعراف عاده، و لو أنّهم سمحوا لأقلّ خوف و تردّد أن ينفذ إلى نفوسهم فسوف يفشلون في



أداء رسالاتهم، فيجب على هذا أن يسيروا بحزم و ثبات، و يستوعبوا كلمات المسيئين الجارحه غير المترنه، و يستمرّوا في طريقهم دون أن يهتموا باصطناع الأجواء ضدّهم، و ضجيج العوام، و تأمر الفاسدين و المفسدين و تواطئهم، لأنّ كلّ الحسابات بيد الله سبحانه، و لذلك تقول الآيه فى النهايه: وَ كَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا .

إنّه يحسب إيثار الأنبياء و توضيحاتهم فى هذا الطريق و يجزيهم عليها، كما يحفظ كلمات الأعداء البذيئه و ثررتهم ليحاسبهم عليها و يجازيهم.

إنّ جملة: وَ كَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا دليل فى الحقيقه على أنّ القاده الإلهيين يجب أن لا يخشوا شيئاً أو أحداً فى إبلاغ الرسالات، لأنّ الله سبحانه هم المحصى لجهودهم، و هو المثيب عليها.

## ملاحظات

### اشاره

#### [١- المراد من «التبليغ»]

المراد من «التبليغ» هنا هو الإبلاغ و الإيصال، و عند ما يرتبط الأمر ب«رسالات الله» فإنه يعنى أن يعلم الأنبياء الناس ما علمهم الله عن طريق الوحي، و أن ينفذوه إلى القلوب عن طريق الاستدلال و الإنذار و التبشير و الموعظه و النصيحه.

#### [٢- المراد من «الخشيه»]

«الخشيه» تعنى الخوف المقترن بالتعظيم و الاحترام، و يختلف عن الخوف المجرد من هذه الخاصيه من هذه الجبهه. و قد تستعمل أحيانا بمعنى مطلق الخوف.

و قد ورد فى مؤلفات المحقّق «الطوسى» كلام فى الفرق بين هذين اللفظين، و هو فى الحقيقه يشير إلى المعنى العرفانى لا اللغوى، فإنه يقول: إنّ الخشيه و الخوف و إن كانا فى اللغه بمعنى واحد- أو يقربان من معنى واحد- إلا أنّ بينهما فرقا لدى أهل البصائر، و هو: إنّ «الخوف» يعنى القلق و الاضطراب الداخلى من العواقب التى ينتظرها الإنسان نتيجة ارتكابه المعاصى و الذنوب، أو تقصيره فى

الطاعة، وهذه الحالة تحصل لأغلب الناس و إن اختلفت درجاتها، أمّا أعلى مراتبها فلا تحصل إلا لفئه قليله منهم.

أمّا «الخشية» فهي الحالة التي تحصل للإنسان لدى إدراكه عظمه الله و هيئته، و الخوف من بقائه مبعدا عن أنوار فيضه، و هذه الحالة لا تحصل إلا لأولئك الذين وقفوا على عظمه ذاته المقدسه و جلال كبريائه، و تذوقوا طعم قربه، و لذلك عدّ القرآن هذه الحالة خاصه بعباد الله العلماء فقال: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (١)**.

### ٣- جواب عن سؤال؟

قد يقال: إن هذه الآيه تتناقض مع ما مرّ في الآيات السابقه، فهي تقول هنا: **إِنَّ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ لَا يَخْشُونَ إِلَّا اللَّهَ**، و لا يخشون أحدا غيره، إلاّ أنه قد ورد في الآيات السابقه: **و تُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ؟** إلا أن الإجابة على هذا السؤال تتضح بتأمل النقطتين التاليتين:

الاولى: أن النبي صلى الله عليه و آله إنما كان خائفا من عدم تحمّل عدد كبير من الناس لنقض هذه السنه، و من عدم استيعابهم للمسأله، و بذلك ستتزعزع أسس إيمانهم من هذه الجهه، و مثل هذه الخشيه ترجع في الحقيقه إلى خشيه الله سبحانه.

و الاخرى: أن الأنبياء لا يعيشون حاله الخوف و القلق من شخص ما في تبليغهم رسالات الله، أمّا في ما يتعلّق بأمر الحياه الشخصيه و الخاصه فلا مانع من أن يخافوا من أمر خطير كاتهام و طعن الناس، أو أن يكونوا كموسى عليه السلام إذ خاف حسب الطبيعه البشريه- عند ما ألقى العصا و تحوّلت إلى ثعبان عظيم، فإنّ مثل هذا الخوف و الاضطراب إذا لم يكن مفرطا لا يعدّ عيبا و نقصا، بل قد يواجه هذه

ص: ٢٧١

المسألة أشجع الناس أحيانا، إنما العيب و النقص هو الخوف من أداء التكليف الإلهي في الحياه الاجتماعيه.

#### ٤- هل كان الأنبياء يستعملون التقيّه؟

استفاد جماعه من هذه الآيه أنّ التقيّه حرام مطلقا للأنبياء في تبليغ الرساله، لأنّ القرآن يقول: **وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ** .

غير أنّه يجب الانتباه إلى أنّ للتقيّه أنواعا، و لم تنف الآيه في مورد دعوه الأنبياء و إبلاغ الرساله إلاّ- نوعا واحدا، و هو التقيّه خوفا، في حين أنّ للتقيّه أنواعا منها التقيّه مداراه و توريه.

و المراد من التقيّه المداراتيه أن يكتسم الإنسان عقيدته أحيانا لجلب محبه الطرف المقابل ليقوى على استمالتة للتعاون في الأهداف المشتركه.

و المراد من تقيّه«التوريه» و الإخفاء هو أنّه يجب أن تخفي المقدمات و الخطط للوصول إلى الهدف، فإنّها إن أفشيت و انتشرت بين الناس و أصبحت عليه، و أطلع العدو عليها فمن الممكن أن يقوم باجهاضها.

إنّ حياه الأنبياء- و خاصّه نبي الإسلام صلّى الله عليه و آله- مليئه بموارد التقيّه هذه، لأنّا نعلم أنّه صلّى الله عليه و آله كان كثيرا ما يخفي أهدافه و مقاصده عند ما كان يتوجّه إلى ميدان الحرب، و كان يرسم خططه الحربيه بخفاء تام، و كان يستخدم أسلوب الاستتار و التخفي- و الذي هو نوع من التقيّه- في جميع المراحل.

و كان يتّبع أحيانا أسلوب«المراحل»- و هو نوع من التقيّه- لبيان حكم ما، فمثلا نرى أنّ مسأله تحريم الربا أو شرب الخمر لم تبين في مرحله واحده، بل تمت في مراحل متعدده بأمر الله سبحانه، أي أنّها تبدأ من المراحل الأيسر و الأسهل حتّى تنتهي بالحكم النهائى الأساسى.

و على أيّه حال، فإنّ للتقيّه معنى واسعاً، و هو: (إخفاء الحقائق و الواقع للحفاظ

على الأهداف من التعرّض للخطر و الانهيار) وهذا الشيء متعارف بين عقلاء العالم، و القاده الربّانيون يفعلون ذلك في بعض المراحل للوصول إلى أهدافهم المقدّسه، كما نقرأ ذلك في قصّه «إبراهيم» عليه السّلام بطل التوحيد، حيث أخفى هدفه من البقاء في المدينة في اليوم الذي يخرج فيه عبده الأصنام خارج المدينة لإجراء مراسم العيد ليستغلّ فرصه مناسبه فينهال على الأصنام و يحطّمها.

و كذلك أخفى «مؤمن آل فرعون» إيمانه ليستطيع أن يعيّن موسى عليه السّلام في اللحظات الحساسه و ينقذه من القتل، و لهذا السبب ذكر القرآن له تسعه مواقف و صفات عظيمه.

و من هنا نعلم أنّ التقيّه خوفا فقط غير جائزه على الأنبياء، لا الأنواع الاخرى للتقيّه.

و بالرغم من أنّ الكلام في هذا الباب كثير، إلا أننا ننهي هذا البحث بحديث جامع غنيّ المحتوى

عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «التقيّه ديني و دين آبائي، و لا- دين لمن لا- تقيّه له، و التقيّه ترس الله في الأرض، لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل» (1).

و كان لنا بحث مفصّل حول التقيّه في ذيل الآيه (١٠٦) من سوره النحل.

## ٥- شرط الإنتصار في التبليغ:

إنّ الآيه المذكوره دليل واضح على أنّ الحزم و الإخلاص و عدم الخوف من أي أحد إلا الله تعالى، شرط أساسي في التقدّم و الرقي في مجال الإعلام و التبليغ.

الأشخاص الذين يراعون رغبات و ميول هذا و ذاك في مقابل أمر الله، و يوجهون الحقّ و العداله بما يناسب أهواءهم، سوف لا يحصلون على نتيجة

ص: ٢٧٣

---

١-١) مجمع البيان، المجلّد ٨، صفحہ ٥٢١ ذیل الآيه (٢٨) من سوره المؤمن.

مطلقاً، فلا نعمه أسمى من نعمه الهداياه، ولا خدمه أنفع من إهداء هذه النعمه للبشريه، و لذلك كان جزاء و ثواب هذا العمل أعظم من كل ثواب و عطاء، و من هنا نقرأ

فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «بعثنى رسول الله صلى الله عليه و آله إلى اليمن و قال لى: يا على لا تقاتلن أحدا حتى تدعوه، و أيم الله لئن يهدى الله على يدىك رجلاً خيراً مما طلعت الشمس و غربت» (١).

و لهذا السبب أيضاً يجب أن يستغنى المبلّغون الحقيقيون عن الناس، و لا يخافون أى مقام و منصب، فإنّ تلك الحاجه و الخوف ستر كان أثراً على أفكارهم و إرادتهم شاءوا أم أبوا.

إنّ المبلّغ الإلهى يفكر فقط - بمقتضى وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً - بأنّ محصى الأعمال و المحاسب عليها هو الله تعالى، و بيده جزاؤه و ثوابه، و هذا الوعى و العرفان هو الذى يمدّه و يعينه فى هذا الطريق الملىء بالعقبات.

ص: ٢٧٤

إشارة

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

التفسير

مسألة الخاتمية:

هذه الآية هي آخر ما بينه الله سبحانه فيما يتعلق بمسألة زواج النبي صلى الله عليه وآله بمطلقه زيد لكسر عرف جاهلي خاطيء، و هي جواب مختصر كآخر جواب يقال هنا، و تبين في نهايتها حقيقه مهمه اخرى- و هي مسألة الخاتمية-بمناسبه خاصه.

تقول أولاد: مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ لا زيد و لا غيره، و إذا ما أطلقوا عليه يو ما أنه «ابن محمد» فإنما هو مجرد عادة و عرف ليس إلا، و ما إن جاء الإسلام حتى اجتثت جذوره، و ليس هو رابطه طبيعیه عائليه.

طبعاً كان للنبي صلى الله عليه وآله أولاد حقيقيون، و أسماءهم «القاسم» و «الطيب» و «الطاهر» و «إبراهيم»، إلا- أنهم- طبقاً لنقل المؤرخين- جميعاً قد و دعوا هذه الدنيا و ارتحلوا عنها قبل البلوغ، و لذلك لم يطلق عليهم أنهم «رجال» (١).

ص: ٢٧٥

و الإمامان الحسن و الحسين عليهما السلام اللذان كانوا يسمونهم أولاد النبي رغم أنهما بلغا سنين متقدمه في العمر، إلا أنهما كانا لا يزالان صغيرين عند نزول هذه الآية.

بناء على هذا فإن جملة: **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ** و التي وردت بصيغه الماضى، كانت صادقه في حق الجميع قطعاً.

و إذا ما رأينا في بعض تعبيرات النبي صلى الله عليه و آله نفسه أنه يقول: «أنا و على أبوا هذه الامه» فمن المسلم أن المراد لم يكن الابوه النسبيه، بل الابوه الناشئه من التعليم و التربيه و القيادة و الإرشاد.

مع هذه الحال، فإن الزواج من مطلقه زيد-و الذي بين القرآن فلسفته بصراحه بأنه إلغاء للسنن الخاطئه-لم يكن شيئاً يبعث على البحث و الجدل بين هذا و ذاك، أو أنهم يريدون أن يتخذوه وسيله للوصول إلى نواياهم السيئه.

ثم تضيف: بأن علاقة النبي صلى الله عليه و آله معكم إنما هي من جهه الرساله و الخاتميه فقط **وَ لَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ** و بهذا قطع صدر الآيه الارتباط و العلاقه النسبيه بشكل تام و قطعى، و أثبت ذيلها العلاقه المعنويه الناشئه من الرساله و الخاتميه، و من هنا يتضح ترابط صدر الآيه و ذيلها.

هذا إضافه إلى أن الآيه تشير إلى حقيقه هي: أن علاقته معكم في الوقت نفسه أشدّ و أسمى من علاقته والد بولده، لأن علاقته علاقته الرسول بالامه، و يعلم أن سوف لا- يأتي رسول بعده، فكان يجب عليه أن يبين لهذه الامه و يطرح لها كل ما تحتاجه إلى يوم القيامه في منتهى الدقه و غايه الحرص عليها.

و لا- شك أن الله العليم الخبير قد وضع تحت تصرفه كل ما كان لازماً في هذا الباب، من الأصول و الفروع، و الكليات و الجزئيات في جميع المجالات، و لذلك يقول سبحانه في نهايه الآيه: **وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**.

و ينبغي الالتفات إلى أن كونه «خاتم الأنبياء» يعنى أيضا أنه خاتم المرسلين، و ما ألصقه بعض مبتدعى الأديان لخدش كونه مسأله الخاتميه بهذا المعنى، من أن

القرآن قد اعتبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ لَا خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، إِنَّمَا هُوَ اشْتِبَاهٌ كَبِيرٌ، لِأَنَّ مِنْ كَانَ خَاتَمًا لِلْأَنْبِيَاءِ يَكُونُ خَاتَمًا لِلرُّسُلِ بِطَرِيقٍ أَوْلَى، لِأَنَّ مَرَحَلَةَ «الرِّسَالَةِ» أَسْمَى مِنْ مَرَحَلَةِ «النَّبُوَّةِ» -تَأَمَّلُوا ذَلِكَ-.

إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَشْبَهُ تَمَامًا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ فَلَانًا لَيْسَ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ، فَمَنْ الْمُسْلِمُ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ سَوْفَ لَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي مَكَّةَ، أَمَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ فِي مَكَّةَ، فَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ آخَرَ مِنَ الْحِجَازِ.

بِنَاءٍ عَلَى هَذَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَوْ كَانَ قَدْ سَمِيَ النَّبِيُّ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، فَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ لَا يَكُونَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، أَمَّا وَقَدْ سَمَّاهُ «خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ» فَمَنْ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ خَاتَمَ الرُّسُلِ أَيْضًا، وَبِتَعْبِيرِ الْمَصْطَلِحَاتِ فَإِنَّ النِّسْبَةَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرُّسُولِ نَسْبَةُ الْعَمُومِ وَالْخُصُوصِ الْمَطْلُوقِ.

## بحوث

### إشارة

#### ١- ما هو الخاتم؟

«الخاتم» -على زنه حاتم- لدى أرباب اللغة: هو الشيء الذي تنهى به الأمور، وكذلك جاء بمعنى الشيء الذي تختم به الأوراق وما شابهها.

وكان هذا الأمر متداولًا فيما مضى -ولا يزال إلى اليوم- حينما يريدون إغلاق الرسالة أو غطاء الوعاء أو باب المنزل لئلا يفتحها أحد، فإنهم كانوا يضعون مادّة لاصقة على الباب أو القفل ويختمون عليها. ويكون هذا الخاتم من الصلابة بحيث إنه لا بدّ من كسره إذا ما أريد فتح الباب، وهذه المادّة التي توضع على مثل هذه الأشياء تسمى «خاتما».

ولما كانوا في السابق يستعملون لهذا الأمر الطين الصلب الذي يلصق، فإننا نقرأ



فى متون بعض كتب اللغة المعروفه أنّ معنى الخاتم هو «ما يوضع على الطينه» (١).

كلّ ذلك بسبب أنّ هذه الكلمه مأخوذه من مادّه «الختم» أى النهايه، ولما كان هذا العمل -أى الختم- يجرى فى الخاتمه و النهايه فقد اطلق عليه اسم الخاتم لذلك.

و إذا ما رأينا أنّ أحد معانى الخاتم هو الخاتم الذى يوضع فى اليد، فبسبب أنّهم كانوا يضعون إمضاءهم و توقيعهم على خواتيمهم و يختمون الرسائل بها، و لذلك فإنّ من جملة الأمور التى تذكر فى أحوال النّبي صلّى الله عليه و آله و أمّته الهدى عليهم السّلام و الشخصيات الاخرى هو نقش خاتمهم.

و

يروى «الكلىنى» -رحمه الله- فى الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال:

«إنّ خاتم رسول الله كان من فضّه نقشه محمّد رسول الله» (٢).

و جاء فى بعض التواريخ أنّ إحدى حوادث السنه السادسه للهجره أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله اختار لنفسه خاتما نقش فيها، و ذلك أنّهم أخبروه أنّ الملوک لا يقرءون الرسائل إذا لم تكن مختومه (٣).

و جاء فى كتاب «الطبقات»: أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله لثما صمّم أن ينشر دعوته فى الآفاق، و يكتب الرسائل إلى ملوک الأرض و سلاطينها أمر أن يصنعوا له خاتما كتب عليه (محمّد رسول الله) و كان يختم به رسائله (٤).

بهذا البيان يتّضح جيدا أنّ الخاتم و إن اطلق اليوم على خاتم الزينه أيضا، إلا أنّ أصله مأخوذ من الختم، أى النهايه، و كان يطلق ذلك اليوم على الخواتيم التى كانوا يختمون بها الرسائل.

ص: ٢٧٨

١-١) لسان العرب، و قاموس اللغة مادّه ختم: الخاتم ما يوضع على الطينه.

٢-٢) أورد هذا الخبر أيضا البيهقى فى سننه، المجلّد ١٠، ص ١٢٨.

٣-٣) سفينه البحار، المجلّد ١، صفحه ٣٨٦.

٤-٤) الطبقات الكبرى، المجلّد ١، صفحه ٢٥٨.

إضافه إلى أنّ هذه المادّه قد استعملت في القرآن في موارد متعدّده، وكلّها تعني الإنهاء أو الختم و الغلق، مثل: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ . (١)

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً

(٢)

و من هنا يعلم أنّ الذين شكّكوا في دلالة هذه الآية على كون نبي الإسلام صلّى الله عليه وآله خاتم الأنبياء، و انتهاء سلسله الأنبياء به، غير مطلعين على معنى هذه الكلمه تماما، أو أنّهم تظاهروا بعدم الإحاطه و الاطلاع عليها، و إلاّ فإنّ من له أدنى إحاطه بأداب العرب يعلم أنّ كلمه «خاتم النبيين» تدلّ على الخاتميّه.

و إذا قيل -عند ذاك- في تفسير هذه الآية غير هذا التفسير فإنّه تفسير متطفل غير متّزن، كأن نقول: إنّ نبي الإسلام كان خاتم الأنبياء، أى أنّه زينه الأنبياء، لأنّ الخاتم آله زينه للإنسان، و لا يمكن أن يوازي الإنسان في المرتبه مطلقا، و إذا فسّرنا الآية بهذا التفسير فسنكون قد حططنا من مقام النبي صلّى الله عليه وآله، و أنزلنا منزلته إلى أدنى المستويات، مع أنّه لا يناسب المعنى اللغوي، و لذلك فإنّ هذه الكلمه حيثما استعملت في القرآن الكريم في ثمانية موارد فإنّها أعطت معنى الإنهاء و الإغلاق.

## ٢- أدلّه كون نبي الإسلام خاتما للأنبياء:

بالرغم من أنّ الآية المذكوره كافيه لوحدها في إثبات هذا المطلب، إلاّ أنّ الدليل على كون نبي الإسلام صلّى الله عليه وآله خاتما للأنبياء لا ينحصر بها، فإنّ آيات اخرى في القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى، إضافة إلى الروايات الكثيره الوارده في هذا الباب:

فمن جملتها في الآية (١٩) من سوره الأنعام:

ص: ٢٧٩

١- ١) سوره يس، ٦٥.

٢- ٢) سوره البقره، ٧.

وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا لِهَذَا الْقُرْآنِ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ فَإِنَّ سَعَهُ مَفْهُومٌ تَعْبِيرٌ وَ مَنْ بَلَغَ تَوْضِيحٌ رِسَالَهُ الْقُرْآنِ وَ نَبِيَّ الْإِسْلَامِ الْعَالَمِيهِ مِنْ جِهَةٍ، وَ مَسْأَلَهُ الْخَاتَمِيهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

وَ هُنَاكَ آيَاتٌ أُخْرَى تَثْبِتُ عُمُومِيَةَ دَعْوِهِ نَبِيَّ الْإِسْلَامِ لِكُلِّ الْبَشَرِ، مِثْلُ: **بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** (١).

وَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا**. (٢)

وَ الْآيَةُ: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**. (٣)

إِنَّ مَلَاظَمَهُ سَعَهُ مَفْهُومِ «الْعَالَمِينَ» وَ «النَّاسِ» وَ «الْكَافَّةً» تَوْيِيدُ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا. إِضَافَةٌ إِلَى أَنْ إِجْمَاعَ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ جِهَةٍ، وَ كَوْنُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ضَرْوِيَّةً لِدَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَانِبٍ أُخْرٍ، وَ الرِّوَايَاتُ الْكَثِيرَةُ الْوَارِدَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ بَاقِي أُمَّتِهِ الْهَدَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ جَانِبٍ ثَالِثٍ تَوْضِيحٌ هَذَا الْمَطْلَبِ، وَ نَكْتَفِي هُنَا بِذِكْرِ بَعْضِهَا مِنْ بَابِ الشَّاهِدِ وَ الْمِثَالِ:

-١

وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ: «حَلَالِي حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ حَرَامِي حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٤).

إِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ مَبِينٌ لِاسْتِمْرَارِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ حَتَّى نَهَايَةِ الْعَالَمِ وَ فَنَائِهِ.

وَ

قَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ أحيانًا: «حَلَالٌ مُحَمَّدٌ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ حَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَكُونُ غَيْرَهُ، وَ لَا يَجِيءُ غَيْرُهُ» (٥).

٢- حَدِيثُ الْمَنْزَلَةِ الْمَعْرُوفِ، وَ الَّذِي وَرَدَ فِي مُخْتَلَفِ كُتُبِ الشَّيْخَةِ وَ السُّنَنِ، وَ هُوَ فِي شَأْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ بَقَائِهِ مَكَانَ النَّبِيِّ فِي الْمَدِينَةِ عِنْدَ مَا تَوَجَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ.

فَإِنَّهُ يَوْضِحُ مَسْأَلَةَ الْخَاتَمِيهِ تَمَامًا، لِأَنَّا نَقْرَأُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ قَالَ

ص: ٢٨٠

١-١ (١) سورة الفرقان-١.

٢-٢ (٢) سورة سبأ، ٢٨.

٣-٣ (٣) سورة الأعراف، ١٥٨.

٤-٤) بحار الأنوار، المجلد الثاني، صفحہ ٢٦٠ باب ٣١ حديث ١٧.

٥-٥) اصول الكافي، المجلد الأول، باب البدع و الرأي و المقاييس حديث ١٩.

لعلى عليه السّلام: «أنت منى بمنزله هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدى» (١).

٣- و ثمّه حديث مشهور أيضا، وقد روى في كثير من مصادر العامّة، وذلك

أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله قال: «مثلى و مثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه و أجمله، فجعل الناس يطيفون به يقولون ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة».

لقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم بعبارات مختلفه، و روى عن رواه عديدين، و قد وردت هذه الجملة «و أنا خاتم النبيين» في ذيل الحديث الآنف الذكر في أحد الموارد.

و نرى في نهايه حديث آخر: «جئت فختمت الأنبياء» (٢).

و قد ورد هذا الحديث أيضا في صحيح البخارى-كتاب المناقب-و مسند أحمد بن حنبل، و سنن الترمذى و النسائى و كتب اخرى، و هو من الأحاديث المعروفة و المشهوره جدّا، و قد أورده مفسّر و الفريقين كالطبرسى في مجمع البيان، و القرطبى في تفسيره، في ذيل الآيه مورد البحث.

٤- لقد ورد كون نبيّ الإسلام صلّى الله عليه و آله خاتما للنبيين صريحا في كثير من خطب نهج البلاغه، و من جمله ذلك ما نراه في الخطبه ١٧٣ في وصف نبيّ الإسلام صلّى الله عليه و آله، حيث يقول عليه السّلام: «أمين و حيه، و خاتم رسله، و بشير رحمته، و نذير نقمته».

و

جاء في الخطبه ١٣٣: «أرسله على حين فتره من الرسل، و تنازع من الألسن.

فققى به الرسل، و ختم به الوحي».

و

قال عليه السّلام في الخطبه الاولى من نهج البلاغه، بعد أن عدّد تعليمات الأنبياء

ص: ٢٨١

١- (١) روى هذا الحديث محبّ الدين الطبرى في ذخائر العقبى: ص ٧٩ طبعه مكتبه القدس، و ابن حجر في الصواعق المحرقة، ص ١٧٧ طبعه مكتبه القاهره، و في تاريخ بغداد، المجلّد ٧، ص ٤٥٢ طبعه السعاده، و كتب اخرى ككثير العمّال، و منتخب كنز العمال، و ينابيع المودّه. لمزيد الإيضاح حول حديث المنزله راجع هذا التفسير ذيل الآيه (١٤٤) من سوره الأعراف.

٢- (٢) صحيح مسلم، الجزء ٤، ص ١٧٩٠-١٧٩١ باب ذكر كونه صلّى الله عليه و آله خاتم النبيين من كتاب الفضائل.

الماضين: «إلى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول لإنجاز عده، وإتمام نبوته».

٥- وقد وردت مسأله الخاتميّه في ختام خطبه الوداع، تلك الخطبه التي ألقاها نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في آخر حجّه له، وفي آخر سنه من عمره المبارك، كوصيّه جامع له للناس، حيث

قال: «ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبي بعدى، ولا أمّه بعدكم» ثم رفع يديه إلى السماء حتّى بان بياض إبطيه، فقال: «اللهم اشهد أنّي قد بلغت» (١).

٦-

جاء في حديث آخر ورد في «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«إنّ الله ختم بنيّكم النبيّين فلا نبيّ بعده أبداً، وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبداً» (٢).

إنّ الأحاديث الواردة في هذا الباب كثيره جدّاً، بحيث جمع منها في كتاب (معالم النبوه) ١٣٥ حديثاً من كتب علماء الإسلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمّه الإسلام العظام (٣).

**٣- إجابته عن عدّه أسئلته:**

**إشاره**

**١- كيف تتناسب الخاتميّه مع سير الإنسان التكامليّ؟**

السؤال الأوّل الذي يطرح في هذا البحث هو: هل يمكن أن يتوقّف المجتمع الإنسانيّ؟ أ ترى يوجد لسير البشر التكامليّ حدّ محدود؟ أ لسنا نرى بأمّ أعيننا أنّ بشر اليوم قد وصلوا في العلم والثقافه إلى مرحله تفوّق مستوى سابقهم؟ فمع هذا الحال كيف يمكن أن يغلق سجل النبوه مطلقاً، فيحرم الإنسان من قياده أنبياء جدد في سيره التكامليّ؟ إنّ الإجابته عن هذا السؤال تتضح بالالتفات إلى مسأله واحده، وهي أنّ

ص: ٢٨٢

١- (١) بحار الأنوار، المجلّد ٢١، ص ٣٨١.

٢- (٢) اصول الكافي، المجلّد الأوّل.

٣- (٣) معالم النبوه. فصل نصوص كونه صلى الله عليه وآله خاتماً.

الإنسان يصل أحيانا إلى مرتبه من النضج الفكرى و الثقافى بحيث يكون قادرا على الاستمرار فى طريقه بالاستعانه المستمره بالأصول و التعليمات التى تركها له النبى الخاتم بصوره جامعه،دون أن يحتاج إلى شريعته جديده.

و هذا الأمر يشبه تماما أن يكون الإنسان محتاجا لمعلم جديد و مرتب آخر فى كل مرحله من مراحل الدراسه المختلفه،حتى يقضى المراحل المختلفه،أما إذا حصل على الدكتوراه،أو أصبح مجتهدا له رأيه فى العلم أو العلوم المختلفه فإنه لا يحتاج فى دراسته إلى أستاذ جديد،بل يباشر البحث و المطالعه و التحقيق استنادا إلى ما اكتسبه من الأساتذه السابقين،و خاصه استاذه الأخير.

و بتعبير آخر،فإنه يحلّ المشاكل و العقبات التى تعترضه بالاستعانه بتلك الأصول الكليه التى تعلّمها من استاذه الأخير، و بناء على هذا فلا حاجه لأن يظهر دين جديد على مرّ الزمان(تأملوا ذلك).

و بيان آخر،فإنّ كل واحد من الأنبياء السابقين قد مهّد جانبا من مسير التكامل ليكون الإنسان قادرا على سلوك هذا الطريق الصعب نحو التكامل و ينال الأهليه لاستقبال منهج كامل و جامع لهذا الطريق على يد آخر نبى أرسل من قبل الله تعالى.

من البديهي أنه مع استلام الخريطه الكامله و المخطّط الجامع سوف لا تكون هناك حاجه إلى مخطّط آخر،و هذا فى الحقيقه هو التعبير الذى ورد فى الزوايات الداله على كونه صلّى الله عليه و آله خاتما،و التى عدّت نبىّ الإسلام آخر لنبه،أو واضع آخر لنبه فى قصر الرساله البديع المحكم.و كلّ ذلك يؤكّد عدم الحاجه إلى دين جديد و شريعته مستحدثه.

أمّا فيما يتعلّق بمسأله القياده و الإمامه،و التى تعنى الإشراف التام على تنفيذ هذه الأصول،و الأخذ بأيدي الناس فى هذا الطريق،فهى مسأله اخرى لا يمكن أن يستغنى الإنسان عنها فى أى حين،و لذلك فإنّ ختام سلسله النبوه لا يعنى أبدا

نهاية سلسلة الإمامه، لأنّ «تبيين» و«توضيح» هذه الأصول و«تحققها في الخارج» لا يمكن أن يتمّ من دون الاستعانه بوجود قائد و إمام معصوم.

## ٢- كيف تتلاءم القوانين الثابتة مع الحاجات المتغيرة؟

بغض النظر عن مسأله السير التكاملي للبشر، فإنّ هناك سؤالاً آخر يطرح هنا، و هو: أنّنا نعلم أنّ مقتضيات الأزمنه و الأمكنه و متطلباتها متفاوتة، و بتعبير آخر فإنّ حاجات الإنسان في تغيّر مستمر، في حين أنّ للشريعه الخاتمه قوانين ثابتة، فهل تقوى هذه القوانين الثابتة على أن تؤمّن حاجات الإنسان المتغيّره على مدى الزمان؟ و يمكن الإجابة على هذا السؤال جيداً بملاحظه المسأله التاليه، و هي: أنّه لو كانت لكلّ قوانين الإسلام صفه الجزئيه، و أنّها قد عيّنت لكلّ موضوع حكماً جزئياً معيناً لكان هناك مجال لهذا السؤال، أمّا إذا عرفنا بأنّ في تعليمات الإسلام سلسله من الأصول الكليه الواسعه جدّاً، و التي تقدر على أن تطابق الحاجات المتغيّره و تؤمّنّها، فلا يبقى مجال لهذا الإشكال.

إنّنا نرى استحداث سلسله من الاتفاقيات الجديده و الروابط الحقوقيه بين البشر لم يكن لها وجود في عصر نزول القرآن بتاتاً، فمثلاً لم يكن في ذلك العصر شيء اسمه «الضمان» بفروعه المتعدّده (١)، و كذلك أنواع الشركات التي ظهرت في عصرنا و زماننا حسب الاحتياج اليومي، لكن يوجد لدينا في الإسلام أصل عامّ ورد في بدايه سوره «المائد» بعنوان «الزوم الوفاء بالعهد و العقد»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ وَ هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ احْتِوَاءِ كُلِّ هَذِهِ الْاِتِّفَاقِيَّاتِ.

و طبعا هناك قيود و شروط بصوره عامّه وضعت لهذا الأصل العامّ في الإسلام،

ص: ٢٨٤

---

١ - ١) طبعا يوجد في الإسلام موضوعات تشبه الضمان في حدود خاصّه، كمسأله ضمان الجريه، أو تعلق ديّه الخطأ المحض بالعاقله، إلا أنّ لها مجرد شبه بالمسأله كما قلنا.



يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار أيضا.

بناء على هذا فالقانون الكلى ثابت فى هذا الباب بالرغم من أن مصاديقه متغيره، فلا مانع من أن يظهر مصداق جديد له فى كل يوم.

و نضرب مثلا آخر، و هو: لدينا فى الإسلام قانون مسلم به، و هو قانون (لا ضرر) يمكن من خلاله تحديد أى حكم يكون منبعا و مصدرا للضرر و الخساره فى المجتمع، و عن هذا الطريق ترفع كثير من الاحتياجات. إضافة إلى أن مسائل «لزوم حفظ المجتمع»، و «وجوب مقدمه الواجب»، و «تقديم الأهم على المهم» يمكن أن تكون حلا للمشاكل فى كثير من الموارد.

و علاوه على كل ذلك فإنّ الصلاحيات التى تمنح للحكومته الإسلاميه عن طريق «ولايه الفقيه» تضع تحت تصرفها إمكانيات واسعه لحلّ المشاكل فى إطار اصول الإسلام العامه.

إنّ بيان كل واحد من هذه الأمور، مع الأخذ بنظر الاعتبار كون باب الاجتهاد- أى استنباط الأحكام الإلهيه من المصادر الإسلاميه- يحتاج إلى بحث واسع يبعدنا تناوله عن الموضوع و لكن مع ذلك فإنّ ما أوردناه هنا من باب الإشاره يمكن أن يكون جوابا للإشكال المذكور.

### ٣- كيف يحرم البشر من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الآخر هو: إنّ نزول الوحي و الاتّصال بعالم الغيب و ما وراء الطبيعه يعتبر نافذه أمل لكلّ المؤمنين الحقيقيين، إضافة إلى أنّه موهبه و فخر لعالم البشره، ألا يعتبر قطع طريق الاتّصال هذا، و غلق نافذه الأمل هذه حرمانا عظيما للبشر الذين يعيشون بعد وفاه خاتم الأنبياء؟ إنّ الإجابة على هذا السؤال تتضح بملاحظه النقطتين أدناه، و هما:

الاولى: إنّ الوحي و الارتباط بعالم الغيب وسيله لإدراك الحقائق و لما بينت كلّ

الاحتياجات و الحقائق إلى يوم القيامة فى الأصول العامه و التعليمات الجامعه التى وضعها خاتم النبیین، و لذلك فإن قطع طريق الاتصال هذا لا يوجد مشكله.

الثانيه: إن ما يقطع إلى الأبد بعد ختم النبوه هو الوحي لشريعته جديده، أو لتكميل شريعته سابقه، لا كل أنواع الاتصال بما وراء عالم الطبيعه، لأنّ للأئمه ارتباطا بعالم الغيب، و كذلك المؤمنون الحقيقيون الذين أزالوا الحجب عن قلوبهم و وصلوا إلى مقام المكاشفه و الشهاده نتيجة تهذيبهم أنفسهم.

يقول الفيلسوف الشهير «صدر المتألهين الشيرازى» فى مفاتيح الغيب:

«و اعلم، أنّ الوحي إذا انقطع، و باب رساله إذا انسدّ استغنى الناس عن الرسل و إظهار الدعوه بعد تصحيح الحجه و إكمال الدين، كما قال الله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و أمّا باب الإلهام فلا ينسدّ، و مدد نور الهدايه لا ينقطع لاحتياج الناس لاستغراقهم فى هذه الوسوس إلى التنبيه و التذكير، و الله تعالى غلق باب الوحي و فتح باب الإلهام رحمه منه على عباده» (1).

إنّ هذا الارتباط يتولّد عاده من سموّ النفس و ارتقاء الروح و تصفيتها و صفاء الباطن، و لا علاقه لها بمسأله النبوه و رساله، و بناء على هذا فمتى ما تحققت مقدماته و شروطه وجدت هذه الرابطه المعنويه، و بذلك فلم يكن أى بشر محروما من هذا الفيض العظيم، و لن يكون - تأملوا ذلك -.

ص: ٢٨٤

١- (١) مفاتيح الغيب، ص ٤١-٤٢.

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَيِّمُ عَلَىٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

التفسير

إشاره

تحية الله و الملائكة فرج للمؤمنين:

لما كان الكلام فى الآيات السابقه عن مسئوليات نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و واجباته الثقيله الملقاه على عاتقه، فإن الآيات مورد البحث تبين جانباً من وظائف المؤمنين من أجل تهيئه الأراضيه اللازمه لهذا التبليغ، و توسعه أطرافه فى جميع الأبعاد، فوجهت الخطاب إليهم جميعاً و قالت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَ نَزَّهوه صباحاً و مساءً وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

أجل.. لئلا كانت عوامل الغفله فى الحياه الماديه كثيره جداً، و سهام و سوسه الشياطين ترمى من كل جانب صوب الإنسان، فلا طريق لمحاربتها إلا بذكر الله الكثير.

إنّ «الذكر الكثير»-بالمعنى الواقعى للكلمه-يعنى التوجّه إلى الله سبحانه بكلّ الوجود، لا بقلقه اللسان و حسب.

«الذكر الكثير» هو الذى يقذف النور فى كلّ أعمال الإنسان، و يغمرها بالضياء، و لهذا فإنّ القرآن أمر كلّ المؤمنين فى هذه الآيه أن يذكروا الله على كلّ حال:

فاذكروه أثناء العباده، فاحضروا قلوبكم و أخلصوا فيها.

و اذكروه عند إقدامكم على المعصيه و تجنّبوها و إذا ما بدرت منكم عثره و هفوه فبادروا إلى التوبه، و ارجعوا إلى طريق الحقّ.

و اذكروه عند النعم و اشكروه عليها.

و اذكروه عند البلايا و المصائب و اصبروا عليها و تحمّلوها.

و الخلاصه: لا تنسوا ذكره فى كلّ مشهد من مشاهد الحياه و الابتعاد عن سخطه، و التقرب لما يجلب رضاه.

و نطالع

فى حديث مروى فى «سنن الترمذى» و «مسند أحمد» عن أبى سعيد الخدرى عن النبى الأكرم صلّى الله عليه و آله: أنّه سئل: أى العباد أفضل درجه عند الله يوم القيامه؟ فقال: «الذاكرون الله كثيرا».

قال أبو سعيد: فقلت: يا رسول الله، و من الغازى فى سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه فى الكفّار و المشركين حتّى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكرون أفضل درجه منه» (1)، و ذلك لأنّ الجهاد المخلص لا يمكن أن يتمّ بدون ذكر الله الكثير.

و من هنا يعلم أنّ للذكر الكثير معنى واسعاً، و إذا ما فسّر فى بعض الروايات بتسييح فاطمه عليها السلام- و هو ٣٤ مرّه (الله أكبر) و ٣٣ مرّه (الحمد لله) و ٣٣ مرّه (سبحان الله)- و فى كلمات بعض المفسّرين بذكر الصفات العليا و الأسماء الحسنى، و تنزيه الله سبحانه عمّا لا يليق به، فإنّ كلّ ذلك من باب ذكر المصداق الواضح، لا تحديد

ص: ٢٨٨

المعنى بخصوص هذه المصاديق.

و كما يظهر بوضوح من سياق الآيات، فإنَّ المراد من «تسبيح الله» في كلِّ غداه و عشى هو استمرار التسبيح، و ذكر هذين الوقتين بالخصوص باعتبارهما بدايه اليوم و نهايته، و ما فسّرهما به البعض من أنَّ المراد صلاتي الصبح و العصر، أو أمثال ذلك، فهو من قبيل ذكر المصداق أيضا.

لهذا فإنَّ ذكر الله الكثير، و تسبيحه بكره و أصيلا لا يحصل إلاَّ باستمرار التوجّه إلى الله، و تنزيهه عن كلِّ عيب و نقص، و تقديسه المتّصل، فذكر الله غذاء لروح الإنسان كما أنَّ الطعام و الشراب غذاء للبدن.

و جاء في الآية (٢٨) من سورة الرعد **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** و نتيجة هذا الاطمئنان القلبي هو ما ورد في الآيات ٢٧-٣٠ من سورة الفجر، حيث تقول:

**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي .**

و الآية التاليه بمثابة نتيجة و علّه غايته للتسبيح في الواقع، فهي تقول: **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** أى من ظلمات الشرك و الكفر و الجهل إلى نور الإيمان و العلم و التقوى و **كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** و بسبب هذه الرحمة كتب على نفسه هدايه البشر و إرشادهم، و أمر ملائكته أن تعينهم في ذلك.

«يصلّي» من ماده (صلاه) و هي هنا تعنى الرعايه و العنايه الخاصّه، و هذه العنايه بالنسبه لله تعنى نزول الرحمه، و بالنسبه للملائكه تعنى الاستغفار و طلب الرحمه، كما نقرأ ذلك في الآية (٧) من سورة غافر: **وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .**

و على أيّه حال، فإنَّ هذه الآية تتضمّن بشاره عظيمه للمؤمنين الذاكرين الله على الدوام، فهي تقول بصراحه: **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا وَحدهم في سيرهم إلى الله، بل إنهم -بمقتضى (يصلّي) و هو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار- يسرون في ظلّ**

رحمه الله و ملائكته، و فى ظلّ هذه الرحمه تراح حجب الظلمه، و يغمر قلوبهم و أرواحهم نور العلم و الحكمه و الإيمان و التقوى.

نعم.. إنّ هذه الآيه بشاره كبرى لكلّ سالكى طريق الحقّ بأنّ هناك جاذبيه قويه من جانب المعشوق تجذب العاشق إليها ليتهى سعى هذا العاشق الصبّ إلى نتيجه و لا- يذهب سدى! إنّ هذه الآيه ضمان لكلّ المجاهدين فى سبيل الله أن لا ينالهم قسم الشيطان على إغواء بنى آدم، لأنّهم فى زمّهم المخلصين المخلصين، و قد أظهر الشيطان عجزه عن إضلال هذه الزمره منذ الوهله الاولى فقال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (١)

إنّ جملة و كان بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا و بملاحظه أنّ (كان) فعل ماض يدلّ على أنّ الله كان رحيمًا بالمؤمنين رحمه خاصّه على الدوام، تأكيد مجدّد على ما جاء فى بدايه السوره.

أجل.. هذه هى رحمه الله الخاصّه التى تخرج المؤمنين من ظلمات الأوهام و الشهوات و الوسوس الشيطانيه، و تهديهم إلى نور اليقين و الاطمئنان و السيطرة على النفس، و لو لا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق الملىء بالمنعطفات و العراقيل لا يكون سالكا.

و تجسّد الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين و ثوابهم بأروع تجسيد و أقصر عباره، فنقول: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ .

«التحيّه» من مادّه «حياه»، و هى تعنى الدعاء لسلامه و حياه اخرى. و لمزيد التوضيح راجع التفسير الأمثل ذيل الآيه (٨٥) من سوره النساء.

هذا السّلام يعنى السلامه من العذاب، و من كلّ أنواع الألم و العذاب و المشقه،

ص: ٢٩٠

و مع أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ «تحيّتهم» إشارة إلى سلام المؤمنين و تحية بعضهم بعضاً، إلا أنّ ملاحظه الآيات السابقة التي كان الكلام فيها عن الصلاة و رحمه الله و الملائكة في هذه الدنيا، تظهر أنّ هذه التحية أيضاً من الملائكة في الآخرة، كما نقرأ ذلك في الآية (٢٣) من سورة الرعد: **و الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .**

مما قلناه اتّضح بصورة ضمنية أنّ المراد من جملة **يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ** هو يوم القيامة الذي سمى بيوم «لقاء الله»، و هذا التعبير يستعمل عادة في القرآن بهذا المعنى.

بعد هذه التحية، التي ترتبط ببداية الأمر، أشارت الآية إلى نهايته فقالت:

**وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا**

إنّها جملة جمع فيها كلّ شيء على اختصارها، و أخفيت فيها كلّ النعم و المواهب.

## بحوث

## إشارة

### ١- ذكر الله على كلّ حال:

عند ما يذكر اسم الله تعالى يتجلّى في قلب الإنسان عالم من العظمة و القدره و العلم و الحكمة، لأنّ له الأسماء الحسنی و الصفات العليا، و ربّ كلّ الكمالات، و منزّه عن كلّ عيب و نقص.

إنّ التوجّه المستمر لمثل هذه الحقيقة التي لها تلك الصفات، يسوق روح الإنسان إلى الخيرات و الأعمال الصالحة و الطهارات، و يبعده عن السيئات و القبائح، و بعبارة أخرى فإنّ نور صفاته عزّ و جلّ يتجلّى في روح الإنسان.

إنّ التوجّه إلى هكذا معبود عظيم يبعث على الإحساس الدائم بحضوره بين

يديه تعالى، وهذا الإحساس يؤدى إلى زياده الفاصله كثيرا بين الإنسان و بين الذنب و المعصيه.

ذكر الله يعنى تذكر مراقبته..ذكر حسابه و جزائه..ذكر محكمته العادله..نعيمه و جعيمه..و هذا هو الذكر الذى يصفى الروح،و يغمر القلب نورا و حيويه.

لهذا ورد فى الروايات الإسلاميه أن لكل شىء حدا، إلا ذكر الله فإنه لا حد له!

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى الروايه التى وردت فى اصول الكافى: «ما من شىء إلا و له حد ينتهى إليه، إلا الذكر فليس له حد ينتهى إليه».

ثم يضيف: «فرض الله عزّ و جلّ الفرائض، فمن أداهنّ فهو حدّهنّ، و شهر رمضان فمن صامه فهو، و الحجّ فمن حجّ حدّه، إلا الذكر، فإنّ الله عزّ و جلّ لم يرض منه بالقليل، و لم يجعل له حدّا ينتهى إليه، ثمّ تلا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (١) .

و

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى ذيل هذه الروايه، «و كان أبى كثير الذكر، لقد كنت أمشى معه و إنّه ليذكر الله، و آكل معه الطعام و إنّه ليذكر الله، و لقد كان يحدث القوم و ما يشغله ذلك عن ذكر الله».

و أخيرا ينتهى هذا الحديث الغنى المحتوى بهذه الجملة:

«و البيت الذى يقرأ فيه القرآن، و يذكر الله عزّ و جلّ فيه تكثر بركته، و تحضره الملائكه، و تهجره الشياطين، و يضىء لأهل السماء كما يضىء الكوكب الدرّى لأهل الأرض» (٢).

إنّ هذا الموضوع من الأهميه بمكان بحيث عدّ «ذكر الله» فى حديث يعدل خير الدنيا و الآخره،

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «من أعطى لسانا ذاكرا فقد أعطى خير الدنيا و الآخره» (٣).

ص: ٢٩٢

١- ١) الكافى، المجلد الثانى، كتاب الدعاء. باب ذكر الله عزّ و جلّ كثيرا.

٢- ٢) المصدر السابق.

٣- ٣) - المصدر السابق.



و الروايات الواردة في أهميته «ذكر الله» تبلغ من الكثرة حدًا بحيث أننا لو أردنا إيرادها جميعا هنا لخرجنا عن وضع الكتاب وحدّه، و لذلك نختم هذا الحديث بحديث آخر قصير عميق المعنى

عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث يقول: «من أكثر ذكر الله عزّ و جلّ أظله الله في جنّته» (١).

و لمزيد الاطلاع في هذا المجال يراجع المجلّد الثّاني من اصول الكافي - الأبواب التي تتعلّق بذكر الله، و خاصّه الأبواب التي تقول: إنّ الآفات و البلايا و المصائب لا تحيط بمن يذكر الله.

و هناك مطلب ينبغي التأكيد عليه، و هو أنّ كلّ هذه البركات و الخيرات لا ترتبط قطعاً بالذكر اللفظي و حركة اللسان الخاليه من الفكر و العمل، بل الهدف هو الذكر الذي يكون مصدراً و منبعاً للفكر.. ذلك الفكر الذي يتجلّى نوره في أعمال الإنسان، كما صرّحت الروايات بهذا المعنى (٢).

## ٢- توضيح حول «لقاء الله»:

قلنا: إنّ هذا التعبير في القرآن المجيد يشير إلى القيامه عاده، و لما كان اللقاء الحسي لا يصدق في شأن الله، إذ ليس هو بجسم، و ليس له العوارض الجسميه، و لذلك اضطر بعض المفسّرين إلى تقدير شيء هنا، فقالوا: إنّ المراد هو «لقاء ثواب الله»، أو «لقاء ملائكه الله».

غير أنّ «اللقاء» يمكن أن يؤخذ هنا بمعنى اللقاء الحقيقي بعين القلب، حيث أنّ الحجب تزال في القيامه و تتجلّى عظمه الله و آياته أكثر من أيّ وقت مضى، و يصل الإنسان إلى مقام المشاهده الباطنيه و الرؤيه القلبيه، و ينال كلّ شخص من هذه المشاهده مرتبه تتناسب مع مقدار معرفته و عمله الصالح.

ص: ٢٩٣

١-١) المصدر السابق.

٢-٢) خصال الصدوق، طبقاً لنقل تفسير الميزان، المجلّد ١٦، صفحته ٣٥٣.

و للفخر الرازى فى تفسيره هنا بيان جميل يمكن جمعه مع ما قلناه، فهو يقول:

إنّ الإنسان يغفل فى هذه الدنيا عن الله غالباً نتيجة لغرقه فى الأمور الماديه، و السعى لتحصيل المعاش، إلاّ أنّه يتوجّه يوم القيامة بكلّ وجوده إلى ربّ العالمين، لأنّ كلّ هذه المشاغل الفكرية ستزول، و هذا هو معنى لقاء الله (1).

ثمّ إنّّه اتّضح ممّا قلناه أنّ قول بعض المفسّرين بأنّ هذا التعبير إشارة إلى لحظه الموت و اللقاء بملك الموت لا يناسب الآيات مورد البحث، و لا- التعبيرات المشابهه الوارده فى آيات القرآن الاخرى، و خاصّه و أنّ ضمير المفعول الذى فى جملة «يلقونه» جاء بصيغه المفرد، و هو إشارة إلى ذات الله المقدّسه فى حين أنّ الملائكه التى تقبض الأرواح جمع، و جاءت كلمه «الملائكه» بصيغه الجمع فى الآيه السابقه أيضاً (إلاّ اللهمّ أن تقدّر كلمه ما).

### ٣- أجور المؤمنين معدّه منذ الآن!

إنّ جملة أعيدّ لهم أجراً كريماً توحى بأنّ الجنّه و نعمها قد خلقت، و هى بانتظار المؤمنين. و يمكن أن يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان: إنّ التهيئه و الإعداد يليقان بالشخص المحدود القدره، حيث أنّه ربّما لا يستطيع فى بعض الأحيان أن يهيه وقت الحاجه ما يريد، إلاّ أنّ مثل هذه الحاجه إلى الاستعداد لا تصدق فى شأن الله سبحانه، إذ أنّ قدرته لا تحدّ، و إذا أراد شيئاً فى أيه لحظه فإنّه يقول له: كن فيكون، فما هو المراد من التأكيد على التهيئه و الإعداد فى هذه الآيه و سائر آيات القرآن الاخرى؟! و بملاحظه نقطه واحده يحلّ هذا الإشكال، و هى أنّ تهيئه الشىء ليس نابعا من كون القدره محدوده دائماً، بل قد يكون أحيانا من أجل تهدئه خاطر و اطمئنان

ص: ٢٩٤

النفس أكثر، وقد يكون أحياناً من أجل زياده الاحترام و الإكرام، و لذلك فإننا إذا دعونا ضيفاً، و بدأنا بتهيئه وسائل استقباله و ضيافته، فسنكون قد اهتممنا به و احترامنا أكثر، على عكس ما إذا قمنا بهذا الاستعداد لاستقباله يوم مجيئه، و فى ساعه وصوله، فإن هذا كاف لوحده فى الدلاله على عدم اهتمامنا و قلّه احترامنا لهذا الضيف.

و فى الوقت نفسه، لا- يمنع هذا الكلام من تعاضم الأجر و الثواب و زيادته وفق العمل، و أنّ المؤمنين كلّما اجتهدوا أكثر فى تهذيب أنفسهم و تطهيرها، فإنّ الأجور الإلهيه المعده لهم تتكامل أكثر و تعظم، و تسير نحو الكمال بنفس النسبه التى يتكاملون فيها.

ص: ٢٩٥

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

التفسير

اشاره

السراج المنير!

الخطاب في هذه الآيات موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله، إلا أن نتيجته لكل المؤمنين، و بذلك فإنها تكمل الآيات السابقه التي كانت تبحث في بعض وظائف المؤمنين و واجباتهم.

لقد جاءت في الآيتين الأوليين من هذه الآيات الأربع «خمس صفات» للنبي صلى الله عليه وآله و جاء في الآيتين الأخيرين بيان خمس واجبات يرتبط بعضها ببعض، و تكمل إحداها الاخرى.

تقول الآية أولاً: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا فهو من جانب شاهد على أعمال أمته، لأنه يرى أعمالهم كما نقرأ ذلك في موضع آخر: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ . (١) وهذا العلم يمكن تحقّقه عن طريق عرض أعمال الامّه على النّبي صلّى الله عليه وآله والأئمّه عليهم السلام، وقد مرّ تفصيل ذلك في ذيل الآيه المذكوره (١٠٥ من سوره التوبه).

و هو من جانب آخر شاهد على الأنبياء الماضين الذين كانوا شهودا على أممهم: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا . (٢)

و من جهه ثالثه فإنّ وجودك بما لك من الصفات والأخلاق والبرامج والتعليمات البناءه، إضافة إلى تاريخك المشرق وأعمالك المشرفه، شاهد على أحقيّه دينك، وشاهد على عظمه الله وقدرته.

ثم تطرقت الآيه إلى الصفتين الثانيه والثالثه فقالت: وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا فهو مبشّر للمحسنين بثواب الله اللامتناهى..بالسلامه والسعاده الخالده..بالظفر والتوفيق الملىء بالفخر والاعتزاز.. ونذير للكافرين والمنافقين من عذاب الله الأليم..من خسران كلّ رأسمال الوجود، ومن السقوط فى شراك التعاسه فى الدنيا والآخره.

و كما قلنا سابقا، فإنّ البشاره والإنذار يجب أن يقتربا فى كلّ مكان، وأن يكون أحدهما معادل للآخر، لأنّ نصف وجود الإنسان عباره عن حبه لجلب المنفعه، و نصفه الآخر سعيه لدفع المضرّه عنه، فالبشاره تشكّل الدافع على القسم الأول، والإنذار على النصف الثانى، فالمناهج التى تعتمد على جانب واحد لم تدرك حقيقه الإنسان، ولم تدرك دوافعه وميوله (٣).

و أشارت الآيه التاليه إلى الصفه الرابعه والخامسه، فقالت: وَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا .

ص: ٢٩٧

١-١ (١) التوبه، ١٠٥.

٢-٢ (٢) النساء، ٤١.

٣-٣ (٣) لقد أوردنا بحثا مفصّلا فى هذا الباب تحت عنوان أصلاّن تربويان مهمّان، فى ذيل الآيه (١١٩) من سوره البقره.

## و هنا ينبغي الانتباه إلى عدّه ملاحظات:

١- لقد ذكر مقام «الشهادة»، و كون النبي صَلَّى الله عليه و آله شاهداً قبل جميع صفاته الأخرى، و ذلك لأنّ هذا المقام لا يحتاج إلى مقدّمه سوى وجود النبي و رسالته، فعند ما يتمّ نصبه في هذا المقام يكون شاهداً من جميع الجهات التي ذكرناها سابقاً، غير أنّ مقام «البشارة» و «الإنذار» أمر يتحقّق بعد ذلك.

٢- إنّ الدعوه إلى الله سبحانه مرّحله تأتي بعد البشارة و الإنذار، لأنّ البشارة و الإنذار وسيلة لتهيئة الأفراد لقبول الحقّ، فعند ما تتهيأ هذه الأرضية عن طريق الترغيب و التهيب، تبدأ مرّحله الدعوه إلى الله سبحانه، و ستكون مؤثّره في هذه الحالة فقط.

٣- مع أنّ كلّ أعمال النبي صَلَّى الله عليه و آله يأذن الله و أمره، إلّا أنّ الدعوه هي الوحيدة التي قيّدت بإذن الله هنا، و ذلك لأنّ أشقّ أعمال الأنبياء و أهمّها هي الدعوه إلى الله سبحانه، حيث يجب عليهم أن يسوقوا الناس في طريق يخالف ميولهم و شهواتهم، فيجب أن تستبطن إذن الله و أمره و نصرته في هذه المرّحله ليتمّ تنفيذها، و من هنا يتّضح أنّ النبي صَلَّى الله عليه و آله لا يملك شيئاً من عند نفسه، بل كلّ ما يقوله بإذن الله (١).

٤- إنّ كون النبي صَلَّى الله عليه و آله (سراجاً منيراً) إشارة إلى المعجزات و أدلّه أحقيّه دعوه الرسول، و علامه صدقها، فهو سراج منير شاهد بنفسه على نفسه، يزيح الظلمات و يلفت الأنظار و يجذب القلوب إليه، فكما أنّ بزوغ الشمس دليل على وجود الشمس، فكذلك وجوده صَلَّى الله عليه و آله دليل على كونه حقّاً، و دليل على أحقيّته.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ لفظه «السراج» قد وردت في القرآن المجيد أربع مرّات، ثلاث منها في شأن الشمس، و من جملتها ما ورد في الآية (١٦) من سوره

ص: ٢٩٨

١- (١) يحتمل أيضاً أنّ قيد (بإذنه) يعود إلى جميع الأوصاف السابقة، إلّا أنّ ظاهر الآية هو أنّ الضمير يعود إلى مسأله الدعوه إلى الله.

نوح حيث تقول: وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا .

«السراج» فى الأصل يعنى المصباح الذى يضاء سابقا بواسطة الفتيله و الزيت، و بواسطة الطاقه الكهربائيه و أمثالها فى العصر الحاضر، فينبعث ضياؤه و نوره، إلا أنه اطلق-على قول الراغب فى مفرداته-على كل مصدر للنور فيما بعد، و إطلاقه على الشمس من أجل أن نورها ينبع من داخلها، و لا تكتسب نورها من مصدر آخر كالقمر.

إن وجود النبى صلى الله عليه و آله كالشمس المنيره التى تزيح ظلمات الجهل و الشرك و الكفر عن سماء روح البشر، لكن كما لا ينتفع العمى بنور الشمس، و كما تخفى الخفافيش أنفسها عنه حيث لا طاقه لعيونها برؤيه هذا النور، فإن عمى القلوب العنودين المتعصبين لم يستفيدوا و لن يستفيدوا من هذا النور مطلقا، و كان أبو جهل و أمثاله يضعون أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعا صوت قرأه و نغمته.

إن الظلام يبعث على الخوف و الوحشه دائما، و النور يبعث الاطمئنان و الراحة، فالسراق و اللصوص يستغلون ظلام الليل للسطو على الدور و نهب ما يقدرون عليه، و الحيوانات المفترسه تخرج من حجورها فى ظلمه الليل غالبا.

الظلام يسبب الفرقه، و النور يسبب الاجتماع، و لذلك فإننا إذا أسرجنا سراجا فى ليله مظلمه فستجتمع حوله أنواع الحشرات فى فتره قصيره.

إن النور و الضياء أساس نمو الأشجار، و نضج الفواكه و الأثمار، و الخلاصه: كل نشاطات الحياه، و تشبيه وجود النبى صلى الله عليه و آله بمصدر للنور يبعث على تداعى كل هذه المفاهيم فى الذهن.

إن وجود النبى صلى الله عليه و آله أساس الهدوء و الاطمئنان، و فرار لصوص الدين و الإيمان، و هرب الذئاب الضاربه الظالمه لمجتمعاتها، و يوجب هدوء خاطر، و نمو روح الإيمان و الأخلاق، و الخلاصه: أساس الحياه و الحركه، و تأريخ حياته شاهد حى على هذا الموضوع.

و فى الآيتين الأخرين من الآيات مورد البحث بياناً لخمسه واجبات من واجبات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله المهمه بعد بيان صفاته الخمس، فتقول أولاً: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَ هى إشاره إلى أَنَّ مسأله تبشير النبى صلى الله عليه وآله لا يحدد بالثواب الإلهى بمقدار أعمال المؤمنين الصالحه، بل إِنَّ الله سبحانه يفيض عليهم من فضله بحيث تضطرب المعادله بين العمل و الجزاء تماماً كما تشهد بذلك الآيات القرآنيه.

فتقول فى موضع: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . (١)

و تقول فى موضع آخر: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ . (٢)

و قد تذهب أبعد من ذلك فتقول: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ . (٣)

و بهذا فإنَّ أبعاد الفضل الإلهى الكبير أوسع و أسمى ممَّا يخطر فى التصوّر و الأوهام.

ثم تناولت الواجب الثانى و الثالث، فقالت: وَ لَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ .

لا شكَّ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يطع الكافرين و المنافقين مطلقاً، إلاَّ أَنَّ هذا الموضوع من الأهميه بمكان، و لذلك أكّدت الآيه على هذا الموضوع بالخصوص من باب التأكيد على النبى صلى الله عليه وآله و التحذير و القدوه للآخرين، فهى تحذّرهم من الأخطار و العقبات المهمه التى تعترض طريق القاده المخلصين، و التى تجرّهم إلى المساومه و التسليم أثناء المسيره، و تتهيأ أرضيه هذا التسليم عن طريق التهديد تاره، و عن طريق منح الامتيازات تاره اخرى، حتّى أَنَّ الإنسان قد يشتهه أحياناً فيظنَّ أَنَّ الخضوع و الامتثال لمثل لهذه المساومه و الاستسلام هو طريق الوصول

ص: ٣٠٠

١- (١) الأنعام، ١٦٠.

٢- (٢) البقره، ٢٤١.

٣- (٣) الم السجده، ١٧.



إلى الهدف. فى حين أنّ نتيجته هذا الاستسلام هى إجهاض كلّ الجهود و المساعى، و إجباط كلّ جهاد و كفاح.

إنّ تاريخ الإسلام يبيّن أنّ الكافرين و المنافقين سعوا مرارا إلى جرّ النّبى صلّى الله عليه و آله إلى هذا الموضوع، فاقترحوا مرّه أن لا يذكر الأصنام بسوء و لا يتقدها و ينتقصها، و قالوا مرّه اخرى: انذرن لنا أن نعبد ربّك سنه، و اعبد آلهتنا سنه، و كانوا يقولون أحيانا: أمهلنا سنه نقيم فيها على ديننا ثمّ نؤمن بك. و اقترحوا عليه مرّه أن أبعد عنك فقراء المؤمنين و مساكينهم لنضمّ صوتنا- نحن الأثرياء ذوى المكانه-إليك.

و كانوا يعلنون أحيانا استعدادهم لبذل الامتيازات المالىه و المركز و المنصب الحساس، و النساء الجميلات و أمثال ذلك.

من المسلم أنّ كلّ هذه كانت شراك خطيره فى طريق انتشار الإسلام السريع، و اقتلاع جذور الكفر و النفاق، و لو كان النّبى صلّى الله عليه و آله قد أظهر الليونه و الميل إلى المساومه أمام واحد من هذه الاقتراحات فإنّ دعائم الثوره الإسلاميه كانت ستنهار، و لم تكن الجهود لتصل إلى نتيجته مطلقا.

ثمّ تقول فى الأمر الرابع و الخامس: وَ دَعُ أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .

إنّ هذا الجزء من الآيه يوحى بأنهم قد وضعوا النّبى صلّى الله عليه و آله تحت ضغط شديد لحمله على الاستسلام، و استخدموا ضده و ضدّ أصحابه كلّ أنواع الأذى، سواء كان عن طريق جرح اللسان و الكلام الفاحش و الإهانه، أم عن طريق الأذى الجسمى، أو عن طريق الحصار الاقتصادى. و كان لهذا الأذى صورته و أسلوبا فى مكّه، و أسلوبا آخر فى المدينه، لأنّ «الأذى» جاء مطلقا فى الآيه و يشمل كلّ أنواع الأذى.

و يرى «الراغب» فى المفردات أنّ «الأذى» هو كلّ ضرر يصيب الكائن الحى، سواء فى روحه، أو جسمه، أو يصيب من يرتبط به، سواء فى الدنيا أم الآخره.

وقد استعملت هذه الكلمه فى الآيات القرآنيه فى «الأذى اللسانى» تاره كالأيه (٦١) من سوره التوبه، حيث تقول: وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ .

و استعملت أيضا بمعنى «الأذى البدنى» فى آيات اخرى، كالأيه (١٦) من سوره النساء: وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُم فَاذُوهُمَا أَى يَرْتَكِبَانِ الْفَاحِشَةَ، فَأَقِيمُوا عَلَيْهِمَا الْحَدَّ الشَّرْعَى .

يقول التاريخ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَائِلَ قَدِ وَقَفُوا كَالجَبَلِ الْأَشْمَمِ أَمَامَ أَنْوَاعِ الْأَذَى، وَ لَمْ يَقْبَلُوا عَارَ الْإِسْتِسْلَامِ وَ الْهَزِيمَةَ قَطُّ، وَ أَخِيرًا انْتَصَرُوا فِى حَرَكَتِهِمْ .

وَ كَانَ أَسَاسَ هَذِهِ الْمَقَاوِمِ وَ مَعِينِهَا هُوَ «التوكيل على الله» وَ الْاعْتِمَادُ عَلَى ذَاتِهِ الْمَقْدَسَةِ . . . اللَّهُ الَّذِى تَتَبَسَّرُ كُلُّ الصَّعَابِ وَ الْمَشَاكِلِ أَمَامَ إِرَادَتِهِ . . . أَجَلَ يَكْفَى الْإِنْسَانَ أَنْ يَكُونَ مَعِينَهُ وَ نَاصِرَهُ هَذَا الرَّبِّ الْجَلِيلِ .

وَ مِمَّا قَلْنَا أَنْ تَنْصَحَ أَنَّ مَحْتَوَى الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ لَمْ يَكُنْ نَسْخٌ لِحُكْمِ الْجِهَادِ - كَمَا يَظُنُّ ذَلِكَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ - بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنْ نَزُولِ حُكْمِ الْجِهَادِ، وَ هِىَ فِى مِصَافِ الْحَوَادِثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِسُورَةِ الْأَحْزَابِ .

إِنَّ هَذَا حُكْمٌ لِكُلِّ الْعُصُورِ وَ الْقُرُونِ، بِأَنَّ لَا يَصْرِفُ الْأَثْمَةَ الْإِلَهِيَّونَ طَاقَاتِهِمُ الْحَيَوِيَّةَ فِى الْإِهْتِمَامِ بِإِيْدَاءِ مَخَالَفِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ وَ صَرَفُوا قُورَاهُمْ وَ طَاقَاتِهِمْ فِى هَذَا الْمَجَالِ، يَكُونُ عِدْوَهُمْ قَدْ حَقَّقَ هَدْفَهُ، لِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَشْغَلَ فِكْرَ مَنْ يَقَابِلُهُ، وَ يَهْدِرَ طَاقَاتَهُ عَنِ هَذَا الطَّرِيقِ . . . هُنَا يَكُونُ أَمْرٌ دَعَا أَذَاهُمْ هُوَ الْحَلُّ الْوَحِيدُ .

وَ هُنَا أَمْرٌ يَسْتَحَقُّ الْإِنْتِبَاهَ أَيْضًا، وَ هُوَ: أَنَّ الْأَوَامِرَ الْخَمْسَةَ الْمَذْكُورَةَ، الَّتِى وَرَدَتْ فِى الْآيَاتِ الْآخِرَتَيْنِ، يَكْمَلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَ يَرْتَبِطُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَإِنَّ

تبشیر المؤمنین لجذب القوى المؤمنه، و عدم الاستسلام للكفار و المنافقين، و عدم الاهتمام بأذاهم، و التوكل على الله تشكل مجموعه مبادئ تؤدي إلى الهدف، و دستور عمل جامع لكل سالكى طريق الحق.

ص: ٣٠٣

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

التفسير

اشاره

جانب من أحكام الطلاق:

إن آيات هذه السوره-الأحزاب-جاءت على شكل مجموعات مختلفه، و الخطاب فى بعضها موجه إلى النبى صلى الله عليه و آله، و فى بعضها الآخر إلى كلّ المؤمنين، و لذلك تقول أحيانا: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، و أحيانا اخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قد وردت فيها الأوامر اللازمه يوازى بعضها بعضا، و هذا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان مرادا بهذه التعليمات، كما أنّ عموم المؤمنين يرادون بها أيضا.

و الآيه التى نبحتها من الآيات التى توجه خطابها إلى كلّ المؤمنين، و لذلك تقول أحيانا: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، و أحيانا اخرى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قد وردت فيها الأوامر اللازمه يوازى بعضها بعضا، و هذا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان مرادا بهذه التعليمات، كما أنّ عموم المؤمنين يرادون بها أيضا.

و الآيه التى نبحتها من الآيات التى توجه خطابها إلى كلّ المؤمنين، فى حين أنّ الآيات السابقه خاطبت شخص النبى صلى الله عليه و آله ظاهرا، و يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فى الآيات القادمه مرّه اخرى، و بهذا فإنّ قسما من هذه السوره يتبع أسلوب «اللفّ و النشر المرتّب».

تقول الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا .

لقد بين الله سبحانه هنا حكما استثنائيا من حكم عده النساء المطلقات، وهو أنّ الطلاق، إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العده، و من هذا التعبير يفهم أنّ حكم العده كان قد بين قبل هذه الآية.

إنّ التعبير ب«المؤمنات» لا يدلّ على أنّ الزواج من غير المسلمات ممنوع تماما، بل من الممكن أن يكون إشاره إلى أولويه المؤمنات، و بناء على هذا فإنّه لا ينافى الروايات و مشهور فتاوى الفقهاء بجواز الزواج المؤقت من الكتايات.

ثمّ إنه يستفاد من تعبير (لكم) و كذلك جملة (تعتدونها) أنّ انتظار عده المرأة يعتبر حقّا للرجل، و يجب أن يكون هكذا، لأنّ من الممكن أن تكون المرأة حاملا في الواقع، و تركها العده و زواجها برجل آخر يجعل حال الولد غير معلوم، و يؤدّى إلى ضياع حقّ الرجل إضافه إلى أنّ انتظار العده يمنح الرجل و المرأة فرصه لتجديد النظر و الرجوع إلى بعضهما، فقد يقع الطلاق نتيجة انفعالات شديده، و مثل هذه الفرصه و التفكير حقّ للرجل و المرأة معا.

و أمّا ما أورده البعض على هذا الحكم، بأنّ العده إن كانت حقّا للرجل، فبإمكانه أن يسقط حقه، فلا يصحّ، لأنّ في الفقه حقوقا كثيره لا يمكن إسقاطها، كالحقّ الذي لورثه الميّت في أمواله، أو الحقّ الذي للفقراء في الزكاه، إذ لا يقدر أى أحد على إسقاط هذا الحقّ الشرعى.

ثمّ تتطرق الآية إلى حكم آخر من أحكام النساء اللاتي يطلقن قبل المباشرة الجنسيه- و الذى سبقت الإشاره إليه في سوره البقره أيضا- فتقول: فَمَتَّعُوهُنَّ أَى اعطوهنّ هديه مناسبه.

و لا شك أنّ تقديم هديه مناسبه إلى المرأة يكون واجبا في حاله عدم تعيين المهر من قبل، كما جاء في الآية (٢٣٦) من سوره البقره لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ

النِّسَاءِ ۞ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ .

بناء على هذا، فإن الآيه مورد البحث و إن كانت مطلقه، و تشمل الموارد التي عين فيها المهر، و التي لم يعين فيها، إلا أننا نحددها بالمورد الذي لم يعين فيه المهر بقريته آيه سورة البقره، لأنه في حاله تعيين المهر و عدم الدخول يجب دفع نصف المهر، كما جاء ذلك في الآيه (٢٣٧) من سورة البقره.

و احتمال بعض المفسرين و الفقهاء أن حكم تقديم هديه مناسبه عام في الآيه مورد البحث، و يشمل حتى الموارد التي عين فيها المهر، غايه ما هناك أن له صفه الاستحباب في هذه الموارد، و له صفه الوجوب في الموارد التي لم يعين فيها المهر. و تلاحظ في بعض الآيات و الروايات إشاره إلى هذا المعنى أيضا (١).

أمّا كم هو مقدار هذه الهديه؟ فقد بينه القرآن المجيد في سورة البقره إجمالاً بقوله: **مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ** . (٢) و كذلك قال في نفس تلك الآيه: **عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ** .

بناء على هذا، فإن ذكرت في الروايات الإسلاميه موارد من قبيل البيت و الخادم و اللباس و أمثال ذلك، فإنها من قبيل المصاديق لهذا الكلّي و هي تتفاوت بحسب إمكانيات الزوج و شؤون المرأه.

و آخر حكم في الآيه مورد البحث هو: **وَ سَرَّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً** .

«السراح الجميل» هو الطلاق المقترن بالمحبّه و الاحترام، و ترك كلّ خشونه و ظلم و جور و احتقار، و الخلاصه هو ما ورد في الآيه (٢٩) من سورة البقره:

**فَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ فَإِنَّهُنَّ حُرٌّ** فإن الاستمرار في الحياه الزوجيه يجب أن يكون قائماً على أساس المعايير الإنسانيه، و الطلاق كذلك، فلا يجوز للرجل - إذا

ص: ٣٠٦

١- ١) كالأيه (٢٤١) من سورة البقره، و وردت روايات متعدده في هذا الباب ذكرت في وسائل الشيعه، الجزء ١٥، ص ٥٩ الباب ٥٠ من أبواب المهور من كتاب النكاح، و من جملتها ما ورد عن علي عليه السلام «لكلّ مطلقه متعه إلا المختلعه».

٢- ٢) البقره، ٢٣٦.

صمّم على طلاق زوجته-هضم حقّ الزوجه و مهرها، و بذاءه الكلام و الخشونه معها، فإنّ هذا السلوك غير إسلامي قطعاً، و لا يمتّ إلى الإسلام بصله.

و اعتبر بعض المفسّرين «السراح الجميل» بمعنى إجراء الطلاق طبقاً للسنة الإسلامية، و جاء هذا المعنى في الزوايه الوارده في تفسير على بن إبراهيم و عيون الأخبار. إلا أنّ من المسلم أنّ «السراح الجميل» لا يتحدّد بهذا المعنى، بالرغم من أنّه أحد مصاديقه.

و اعتقد بعض آخر من المفسّرين أنّ السراح الجميل هنا يعنى إذن الخروج من المنزل، لأنّ المرأه ليست مكلفه هنا بالعدّه، و بناء على هذا فيجب إطلاق سراحها لتذهب حيث شاءت.

إلا أنّ هذا المعنى يبدو بعيداً بملاحظه أنّ تعبير السراح الجميل، أو أمثاله في الآيات القرآنيه الاخرى قد ورد حتّى في شأن النساء اللاتي يجب أن يعتددن.

و قد كان لنا بحث مفصّل حول المعنى الأصلي للسراح، و أصله اللغوي، و لما ذا يستعمل في الإطلاقات المتعارفه بمعنى الطلاق و الإطلاق في ذيل الآيه (٢٨) من سوره الأحزاب هذه.

اشاره

إِذَا أَخْلَدَ لِمَكَ أَزْوَاجُكَ اللَّائِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّائِي هَاجَزْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لِمَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

التفسير

اشاره

يمكنك الزواج من هذه النسوة:

قلنا: إن بعض مقاطع هذه السوره تبحث واجبات النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين على طريقه اللف والنشر المرتب، ولذلك فبعد ذكر جانب من الأحكام المتعلقة بطلاق النساء، وجهت الخطاب هنا إلى النبي صلى الله عليه وآله، وفضّلت الموارد السبعه التي يجوز للنبي الزواج فيها من تلك النسوة:



١- فقالت أولاً: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أٰخَلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ .

و المراد من هؤلاء النساء- بقرينه الجملة التاليه- النساء اللاتي لم يكن يرتبطن بالنبي صلى الله عليه و آله برابطه قرابه و قد تزوجنه، و ربما كانت مسأله دفع المهر لهذا السبب، لأن العرف المتبع آنذاك هو أنهم كانوا يدفعون المهر نقدا عند زواجهم من الأجنبيةات، إضافة إلى أفضليه التعجيل فى هذا الدفع، و خاصه إذا كانت الزوجه بحاجه إليه. إلا أن هذا الأمر ليس من الواجبات على أى حال، إذ يمكن أن يبقى المهر ديناً فى ذمه الزوج إذا ما اتفق الطرفان على ذلك.

٢- وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

أَفَاءَ اللَّهِ

من مادّه (الفىء)، و تقال للأموال التى يحصل عليها الإنسان بدون جهد و مشقّه، و لذلك يطلق (الفىء) على الغنائم الحربيه، و كذلك الأنفال، و هى الثروات الطبيعيه التى تعود إلى الحكومه الإسلاميه و لا يملكها مالك بالخصوص.

يقول الراغب فى مفرداته: الفىء بمعنى الرجوع إلى حاله محموده، و منه فاء الظلّ. (لحال رجوع الظلّ) ثم قال: و قيل للغنيمه من دون مشقّه فىء. قال بعضهم:

سمّى ذلك بالفىء تبيها على أن أشرف أعراض الدنيا يجرى مجرى ظلّ زائل.

صحيح أن الغنائم الحربيه لا تنال فى بعض الأحيان إلا بشقّ الأنفس و بذل الجهد المضنى، إلا أن مشقّتها أقلّ من مشقّه تحصيل الأموال الاخرى. و قد يطلق «الفىء» أحيانا على الأموال الطائله التى يحصل عليها من خلال هجوم واحد.

لكن من من نساء النبي يصدق عليها هذا الحكم؟ قال بعض المفسرين: إن إحدى نساء النبي و هى «ماريه القبطيه»- كانت من الغنائم، و كانت زوجتان أخريان- و هما «صفية» و «جويره»- من الأنفال أعتقهما النبي صلى الله عليه و آله ثم تزوجهما، و كان هذا الفعل بنفسه جزءاً من خطّه الإسلام العامّه فى تحرير العبيد التدريجى، و إرجاع الشخصيه الإنسانيه لهم.

٣- وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ

و بهذا فإنَّ اللَّاتِيَّ يَحِلُّ لِلنَّبِيِّ الزَّوْجَ مِنْهُنَّ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأَقْرَابِ: بنات العمِّ و العمَّة، و بنات الخال و الخاله، و بشرط أن يكنَّ قد هاجرن مع النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ.

إنَّ التحديد بهذه الفئات الأربع واضح، إلاَّ أنَّ شرط الهجره من أجل أنَّها كانت دليلاً على الإيمان في ذلك اليوم، و عدم الهجره دليل على الكفر، أو لأنَّ الهجره تمنحهنَّ امتيازاً أكبر و فخراً أعظم، و الهدف من الآيه هو بيان النساء الفاضلات المؤهلات لأنَّ يصبحن زوجات للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ.

و هل لهذه الفئات الأربع التي ذكرت كحكم كلي في الآيه، مصداق خارجي من بين نساء النَّبِيِّ أم لا؟ إنَّ المورد الوحيد الذي يمكن ذكره كمصداق هو زواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بزَيْنَب بنت جحش، الذي مرَّت قصَّته المثيرة في طَيِّبَات هذه السوره، لأنَّ زَيْنَب كانت بنت عمِّه النَّبِيِّ وَ كان «جحش» زوج عمِّته (١).

٤- وَ امْرَأَهُ مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ (من دون مهر) إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خِالصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ خَاصٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ لَا يَشْمَلُ سَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَإِذَا كُنَّا قَدْ حَدَّدْنَا بَعْضَ الْمَسَائِلِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّوْجِ مِنْ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ اسْتِنَاداً إِلَى مَصْلَحَةِ حَاكِمِهِ فِي حَيَاتِهِ وَ حَيَاتِهِنَّ، وَ لَمْ يَكُنْ أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَ الْمَقَرَّرَاتِ اعْتِبَاطِيًّا وَ بَدُونَ حِسَابٍ.

ثمَّ تَضْيِيفُ الْآيَةِ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَ بِالتَّالِي سَتَكُونُ قَادِرًا عَلَى أَدَاءِ الْمَسْئُولِيَّاتِ الْمَلْقَاةِ عَلَى عَاتِقِكَ فِي الْقِيَامِ بِهَذَا الْوَاجِبِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

و في مورد القسم الأخير- أي النساء اللَّاتِيَّ لا مهر لهنَّ- ينبغي الالتفات إلى

١- ١) ذكر بعض المفسرين وجوها أوردتها «الفاضل المقداد» في كنز العرفان، في أنَّه لماذا ورد العمِّ بصيغه المفرد و العمَّات بصيغه الجمع، و كذلك الخال بصيغه المفرد و الخالات بصيغه الجمع، إلاَّ أنَّ أفضلها هو أنَّ العمِّ و الخال يستعملان كاسم للجنس في لغة العرب، و ليس كذلك العمَّات و الخالات، و قد ذكر ابن العربي عرف أهل اللغة هذا (كنز العرفان، المجلد ٢، ص ٢٤١). و قد رجَّح الآلوسى هذا الاحتمال في روح المعاني على كلِّ الوجوه الأخرى.

١- لا- شكّ أنّ جواز اتّخاذ زوجه من دون مهر كان من مختصّات النّبي صلّى الله عليه وآله والآله صريحه في هذه المسأله، و لذلك فهي من مسلّمات الفقه الإسلامى، و بناء على هذا فلا يحقّ لأى امرئ أن يتزوّج امرأه بدون مهر، قلّ أم كثر، و حتّى إذا لم يرد ذكر المهر أثناء إجراء صيغه العقد، و لم تكن هناك قرينه تعينه، فيجب أن يدفع مهر المثل، و المراد من مهر المثل: المهر الذى تجعله النساء اللاتى تشابهها فى الأوصاف و الخصوصيات لأنفسهنّ عادة.

٢- هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه هل لهذا الحكم الكلى مصداق فى مورد زوجات النّبي صلّى الله عليه وآله أم لا؟ يعتقد البعض- كابن عيّاس و بعض آخر من المفسّرين- أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله لم يتزوّج بأية امرأه على هذه الحال، و بناء على هذا فإنّ الحكم أعلاه كان إذنا عاما للنّبي صلّى الله عليه وآله إلاّ أنّه لم يطبق عمليا مطلقا.

فى حين أنّ آخرين ذكروا أسماء ثلاث أو أربع نسوة من زوجات النّبي صلّى الله عليه وآله اللاتى تزوجهنّ بدون مهر، و هنّ: «ميمونه» بنت الحارث، و «زينب» بنت خزيمة، و كانتا من الأنصار، و امرأه من بنى أسد، و اسمها «أم شريك» بنت جابر، و «خوله» بنت حكيم.

و من جملة ما ورد فى الروايات أنّ «خوله» عند ما وهبت نفسها للنّبي صلّى الله عليه وآله اعترضت عائشه، فقالت: ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلا- مهر؟! فنزلت الآيه أعلاه، غير أنّ عائشه التفتت إلى النّبي صلّى الله عليه وآله و قالت: أرى الله يسارع فى هواك- و كان هذا نوع من التعريض بالنّبي صلّى الله عليه وآله-

فقال لها النّبي صلّى الله عليه وآله: «و إنّك إن أطعت الله سارع فى هواك» (١).

لا شك أن أمثال هؤلاء النسوة كنّ لا يطمعن إلا في الفخر المعنوي عن طريق الاقتران بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ولذلك كنّ على استعداد للزواج منه بدون أي مهر، إلا أن وجود مثل هذا المصداق للحكم أعلاه غير مسلم من الناحية التأريخية كما قلنا، بل المسلم أن الله سبحانه كان قد أذن لنبيه بذلك للغايه التي سنشير إليها فيما بعد.

٣- يستفاد من هذه الآية جيدا أن إجراء صيغه عقد الزواج بلفظ «الهبه» كان مختصا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقط، ولا يستطيع أي فرد آخر أن يجرى عقد الزواج بهذا اللفظ، ويجوز إجراء العقد بلفظ الزواج أو النكاح، حتى وإن لم يجر للمهر ذكر فيه، حيث يجب دفع مهر المثل عند عدم ذكر المهر كما قلنا آنفا، فكأنه في الحقيقة قد صرح بمهر المثل.

## بحث

## إشارة

### جانب من حكمه تعدد زوجات النبي:

إن الجملة الأخيرة في الآية أعلاه إشارة في الواقع إلى فلسفه هذه الأحكام الخاصه بنبينا الأكرم، حيث تقول: إن للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ظروفًا لا يعيشها الآخرون، وهذا التفاوت في الظروف أصبح سببًا للتفاوت في الأحكام.

و بتعبير أوضح، إن الهدف من هذه الأحكام رفع بعض المشاكل و الصعوبات من كاهل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وهذا تعبير لطيف يبين أن زواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من عدّه نساء كان لحلّ سلسله من المشاكل الاجتماعيه و السياسيه في حياته، لأننا نعلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كان وحيدا حينما صدع ببناء الإسلام و رفع شعاره، و لم يؤمن به بعد مدّه طويله سوى عدّه معدوده، فإنه ثار ضدّ كلّ معتقدات عصره و بيئته الخرافيه، و أعلن الحرب ضدّ

(١)

الآلوسي في روح المعاني أيضا في ذيل الآية مورد البحث. إن قبج هذا التعبير، والمعنى الذي اخفى فيه لا يخفى على أحد، إلا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يمرّ عليه و يتجاوزه بشكل رائع.

ص: ٣١٢

الجميع، فمن البديهي أن تتحد كل الأقسام والقبائل ضده.

في هذا الوضع كان لا بد من أن يستعين بكل الوسائل و يستغلها لكسر اتحاد الأعداء اللامشروع، و كانت إحدى هذه الوسائل هو الزواج من القبائل المختلفه لإيجاده علاقته قرابه و نسب، لأن رابطة القرابه كانت تعد أقوى الروابط بين عرب الجاهليه، و كانوا يعتبرون الصهر من نفس القبيله، و الدفاع عنه واجبا، و تركه وحيدا جريمه و ذنبا.

إن لدينا قرائن كثيره تبين أن زواج النبي صلى الله عليه و آله المتعدد كان له صبغه سياسيه في كثير من الموارد على أقل تقدير. و أحدها- كزواجه بزینب- كان لكسر سنه جاهليه، و قد بينا تفصيله في ذيل الآيه (٣٧) من هذه السوره. و بعضه لتقليل العداوه، أو لجلب محبه أشخاص أو أقوام متعصين عنودين.

من الواضح أن شخصا يتزوج و هو في سنّ الخامسة و العشرين، حيث كان في عنفوان شبابه، بامرأه أيم لها أربعون سنه، و يكتفى بها حتى الثالثه و الخمسين من عمره، و بهذا يكون قد قضى مرحله الشباب و بلغ سنّ الكهوله، ثم يقدم على الزواج المتعدد، لا بد أن يكون له سبب و فلسفه، و لا يمكن أن يفسر بأي وجه من الوجوه بأسباب العلاقه و الرغبه الجنسيه، لأنه لم يكن هناك مانع اجتماعي، أو ظروف ماليه صعبه، أو أدنى نقص يمنع النبي صلى الله عليه و آله من الزواج المتعدد في سنّى شبابه، خاصه و أن تعدد الزوجات كان أمرا طبيعيا بين العرب آنذاك، بل ربّما كانت الزوجه الاولى تذهب لخطبه الزوجه الثانيه، و لم يكونوا يعترفون بأي حدّ في اتخاذ الزوجات.

و الطريف أنه قد ورد في التواريخ أن النبي لم يتزوج إلا بكرا واحده، و هي عائشه، و باقى نساته كنّ أيامى جميعا و من الطبيعي أن لا يتمتعن بإثاره جنسيه

بل نقرأ فى بعض التواريخ أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله تزوّج بعدّه زوجات، و لم يجر إلاّ مراسم العقد، و لم يباشرهنّ أبداً، و لم يباشرهنّ أبداً، بل إنّهُ اكتفى فى بعض الموارد بخطبه بعض نساء القبائل فقط (٢).

و قد كان هؤلاء يفرحون و يسرّون و يفتخرون بأنّ امرأه من قبيلتهم قد سمّيت بزوجه النبىّ صلّى الله عليه وآله فحصل لهم هذا الفخر، و بذلك فإنّ علاقتهم الاجتماعيه بالنبىّ كانت تشتدّ و تقوى، و يصبحون أكثر تصميمًا على الدفاع عنه.

و من جانب آخر، فمع أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله لم يكن رجلاً عقيماً، إلاّ أنّه لم يكن له من الأولاد إلاّ القليل، فى حين أنّ هذا الزواج المتعدّد لو كان بسبب جاذبيه هذه النسوة، و إثارتهم الجنسيه، فينبغى أن يكون له من الأولاد الكثير.

و كذلك ينبغى الالتفات إلى أنّ بعض هذه النساء - كعائشه - كانت صغيره جدّاً عند ما أصبحت زوجه للنبىّ صلّى الله عليه وآله، و قد مرّت سنين حتّى استطاعت أن تكون زوجه حقيقيه له، و هذا يوحى بأنّ الاقتران بمثل هذه البنت الصغيره كانت له أهداف اخرى، و كان الهدف الأصلى هو ما أشرنا إليه قبل قليل.

و بالرغم من أنّ أعداء الإسلام أرادوا أن يتخذوا من تعدّد زواج النبىّ صلّى الله عليه وآله حربه لأشدّ هجماتهم المغرضه، و يحوكون منها أساطير أو هى من خيط العنكبوت للطعن فى نبى الإسلام صلّى الله عليه وآله إلاّ أنّ سنّ النبىّ المتقدّمه عند إقدامه على تكرار الزواج من جهه، و الظروف الخاصه المتعلقه بالنساء من ناحيه العمر و القبيله من جانب آخر، و القرائن المختلفه التى أشرنا إلى قسم منها آنفاً من جهه ثالثه تجعل الحقيقه واضحه كالشمس، و تحبط مؤامرات المغرضين و تفضحها.

اشاره

تُرْجَىٰ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَلَا يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

سبب النزول

قلنا في تفسير الآيتين ٢٨ و ٢٩ من هذه السوره و بيان سبب النزول: إنَّ جمعا من نساء النَّبِيِّ -بناء على ما نقله المفسرون- قطن للنبي صَلَّى اللهُ عليه و آله: زد في نفقتنا و امور معاشنا-طمعا في الغنائم الحربيه، فكنَّ يحسبن أنَّ قسما كبيرا منها من نصيبهن فنزلت الآيات المذكوره و خاطبتهنَّ بصراحه بأنهنَّ إن أردن الحياه الدنيا و زينتها فليفارقن النَّبِيَّ إلى الأبد، و إن أردن الله و رسوله و اليوم الآخر فليعشن معه حياه بسيطه.

إضافه إلى أنه كانت بينهنَّ منافسه في كيفيه تقسيم أوقات حياه النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه و آله بينهنَّ، و كنَّ يحرجن النَّبِيَّ و يضايقنه مع كلِّ المشاكل و المشاغل التي كانت لديه، و مع أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه و آله كان يراعى العداله بينهنَّ و يبذل الجهد اللازم لتحقيقها تماما، فقد

كان لفظهنّ وجد الهنّ مستمرّاً، فنزلت هذه الآيه و جعلت النبيّ صلّى الله عليه و آله حرّاً في تقسيم أوقاته، ثمّ أعلنت الآيه لهنّ أنّ هذا حكم إلهي لئلا يتولّد في أنفسهنّ أى قلق و سوء ظنّ (١).

## التفسير

## إشاره

### حلّ مشكله اخرى في حياه النبيّ:

إنّ قائدا ربّانيا عظيما كالنبيّ صلّى الله عليه و آله خاصّه و أنّه ابتلى بسيل من الحوادث الصعبه المرّه، و كانوا يحوكون له الدسائس و المؤامرات داخليا و خارجيا، لا يقدر أن يشغل فكره بحياته الخاصّه كثيرا، بل يجب أن يكون له هدوء نسبي في حياته الداخليه ليقوى على التفرّغ لحلّ سيل المشاكل التي أحاطت به من كلّ جانب.

إنّ اضطراب الحياه الشخصيه، و كون قلبه و فكره مشغولين بوضعه العائلي في هذه اللحظات المضطربه الحساسه كان أمرا خطيرا للغايه.

و مع أنّ زواج النبيّ صلّى الله عليه و آله المتعدّد-و طبقا للبحوث السابقه، و الوثائق و المستندات التي أوردناها في تفسير الآيه السابقه- كانت له أبعاد سياسيه و اجتماعيه و عاطفيه غالبا، و كان في الحقيقه جزءا من تنفيذ و تطبيق رساله الله سبحانه، إلا أنّ الاختلاف بين زوجات النبيّ، و المنافسه النسويه المعروفه بينهنّ، قد أثار في الوقت نفسه عاصفه من الاضطراب داخل بيت النبيّ ممّا شغل فكره و زاد في همّه.

هنا منح الله سبحانه نبيّه إحدى الخصائص الاخرى، و أنهى هذه الحوادث و الأخذ و العطاء في الجدل إلى الأبد، و أراح فكر النبيّ صلّى الله عليه و آله من هذه الجبهه، و هدأ خاطره و روعه، فقال سبحانه في هذه الآيه تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ .

ص: ٣١٦



«ترجى» من (الإرجاء)، أى: التأخير، و«تؤوى» من (الإيواء) و يعنى استضافه شخص فى بيتك.

و نعلم أنّ أحكام الإسلام فى شأن الزوجات المتعدّده تقضى بأن يقسم الزوج أوقاته بينهنّ بصورة عادله، فإن بات ليله عند واحده، فيجب أن يبيت الليله الاخرى عند غيرها، إذ لا فرق و لا اختلاف بين النساء من هذه الجهه، و يعبرون عن هذا الموضوع فى الكتب الفقهيّه الإسلاميه ب«حقّ القسم».

فكانت إحدى مختصّيات النّبى صلّى الله عليه و آله هى سقوط رعايه حقّ القسم منه بحكم الآيه أعلاه، و ذلك نتيجة للظروف الخاصّه التى كان يعيشها، و الأوضاع المضطربه التى كانت تحيط به من كلّ جانب، و خاصّه أنّ الحرب كانت تفرض عليه كلّ شهر تقريباً، و كان له فى نفس الوقت زوجات متعدّده، و بسقوط هذا الواجب عنه فقد كان قادراً على أن يقسم أوقاته كيف يشاء، غير أنّه صلّى الله عليه و آله كان يراعى تحقيق العداله ما أمكن رغم هذه الظروف، كما جاء ذلك فى التواريخ الإسلاميه صريحاً.

إلا أنّ وجود هذا الحكم الإلهى قد منح نساء النّبى الراحه و الاطمئنان، و أضفى على حياته الداخليه الهدوء و السكينه.

ثمّ تضيف الآيه: و عند ما ترغب عن إحداهن و تعتزلها، ثمّ ترغب فيها فلا- تثريب عليك: وَ مَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ .

و بهذا فليس الخيار بيدك فى البدايه و حسب، بل إنّ بيدك حتّى فى الأثناء أيضاً، و هو فى الاصطلاح «تخيير استمرارى» لا ابتدائى، و بهذا الحكم الواسع ستقطع كلّ الحجج من برنامج حياتك فيما يتعلّق بأزواجك، و تستطيع أن تسخر فكرك لمسؤوليات رساله العظيمه الثقيله.

و من أجل أن تعلم نساء النّبى بأنهنّ إن أذعنّ لأمر الله تعالى فى مسأله تقسيم أوقات النّبى صلّى الله عليه و آله فإنّه يعتبر و سام فخر لهنّ يضاف إلى الفخر بكونهنّ أزواج النّبى

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، إِذْ أَنْ هَذَا التَّسْلِيمَ نَوْعٌ مِنَ التَّضْحِيهِ وَ الْإِثَارِ، وَ لَيْسَ فِيهِ أَى عَيْبٍ وَ انْتِقَاصٍ، وَ لِذَلِكَ يُضَيَّفُ سَبْحَانَهُ: ذَلِكْ أَذْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لَا يَحْزَنَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ .

وَ ذَلِكْ أَوْلَا: لِأَنَّ هَذَا الْحَكْمَ عَامٌّ يَشْمَلُهُنَّ جَمِيعًا وَ لَا يَتَفَاوَتُنِ فِيهِ، وَ ثَانِيًا: إِنَّ الْحَكْمَ الَّذِي يَشْرَعُ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِنَّمَا يَشْرَعُ لِمَصْلَحَتِهِ مَهْمَةً، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَيَجِبُ الْإِذْعَانُ لَهُ بِرَغْبَةٍ وَ رِضَا، فَيَنْبَغِي مِضَافًا إِلَى عَدَمِ الْقَلْقِ وَ التَّأَثُّرِ أَنْ يَفْرَحَنَّ لِذَلِكَ.

لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - وَ كَمَا أَشْرْنَا إِلَى ذَلِكَ - كَانَ يِرَاعِي تَقْسِيمَ أَوْقَاتِهِ بَيْنَهُنَّ بَعْدَ إِتْقَانِ الْمُسْتِطَاعِ، إِلَّا فِي الظُّرُوفِ الْخَاصَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَوْجِبُ عَدَمَ التَّسْوِيَةِ وَ تَحْتَمُّهُ، وَ كَانَ هَذَا بِحَدِّ ذَاتِهِ مَطْلَبًا آخَرَ يَبْعَثُ عَلَى ارْتِيَاحِهِنَّ، لِأَنَّهُنَّ كُنَّ يَرِينَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ يَسْعَى لِلتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُنَّ مَعَ كَوْنِهِ مَخْتِيرًا.

وَ آخِرًا يَنْهَى الْمَطْلَبُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا لَا يَسْتَعْجَلُ فِي أَنْزَالِ الْعِقَابِ بِالْمُذْنِبِينَ.

أَجَلٌ.. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِأَى حَكْمٍ قَدْ رَضِيْتُمْ، وَ لَهُ أَدْعَتُمْ بِقُلُوبِكُمْ، وَ عَنِ أَى حَكْمٍ لَمْ تَرْضُوا.

وَ هُوَ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ إِلَى مِنْ أَكْثَرِ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ، وَ مِنْ مَنْهَنْ تَحْظَى بِاهْتِمَامِ أَقْلٍ، وَ يَعْلَمُ كَيْفَ تَرَاعُونَ حَكْمَهُ وَ تَنْفُذُوهُ مَعَ هَذَا الْاِخْتِلَافِ فِي الْمَيُولِ وَ الرِّغْبَاتِ.

وَ كَذَلِكَ يَعْلَمُ سَبْحَانَهُ مِنْ هَمِّ الَّذِينَ يَجْلِسُونَ جَانِبًا، وَ يَعْتَرِضُونَ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، وَ يِعَارِضُونَهَا بِقُلُوبِهِمْ، وَ يَعْلَمُ مِنْ هُوَ الَّذِي يَرْضَى عَنِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَ يَتَقَبَّلُهَا بِدُونَ اعْتِرَاضٍ.

بِنَاءً عَلَى هَذَا فَإِنَّ تَعْبِيرَ (قُلُوبِكُمْ) وَاسِعٌ يَشْمَلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ أَزْوَاجَهُ، وَ يَشْمَلُ كَلَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ، أَوْ الَّذِينَ يَعْتَرِضُونَ عَلَيْهَا وَ يَنْكُرُونَهَا وَ إِنْ لَمْ يَبْدُوا هَذَا الْاِعْتِرَاضَ وَ الْإِنْكَارَ.

## هل كان هذا الحكم في حق كل نساء النبي:

لقد كانت هذه المسأله موضع بحث في الفقه الإسلامى فى باب خصائص النبى صلى الله عليه وآله بأن تقسيم الأوقات بين الزوجات المتعدده بالتساوى هل يجب على النبى صلى الله عليه وآله كما يجب على عامه المسلمين، أم أن النبى كان له حكم التخيير الاستثنائى؟ المعروف والمشهور بين فقهاءنا وعند جمع من فقهاء العامه أنه صلى الله عليه وآله كان مستثنى من هذا الحكم، ويعدون الآيه المذكوره أعلاه دليلا على ذلك، فهى تقول:

تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ

لأن جعل هذه الجملة بعد البحث حول كل نساء النبى يوجب أن يعود ضمير (هنّ) عليهنّ جميعا، وهذا مطلب مقبول من جانب الفقهاء وكثير من المفسرين.

إلا- أن البعض يرى أن الضمير أعلاه يتعلّق بالنساء اللاتى وهبن أنفسهنّ للنبى بدون مهر. فى حين أنه لم يثبت تاريخيا أن هذا الحكم قد تحقّق فى الخارج، وأن له موضوعا ومصداقا أم لا- والبعض يرى أن النبى لم يتزوج على هذه الشاكلة إلا- امرأه واحده. وعلى كل حال، فإن أصل المسأله لم يثبت من الناحيه التاريخيه هذا أولا.

ثانيا: إن هذا التفسير خلاف الظاهر، ولا يتناسب مع سبب النزول الذى ذكروه لهذه الآيه، وبناء على هذا فيجب قبول الحكم المذكور عاما.

اشاره

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)

التفسير

اشاره

حكم مهم آخر فيما يتعلق بأزواج النبي:

لقد بين الله سبحانه في هذه الآية حكماً آخر من الأحكام المتعلقة بزواج النبي، فقال عز وجل: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ فالآية منعت الرسول من الزواج الجديد إلا الماء والجوارى وكان الله على كل شيء رقيباً.

للمفسرين وفقهاء الإسلام بحوث كثيرة في هذه الآية، ووردت في المصادر الإسلامية روايات مختلفة في هذا الباب، ونحن نذكر أولاً ما يبدو من ظاهر الآية أنه مرتبط بالآيات السابقة واللاحقه-بغض النظر عن أقوال المفسرين- ثم نتناول المطالب الأخرى.

الظاهر من تعبير من بعد أن الزواج محرّم عليك بعد هذا، وبناء على هذا فإن

(بعد) إِمَّا أَنْ تَعْنَى (بعد) الزمانيه، أى لا تُتَّخَذُ زَوْجَهُ بَعْدَ هَذَا الزَّمَانِ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّكَ بَعْدَ أَنْ خَيَّرْتَ أَزْوَاجَكَ بَيْنَ الْبَقَاءِ مَعَكَ وَ الْحَيَاةِ حَيَاةً بَسِيطَةً فِي بَيْتِكَ، وَ بَيْنَ فِرَاقِهِنَّ، وَ قَدْ رَجَحْنَا الْبَقَاءَ مَعَكَ عَنْ رَغْبَةِ مَنْهِنَّ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَتَزَوَّجَ بَعْدَهُنَّ بِأَمْرَاهُ أُخْرَى.

وَ كَذَلِكَ لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَطْلُقَ بَعْضَهُنَّ وَ تَخْتَارَ مَكَانَهُنَّ زَوْجَاتٍ أُخْرَى. وَ بِتَعْبِيرٍ أُخْرَى:

لَا تَزِدُ فِي عِدَدِهِنَّ، وَ لَا تَبْدُلُ الْمَوْجُودَ مِنْهُنَّ.

## مسائل مهمه:

### اشاره

#### ١- فلسفه هذا الحكم:

إِنَّ هَذَا التَّحْدِيدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ لَا- يُعْتَبَرُ نَقْصًا، بَلْ هُوَ حُكْمٌ لَهُ فِلْسَفَةٌ دَقِيقَةٌ جَدًّا، فَطَبَقْنَا لِلشَّوَاهِدِ الَّتِي تَسْتَفَادُ مِنَ التَّارِيخِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ كَانَ تَحْتَ ضَغْطٍ شَدِيدٍ مِنْ قَبْلِ مُخْتَلَفِ الْأَفْرَادِ وَ الْقَبَائِلِ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ بِنِسَاءٍ أُخْرٍ مِنْهُمْ، وَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ الْمُسْلِمَةِ كَانَتْ تَفْتَخِرُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ بِأَنَّ النَّبِيَّ قَدْ صَاهَرَهُمْ وَ حَتَّى أَنْ بَعْضَ النِّسَاءِ كُنَّ عَلَى اسْتِعْدَادٍ أَنْ يَهْبِنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ بِدُونِ مَهْرٍ- كَمَا مَرَّ ذَلِكَ- وَ يَتَزَوَّجَهُ بِدُونِ أَىِّ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ.

كَانَتْ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ الزَّوْجِيَّةُ مَعَ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَ الْأَقْوَامِ حَلًّا لِمَشَاكِلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ مُحَقِّقَةً لِأَهْدَافِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَ السِّيَاسِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّهَا إِذَا تَجَاوَزَتْ الْحَدَّ، فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَخْلُقَ لَهُ الْمَشَاكِلَ بِنَفْسِهَا، وَ بِمَا أَنَّ كُلَّ قَبِيلَةٍ كَانَتْ تَأْمَلُ أَنْ يَتَزَوَّجَ النَّبِيُّ مِنْهَا، فَلَوْ أَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ أَنْ يَحَقِّقَ آمَالَ الْجَمِيعِ، وَ يَخْتَارَ مِنْهُمْ أَزْوَاجًا، حَتَّى وَ إِنْ كَانَتْ بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ وَ لَا يَدْخُلُ بِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُوجِدُ لَهُ مَصَاعِبَ جَمَّةً. وَ لِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ الْحَكِيمَ قَدْ مَنَعَ هَذَا الْأَمْرَ وَ وَقَفَ دُونَهُ بِإِصْدَارِ قَانُونٍ مُحْكَمٍ، فَنَهَاهُ عَنِ الزَّوْجِ الْجَدِيدِ، وَ عَنِ تَبْدِيلِ أَزْوَاجِهِ.

لقد كان هناك أفراد في هذا الوسط يتوسّلون للوصول إلى هدفهم بحجّه أنّ أغلب أزواجك أيامي، و من بينهم من لاحظ لها من الجمال، فاللائق بك أن تتزوّج بامرأه ذات جمال، و لذلك فإنّ القرآن أكّد على هذه المسأله بأنّه لا يحقّ لك أن تتزوّج النساء فيما بعد و إن أعجبتك حسنهاً و كنّ ذوات جمال.

إضافه إلى أنّ أداء الجميل و رعايته كان يوجب أن يسنّ الله تعالى مثل هذا القانون، و يأمر به نبيّه لحفظ مقام أزواجه بعد أن أبدين وفاءهن، و رجحن الحياه البسيطة المعنويه مع النبيّ صلّى الله عليه و آله على أى شيء آخر.

و أمّا فيما يتعلّق بالجوارى و المملوكات باليمين حيث أبيض الزواج منهنّ، فإنّما هو من أجل أنّ مشكله النبيّ كانت من ناحيه الحرائر، و لذلك لم تكن هناك ضروره تدعو إلى تحديد هذا الحكم فى طرف الجوارى، مع أنّ النبيّ صلّى الله عليه و آله لم يستفد من هذا الاستثناء طبق الشواهد التاريخيه.

هذا هو الشيء الذى يبدو من ظاهر الآيه.

## ٢- الروايات المخالفه:

اعتبرت جمله: **لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ** فى روايات عديده-بعضها ضعيفه من ناحيه السند، و بعضها يستحقّ الملاحظه-إشاره إلى النساء اللواتى بينّ تحريمهم فى الآيتين (٢٣ و ٢٤) من سوره النساء-و هنّ الامّ و البنت و الاخت و العمّه و الخاله و..، و صرّح فى ذيل بعض هذه الأخبار بأنّه: كيف يمكن أن تكون النساء حلال على الآخرين و حرام على النبيّ؟ فلم تكن أيّه امرأه محرّمه عليه سوى ما حرّم على الجميع (١).

طبعاً، يبدو بعيداً جدّاً أن تكون الآيه تشير إلى الآيات الوارده فى سوره

ص: ٣٢٢

النساء، إلا أن المشكله هنا أن بعض الروايات قد صرحت بأن المراد من مِنْ بَعْدُ: بعد المحرّمات في آيه سوره النساء.

بناء على هذا، فإنّ الأفضل هو أن نغضّ النظر عن تفسير روايات الآحاد هذه، أو كما يقال: ندع علم ذلك إلى أهله، أى المعصومون عليهم السلام، لأنها لا تنسجم مع ظاهر الآيه، ونحن مكلفون بظاهر الآيه، والأخبار المذكوره أخبار ظئيه.

والمطلب الآخر هو أن جماعه كثيره تعتقد بأن الآيه مورد البحث قد حرّمت كلّ زواج جديد على النّبي صلّى الله عليه وآله إلا أنّ هذا الحكم قد نسخ فيما بعد، واذن له بالزواج، وإن كان النّبي صلّى الله عليه وآله لم يتزوّد بعد ذلك. حتّى الآيه إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ.. و التي نزلت قبل الآيه مورد البحث، فإنّهم يعتبرونها ناسخه لهذه الآيه. و يعتقدون بأنّ هذه الآيه و إن كانت قد كتبت في القرآن بعد آيه إِنَّا أَخْلَلْنَا.. إلا أنّ الأخيره قد نزلت قبلها! بل و ينقل «الفاضل المقداد» في كنز العرفان بأنّ هذه هي الفتوى المشهوره بين الأصحاب (١).

و هذا الرأى يتعارض مع الروايات أعلاه بوضوح، و كذلك لا ينسجم مع ظاهر الآيات أيضا، لأنّ ظاهر الآيات يوحى بأنّ آيه إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ قد نزلت قبل الآيه مورد البحث، و مسأله النسخ تحتاج إلى دليل قطعى.

و على كلّ حال، فليس لدينا شىء أكثر اطمئنانا و وضوحا من ظاهر الآيه نفسها، و طبقا لذلك فإنّ كلّ زواج جديد، أو تبديل زوجات قد حرّم على النّبي صلّى الله عليه وآله بعد نزول هذه الآيه، و كان لهذا الحكم مصالح و منافع هامه أشرنا إليها فيما سبق.

### ٣- هل يمكن النظر إلى زوجه المستقبل قبل الزواج؟

اعتبر جمع من المفسّرين جمله وَ لَوْ أَعْجَبَيْكَ حُسْنُهُنَّ دليلا على حكم معروف أشير إليه في الروايات الإسلاميه أيضا، و هو: أنّ من أراد من أن يتزوّد

ص: ٣٢٣

بأمره يستطيع النظر إليها من قبل نظره تبين له هيكلها وأوصافها.

و حكمه هذا الحكم أن يختار الإنسان زوجته عن بصيره تامه و لا يندم و يأسف فى المستقبل و هو ما يهدد العلاقة الزوجيه و الكيان العائلى بالخطر، كما ورد ذلك فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال لأحد أصحابه حينما أراد أن يتزوج:

«انظر إليها، فإنه أجد أن يدوم بينكما» (١).

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال فى جواب هذا السؤال:

هل يستطيع الرجل أن يدقق النظر إلى المرأة إذا أراد الزواج منها و ينظر إلى وجهها و خلفها: «نعم، لا بأس أن ينظر الرجل إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، ينظر إلى وجهها و خلفها» (٢).

و الأحاديث الواردة فى هذا الباب كثيره، و قد صرح بعضها بأن هذه النظرة يجب أن لا تكون بدافع الشهوه و طلب اللذنه.

و واضح أيضا أن هذا الحكم خاص بالموارد التى يريد فيها الإنسان أن يتحقق فعلا من المرأة التى يريد الزواج منها، بحيث لو كانت الشروط مجتمعه فيها لتزوجها، أما الذى لم يصمم على الزواج بعد، بل يحتمله، أو أنه يريد مجرد البحث، فلا يجوز له النظر إلى النساء.

و احتمال البعض فى هذه الآيه أنها إشاره إلى النظر للنساء صدفة و لا إراديا، و على هذا فإن الآيه لا تدل فى هذه الحاله على الحكم المذكور آنفا، و ستكون الروايات هى الدليل الوحيد عليه. إلا أن جملة: «و لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ لَا تَنْسَجِمَ مَعَ نَظَرِهِ الصَّدْفَةَ السَّرِيعَةَ، وَ بِنَاءِ عَلَى هَذَا فَإِنَّ دَلَالَتَهَا عَلَى الْحُكْمِ الْمَذْكُورِ تَبْدُو بَعِيدَةً».

ص: ٣٢٤

١- (١) تفسير القرطبي، المجلد ٨، صفحه ٥٣٠٣.

٢- (٢) وسائل الشيعه، المجلد ١٤، الباب ٣٦ من أبواب مقدمات النكاح الحديث ٣.



إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْئَلُكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْئَلُكُمْ مِنْ الْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)

سبب النزول

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله لَمَّا تَزَوَّجَ «زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ» أَوْلَمَ لِلنَّاسِ وَ لِيَمَهَ فَخْمَهُ تَقْرِيْبًا. وَ قَلْنَا سَابِقًا: إِنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ رَبَّمَا كَانَتْ مِنْ أَجْلِ تَحْطِيمِ سُنَّةِ جَاهِلِيَةِ فِي مَجَالِ تَحْرِيمِ مَطْلَقَاتِ الْأَدْعِيَاءِ بِحَزْمٍ تَامٍ، وَ لِيَكُونَ لِهَذَا التَّحْطِيمِ شِعَاعٌ أَوْسَعُ، وَ لَتَمْحَى هَذِهِ السُّنَّةُ الْجَاهِلِيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَعْتَبَرُ

الزواج بأيامى العبيد المحرّرين عيبا و عارا.

يقول «أنس»، و كان خادما خاصيا للنبي: أمرنى النبى أن أدعو أصحابه للغداء فدعوتهم، فكانوا يأتون جماعه يأكلون و يخرجون، حتى قلت: يا رسول الله، لم يبق أحد لم أدعه، فأمر برفع السماط، فرفعوا السماط و تفرّق القوم، إلا ثلاثة نفر بقوا فى بيت النبى و كانوا مشغولين بالحديث.

فلما رأى النبى صلّى الله عليه و آله حديثهم قد طال، نهض و نهضت معه لعلّ القوم يلتفتون و يذهبون إلى أعمالهم، فخرج النبى حتى أتى حجره عائشه، ثم رجع مرّه اخرى و كنت معه، فرأيت القوم على جلستهم و حالهم، فنزلت الآية أعلاه و أفهمتهم كيفيه التعامل مع هذه المسائل (١).

و استفاد من بعض الروايات أيضا أنّ الجيران و سائر الناس كانوا يأتون إلى بعض نساء النبى و يستعيرون أشياء حسب المتعارف و المعتاد، وبالرغم من أنّهم لم يكونوا يرتكبون معصيه و ذنبا طبقا لبساطه الحياه آنذاك، إلا أنّ الآية أعلاه نزلت لحفظ حيثيه زوجات النبى و أمرت المؤمنين أنّهم إن أرادوا أن يأخذوا من نساء النبى شيئا فليأخذوه من وراء حجاب.

و جاء فى روايه اخرى أنّ بعض مخالفى النبى قالوا: كيف تزوّج النبى بعض نساءنا، أما و الله لئن مات لتتزوجن نساءه، فنزلت الآية أعلاه و حرّمت الزواج بنساء النبى من بعده مطلقا، و أنهت هذه المؤامره (٢).

## التفسير

مرّه اخرى يوجه الخطاب إلى المؤمنين، لتبين الآية جانبا آخر من أحكام

ص: ٣٢٦

١-١) مجمع البيان، المجلد ٨، صفحه ٣٦٦ ذيل الآية مورد البحث.

٢-٢) المصدر السابق، ص ٣٦٦ و ٣٦٨.

الإسلام ضمن جمل قصيره بليغه و صريحه، و خاصه ما كان مرتبطا بآداب معاشره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ بَيْتِ النَّبِيِّ، فتقول  
أولاً: لا ينبغي لكم دخول بيوت النبي إلا إذا دعيتم إلى طعام و اذن لكم بالدخول بشرط أن تدخلوا في الوقت المقرّر، لا أن تأتوا  
قبل ذلك بفترة و تجلسون في انتظار وقت الغذاء <sup>□</sup> أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ  
نَاطِرِينَ إِنَّهُ <sup>□</sup> (١).

بهذا تبين الآيه أحد آداب معاشره المهمه، و التي كانت قلماً تراعى في تلك البيئه، و مع أنّ الكلام يدور حول بيت النبي إلا أنّ  
من المسلم أنّ هذا الحكم لا يختصّ به، إذ ينبغي أن لا تدخل دار أي إنسان بدون إذنه (كما جاء ذلك في الآيه ٢٧ من سوره  
النور) بل نقرأ في أحوال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله أنه عند ما كان يريد دخول بيت ابنته فاطمه (سلام الله عليها)، كان يقف  
خارجاً و يستأذن. و كان معه «جابر بن عبد الله» يوماً، فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه <sup>□</sup> (٢).

إضافه إلى أنّهم إذا دعوا إلى طعام فينبغي أن يكونوا عارفين بالوقت، لئلا يوقعوا صاحب البيت في جهد و إحراج في غير مكانه.  
ثم تناولت الحكم الثاني فقالت: <sup>□</sup> وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا .

و هذا الحكم مكمل و مؤكّد للحكم السابق في الواقع، فلا تدخلوا البيت الذي دعيتم إليه في غير زمان الدعوه، و في وقت غير  
مناسب، و لا تهملوا إجابته الدعوه أو أن لا تعبؤوا بها، و لا تتأخروا بعد تناول الطعام مدّه طويله.

من البديهي أنّ مخالفه هذه الأمور و عدم اتباعها سيؤدى إلى أذى و اشمزاز المضيف، و هي لا تلائم الأصول الأخلاقيه.

و تقول في الحكم الثالث: <sup>□</sup> وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ فَلَا تَجْلِسُوا حَلَقًا تَتَحَدَّثُونَ

ص: ٣٢٧

١- ١) «إنه» من مادّه «أنى يأنى» أى حلول وقت الشىء، و تعنى هنا تهيئه الطعام للتناول.

٢- ٢) الكافي، المجلد ٥، ص ٥٢٨.

بعد تناول الطعام، سواء كان ذلك في بيت النبي، أم في بيت أى صاحب دعوه.

طبعاً، قد يرغب المضيفون في مثل هذه الحلقات و المجالس، فهذه الحاله مستثناه، إنّما الكلام في ما لو كانت الدعوه لتناول الطعام فقط، لا- لتشكيل مجالس الانس، حيث تجب مغادرته بعد تناول الطعام، خاصّه إذا كان البيت كبيت رسول الله صلّى الله عليه و آله، مقرّ أداء أكبر رسالات الله و أعظمها، فيجب أن لا يهدر وقته بأموار جانبية تعوقه مدّه عن تأديه رسالته.

ثمّ تبين الآيه علّه هذا الحكم فتقول: **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .**

من المسلم أنّ النبي صلّى الله عليه و آله لم يكن يتردّد لحظه، و لا يخشى شيئاً، أو يستحي من شيء في بيان الحقّ في الموارد التي لم يكن لها بعد شخصى و خاصّ، إلاّ أنّ بيان الحقّ إذا كان يعود على القائل نفسه ليس بالأمر الجميل الحسن، أمّا تبيانه من قبل الآخرين فإنّه رائع و مستحسن، و مورد الآيه من هذا القبيل أيضاً، فإنّ اصول الأخلاق و الأدب كانت توجب على النبي صلّى الله عليه و آله أن لا يدافع عن نفسه، بل يدافع الله سبحانه عنه.

ثمّ تبين الآيه الحكم الرابع في باب الحجاب، فتقول: **وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .**

قلنا: إنّ هذا الأمر كان و لا- يزال متعارفاً بين العرب و كثير من الناس أنّهم إذا احتاجوا شيئاً من لوازم الحياه و وسائلها فإنّهم يستعيرونها من جيرانهم مؤقتاً، و لم يكن بيت النبي مستثنى من هذا القانون، بل كانوا يأتون إليه سواء كان الوقت مناسباً أم غير مناسب، و يستعيرون من نساء النبي شيئاً، و من الواضح أن جعل نساء النبي عرضه لأنظار الناس- و إن كن يرتدين الحجاب الإسلامى- لم يكن بالأمر الحسن، و لذلك صدر الأمر إلى الناس أن يأخذوا الأشياء من خلف حجاب أو من خلف الباب.

و المسأله التي ينبغي الانتباه إليها هنا هي أنه ليس المراد من الحجاب في هذه الآيه لباس النساء، بل هو حكم يضاف إلى ما كان خاصاً بنساء النبي، و هو: أن الناس مكلفون إذا أرادوا شيئاً من نساء النبي أن يأخذوه من وراء حجاب لظروف نساء النبي الخاصه، و يجب عليهن أن لا يخرجن إلى الناس و يظهرن لهم في مثل هذه الموارد حتى و إن كن محجبات، و هذا الحكم لم يرد طبعاً في شأن النساء الاخريات، بل يكفيهن أن يراعين الحجاب الإسلامي.

و الشاهد على ذلك أن كلمه «الحجاب»، و إن كانت تستعمل في المحادثات اليوميه بمعنى حجاب المرأة، إلا أنها ليس لها مثل هذا المعنى لا في كتب اللغه، و لا في تعبيرات فقهاءنا.

«الحجاب» في اللغه هو الشيء الذي يحول بين شيئين (1)، و لذلك اطلق على الغشاء الموجود بين الأمعاء و القلب و الرئه اسم «الحجاب الحاجز».

و قد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمه بمعنى الحائل أو الساتر في عدّه مواضع، كآيه (٤٥) من سوره الإسراء حيث تقول: جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا.

و نقرأ في الآيه (٣٢) من سوره ص: حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ .

و جاء في الآيه (٥١) من سوره الشورى: وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .

أمّا في كلمات الفقهاء فقد استعملت كلمه «الستر» فيما يتعلّق بلباس النساء منذ قديم الأيام و إلى يومنا هذا، و ورد أيضاً في الزوايات الإسلامية هذا التعبير أو ما يشبهه، و استعمال كلمه «الحجاب» في شأن لباس المرأة اصطلاح ظهر في عصرنا على الأكثر، و إذا وجد في التواريخ و الزوايات فقليل جداً.

ص: ٣٢٩

الحديث المروى عن «أنس بن مالك» خادم النبي الخاص، حيث يقول: أنا أعلم الناس بهذه الآية-آية الحجاب-لما أهديت زينب إلى رسول الله كانت معه في البيت-صنع طعاما، ودعا القوم فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون، فأنزل الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ -إلى قوله- مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ فَضْرِبِ الْحِجَابَ وَ قَامِ الْقَوْمَ (١).

و في روايه اخرى عن «أنس» أنه قال: أرخى الستر بيني وبينه، فلما رأى القوم ذلك تفرقوا (٢).

بناء على هذا فإن الإسلام لم يأمر النساء المسلمات بأن يجلسن خلف الستور، ولا- يبرحن دورهن، وليس لكلمه «المستورات» أو «المحجبات» أو أمثال ذلك من التعبيرات صفة إسلاميه أو بعد إسلامي بالنسبه للنساء، بل إن ما يلزم المرأة المسلمه هو محافظتها على الحجاب الإسلامي، إلا أن نساء النبي قد أمرن بهذا الأمر الخاص بسبب وجود أعداء كثيرين، و متتبعين للعيوب و المغرضين، و كان من الممكن أن يصبحن عرضه للتهمة، و حربه تقع بيد الانتهازيين.

و بتعبير آخر: إن الناس قد أمروا أن يسألوا نساء النبي ما يتغونه من وراء حجاب. خاصه و أن التعبير ب«وراء» يشهد لهذا المعنى.

و لذلك بين القرآن فلسفه هذا الحكم فقال: ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ .

و بالرغم من أن مثل هذا التعليل لا- ينافي الحكم الاستجابي، إلا- أن ظهور الأمر في جملة فسيئلوهين لا يتزلزل في دلالة على الوجوب، لأن مثل هذا التعليل قد ورد أحيانا في موارد أحكام واجبه اخرى.

ثم تبين الآية الحكم الخامس بأنه و مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ فَبِالرَّغْمِ

من أن هذا العمل قد ذكر في نفس الآية، وهو الذهاب إلى بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي وَقْتٍ غَيْرٍ مُنَاسِبٍ، وَالْجُلُوسُ بَعْدَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، فَقَدْ وَرَدَ فِي رَوَايَاتٍ سَبَبَ النَّزُولِ أَنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا قَدْ أَقْسَمُوا عَلَى أَنْ يَتَزَوَّجُوا نِسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ بَعْدِهِ، وَقَدْ آلَمَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وَلَكِنْ مَعْنَى الْآيَةِ عَامٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ نَوْعٍ مِنَ الْأَذَى.

وَأخيراً تَبَيَّنَ الْآيَةُ الْحُكْمَ السَّادِسَ وَالْأَخِيرَ فِي مَجَالِ حَرْمَةِ الزَّوْجِ بِنِسَاءِ النَّبِيِّ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَتْ: **وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا.**

وَهُنَا يَأْتِي سُؤَالٌ، وَهُوَ: كَيْفَ حَرَّمَ اللَّهُ نِسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ اتِّخَاذِ زَوْجٍ لِهَنْ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُنَّ شَابَاتٍ تَقْرِيبًا؟ وَجَوَابُ هَذَا السُّؤَالِ يَتَّضِحُ بِمُلَاحَظَةِ الْغَايَةِ مِنْ هَذَا التَّحْرِيمِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ:

أَوَّلًا: كَمَا عَلِمْنَا مِنْ سَبَبِ النَّزُولِ، فَإِنَّ الْبَعْضَ صَمَّمَ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ كَانْتِقَامًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِهَانِهِ لِقُدْسِيَّتِهِ، وَكَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَنْزِلُوا ضَرْبَهُ بِكَيْفِيَّتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنِ هَذَا الطَّرِيقِ.

ثَانِيًا: لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ جَائِزَةً، فَإِنَّ جَمَاعَةَ كَانُوا سَيَتَّخِذُونَ زَوْجَانَ النَّبِيِّ أَزْوَاجًا لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَسْتَعْلُوا هَذَا الزَّوْجَ لِتَحْقِيقِ مَا رَبَّهُمْ وَالْوَصُولِ إِلَى مَكَانِهِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَرْمُوقَةٍ. أَوْ أَنَّهُمْ يَبْدُؤُونَ بِتَحْرِيفِ الْإِسْلَامِ عَلَى أُسَاسِ أَنَّهُمْ يَمْتَلِكُونَ مَعْلُومَاتٍ خَاصَّةً صَادِرَةً مِنْ دَاخِلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَأَهْلِ الْبَيْتِ أَدْرَى بِالذِّى فِيهِ، أَوْ أَنَّ بَيْتَ الْمُنَافِقُونَ بَيْنَ النَّاسِ مُطَالِبٌ عَنِ هَذَا الطَّرِيقِ تَخَالَفَ مَقَامِ النَّبُوَّةِ - تَأْمَلُوا ذَلِكَ -.

وَنَلْمَسُ ذَلِكَ بِصُورِهِ أَوْضَحَ عِنْدَ مَا نَعْلَمُ أَنَّ جَمَاعَةَ هَيَّؤُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الْعَمَلِ، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ، وَكَتَمَهُ الْبَعْضُ الْآخَرُ فِي قَلْبِهِ. وَكَانَ مِنْ جَمَلِهِ مِنْ

ذكره بعض مفسري العامه هنا هو «طلحه» (١).

إنَّ اللهَ المَطَّلَعُ على الأسرار الخفيَّةِ و المعلنه، و الخبير بها، قد أصدر حكماً قاطعاً لإحباط هذه الخطه الخبيثه، و ليمنع من وقوع هذه الأمور، و لتحكيم دعائم هذا الحكم فقد أطلق لقب (أمهات المؤمنين) على أزواج النبي ليعلم أولئك بأنَّ الزواج منهنَّ كالزواج من أمهاتهم! و بملاحظه ما قيل يتضح لماذا و جب على نساء النبي أن يتقبلن هذا الحرمان بكلِّ رحابه صدر؟ قد تطرح أحيانا مسائل مهمه على مدى حياه الإنسان، يجب أن يظهر تجاهها التضحيه و الإيثار، و أن يغضَّ النظر عن بعض الحقوق التي ثبتت له، خاصه و أنَّ الافتخارات العظيمة تصاحبها مسئوليات خطيره، و لا- شكَّ أنَّ أزواج النبي قد اكتسبن فخراً لا- يضاهي و عزاً لا- يسامى بزواجهنَّ من النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله، و اكتساب هذا الفخر يحتاج إلى مثل هذه التضحيه.

لهذا السبب كانت نساء النبي يعشن من بعده بكلِّ احترام و تقدير بين الامه الإسلاميه، و كن راضيات جداً عن حالهنَّ، و يعتبرن ذلك الحرمان مقابل هذه الافتخارات أمراً تافهاً.

و حذرت الآيه الثانيه الناس بشده، فقالت: **إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** فلا تظنوا أنَّ الله سبحانه لا يعلم ما خططتم له في سبيل إيذاء النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله سواء ما ذكرتموه، أو الذي أضمرتموه، فإنه تعالى يعلم كلَّ ذلك جيداً، و يعامل كلَّ إنسان بما يناسب عمله.

ص: ٣٣٢



مناسبه للبحث الذى ورد فى الآيات المذكوره فى شأن واجبات المسلمين عند ما يدعون إلى ضيافته النبى صلى الله عليه و آله،نورد جانباً من تعليمات الإسلام فيما يتعلّق بأصل مسأله «الضيافه»، وحقّ الضيف، و واجبات المضيف:

### ١- الضيافه:

لقد أولى الإسلام مسأله الضيافه أهميّه خاصّه، حتّى أنّه

ورد فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله: «الضيف دليل الجنّه» (١).

إنّ أهميّه الضيف و وجوب احترامه و تقديره، بلغ حدّاً اعتبر فيه هديه سماويه،

فإنّ رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: «إذا أراد الله ب قوم خيراً أهدى إليهم هديه، قالوا: و ما تلك الهديه؟ قال: الضيف ينزل برزقه، و يرتحل بذنوب أهل البيت» (٢).

و الطريف أنّ رجلاً حضر عند النبى صلى الله عليه و آله فقال: فداك أبى و أمى، إنى أسبغ الوضوء، و أقيم الصلاه، و أوتى الزكاه فى حينها، و ارحب بالضيف و اقره فى الله،

فقال صلى الله عليه و آله: «بخ بخ! ما لجهنم عليك سبيل! إنّ الله قد برأك من الشحّ إن كنت كذلك».

الكلام فى هذا الباب كثير، و نكتفى بهذا القدر رعايه للاختصار.

### ٢- مراعاة البساطه فى الضيافه:

مع كلّ الأهميه التى يتمتّع بها الضيف، فإنّ الضيافه إذا اتّسمت بالتكلّف فإنّها غير راجحه من وجهه نظر الإسلام، بل و نهى عنها، فإنّ الإسلام يوصى بأن تكون الضيافه بسيطه، و جعل معياراً عادلاً بين الضيف و المضيف، و هو: أن لا يبخل

ص: ٣٣٣

١- ١) بحار الأنوار، المجلد ٧٥، صفحه ٤٦٠ باب ٩٣ حديث ١٤.

٢- ٢) المصدر السابق.

المضيف بما عنده و يحضره،و أن لا يتوقع الضيف أكثر من ذلك!

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «المؤمن لا- يحتشم من أخيه،و ما أدري أيهما أعجب؟!الذى يكلف أخاه إذا دخل عليه أن يتكلف له،أو المتكلف لأخيه؟» (١).

و

يروى سلمان الفارسي عن النبي الأ-كرم صلّى الله عليه و آله أنه قال: «أن لا تتكلف للضيف ما ليس عندنا،و أن نقدّم إليه ما حضرنا» (٢).

### ٣-حقّ الضيف:

قلنا:إنّ الضيف كالهديه السماويه من وجهه نظر الإسلام،و يجب أن يرحّب به و يكرم غايه الإ-كرام،و يحترم أقصى ما يمكن،حتّى أن أمير المؤمنين عليا عليه السّلام

يروى عن النبي الأكرم صلّى الله عليه و آله أنه قال: «من حقّ الضيف أن تمشى معه فتخرجه من حريمك إلى البر» (٣).

و يجب تهيئه مستلزمات راحته إلى الحدّ الذى لا- يبلغ التكلف،حتّى أنه ورد فى حديث أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله قال:«إنّ من حقّ الضيف أن يعد له الخلال» (٤).

و قد يكون الضيوف خجولين أحيانا،و لذلك فقد صدر أمر بعدم سؤالهم عمّا إذا كانوا قد تناولوا الطعام أم لا،بل يمدّ لهم السمات فإن شاءوا و أكلوا،كما

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «لا تقل لأخيك إذا دخل عليك أكلت اليوم شيئا؟و لكن قزّب إليه ما عندك،فإنّ الجواد كلّ الجواد من بذل ما عنده» (٥).

و من جمله واجبات المضيف أمام الله سبحانه أن لا- يحقّر الطعام الذى أعدّه، لأنّ نعمه الله سبحانه عزيزه و محترمه مهما كانت،إلا أنّ المتعارف بين المترفين

ص: ٣٣٤

١- (١) بحار الأنوار،المجلّد ٧٥،صفحه ٤٥٣.

٢- (٢) المحجّه البيضاء،المجلّد ٣،صفحه ٢٩ الباب الثالث.

٣- (٣) بحار الأنوار،المجلّد ٧٥،صفحه ٤٥١.

٤- (٤) بحار الأنوار،المجلّد ٧٥،صفحه ٤٥٥.

٥- (٥) المصدر السابق.

و أهل التكلف أنهم مهما نوعوا السماط و ملأوه بأنواع الأَطعمه فإنهم يقولون: هذا شيء بسيط لا يليق بمقامكم! و في المقابل يجب أن لا يحتقر الضيف ما قدّم إليه،

ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره، و هلك امرؤ احتقر من أخيه ما قدّم إليه» (١).

إنّ الإسلام دقيق النظره في إكرام الضيف، فهو يقول: استقبل الضيف و أعنه عند ما يدخل إلى بيتك، أمّا إذا أراد الخروج فلا تعنه لئلا يتصوّر بأنك راغب في خروجه (٢).

#### ٤- واجبات الضيف:

إنّ المسؤوليات تكون متقابله دائما، فكما أنّ على المضيف واجبات تجاه الضيف، فكذلك توجد على الضيف واجبات ينبغي أن يراعيها.

فعلاوه على ما ذكر في الأحاديث السابقه، فإنّ على الضيف أن ينقذ ما يطلبه منه صاحب البيت و يقترحه عليه في شأن منزله، فإذا طلب منه أن يجلس في مكان ما مثلا فليفعل، فإنّ الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «إذا دخل أحدكم على أخيه في رحله فليقعد حيث يأمر صاحب الرحل، فإنّ صاحب الرحل أعرف بعوره بيته من الداخل عليه» (٣).

و ملخص الكلام أنّ مسأله الضيافه و آدابها قد خصص لها بحث واسع في آداب المعاشره الإسلاميه، و ليراجع لمزيد الإيضاح في هذا الباب «بحار الأنوار»، الأبواب ٨٨-٩٤ من أبواب العشره، المجلد ١٧ و «المحجّه البيضاء»، المجلد ٣

ص: ٣٣٥

١- (١) المحجّه البيضاء، المجلد ٣، صفحه ٣٠.

٢- (٢) بحار الأنوار، المجلد ٧٥، صفحه ٤٥٥ حديث ٢٧.

٣- (٣) بحار الأنوار، المجلد ٧٥، صفحه ٤٥١.

إلّا أنّ هذه السنّه الإنسانيه القديمه قد تقلّصت و للأسف الشديد فى عصرنا الحاضر..عصر غلبه الماديه و طغيانها فى العالم، و هيمنتها عليه، بل إنّها قد اجتّثت تقريبا فى بعض المجتمعات الغربيه، و قد سمعنا أنّ بعض أولئك عند ما يأتون إلى البلاد الإسلاميه و يرون انتشار مسأله الضيافه التى لا زالت قائمه فى البيوتات الأصيله، و مدى العواطف التى تكتنفها، فإنّهم يتعجبون كيف يمكن أن يقدّم الناس أفضل الوسائل الموجوده فى البيت، و أنفس الأطمعه و الذّها للضيوف الذين ربّما تربطهم بهم رابطه ضعيفه أحيانا، و ربّما كانوا قد تعارفوا فى سفره قصيره؟! إلّا أنّ ملاحظه الأحاديث الإسلاميه-التي ورد قسم منها قبل قليل-تبين سبب هذه التضحيه و الإيثار، و توضّح الحسابات المعنويه فى هذا المجال..تلك الحسابات التى لا تعنى شيئا لدى عبّاد المادّه و الغارقين فى بحرّها.

### اشاره

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَ  
إِتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)

### سبب النزول

يروى بعض المفسرين أن آباء نساء النبي و أبناءهن و عوائلهن سألوا رسول الله صلى الله عليه و آله بعد نزول آيه الحجاب-الآيه  
السابقه:-يا رسول الله،و نحن أيضا نحدّثهنّ من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآيه بأنّها لا تشملكم.

### التفسير

### اشاره

### الموارد المستنانه من قانون الحجاب:

لَمَّا كَانَ الْحُكْمُ الَّذِي وَرَدَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ حَوْلَ حِجَابِ نِسَاءِ النَّبِيِّ مُطْلَقًا، وَ يُمْكِنُ أَنْ يُوْهِمَ هَذَا الْإِطْلَاقُ بِأَنَّ الْمَحَارِمَ مَكْلُوفُونَ  
بِتَنْفِيذِهِ أَيْضًا، وَأَنْ يَحْدِثُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ كَالْأَجَانِبِ، فَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَ فَصَلَتْ حُكْمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

تقول الآيه: لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ

إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

و بتعبير آخر: فإنّ محارمهنّ الذين استثنوا في الآية هم هؤلاء الستّه فقط، و إذا قيل: إنّ هناك أفرادا من المحارم أيضا لم يجر لهم ذكر في الآية كالأعمام و الأخوال، فيجاب على هذا السؤال بأنّه:

لما كان القرآن يراعى الفصاحه و البلاغه في أجلى صورها و أسماها، و أحد اصول الفصاحه هو أن لا تكون في الكلام أى كلمه زائده، فقد امتنع عن ذكر الأعمام و الأخوال هنا، و ذلك لأنّه حينما ذكر أولاد الأخ و أولاد الاخت، فسوف يتّضح حكم الأعمام و الأخوال من المحارم، لأنّ لهذه المحرميه جانبان، فكما أنّ ابن الأخ محرم بالنسبه إلى المرأه، فإنّها ستكون محرما أيضا بالنسبه إلى ابن أخيها – و نحن نعلم أنّ مثل هذه المرأه تعتبر «عمّه» – و لأنّ ابن الاخت كما هو محرم عليها فإنّها ستكون محرما بالنسبه إلى ابن الاخت، و نعلم أنّ مثل هذه المرأه هي «الخاله».

و عند ما تكون العمّه و الخاله محرما بالنسبه إلى ابن الأخ و ابن الاخت، فإنّ العمّ و الخال سيكونان أيضا محرما بالنسبه إلى ابنه الأخ و ابنه الاخت، حيث لا فرق بين العمّ و العمّه، و الخال و الخاله، و هذه إحدى دقائق القرآن الكريم. (تدبر ذلك).

و هنا يطرح سؤال آخر، و هو: إنّ أبا الزوج و ابن الزوج بعض محارم المرأه، فلما ذا لم يذكر هنا؟ في حين أنّهما ذكرا من جمله المحارم في الآية (٣١) من سوره النور.

و الإجابة عن هذا السؤال واضحة، لأنّ الكلام في هذه الآية منحصر في حكم نساء النّبي صلّى الله عليه و آله، و نحن نعلم أنّ أبا النّبي صلّى الله عليه و آله لم يكن موجودا حال حياته، و لا أمّه، و لم يكن له ابن (١). «فتأمل».

ص: ٣٣٨

١- ١) ذكر المؤرّخون ثلاثه أولاد للنّبي صلّى الله عليه و آله: القاسم و عبد الله (الملقب بالطيّب و الطاهر)، و كانا من خديجه، و قد ودّعا

إنَّ عدم ذكر الإخوة والأخوات من الرضاة، و أمثالهم بسبب أنَّ هؤلاء في حكم الأخ و الاخت و سائر المحارم، و لا يحتاجون إلى ذكر مستقل.

و يتغيَّر أسلوب الآيه في نهايتها من الغائب إلى المخاطب، فتخاطب نساء النبي و تقول: **وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كُلِّ شَيْءٍ** شهيداً فإنَّ الحجاب و الستر و أمثالهما وسائل للحفظ و الإبعاد عن الذنب و المعصية ليس إلا، و الدعامة الأساسية هي التقوى فحسب، و لولاها فسوف لا تنفع كل هذه الوسائل.

و الجدير بالذكر أنَّ نِسَائِهِنَّ إشارة إلى النساء المسلمات، و ذلك لأنَّ من غير اللائق بالنساء المسلمات- و كما قلنا في تفسير سورة النور- أن يكنَّ بدون حجاب أمام غير المسلمات، إذ أنَّ من الممكن أن تصفهنَّ غير المسلمات لأزواجهنَّ (١).

و أما جملة: **وَ لَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ** فلها معنى واسع- كما قلنا ذلك في تفسير سورة النور أيضا- يشمل الجوارى و الغلمان، إلا أنَّها تختص بالجوارى طبقاً لبعض الروايات الإسلامية، و بناء على هذا فإن ذكرهنَّ بعد ذكر «النساء» قد يكون من جهه شمولها للجوارى غير المسلمات عموماً. (دققوا ذلك).

(١)

الحياه في طفولتهما، و إبراهيم الذي ولد في السنه الثامنه للهجره، و لم يعيش أكثر من ١٨ أو ١٦ شهرا و لم يكن أى منهم حيًا عند نزول سورة الأحزاب، و إبراهيم ولد بعد ذلك و مات في طفولته. يراجع: اسد الغابه، و سائر كتب التاريخ و الرجال.

ص: ٣٣٩

(١-١) يراجع التفسير الأمثل ذيل الآيه (٣١) من سورة النور.

اشاره

□ □ □ □ □  
إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)

التفسير

اشاره

التفسير (١)

الصلاة على النبي و السلام عليه:

بعد البحوث التي مرّت في الآيات السابقة حول وجوب حفظ حرمة النبي صلى الله عليه و آله و عدم إيذائه، فإنّ هذه الآيات تتحدّث أولاً عن محبّة الله و ملائكته للنبي صلى الله عليه و آله و تعظيمهم له، و بعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك، ثم تذكر العواقب المشؤومة الأليمه لأولئك الذين يؤذون النبي صلى الله عليه و آله ثم تبيّن أخيراً عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتّهامهم و الافتراء عليهم.

ص: ٣٤٠

١-١) الطريف أنّ البدء بهذه الآيات صادف ليّله ميلاد النبي صلى الله عليه و آله في شهر ربيع الأوّل سنة الف و أربعمائه و أربع للهجرة.



تقول أولاً: إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .

إنَّ مقام النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ مَنْزِلَتَهُ مِنْ الْعِظَمَةِ بِمَكَانٍ، بِحَيْثُ أَنَّ خَالِقَ عَالَمِ الْوُجُودِ، وَ كُلَّ الْمَلَائِكَةِ الْمُؤَكَّلِينَ بِتَدْبِيرِ أَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ بِأَمْرِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، وَ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَضَمُّوا أَصْوَاتَكُمْ إِلَى نِدَاءِ عَالَمِ الْوُجُودِ هَذَا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

إنَّه جَوْهَرُهُ نَفْسُهُ لِعَالَمِ الْخَلْقِ، وَ قَدْ جَعَلَ بَيْنَكُمْ بِلُطْفِ اللَّهِ، فَلَا- تَسْتَصْغِرُوا قَدْرَهُ، وَ لَا- تَنْسُوا مَقَامَهُ وَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ السَّمَاوَاتِ.. إِنَّهُ إِنْسَانٌ ظَهَرَ مِنْ بَيْنِكُمْ، لَكِنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانًا عَادِيًّا، بَلْ هُوَ إِنْسَانٌ يَتَلَخَّصُ عَالَمِ الْوُجُودِ فِي وَجُودِهِ.

وَ هُنَا أُمُورٌ يَجِبُ الْإِلْتِفَاتُ إِلَيْهَا:

١- (الصلاة) و جمعها «صلوات»، كلُّما نسبت إلى الله سبحانه فإنَّها تعنى «إرسال الرحمة»، و كلُّما نسبت إلى الملائكة فإنَّها تعنى «طلب الرحمة» (١).

٢- إنَّ التعبير ب(يصلُّون) و هو فعل مضارع يدلُّ على الاستمرار، يعنى أَنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ دَائِمًا وَ بِاسْتِمْرَارٍ صَلَاةً دَائِمَةً خَالِدَةً.

٣- اختلف المفسِّرون في الفرق بين (صلُّوا) و (سَلِّمُوا) و الذى يبدو أنَّه أنسب للأصل اللغوى للكلمتين، و أوفق لظاهر الآيه القرآنيه، هو: أن (صلُّوا) أمر بطلب الرحمة و الصلاة على النَّبِيِّ، أمَّا (سَلِّمُوا) فتعنى التسليم لأوامر نبي الإسلام الأكرم، كما ورد في الآيه (٦٥) من سوره النساء ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

و كما نقرأ

في روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّ أبا بصير سأله فقال: قد عرفت صلاتنا على النَّبِيِّ، فكيف التسليم؟ قال: «هو التسليم له في الأمور» (٢).

أو أن يكون بمعنى «السلام» على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ ب(السلام عليك يا رسول الله) و ما

ص: ٣٤١

١- ١) أورد الراغب هذا المعنى بعبارات اخرى في المفردات.

٢- ٢) مجمع البيان ذيل الآيه مورد البحث.

أشبه ذلك، و الذي يعنى طلب سلامه النبى صلى الله عليه و آله من الله سبحانه.

يروى «أبو حمزه الثمالى» عن «كعب» - وهو أحد أصحاب النبى صلى الله عليه و آله أنه قال:

لما نزلت هذه الآية قلنا: قد عرفنا السلام عليك، فكيف نصلى عليك؟ فقال: «قولوا:

اللهم صل على محمد و آل محمد، كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد، و بارك على محمد و آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد» (1). و من هذا الحديث تتضح كيفية الصلاة على النبى صلى الله عليه و آله و كذلك يتضح معنى «السلام».

و بالرغم من أن هذين المعنيين للسلام يبدوان مختلفين تماما، إلا أنه يمكن عطفهما و إرجاعهما إلى نقطه واحده إذا دققنا فيهما، و هى: التسليم القولى و الفعلى للنبى صلى الله عليه و آله، لأن من يسلم عليه و يرجو من الله سلامته، يعشقه و يعرفه كنبى مفترض الطاعة.

٤-م يلفت النظر أنه قد ورد صريحا فى كيفية الصلاة على النبى و فى روايات لا تحصى من طرق العامة و أهل البيت، أن يضاف (آل محمد) عند الصلوات على محمد صلى الله عليه و آله.

فقد روى فى «الدر المنثور» عن صحيح البخارى و مسلم و سنن أبى داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و ابن مردويه و رواه آخرين عن كعب بن عجرة:

أن رجلا أتى إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال: أما السلام عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ فقال النبى صلى الله عليه و آله: «قل اللهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

و قد أورد صاحب تفسير الدر المنثور ثمانية عشر حديثا آخر إضافه إلى هذا

ص: ٣٤٢

١-١) المصدر السابق. و روى الحديث الثانى فى كتب الفريقين بطرق متعدده، و بعبارات قريبه الألفاظ.

الحديث، صرّحت جميعا بوجوب ذكر «آل محمّد» عند الصلوات.

وقد رويت هذه الأحاديث عن كتب أهل السنّه المعروفه المشهوره عن جماعه من الصحابه منهم: ابن عبّاس، و طلحه، و أبو سعيد الخدرى، و أبو هريره، و أبو مسعود الأنصارى، و بريده، و ابن مسعود، و كعب بن عجره، و أمير المؤمنين على عليه السّلام (١).

وقد رويت فى صحيح البخارى (و هو أشهر مصادر الحديث عند أهل السنّه) روايات عديده فى هذا الباب يستطيع من يريد مزيد الإيضاح أن يرجع إليه (٢).

و كذلك وردت فى صحيح مسلم روايتان فى هذا الباب (٣).

و العجيب فى هذا الكتاب أنّه بالرغم من ورود (آل محمّد) عدّه مرّات فى هذين الحديثين، فإنّه اختار هذا العنوان لهذا الباب: (باب الصلاه على النّبى صلّى الله عليه و آله) بدون ذكر «الآل»!! و ثمّه مسأله تستحقّ الانتباه و هى: أنّ فى بعض روايات أهل السنّه، و فى كثير من روايات أهل البيت لم ترد حتّى كلمه (على) لتفرّق بين محمّد و آل محمّد، بل كيفيه الصلاه هى: اللهم صلّ على محمّد و آل محمّد.

و ننهى هذا البحث بحديث آخر عن النّبى الأكرم صلّى الله عليه و آله فإنّ

«ابن حجر» يروى فى الصواعق: أنّ النّبى صلّى الله عليه و آله قال: «لا- تصلّوا على الصلاه البتراء، فقالوا: و ما الصلاه البتراء؟ قال: تقولون: اللهم صلّ على محمّد و تمسكون، بل قولوا: اللهم صلّ على محمّد و آل محمّد» (٤).

و لهذه الزوايات فقد اعتبر جمع من كبار فقهاء العامّه إضافه (آل محمّد) إلى

ص: ٣٤٣

١-١) تفسير الدرّ المنثور ذيل الآيه مورد البحث، طبقا لتفسير الميزان، ج ١٦، صفحه ٣٤٤.

٢-٢) صحيح البخارى، المجلّد ٦، صفحه ١٥١.

٣-٣) صحيح مسلم، المجلّد ١، صفحه ٣٠٥ باب الصلاه على النّبى صلّى الله عليه و آله.

٤-٤) الصواعق المحرقة، صفحه ١٤٤.

اسم «محمد» في تشهد الصلاة واجبا (١).

٥- هل أنّ الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله واجبه أم لا؟ وإذا كانت واجبه فأين تجب؟ يقول الفقهاء في الإجابة عن هذا السؤال: إنّ جميع فقهاء أهل البيت يعتبرونها واجبه في التشهد الأول والثاني من الصلاة، ومستحبه في غيرهما.

و علاوه على الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في هذا الباب، فإنّ الروايات الواردة في كتب أهل السنّة، والدالّة على الوجوب، ليست بالقليلة، ومن جملتها ما ورد عن عائشه أنّها قالت: سمعت رسول الله يقول: «لا يقبل صلاه إلا بطهور وبالصلاه عليّ».

و يعتبر «الشافعي» - وهو من فقهاء العامّة - الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله واجبه في التشهد الثاني، و«أحمد» في إحدى الروايتين المرويتين عنه، وجمع آخر من الفقهاء، غير أنّ «أبا حنيفة» لا يعتبرها واجبه.

و الطريف أنّ «الشافعي» قد نظم فتواه هذه شعرا و ذكرها بصراحه حيث يقول:

يا أهل بيت رسول الله حبكم

فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر أنكم

من لم يصلّ عليكم لا صلاه له (٢)

ثمّ تبين الآيه التاليه النقطه المقابله للآيه السابقه، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا .

ماذا يراد من أذى الله سبحانه؟ قال البعض: إنّ المراد منه هو الكفر والإلحاد الذي يغضب الله عزّ وجلّ، لأنّ «الأذى» لا يعنى في شأن الله تعالى إلاّ إغضابه.

ص: ٣٤٤

١ - ١) أورد العلامة الحلّي هذا القول في بحث التشهد من التذكرة - إضافة إلى كلّ علماء الشيعة - عن الإمام أحمد و بعض الشافعيه.

٢ - ٢) ذكر العلامة الأميني في كتاب «الغدير» النفيس نسبة هذه الأشعار إلى الشافعي عن شرح المواهب للزرقاني و جماعه آخرين.

و يحتمل أيضا أن يكون إيذاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالمؤمنين هو إيذاء الله تعالى، و ذكر الله في الآية لأهميه المطلب و تأكيده.

و أما إيذاء نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَله معنى واسع، و يشمل كل عمل يؤذيه، سواء كان الكفر و الإلحاد و مخالفه أو امر الله و الافتراءات و التهم، أم الأذى الذى يراه حين يدعوهم إلى بيته، كما مرّ في الآية (٥٣) من هذه السوره إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ .

أو الموضوع الذى ورد في الآية (٦١) من سوره التوبه عند ما اتهموا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأنه «اذن» نتیجه إصغائه لكلام الناس و رعايته لأدب المحادثه وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ وَ أمثال ذلك.

بل و يستفاد من الروايه الوارده في ذيل الآية أَنَّ إيذاء أهل بيت النبي و خاصه على و فاطمه عليهما السلام، يدخل ضمن الآية، و

قد جاء في المجلد الخامس من صحيح البخارى، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: «فاطمه بضعه منى فمن أغضبها أغضبني» (١).

و

ورد هذا الحديث في «صحيح مسلم» بهذه العبارة: «إِنَّ فاطمه بضعه منى يؤذيني ما آذاها» (٢).

و روى هذا المعنى في حقّ على عليه السلام عن النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (٣).

و أمّا «اللعن» الوارد في الآية أعلاه، فإنّه بمعنى الطرد عن رحمه الله، و هو في مقابل الرحمه و الصلوات التى وردت في الآية السابقه تماما.

إِنَّ اللعن و الطرد عن رحمه الله سبحانه.. تلك الرحمه الواسعه التى لا تعرف الحدود، يعدّ أسوأ أنواع العذاب، خاصه إذا كان هذا الطرد في الدنيا و الآخره كما هو في الآية مورد البحث، و لعلّ ذكر مسأله اللعن قبل العذاب المهين لهذا السبب.

ص: ٣٤٥

١-١) صحيح البخارى، الجزء ٥، صفحه ٢٦.

٢-٢) صحيح مسلم، المجلد ٤، صفحه ١٩٠٣ باب فضائل فاطمه.

٣-٣) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

والتعبير ب(أعدّ) دليل على تأكيد هذا العذاب وشدّته.

تحدّث الآيه الأخيره عن إيذاء المؤمنين، و تهتمّ به جدّا بعد إيذاء الله و رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فتقول: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا لِأَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ عِلَاقَةً بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ عَنِ طَرِيقِ الْإِيمَانِ، وَ لِهَذَا جَعَلَ فِي رُتْبَةِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ هُنَا.

و تعبیر بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا إشاره إلى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا ذنبا حتّى يؤذوا.

و من هنا يتّضح أنّهم إن بدر منهم ذنب يستوجب الحدّ و القصاص فلا مانع من إجرائه و تنفيذه في حقّهم، و كذلك لا يشمل هذا الكلام الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

إنّ تقديم «البهتان» على «الإثم المبين» لأهميته، لأنّ البهتان يعتبر من أكبر الذنوب، و الجراحات التي تنجم عنه أشدّ ألما من جراحات السنان، كما قال الشاعر العربي:

جراحات السنان لها التيام

و لا يلتام ما جرح اللسان

و قد أولت الروايات الإسلاميه هذه المسأله اهتماما فائقا،

ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: (لِيَأْذَنَ بِحَرْبِ مَنْنِي مِنْ آذَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ)» (١).

و قال بعض المفسّرين: يستفاد من أسلوب الآيه أنّ جماعه في المدينه كانوا يطلقون الشائعات و يثيرون الشبهات حول المؤمنين، و يتهمونهم بما ليس فيهم، و حتّى نبى الله لم يكن بمنأى عن ألسن أولئك المؤذنين. و هذه الفئه ليست قليله في المجتمعات الاخرى، و خاصّه في مجتمعات اليوم، و ليس لها عمل إلاّ التآمر ضدّ الصالحين و المحسنين، و اختلاق الأكاذيب و التهم.

ص: ٣٤٦

لقد هاجم القرآن الكريم هؤلاء الأشخاص أشدّ هجوم، ووصفت أعمالهم بالبهتان والإثم المبين. والشاهد لهذا الكلام سيأتي في الآيات التالية.

و

جاء في حديث آخر يرويّه الإمام علي بن موسى الرضا عليه السّلام عن جدّه رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتّى يخرج ممّا قاله فيه» (١).

ص: ٣٤٧

---

(١ - ١) بحار الأنوار، المجلد ٧٥، صفحہ ١٩٤.

إشاره

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لئن لم ينته المؤمنون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة لنعرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً (٦٠) ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً (٦١) سنة الله في الذين خلوا من قبل و لن تجد لسنة الله تبديلاً (٦٢)

سبب النزول

جاء في تفسير «على بن إبراهيم» في سبب نزول الآية الأولى: فإنه كان سبب نزولها أن النساء كن يخرجن إلى المسجد و يصلين خلف رسول الله صلى الله عليه و آله و إذا كان بالليل خرجن إلى صلاة المغرب و العشاء الآخرة و الغداة، يقعد الشبان لهن في طريقهن فيؤذونهن و يتعرضون لهن فأنزل الله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ - إلى قوله - ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا



و جاء في نفس الكتاب في شأن نزول الآية الثانية، أنها نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا خَرَجَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ يَقُولُونَ قَتَلَ وَأَسْرَفِغْتَمَ الْمُسْلِمُونَ لَذَلِكَ وَيَشْكُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِقُونَ -إلى قوله- ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٢) فبذلك هددت مختلقى الشايعات بشده.

### التفسير

### إشاره

### تحذير شديد للمؤذنين و مختلقى الإشاعات!

بعد النهى عن إيذاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي وَرَدَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أَكَّدَتِ الْآيَةُ هُنَا عَلَى أَحَدِ مَوَارِدِ الْأُذَى، وَ مِنْ أَجْلِ الْوُقُوفِ أَمَامَهُ سَلَكْتَ طَرِيقَيْنِ:

فَأَمَرْتَ الْمُؤْمِنَاتِ أَوْلَا أَنْ لَا يَدْعُنَ فِي يَدِ الْمَفْسُودِينَ وَ الْعَابِثِينَ حَجَّةً يَتَشَبَثُونَ بِهَا فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ أَذَاهُمْ، ثُمَّ هَاجَمْتَ الْمُنَافِقِينَ وَ مَخْتَلَقِي الْإِشَاعَاتِ وَ هَدَّدْتَهُمْ بِتَهْدِيدِ قَلِّ نَظِيرِهِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ.

فَتَقُولُ الْآيَةُ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ .

هناك رأيان لدى المفسرين في المراد من «المعرفة» لا يتناقضان:

الأول: أنه كان من المتعارف ذلك اليوم أن تخرج الجوارى من المنازل مكشوفات الرأس و الرقبه، و لما لم يكن مقبولات من الناحية الأخلاقية، فقد كان بعض الشباب المتهور يضايقوهن، فأمرت المسلمات الحرائر أن يلتزمن الحجاب التام ليميزن عن الجوارى، و بالتالى لا يقدر أن يؤذيهن أولئك الشباب.

ص: ٣٤٩

١- ١) تفسير القمى ج ٢ ص ١٩٦.

٢- ٢) المصدر السابق طبقا لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٠٧.

و من البديهي أنّ هذا الكلام لا يعنى أنّه كان لأولئك الطائشين حقّ أذى الجوارى، بل المراد سلب الحجّه من الأفراد الفاسدين.

و الآخر: أنّ الهدف هو أن لا تتساهل المسلمات فى أمر الحجاب كبعض النساء المتحلّلات و المتبرجات المسلوبات الحياء رغم التظاهر بالحجاب، هذا التبرّج يغرى السفله و الأراذل و يلفت انتباههم.

أمّا المراد من «الجلباب» فقد ذكر المفسرون و أرباب اللغه عدّه معان له:

١- أنّه «الملحفه»، و هى قماش أطول من الخمار يغطّى الرأس و الرقبه و الصدر.

٢- أنّه المقنعه و الخمار.

٣- أنّه القميص الفضفاض الواسع (١).

و مع أنّ هذه المعانى تختلف عن بعضها، إلاّ أنّ العامل المشترك فيها أنّها تستر البدن.

و تجدر الإشارة إلى أنّ «الجلباب» يقرأ بكسر الجيم و فتحها.

إلاّ أنّ الأظهر أنّ المراد هو الحجاب الذى يكون أكبر من الخمار و أقصر من العباءه، كما ذكر ذلك صاحب لسان العرب.

و المراد من (يدنين) أن يقربن الجلباب إلى أبدانهن ليكون أستر لهنّ، لا- أن يدعنه كيف ما كان بحيث يقع من هنا و هناك فيكشف البدن، و بتعبير أبسط أن يلاحظن ثيابهنّ و يحافظن على حجابهنّ.

أمّا ما استفاده البعض من أنّ الآيه تدلّ على وجوب ستر الوجه أيضا، فلا دليل عليه، و النادر من المفسّرين من اعتبر ستر الوجه داخلا فى الآيه (٢).

و على كلّ حال، فيستفاد من هذه الآيه أنّ حكم الحجاب بالنسبه للحرائر كان

ص: ٣٥٠

---

١- ١) لسان العرب، مجمع البحرين، مفردات الراغب القطر المحيط، و تاج العروس.

٢- ٢) كان لنا بحث حول فلسفه الحجاب و أهميته، و كذلك حول استثناء الوجه و الكفّين فى ذيل الآيتين ٣١ و ٣٢ من سوره النور.

قد نزل من قبل، إلا أن بعض النسوة كن يتساهلن في تطبيقه، فنزلت الآية المذكورة للتأكيد على الدقة في التطبيق.

ولما كان نزول هذا الحكم قد أقلق بعض المؤمنات مما كان منهن قبل ذلك، فقد أضافت الآية في نهايتها وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا فكل ما بدر منكن إلى الآن كان نتيجة الجهل فإن الله سيغفره لكن، فتبن إلى الله وارجعن إليه، و نفذن واجب العفة و الحجاب جيدا.

بعد الأمر الذي صدر في الآية السابقة للمؤمنات، تناولت هذه الآية بعدا آخر لهذه المسألة، أى أساليب الأراذل و الأوباش في مجال الإيذاء، فقالت: لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة لنعرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً (١).

(المرجفون) من مادّة «إرجاف»، و هى إشاعة الأباطيل بقصد إيذاء الآخرين و إحزانهم، و أصل الإرجاف: الاضطراب و التزلزل، و لما كانت الإشاعات الباطلة تحدث اضطرابا عاما، فقد أطلقت هذه الكلمة عليها.

و(نعرينك) من مادّة «الإغراء»، و يعنى الدعوه إلى تنفيذ عمل، أو تعلم شىء، دعوه تفتن بالترغيب و التحريض.

و يستفاد من سياق الآية أن ثلاث فئات فى المدينة كانت مشغله بأعمال التخريب و الهدم، و كل منها كان يحقق أهدافه بأسلوب خاص، فظهر ذلك كتيار و مخطط جماعى، و لم تكن له صبغه فرديه:

فالفئة الاولى: هم «المنافقون» الذين كانوا يسعون لاقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامرتهم ضده.

و الثانية: هم «الأراذل» الذين يعتبر عنه القرآن: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كَمَا

ص: ٣٥١

١-١) (قليلًا) هنا مستثنى من محذوف، و التقدير: لا يجاورونك زمانا إلا زمانا قليلا.

أَنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ قَدْ وَرَدَ فِي آيَةِ (٣٢) مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ فِي شَأْنِ مَنْ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ وَشَهْوَاتِهِ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .

و الفئه الثالثه:هم الذين كانوا يبثون الإشاعات في المدينه،و خاصه عند ما كان النبي صلى الله عليه و آله و جيش المسلمين يتجهون إلى الغزوات،لإضعاف معنوياتهم،و كانوا ينشرون الأخبار الكاذبه عن هزيمه النبي و المؤمنين،و هؤلاء هم «اليهود» برأى بعض المفسرين.

و بهذا فإنّ القرآن الكريم هدّد هذه الفئات الثلاثه جميعا.

و يحتمل في تفسير الآيه أيضا،أنّ كلّ أعمال التخريب للفئات الثلاثه كانت من عمل المنافقين،و فصلها عن بعضها هو فصل الصفات لا الأشخاص.

و مهما كان،فإنّ القرآن يقول:إنّ هؤلاء إن استمروا في أعمالهم القبيحه المشينه فسندبر أمرنا بالهجوم العام عليهم،لنقتلع جذورهم من المدينه بحركه المؤمنين الشعبيه،و لا يقدرّون على البقاء في المدينه بعد ذلك.

و عند ما يطردون من هذه المدينه،و يخرجون عن حمايه الحكومه الإسلاميه، فإنّهم سيكونون ملّعون أئبما تُقْفُوا أُخْدُوا وَ قُتِلُوا تَقْتِيلًا .

«تقفوا» من مادّه «تقف» و«ثقافه»،و هي:السيطره على الشىء بدقه و مهاره، و لهذا يقال للعلم و تحصيله و الإحاطه به «ثقافه».و هذا التعبير إشاره إلى أنّهم سوف لا يجدون مكانا آمنا بعد هذا الهجوم،بل سيبحث عنهم المؤمنون بدقه حتّى يجدوهم و يرسلوهم إلى ديار الفناء.

و هناك احتمالان في المراد من الآيه:فأمّا أنّه سيطاردون المنافقين و يتعقبونهم خارج المدينه و يقتلونهم،أو أنّهم إذا بقوا في المدينه بعد حكم الإبعاد العام سيلاقون هذا المصير،و لا منافاه بينهما،إذ أنّ المعنى هو أنّ هؤلاء المنافقين و المخزبين و المرجفين و مرضى القلوب سوف لا يكونون بمأمن من سطوه المسلمين الشجعان بعد أن هدرت دماؤهم،و سحبت الحمايه عنهم،و صدر الحكم

بإخراجهم من المدينة، سواء بقوا فيها أم خرجوا.

□  
ثم تضيف الآيه الأخيره من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديدا، بل سُنَّه الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فَكَلَّمَا زَادَتْ صِلَافَهُ الْمُفْسِدِينَ وَتَجَاوَزَتْ مَوَاطِنَهُمُ الْحُدُودَ، يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

□  
ولمّا كان هذا الحكم سنّه إلهيه، فإنّه سوف لا يتغيّر ولا يتبدّل أبدا، حيث أنّ سنّه الله ثابتة وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

إنّ هذا التعبير يجسّد كون هذا التهديد حقيقيا و جديا، ليعلموا أنّ هذا المطلب و المصير حتمي، و له جذوره و نظائره في التاريخ، و لا سبيل إلى تغييره و تبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزيه، أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

## تعليقات

### إشارة

#### ١- ابدأ بنفسك!

الأمر الذي ورد في الآيات مورد البحث حول وجوب رعايه الحجاب الإسلامي بدقه، و أمر النبي صلى الله عليه و آله أن يبلغ هذا الأمر، أوّل ما بدأ بنساء النبي، ثم بناتّه، ثم المؤمنات، و هو إشاره إلى أنّك يجب أن تبدأ بنفسك و أهل بيتك في أيّ برنامج إصلاحى، و هذا خطّ لكلّ مصلحى البشر.

و بدأ بالزوجات عند ما دار الأمر بين الزوجات و البنات، و ذلك لأنهنّ أقرب إلى الرجل، لأنّ البنات يتزوجنّ و ينتقلن إلى بيوت الأزواج.

#### ٢- العلاج من طريقين:

لمّا كانت المفاسد الاجتماعيه لا تنبعث من علّه واحده غالبا، فلذلك يجب أن تبدأ مكافحتها من جميع الجوانب. و الطريف في الأمر أنّ الآيات المذكوره، و من

أجل الوقوف أمام مضايقات الطائشين قد أمرت المؤمنات أولاً- أن لا- يتركن ذريعه بيد الطائشين، ثم أوقفتهن عند حدّهم بتهديدهم أشدّ تهديد.

و هذا أيضا برنامج دائمى للجميع، بأنّ الصديق لا بدّ من إصلاحه، و يوقف العدوّ عند حدّه بالقوّه.

### ٣- موقع المسلمين القوي:

يستفاد جيّدا من تهديدات الآيات القويّه و الشديده أنّه بعد انتهاء حادثه «بنى قريظه»، و اجتثاث جذور هذه الفئه من الأعداء الداخليين الخطرين، فإنّ موقع المسلمين قد قوى فى المدينه تماما، و لم تكن المخالفات تأتى إلّا من جانب المنافقين المندسّين بين صفوف المسلمين، أو من جانب جماعه من الأوباش و المتهورين و مطلقى الإشاعات، فتعامل النّبى صلّى الله عليه و آله معهم من موقع القوّه، و حدّهم بشدّه بأنّهم إن لم يكفوا عن مؤامراتهم و نفثهم للسموم، فإنّه سيقوم بتصفيه الحساب معهم بهجوم واحد و يقضى عليهم! و قد أثر هذا التعامل الحازم و الدقيق أثره بوضوح تامّ.

### ٤- اجتثاث جذور الفساد:

هل أنّ ما ورد فى الآيات أعلاه عن اقتلاع جذور المفاسد كمؤامرات المنافقين، و ملاحقه أعراض المسلمين و أذاهم، و إطلاق الإشاعات يصلح علاجا فى سائر الأعصار و القرون، و لكلّ الحكومات الإسلاميه؟ قليل من المفسّرين من بحث ذلك، إلّا أنّه يبدو أنّ هذا الحكم كسائر الأحكام الإسلاميه لا يختصّ بزمان أو مكان أو أشخاص.

إذا كان نفث السموم و التآمر قد تجاوز الحدّ على أرض الواقع، و أصبح كتيار جارف يهدّد المجتمع الإسلامى بأخطار حقيقيه، فما المانع من أن تنفذ الحكومه

الإسلاميه أوامر الآيات أعلاه،و التي أنزلت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَنَحْوِهِ الصَّالِحِينَ، وَتَعْبَى النَّاسَ لِلْقَضَاءِ عَلَى جَذورِ الْفَسَادِ؟ إِلَّا- أَنْ مِمَّا لَا- شَكَّ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ وَأَمْثَالُهَا، خَاصَّةً وَأَنَّهَا مَطْرُوحَةٌ كَسُنَّةِ لَا تَقْبَلُ التَّغْيِيرَ، لَا يُسْمَحُ بِهَا كَتَصَرَّفِ شَخْصِيٍّ، وَتَمَسَّكَ بِرَأْيِ خَاصٍّ، بَلْ تَجُوزُ فَقَطْ بَعْدَ إِذْنِ وَلى أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَحُكْمِ الشَّرْعِ بِهَا.

## ٥- سنن الله الثابتة:

قرأنا في الآيات السابقة أنَّ القرآن ذكر أنَّ إحدى سنن الله التي لا تقبل التغيير هي اقتلاع جذور التآمر بهجوم عام، وقد كانت هذه السنَّة جارية في الأمم السابقة.

وقد ورد نظير هذا التعبير في مواضع أخرى من القرآن، و من جملة ما ورد في الآية (٣٨) من سورة الأحزاب هذه، فبعد أن أجاز سبحانه مخالفته سنَّة جاهليه خاطئه و إلغاءها في مسأله مطلقه الابن بالادعاء، يقول: ليس للنبي أى ذنب إذا ما نفعذ أوامر الله مهما كانت.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا .

و في الآية (٤٣) من سورة فاطر، و بعد أن هدد الكافرين و المجرمين بالفناء و الهلاك، يقول سبحانه: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا .

و في الآية (٨٥) من سورة غافر، و بعد أن صرح بأن إيمان الكفار العنودين من الأقسام الماضين عند مشاهدتهم عذاب الاستئصال لم ينفعهم شيئاً، يضيف: سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

و في الآية (٢٣) من سورة الفتح، و بعد أن ذكر انتصار المؤمنين و هزيمة الكفار في الحروب، و أن ليس لهم ولى و لا نصير، يضيف: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

و كذلك فى الآيه (٧٧) من سوره الإسراء عند ما يبين مؤامره إبعاد النبى أو قتله، يضيف: وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا .

يستفاد من مجموع هذه الآيات جيّدا أنّ المراد من السنّه فى مثل هذه الموارد:

القوانين الإلهيه الثابته و الأساسيه، سواء التكوينيّه منها أم التشريعيّه، التى لا تتغير مطلقا.

و بتعبير آخر: فإنّ لله سبحانه فى عالم التكوين و التشريع قوانين و أصولا- ثابتة، كالقوانين الأساسيه و الدساتير المسنونه بين شعوب العالم و التى لا- تتبدّل، و لا- تكون عرضه للتغيير، و هذه القوانين الإلهيه كانت حاكمه على الأقسام الماضيه، و تحكّمنا اليوم، و ستكون حاكمه فى المستقبل على الأجيال الآتية.

إنّ نصره النبى، و هزيمه الكفار، و جوب تنفيذ أوامر الله و العمل بموجبها، حتّى و إن أدت إلى إثارة سخط الناس و عدم رضاهم، عدم جدوى التوبه حين نزول العذاب الإلهى، و أمثال ذلك هى جزء من هذه السنن الخالده.

إنّ هذه التعبيرات تسلىّ خواطر كلّ السائرين فى طريق الحقّ، و تمنحهم الهدوء و الطمأنينه من جهه، و توضّح من جهه اخرى وحده دعوه الأنبياء و انسجامها، و تناسق القوانين الحاكمه على نظام الخلقه و نظام الحياه الإنسانيه و اتّحادهها، و هى فى الحقيقه فرع من فروع التوحيد.



إشاره

يَسْئَلُكَ الذُّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي الدَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)

التفسير

إشاره

يسألون أيان يوم القيامة!؟

كانت الآيات السابقة تتحدّث عن مؤامرات المنافقين و الأشرار، وقد أشير في هذه الآيات التي نبحتها إلى واحده اخرى من خططهم الهدامة، و أعمالهم المخزبه، حيث كانوا يطرحون أحيانا هذا السؤال: متى تقوم القيامة التي يخبر بها محمّد و يذكر لها كلّ هذه الصفات؟ و ذلك إما استهزاء، أو لزرع الشكّ فيها في قلوب

البسطاء، فتقول الآية: يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .

و يحتمل أيضا أن يكون بعض المؤمنين قد سأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله هذا السؤال بدافع من حب الاستطلاع، أو للحصول على معلومات أكثر حول هذا الموضوع.

غير أن ملاحظه الآيات التي تلى هذه الآية ترجح التفسير الأول، والشاهد الآخر لهذا الكلام ما ورد في الآيتين ١٧-١٨ سورة الشورى في هذا الباب، حيث تقولان: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ. يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا .

ثم تقول الآية-مورد البحث- في مقام جوابهم: قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَا يَعْلَمُهَا حَتَّى الْمُرْسَلُونَ وَ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ.

ثم تضيف بعد ذلك: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا .

و بناء على هذا يجب أن نكون مستعدين دائما لقيام القيامة، و هذه هي الحكمة من كونها خافية مجهوله لئلا يظن أحد أنه في مأمن منها، و يتصور أن القيامة بعيدة فعلا، و يعتبر نفسه في معزل عن عذاب الله و عقابه.

ثم تطرقت الآية إلى تهديد الكافرين، و تناولت جانبا من عقابهم الأليم، فقالت:

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا

الفرق بين «الولى» و«النصير» هنا هو: أن «الولى» من يتولى القيام بكل الأعمال و تنفيذها، أما «النصير» فهو الذى يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب. إلا أن هؤلاء الكافرين لا ولى لهم فى القيامة و لا نصير.

ثم بينت جزءا آخر من عذابهم الأليم فى القيامة فقالت: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ وَ هذا التقلب إما أن يكون فى لون البشره و الوجه حيث تصبح حمراء أو سوداء أحيانا، أو من جهة تقلبهم فى النار و لهيبها حيث تكون وجوههم فى مواجهه النار أحيانا، و أحيانا جوانب اخرى (نعوذ بالله من ذلك).

هنا ستنتقل صرخات حسرتهم، وَيَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ فَإِنَّا لَوْ كُنَّا أَطَعْنَاهُمَا لَمْ يَكُن يَنْتَظِرُنَا مِثْلَ هَذَا الْمَصِيرِ  
الأسود الأليم.

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا

(١)

(الساده) جمع «سيد»، وهو المالك العظيم الذى يتولى إداره المدن المهمه أو الدول، و«الكبراء» جمع «كبير» وهو الفرد الكبير سواء من ناحيه السن، أو العلم، أو المركز الاجتماعى و أمثال ذلك. و بهذا فإن الساده إشاره إلى رؤساء البلاد العظام، و الكبراء هم الذين يتولون إداره الأمور تحت إشراف أولئك الساده، و يعتبرون معاونين و مشاورين لهم، و كأنهم يقولون: إننا قد جعلنا طاعه الساده محل طاعه الله، و طاعه الكبراء مكان طاعه الأنبياء، فابتلينا بأنواع الانحرافات و التعاسه و الشقاء.

من البديهى أن معيار السياهه و كون الشخص كبيرا بين أولئك الأقسام هو القوه و السيطره، و المال و الثروه الغير مشروع، و المكر و الخداع. و ربما كان إختيار هذين التعبيرين هنا من أجل أنهم يحاولون توجيه عذرهم و يقولون: لقد كنا تحت تأثير العظمه الظاهريه لأولئك.

هنا تثور ثائره هؤلاء الجهنميين الضالين، و يطلبون من الله سبحانه أن يزيد فى عذاب مضليهم و عقابهم أشد عقاب فيقولون: رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا - عذاب لإضلالهم-.

من المسلم أن هؤلاء يستحقون العذاب و اللعن، و استحقاقهم للعذاب المضاعف و اللعن الكبير بسبب سعيهم فى سبيل إضلال الآخرين، و دفعهم إلى طريق الانحراف.

و الطريف ما ورد فى الآيه ٣٨ من سوره الأعراف، من أن هؤلاء المتبعين

ص: ٣٥٩

١ - ١) إِنَّ الْأَلْفَ فِي «الرسولاء» و «السيلا» هى ألف الإطلاق، و لتناسق آخر الآيات، و إلا - فَإِنَّ التَّنْوِينَ لَا يَجْتَمِعُ مَعَ الْأَلْفِ وَ اللَّامِ مطلقاً.

الضالّين عند ما يطلبون عذاب الضعف لسادتهم و أئمتهم، يقال: لِكَلِّ ضِعْفٌ وَ لِكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ (١).

إنّ كون عذاب أئمة الكفر و الضلال مضاعفا واضح، لكن لما ذا يكون عذاب من اتبعهم مضاعفا؟ إنّ سبب ذلك هو أنّهم استحقّوا عذابا لضلالتهم، و العذاب الآخر لمعونه الظالمين و مؤازرتهم، لأنّ الظالمين لا يقدرّون على أن يستمرّوا في عمل ما لوحدهم مهما كانت لهم من قوّه، إلّا أنّ أتباعهم هم الذين يؤجّجون نار حروبهم، و يسجرون أتون ظلمهم و كفرهم، و إن كان عذاب أئمة الكفر- إذا ما قورن بعذاب المتبعين- أشدّ و ألم بدون شكّ.

و قد كان لنا بحث مفصّل في هذا الباب في الآية (٣٠) من هذه السوره.

ص: ٣٦٠

---

١- ١) مِمَّا يَسْتَحِقُّ الْإِنْتِبَاهَ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ «الضعفان» في الآيات مورد البحث، و«الضعف» في آيه سوره الأعراف، إلّا أنّه بالتدقيق في معنى الضعف يتّضح أنّ لِكَلِيهِمَا معنى واحدا.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)

التفسير

اشاره

بما ذا رموا موسى عليه السلام و اتهموه؟

بعد البحوث التي مرّت في الآيات السابقة حول وجوب احترام مقام النبي صلى الله عليه و آله، و ترك كل ما يؤذيه و الابتعاد عنه، فقد وّجّهت هذه الآيات الخطاب للمؤمنين، و قالت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا .

إنّ إختيار موسى عليه السّلام من جميع الأنبياء الذين طالما أوذوا، بسبب أنّ المؤذنين من بنى إسرائيل قد آذوه أكثر من أى نبي آخر، إضافة إلى أنّ بعض أنواع الأذى التي رآها كانت تشبه أذى المنافقين لنبي الإسلام صلى الله عليه و آله.

و هناك بحث بين المفسّرين في المراد من إيذاء موسى عليه السّلام هنا؟ و لماذا ذكره

القرآن بشكل مبهم؟ وقد ذكروا احتمالات عديدة في تفسير الآيه، و من جملتها:

١- إن موسى و هارون عليهما السّلام قد ذهبا إلى جبل-طبق روايه-و ودّع هارون الحياه، فأشاع المرجفون من بنى إسرائيل أنّ موسى عليه السّلام قد تسبّب في موته، فأبان الله سبحانه حقيقه الأمر، و أسقط ما فى يد المرجفين.

٢- كما أوردنا مفضّلا فى ذيل الآيات الأخيره من سوره القصص، فإنّ قارون المحتال أراد أن يتملّص من قانون الزكاه، و لا يؤدّى حقوق الضعفاء و الفقراء، فعمد إلى بغيّ و اتفق معها على أن تقوم بين الناس و تتهم موسى عليه السّلام بأنّه زنى بها، إلا أنّ هذه الخطّه قد فشلت بلطف الله سبحانه، بل و شهدت تلك المرأه بطهاره موسى عليه السّلام و عفته، و بما أرادها منها قارون.

٣- إنّ جماعه من الأعداء اتّهموا موسى عليه السّلام بالسحر و الجنون و الافتراء على الله، و لكن الله تعالى برّاه منها بالمعجزات الباهره.

٤- إنّ جماعه من جهّال بنى إسرائيل قد اتّهموه بأنّ فيه بعض العيوب الجسميه كالبرص و غيره، لأنّه كان إذا أراد أن يغتسل و يستحمّ لا يتعرّى أمام أحد مطلقا، فأراد أن يغتسل يوما بمنأى عن الناس، فوضع ثيابه على حجر هناك، فتدحرج الحجر بثيابه، فرأى بنو إسرائيل جسمه، فوجدوه مبرّاً من العيوب.

٥- كان المعذرون من بنى إسرائيل أحد عوامل إيداء موسى عليه السّلام، فقد كانوا يطلبون تاره أن يريهم الله عزّ و جلّ «جهره»، و اخرى يقولون: إنّ نوعا واحدا من الطعام-و هو «المنّ و السلوى»-لا يناسبنا، و ثالثه يقولون: إنّنا غير مستعدّين للدخول إلى بيت المقدس و محاربه «العمالقه». اذهب أنت و ربّك فقاتلا، و افتحاه لنا لندخله بعد ذلك! إلا أنّ الأقرب لمعنى الآيه، هو أنّها بصدد بيان حكم كلّ عام جامع، لأنّ بنى إسرائيل قد آذوا موسى عليه السّلام من جوانب متعدّده.. ذلك الأذى الذى لم يكن يختلف عن أذى بعض أهل المدينه (لنبينا صلّى الله عليه و آله) كإشاعه بعض الأكاذيب و اتّهام زوج النّبى

بتهم باطله، و قد مرّ تفصيلها في تفسير سورة النور- ذيل الآيات ١١-٢٠- و الاعتراضات التي اعترضوا بها على النبي صلى الله عليه و آله في زواجه بزینب، و أنواع الأذى و المضايقات التي كانوا يضايقونه بها في بيته، أو مناداته بأسلوب خال من الأدب و الأخلاق، و غير ذلك.

و أمّا الاتّهام بالسحر و الجنون و أمثال ذلك، أو العيوب البدنيه، فإنّها و إن اتّهم موسى بها، إلا أنّها لا تتناسب مع <sup>□</sup>يا أيّها الذين آمنوا بالنسبه لنبيّنا صلى الله عليه و آله إذ لم يتّهم المؤمنون موسى عليه السّلام و لا نبيّنا صلى الله عليه و آله بالسحر و الجنون. و كذلك الاتّهام بالعيوب البدنيه، فإنّه على فرض كونه قد حدث بالنسبه لموسى عليه السّلام، و أنّ الله تعالى قد برّاه، فليس له مصداق أو حادثه تؤيّده في تاريخ نبيّنا صلى الله عليه و آله.

و على أيّه حال، فيمكن أن يستفاد من هذه الآيه أنّ من كان عند الله و جيبها و ذا منزله، فإنّ الله سبحانه يدافع عنه في مقابل من يؤذيه و يتّهمه بالأباطيل، فكن طاهرا و عفيفا، و احفظ و جاهتك عند الله، فإنّه تعالى سيظهر عفتك و طهارتك للناس، حتّى و إن سعى الأشقياء و المسيؤون إلى اتّهامك و تحطيم منزلتك و تشويه سمعتك بين الناس.

و قد قرأنا نظير هذا المعنى في قصّه «يوسف» الصديق الطاهر، و كيف برّاه الله سبحانه من تهمة امرأه عزيز مصر الكبيره و الخطيره.

و كذلك في شأن «مريم» بنت عمران أمّ عيسى عليه السّلام، حيث شهد وليدها الرضيع بطهارتها و عفتها، و قطع بذلك ألسن المتربّصين بها من بنى إسرائيل، و الذين كانوا يسعون لآتّهامها و تلوّث سمعتها.

و الجدير بالذكر أنّ هذا الخطاب لم يكن مختصا بالمؤمنين في زمان النبي صلى الله عليه و آله، بل من الممكن أن تشمل الآيه حتّى أولئك الذين سيولدون بعده و يقومون بعمل يؤذون روحه الطاهره به، فيحتقرون دينه و يستصغرون شأنه، و ينسون موارثه، و لذلك

جاء في بعض الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام: «يا أيّها الذين آمنوا لا

تؤذوا رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله في علي و الأئمة صلوات الله عليهم...» (١).

و آخر كلام فى تفسير هذه الآيه هو: أنه بعد ملاحظه أحوال الأنبياء العظام الذين لم يكونوا بمأمن من جراحات ألسن الجاهلين و المنافقين، يجب أن لا نتوقع أن لا يبتلى المؤمنون و الطاهرون بمثل هؤلاء الأفراد،

فإن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن رضى الناس لا يملكك و ألسنتهم لا تضبط...» ثم يضيف الإمام فى نهايه هذا الحديث: «ألم ينسبوا إلى موسى أنه عنين و آذوه حتى برأه الله ممّا قالوا، و كان عند الله وحيها» (٢).

### قولوا الحق لتصلح أعمالكم:

بعد البحوث السابقه حول ناشرى الإشاعات و الذين يؤذون النبى، تصدر الآيه التالىه أمرا هو فى الحقيقه علاج لهذا المرض الاجتماعى الخطير، فتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا .

«القول السديد» من مادّه (سد) أى المحكم المنيع الذى لا يعتريه الخلل، و الموافق للحقّ و الواقع، و يعنى القول الذى يقف كالسدّ المنيع أمام أمواج الفساد و الباطل. و إذا ما فسّره بعض المفسّرين بالصواب، و البعض الآخر بكونه خالصا من الكذب و اللغو و خاليا منه، أو تساوى الظاهر و الباطن و وحدتهما، أو الصلاح و الرشاد، و أمثال ذلك، فإنها فى الواقع تفاسير ترجع إلى المعنى الجامع أعلاه.

ثم تبين الآيه التالىه نتيجه القول السديد، فتقول: يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .

إنّ التقوى فى الواقع هى دعامة إصلاح اللسان و أساسه، و منبع قول الحقّ، و القول الحقّ أحد العوامل المؤثره فى إصلاح الأعمال، و إصلاح الأعمال سبب

ص: ٣٦٤

١-١) نور الثقلين، المجلد ٤، ص ٣٠٨.

٢-٢) نور الثقلين، المجلد ٤، ص ٣٠٩.



مغفره الذنوب، و ذلك ل إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ . (١)

يقول علماء الأخلاق: إنَّ اللسان أكثر أعضاء البدن بركه، و أكثر الوسائل تأثيراً في الطاعة و الهدايه و الصلاح، و هو في الوقت نفسه يعدّ أخطر أعضاء البدن و أكثرها معصيه و ذنباً، حتّى أنّ ما يقرب من الثلاثين كبيره تصدر من هذا العضو الصغير (٢) .

و

في حديث عن النّبي الأكرم صلّى الله عليه و آله: «لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه، و لا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه» (٣) .

و من الرائع جدّاً ما

ورد في حديث آخر عن الإمام السّجاد عليه السّلام: «إنّ لسان ابن آدم يشرف كلّ يوم على جوارحه فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا.

و يقولون: الله الله فينا، و يناشدونه و يقولون: إنّما نثاب بك و نعاقب بك» (٤) .

هناك روايات كثيره في هذا الباب تحكى جميعاً عن الأهميه الفائقه للسان و دوره في إصلاح الأخلاق و تهذيب النفوس الإنسانيه، و لذلك نقرأ

في حديث:

«ما جلس رسول الله صلّى الله عليه و آله على هذا المنبر قطّ إلّا تلا هذه الآيه:

ص: ٣٦٥

١-١) سورة هود، الآيه ١١٤.

٢-٢) عد الغزالي في إحياء العلوم عشرين كبيره أو معصيه تصدر عن اللسان، و هي: ١-الكذب ٢-الغيبه ٣-النميمة ٤-النفاق في الكلام، أى كون الإنسان ذا لسانين و وجهين ٥-المدح في غير موضعه ٦-بذاءه الكلام ٧-الغناء و الأشعار غير المرضيه ٨-الإفراط في المزاح ٩-السخرية و الاستهزاء ١٠-إفشاء أسرار الآخرين ١١-الوعد الكاذب ١٢-اللعن في غير موضعه ١٣-التخاصم و النزاع ١٤-الجدال و المراء ١٥-البحث في امور الباطل ١٦-الثرثه ١٧-البحث في الأمور التي لا-تعنى الإنسان ١٨-وصف مجالس الشراب و القمار و المعصيه ١٩-السؤال عن المسائل الخارجه عن إدراك الإنسان و البحث فيها ٢٠-التصنع و التكلف في الكلام. و نزيد عليها عشره مواضيع مهمه اخرى، و هي: ١-الاتهام ٢-شهاده الزور ٣-إشاعه الفحشاء، و نشر الإشاعات التي لا أساس لها ٤-مدح الإنسان نفسه ٥-الإصرار في غير محله ٦-الغلظه و الخشونه في الكلام ٧-الأذى باللسان ٨-ذم من لا يستحق الذم ٩-كفران النعمه اللسان ١٠-الإعلام الباطل.

٣-٣) بحار الأنوار، المجلد ٧١، صفحه ٧٨.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا

(١)

ثمّ تضيف الآيه فى النهايه: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا وَ أَى فوز و ظفر أسمى من أن تكون أعمال الإنسان صالحه، و ذنوبه مغفوره، و هو عند الله من المبيضه و جوههم الذين رضى الله عنهم؟!

ص: ٣٦٦

---

١- ١) الدرّ المنثور، طبقاً لنقل تفسير الميزان، الجزء ١٦، صفحہ ٣٧٦.

إشاره

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)  
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)

التفسير

إشاره

حمل الأمانة الإلهيه أعظم افتخارات البشر:

تكمّل هاتان الآيتان-اللتان هما آخر آيات سوره الأحزاب-المسائل المهمّه التي وردت في هذه السوره في مجالات الإيمان،و العمل الصالح،و الجهاد، و الإيثار،و العفّه و الأدب و الأخلاق،و تبين كيف أنّ الإنسان يحتل موقعا ساميا جدّا بحيث يستطيع أن يكون حامل رساله الله العظيمه،و كيف أنّه إذا ما جهل قيمه الحياتيه و الوجوديه سيظلم نفسه غايه الظلم،و ينحدر إلى أسفل سافلين! تبين الآيه أوّلا أعظم امتيازات الإنسان و أهمّها في كلّ عالم الخلقه،فتقول:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ إِبَاءَهَا تَحْمِلُ الْمَسْئُولِيَّةَ وَامْتِنَاعَهَا عَنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ اسْتِكْبَارًا مِنْهَا، كَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، حَيْثُ تَقُولُ الْآيَةُ (٢٤) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ، بَلْ إِنَّ إِبَاءَهَا كَانَ مَقْتَرِنًا بِالْإِشْفَاقِ، أَيْ الْخَوْفِ الْمَمْتَرَجِ بِالتَّوَجُّهِ وَالْخُضُوعِ.

إِلَّا أَنَّ الْإِنْسَانَ، اعْجُوبَهُ عَالَمُ الْخَلْقِ، قَدْ تَقَدَّمَ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا .

لَقَدْ تَحَدَّثَ كِبَارُ مَفْسِّرِي الْإِسْلَامِ حَوْلَ هَذِهِ الْآيَةِ كَثِيرًا، وَسَعَوْا كَثِيرًا مِنْ أَجْلِ الْوَصُولِ إِلَى حَقِيقَتِهِ مَعْنَى «الْأَمَانَةِ»، وَأَبَدُوا وَجْهَاتٍ نَظَرَ مُخْتَلَفَةً، نَخْتَارُ أَفْضَلَهَا بِتَقْضَى الْقِرَائِنِ الْمَوْجُودَةِ فِي طَيِّبَاتِ الْآيَةِ.

وَيَجِبُ التَّأَكِيدُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْعَمِيقَةَ الْمَحْتَوَى عَلَى خَمْسِ مَوَارِدٍ:

١- ما هو المراد من الأمانة؟ ٢- ما معنى عرضها على السماوات والأرض والجبال؟ ٣- لماذا وكيف أبت هذه الموجودات حمل هذه الأمانة؟ ٤- كيف حمل الإنسان ثقل الأمانة هذا؟ ٥- لماذا وكيف كان ظلوما جهولا؟ لقد ذكرت تفاسير مختلفة للأمانة و من جملتها:

أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَمَانَةِ: هِيَ الْوَلَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَكَمَالُ صِفَةِ الْعِبَادِيَّةِ، وَالَّذِي يَحْصُلُ عَنْ طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

أَنَّ الْمُرَادَ: صِفَةَ الْإِخْتِيَارِ وَالْحَرِيَّةِ وَالْإِرَادَةِ الَّتِي تَمَيِّزُ الْإِنْسَانَ عَنِ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ.

أَنَّ الْمُرَادَ: الْعَقْلَ الَّذِي هُوَ مَلَكَ التَّكْلِيفِ، وَمَنَاطُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

أَنَّ الْمُرَادَ: أَعْضَاءَ جِسْمِ الْإِنْسَانِ، فَالْعَيْنُ أَمَانَةُ اللَّهِ، وَيَجِبُ الْحِفَافُ عَلَيْهَا وَعَدَمُ

استعمالها فى طريق المعصيه، و الاذن و اليد و الرجل و اللسان كلها امانات يجب حفظها.

أن المراد: الأمانات التى يأخذها الناس بعضهم من بعض، و الوفاء بالعهود.

أن المراد: معرفه الله سبحانه.

أن المراد: الواجبات و التكاليف الإلهيه كالصلاه و الصوم و الحج.

لكن يتضح من خلال أدنى دقه أن هذه التفاسير لا تتناقض مع بعضها، بل يمكن إدغام بعضها فى البعض الآخر، فبعضها أخذت جانباً من الموضوع، و بعضها الآخر كله.

و من أجل الحصول على جواب جامع كاف، يجب أن نلقى نظره على الإنسان لنرى أى شىء يمتلكه و تفتقده السماوات و الأرضون و الجبال؟ إن الإنسان موجود له استعدادات و قابليات يستطيع من خلال استغلالها أن يكون أتم مصداق لخليفه الله، و يستطيع أن يصل إلى قمه العظمه و الشرف باكتساب المعرفه و تهذيب النفس و تحصيل الكمالات، و أن يسمو حتى على الملائكه.

إن هذا الاستعداد المقترن بالحريه و الإراده و الإختيار يعنى أن الإنسان يطوى هذا الطريق بإرادته و إختياره، و يبدأ فيه من الصفر و يسير إلى ما لا نهايه.

إن السماء و الأرض و الجبال تمتلك نوعاً من المعرفه الإلهيه، و هى تذكر الله سبحانه و تسبحه، و تخضع لعظمته و تخشع لها و تسجد، إلا أن كل ذلك ذاتى و تكوينى و إجبارى، و لذلك ليس فيه تكامل و رقى، و الموجود الوحيد الذى لا ينتهى منحى صعوده و نزوله، و هو قادر على ارتقاء قمه التكامل بصوره لا تعرف الحدود، و يقوم بكل هذه الأعمال بإرادته و إختياره، هو الإنسان، و هذه هى «الأمانه الإلهيه» التى امتعت من حملها كل الموجودات، و حملها الإنسان! و لذلك نرى الآيه التالیه قسّمت البشر إلى ثلاث فئات: «المؤمنين» و «الكفار» و

بناء على هذا يجب القول في عبارته مختصره أنّ الأمانة الإلهية هي قابلية التكامل غير المحدوده و الممتزجه بالإرادته و الإختيار، و الوصول إلى مقام الإنسان الكامل، و عبوديه الله الخاصه و تقبل ولايه الله.

لكن لماذا عتبر عن هذا الأمر بالأمانه، مع أنّ كلّ وجودنا و كلّ ما لدينا أمانه الله؟ لقد عتبر بهذا التعبير لأهميته امتياز البشر العظيم هذا، و إلاّ فإنّ بقيه المواهب أمانات الله أيضا، غير أنّ أهميتها تقلّ أمام هذا الامتياز.

و يمكن أن نعتبر هنا عن هذه الأمانه بتعبير آخر و نقول: إنّها التعهد و الالتزام و قبول المسؤوليه.

بناء على هذا فإنّ أولئك الذين فسّروا الأمانه بصفه الإختيار و الحريه في الإرادته، قد أشاروا إلى جانب من هذه الأمانه العظمى، كما أنّ أولئك الذين فسّروها بالعقل، أو أعضاء البدن، أو أمانات الناس لدى بعضهم البعض، أو الفرائض و الواجبات، أو التكاليف بصوره عامه، قد أشار كلّ منهم إلى غصن من أغصان هذه الشجره العظيمه المثمره، و اقتطف منها ثمره.

لكن ما هو المراد من عرض هذه الأمانه على السموات و الأرض؟ هل المراد: أنّ الله سبحانه قد منح هذه الموجودات شيئا من العقل و الشعور ثمّ عرض عليها حمل هذه الأمانه؟ أو أنّ المراد من العرض هو المقارنه؟ أى أنّها عند ما قارنت حجم هذه الأمانه مع ما لديها من القابليات و الاستعدادات أعلنت عدم لياقتها و استعدادها عن تحمّل هذه الأمانه العظيمه.

طبعاً، يبدو أنّ المعنى الثّاني هو الأنسب، و بهذا فإنّ السموات و الأرض و الجبال قد صرخت جميعاً بأنّنا لا طاقه لنا بحمل هذه الأمانه.

و من هنا يتّضح جواب السؤال الثالث أيضا، بأنّ هذه الموجودات لما ذا و كيف رفضت و أبت حمل هذه الأمانة العظمى، و أظهرت إشفاقها من ذلك؟ و من هنا تتّضح كيفيه حمل الإنسان لهذه الأمانة الإلهيه، لأنّ الإنسان كان قد خلق بشكل يستطيع معه تحمّل المسؤوليّه و القيام بها، و أن يتقبّل ولايه الله، و يسير في طريق العبوديه و الكمال و يتّجه نحو المعبود الدائم، و أن يطوى هذا الطريق بقدمه و إرادته، و بالاستعانه برّبه.

أمّا ما ورد في روايات عديده و ردت عن أهل البيت عليهم السّلام من تفسير هذه الأمانة بقبول ولايه أمير المؤمنين على عليه السّلام و ولده، فمن أجل أنّ ولايه الأنبياء و الأئمّه نور ساطع من تلك الولايه الإلهيه الكليه، و الوصول إلى مقام العبوديه، و طي طريق التكامل لا يمكن أن يتمّ من دون قبول ولايه أولياء الله.

جاء في حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه سئل عن تفسير آيه عرض الأمانة، فقال: «الأمانة الولايه، من ادّعاها بغير حقّ كفر» (١).

و

في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال عند ما سئل عن تفسير هذه الآيه: «الأمانة الولايه، و الإنسان هو أبو الشرور المنافق» (٢).

و المسأله الاخرى التي يلزم ذكرها هنا، هي أنّنا قلنا في ذيل الآيه (١٧٢) من سوره الأعراف فيما يتعلّق بعالم الذرّ بأن أخذ ميثاق الله على التوحيد كان عن طريق الفطره، و استعداد و طبيعه آدمي، و إنّ عالم الذرّ هو عالم الاستعداد و الفطره.

و في مورد قبول الأمانة الإلهيه يجب القول بأنّ هذا القبول لم يكن قبول اتّفاق و عقد، بل كان قبولا- تكوينيا حسب عالم الاستعداد.

السؤال الوحيد الذي يبقى هو مسأله كون الإنسان «ظلوما جهولا»، فهل أنّ

ص: ٣٧١

١- ١) تفسير البرهان، المجلّد ٣، صفحہ ٣٤١ ذیل الآيه مورد البحث.

٢- ٢) المصدر السابق.



وصف الإنسان بهاتين الصفتين - و ظاهرهما ذمه و توبيخه - كان نتيجة قبوله لهذه الأمانة؟ من المسلم أنّ النفي هو جواب هذا السؤال، لأنّ قبول هذه الأمانة أعظم فخر و ميزه للإنسان، فكيف يمكن أن يذمّ على قبوله مثل هذا المقام السامى؟ أم أنّ هذا الوصف بسبب نسيان غالب البشر و ظلمهم أنفسهم، و عدم العلم بقدر الإنسان و منزلته.. و بسبب الفعل الذى بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قبل قابيل و أتباعه، و لا يزال إلى اليوم.

إنّ الإنسان الذى ينادى من العرش، و بنى آدم الذين وضع على رؤوسهم تاج (كرّمنا بنى آدم) و البشر الذين هم و كلاء الله فى الأرض بمقتضى قوله سبحانه:

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً و الإنسان الذى كان معلّمًا للملائكة و سجدت له، كم يجب أن يكون ظلوما جهولا لينسى كلّ هذه القيم الساميه الرفيعه، و يجعل نفسه أسيره هذه الدنيا، و تابعا لهذا التراب، و يكون فى مصاف الشياطين، فينحدر إلى أسفل سافلين؟! أجل.. إنّ قبول هذا الخطّ المنحرف - و الذى كان و لا يزال له أتباع و سالكون كثيرون جدّا - خير دليل على كون الإنسان ظلوما جهولا، و لذلك نرى أنّه حتّى آدم نفسه، و الذى كان رأس السلسله و متمتعا بالعصمه، يعترف بأنّه قد ظلم نفسه رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَ إِن لَّم تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (١)

لقد كان «ترك الأولى» الذى صدر منه ناشئا فى الحقيقه عن نسيان جزء من عظمه هذه الأمانة الكبرى! و على أى حال، فيجب الاعتراف بأنّ الإنسان الضعيف و الصغير فى الظاهر، هو اعجوبه علم الخلقه، حيث استطاع أن يتحمّل أعباء الأمانة التى عجزت السماوات

ص: ٣٧٢

و الأرضون عن حملها إذا لم ينس مقامه و منزلته (١).

و تبين الآيه التاليه عله عرض هذه الأمانه على الإنسان، و بيان حقيقه أنّ أفراد البشر قد انقسموا بعد حمل هذه الأمانه إلى ثلاث فئات: المنافقين و المشركين و المؤمنين، فتقول: لِيَعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

يوجد هناك احتمالان في معنى «اللام» في لِيَعَذَّبَ :

الأول: أنّها «لام الغايه» التي تذكر لبيان عاقبه الشىء و نهايته، و بناء على هذا يكون معنى الآيه: كانت عاقبه حمل هذه الأمانه أن سلك جماعه طريق النفاق، و جماعه سبيل الشرك، و هؤلاء سيبتلون بعذاب الله لخياتهم أمانته، و جماعه هم أهل الإيمان الذين ستشملهم رحمته لأدائهم هذه الأمانه و القيام بواجباتهم.

و الثانى: أنّها «لام العله»، فتكون هناك جملة مقدره، و على هذا يكون تفسير الآيه: كان الهدف من عرض الأمانه أن يوضع كلّ البشر في بوتقه الاختبار، ليظهر كلّ إنسان باطنه فيرى من الثواب و العقاب ما يستحقّه.

### و هنا امور ينبغى الالتفات إليها:

١- إنّ سبب تقديم أهل النفاق على المشركين هو أنّ المنافق يتظاهر بأنّه أمين في حين أنّه خائن، إلا أنّ خيانه المشرك ظاهره مكشوفه، و لذلك فإنّ المنافق يستحقّ حظاً أكبر من العذاب.

٢- يمكن أن يكون سبب تقديم هاتين الفئتين على المؤمنين هو أنّ الآيه

ص: ٣٧٣

١- ١) اتضح ممّا قلناه في تفسير الآيه أن لا حاجه مطلقاً إلى أن نقدر شيئاً في الآيه، كما قال ذلك جمع من المفسّرين، ففسّروا الآيه بأنّ المراد من عرض أمانه الله على السماء و الأرض و الجبال هو عرضها على أهلها، أى الملائكه! و لذلك قالوا بأنّ أولئك الذين أبوا أن يحملوها قد أدوها، و أولئك الذين حملوها خانوها. إنّ هذا التفسير ليس مخالفاً لظاهر الآيه من ناحيه الاحتياج إلى التقدير و حسب، بل يمكن أن يناقش و يورد على اعتقاده بأنّ على الملائكه نوع تكليف، و أنّها حامله لجزء من هذه الأمانه. و بغضّ النظر عن كلّ ذلك فإنّ تفسير أهل الجبال بالملائكه لا يخلو من غرابه، دققوا ذلك.

السابقه قد ختمت ب ظلوماً جهُولاً و هاتان الصفتان تناسبان المنافق و المشرك، فالمنافق ظالم، و المشرك جهول.

٣- لقد وردت كلمه (الله) مرّه واحده فى شأن المنافقين و المشركين، و مرّه فى شأن المؤمنين، و ذلك لأنّ مصير الفئتين الاوليين واحد، و حساب المؤمنين يختلف عنهما.

٤- يمكن أن يكون التعبير بالتوبه بدل الجزاء و الثواب فى شأن المؤمنين بسبب أنّ أكثر خوف المؤمنين من الذنوب و المعاصى التى تصدر عنهم أحياناً، و لذا فإنّ الآيه تطمئنهم و تمنحهم السكينه بأنّ ذنوبهم ستغفر.

أو لأنّ توبه الله على عباده تعنى رجوعه عليهم بالرحمه، و نعلم أنّ كلّ الهبات و العطايا و المكافآت قد أخفيت فى كلمه «الرحمه».

٥- إنّ وصف الله بالغفور و الرحيم ربّما كان فى مقابل الظلوم و الجهول. أو لمناسبته ذكر التوبه بالنسبه للمؤمنين و المؤمنات.

الآن و قد بلغنا نهايه سوره الأحزاب بفضل الله سبحانه، نرى لزاماً ذكر هذه المسأله، و هى: أنّ انسجام بدايه هذه السوره مع نهايتها يستحقّ الدقّه و الانتباه، لأنّ هذه السوره-سوره الأحزاب- قد بدأت بخطاب النبى صلّى الله عليه و آله و أمره بتقوى الله، و نهيه عن طاعه الكافرين و المنافقين، و التأكيد على كون الله عليماً حكيماً، و انتهت بذكر أعظم مسأله فى حياه البشر، أى حمل أمانه الله. ثمّ بتقسيم البشر إلى ثلاث فئات: المنافقين، و الكافرين، و المؤمنين، و التأكيد على كون الله غفوراً رحيماً.

و بين هذين البحثين طرحت بحوثاً كثيره حول هذه الفئات الثلاثه، و أسلوب تعاملهم مع هذه الأمانه الإلهيه، و كلّ هذه البحوث يكمل بعضها بعضاً، و يوضّح بعضها بعضاً.

اللهمّ اجعلنا ممّن قبلوا أمانتك يا خلاص، و حملوها بعشق و لذه، و قاموا

بواجباتهم تجاهها.

اللهم اجعلنا من المؤمنين الذين وسعتهم رحمتك، لا من المنافقين و المشركين الذين استحقوا العذاب لكونهم ظلمين جهولين.

اللهم انزل غضبك و سخطك على أحزاب الكفر التي اتحدت مرّه اخرى، و احتلت مدينه الإسلام فى عصرنا الحاضر، و اهدم قصورهم على رؤوسهم. اللهم و هب لنا من الثبات و الاستقامه ما نقف به كالجبل لندافع عن مدينه الإسلام و نحرسها فى هذه اللحظات الحساسه.

آمين يا ربّ العالمين.

نهايه سوره الأحزاب

ص: ٣٧٥



سوره سبأ

اشاره

مكيه و عدد آياتها أربع و خمسون آيه

ص: ٣٧٧



## محتوى سوره سبأ:

سمّيت السوره بهذا الاسم (سبأ) لذكرها قصّه قوم سبأ، وهى من السور المكيه، التى تشتمل عاده على بحوث المعارف الإسلاميه و اصول الإعتقادات، خصوصا «المبدأ» و «المعاد» و «النبؤ». فأغلب بحوثها تحوم حول تلکم الموضوعات، لحاجه المسلمين لبلوره امور العقيده فى مكه، و إعدادهم للانتقال إلى فروع الدين، و تشكيل الحكومه، و تطبيق كافّه البرامج الإسلاميه.

و بشكل إجمالى يمكن القول بأنّ محتوى هذه السوره يندرج فى خمسہ مواضع:

١- «التوحيد»، و بعض الآثار الدالّه عليه فى عالم الوجود، و بعض صفات الله المقدّسه كالوحدانيه، و الربوبيه، و الالوهيه.

٢- قضيه المعاد التى نالت النصيب الأوفى من العرض فى هذه السوره، باستعراضها ضمن بحوث منوّعه و من زوايا مختلفه.

٣- نبؤه الأنبياء السابقين و بالأخص رسول الإسلام الأكرم صلّى الله عليه و آله و الرّدّ على تخرصات أعدائه حوله، و ذكر جانب من معجزات من سبقه من الأنبياء.

٤- التعرّض لذكر بعض النعم الإلهيه العظيمة، و مصير الشاكرين و الجاحدين من خلال استعراض جانب من حياه النّبى سليمان عليه السّلام و حياه قوم سبأ.

٥- الدعوه إلى التفكّر و التأمل و الإيمان و العمل الصالح، و بيان تأثير هذه



العوامل فى سعاده و موفقيه البشر.

و على كل حال، فإنها تشكل برنامجا تربويا شاملا لتربيه الباحثين عن الحق.

### فضيله هذه السوره:

يلاحظ فى الروايات تعبيرات ملفته حول أهميه هذه السوره و أهميه قراءتها.

من جملتها ما

ورد فى حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله أنه قال: «من قرأ سوره سبأ لم يبق نبى و لا رسول إلا كان له يوم القيامة رفيقا و مصافحا» (١).

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ الحمدین جميعا، سبأ و فاطر، فى ليله لم يزل ليلته فى حفظ الله تعالى و كلاءته، فإن قرأهما فى نهاره لم يصبه فى نهاره مكروه، و اعطى من خير الدنيا و خير الآخرة ما لم يخطر على قلبه و لم يبلغ مناه» (٢).

و نذكر - كما فى بدايه كل سوره - بأن من الطبعى أن هذا الثواب العظيم لا يكون نصيب من يكتفى من قراءته بلقلقه اللسان و حسب، بل يجب أن تكون القراءة مقدمه للتفكير الذى يكون بدوره باعثا على العمل الصالح.

فإن من يقرأ هذه السوره مثلا، سيعلم بأن الدمار الذى حلّ بقوم سبأ و جعل من مصرعهم عبره للعالمين، و مصيرهم مضربا للأمثال، إنما كان لكفرانهم النعم الإلهيه الوافره.

و من يطلع على ذلك فسيؤدى شكر النعمه بطريقه عمليه. و الشاكر بنعمه الله سيكون فى حفظه و أمانه تعالى.

و قد ذكرنا شرحا أوفى حول هذا الموضوع فى أول تفسيرنا لسوره النور.

ص: ٣٨٠

١-١) مجمع البيان، بدايه سوره سبأ، المجلد ٨، صفحه ٣٧٥.

٢-٢) المصدر السابق.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ  
مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

التفسير

اشاره

هو المالك لكل شيء و العالم بكل شيء:

خمس سور من القرآن الكريم افتتحت «بحمد الله»، و ارتبط (الحمد) في ثلاثه منها بخلق السموات و الأرض و هي (سبأ و فاطر و الأنعام) بينما كان مقترنا في سوره الكهف بنزول القرآن على قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، و جاء في سوره الفاتحه تعبيراً جامعاً شاملاً لكل هذه الاعتبارات الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. على كل حال، الحمد و الشكر لله تعالى في مطلع سوره سبأ هو في قبال مالكيته و حاكميته تعالى في الدنيا و الآخرة.

يقول تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي

لذا فإنَّ الحاكميه و المالكيه فى الدنيا و الآخـره له سبحانه، و كلُّ موهبه، و كلُّ نعمه، و منفعه و بركه، و كلُّ خلقه سويه عجيبه مذهله، تتعلّق به تعالى، و لذا فإنَّ «الحمد» الذى حقيقته «الثناء على فعل اختيارى حسن» كَلَّه يعود إليه تعالى، و إذا كانت بعض المخلوقات تستحقّ الحمد و الثناء، فلأنّها شعاع من وجوده عزّ و جلّ و لأنّ أفعالها و صفاتها قبس من أفعاله و صفاته تعالى. و عليه فكلّ مدح و ثناء يصدر من أحد على شىء فى هذا العالم، فإنّ مرجعه فى النهايه إلى الله سبحانه و تعالى.

ثمّ يضيف تعالى قائلاً: وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ .

فقد اقتضت حكمته البالغه أن يخضع الكون لهذا النظام العجيب، و أن يستقرّ- بعلمه و إحاطته- كلُّ شىء فى محلّه من الكون، فيجد كلّ مخلوق- كلّ ما يحتاج إليه- فى متناوله.

و قد تحدّث المفسّرون كثيرا فى هذه الآيه عن المقصود من الحمد و الشكر فى الآخـره..

فذهب بعضهم: إنّ الآخـره و إن لم تكن دار تكليف، إلاّ أنّ عبّاد الرحمن الذين تسامت أرواحهم بعشق بارئهم هناك، يشكرونه و يحمدونه و ينتشون بلذّه خاصّه من ذلك.

و قال آخرون: إنّ أهل الجنّه يحمدونه على فضله، و أهل النار يحمدونه على عدله.

و قيل: إنّ الإنسان-نتيجه وجود الحجب المختلفه على قلبه و عقله فى الدنيا- لا يمكنه أن يحمد الله حمدا خالصا، و عند ما ترتفع هذه الحجب يوم القيامة تتّضح مالكيته تعالى و هيمنته على عالم الوجود للجميع مصداقا لقوله تعالى الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ و حينها تلهج الألسن بحمده و الثناء عليه بكامل خلوص النّيّه.

و كذلك فإنَّ الإنسان قد يغفل في هذه الدنيا فيحمد بعض المخلوقات، متوهما استقلالها، إلاَّ أنَّه في الآخرة، و حيث يتضح ارتباط الكلِّ به تعالى كارتباط أشعه الشمس بقرصها، فإنَّ الإنسان لن يؤدَّى الحمد و الثناء إلاَّ لله سبحانه.

فضلا عن كلِّ هذا، فقد ورد مرارا في القرآن الكريم- أيضا- أنَّ أصحاب الجَنَّة يحمدون الله حين دخولهم جنَّات الخلد: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ . (١)

وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (٢)

على كلِّ حال فإنَّ هذا الحمد و الثناء لا ينطلق من ألسنه الناس و الملائكة فقط، بل تسمع هممه الحمد و التسبيح من كلِّ ذره في عالم الوجود بإدراك العقل، فليس من موجود إلاَّ و يحمده و يسبِّحه تعالى.

تنتقل الآيه التي بعدها إلى التوسُّع في إظهار جانب من علم الله اللامحدود، تناسبا مع وصف الآيه السابقه له تعالى بالحكيم و الخبير، فيقول سبحانه: يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا .

نعم، فقد أحاط علما بكلِّ حبه مطر و قطره ماء تنفذ و تلج في أعماق الأرض حتَّى إذا وصلت طبقه صلده تجمعت هناك و صارت ذخيره للإنسان.

و يعلم بالبدور التي تنتقل على سطح الأرض بواسطة الريح أو الحشرات، لتنتب في مكان ما و تصبح شجره باسقه أو عشا طريا. يعلم بجذور الأشجار عند توغلها في أعماق التربه بحثا عن الماء و الغذاء.

يعلم بالموجات الكهربائيه و الغازات المختلفه، بذرات الهواء التي تنفذ في الأرض، يعلم بالكائنات الحيه التي تشق طريقها فيها، و يعطيها الحياه.

و كذلك، يعلم بالكنوز و الدفائن و أجساد الموتى من الإنسان و غيره.. نعم إنَّه .

ص: ٣٨٣

١-١) فاطر، ٣٤.

٢-٢) يونس، ١٠.

مطلع على كل هذا.

و كذلك فهو عارف و عالم بالنباتات التى تخرج من الأرض، و الناس الذين يبعثون منها، بالعيون التى تفور بالماء منها، بالغازات التى تتصاعد منها، بالبراكين التى تلوح بجحيمها، بالحيشرات التى تتخذ أو كارا فيها، و تخرج منها.

و الخلاصه، فهو عالم بكل الموجودات التى تلج الأرض و تخرج منها أعمّ ممّا نعلمه أو ما لا نعلمه.

ثم يضيف قائلا: وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا .

فهو يعلم بحيات المطر، و بأشعه الشمس التى تنثر الحياه، بأموج الوحي و الشرائع السماويه العظيمه، و بالملائكه التى تهبط إلى الأرض لإبلاغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهيه المختلفه. بالأشعه الكونيه التى تدخل جو الأرض من الفضاء الخارجى، بالشهب و الذرات المضطربه فى الفضاء و التى تهوى نحو الأرض، فهو تعالى محيط بهذا كله.

و كذلك فإنه يعلم بأعمال العباد التى تعرج إلى السماء، و الملائكه التى تقفل صاعده إلى السماء بعد أداء تكاليفها، و بالشياطين الذين يرتقون إلى السماء لاستراق السمع، و بفروع الأشجار التى تتطلع برؤوسها إلى السماء، و بالأبخره التى تتصاعد من البحار إلى أعالي السماء لتتكاثف مكونه سحبا. و بالآهات التى تنطلق من قلب المظلوم متصاعده إلى السماء... نعم هو عالم بكل ذلك.

فهل هناك من مطلع على كل ذلك غيره تعالى؟ و هل يمكن لعلوم جميع العلماء مجتمعهم أن تحيط و لو بجزء من هذه المعلومات؟ و فى ختام الآيه يضيف تعالى: وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ .

لقد وصف الله تعالى نفسه بهاتين الصفتين إمّا لأجل أنه من جملة الأمور التى تعرج إلى السماء أعمال العباد و أرواحهم فيشملها برحمته...

أو لأن نزول البركات و العطايا السماويه ترشّح من رحمته، و الأعمال

ص: ٣٨٤

الصالحه المتصاعده من العباد مشموله بغفرانه بمقتضى وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .

أو لكون «الرحمه» تشمل من يشكر هذه النعم، و«الغفران» يشمل المقصرين فى ذلك.

و الخلاصه: أن الآيه أعلاه، لها معان واسعه من جميع الوجوه، ولا يجب حصر مؤداها فى معنى واحد.

ص: ٣٨٥

اشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَضِغْرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (٥)

التفسير

اشاره

أقسم بالله لتأتينكم القيامة:

تتعرض الآيات مورد البحث إلى موضع التوحيد و صفات الله في نفس الوقت الذي تهىء أرضيته لموضوع المعاد، لأن مشكلات (بحث المعاد) لا يمكن حلها إلا عن طريق العلم اللامتناهي للبارئ عز و جل، كما سنرى.

لذا فإن الآيات مورد البحث تبدأ أولاً بقوله تعالى: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ. فما هو إلا كذب و افتراء، بل إن القيامة لا تأتي أحدا من الناس.

و يريدون بذلك الفكاك و التحرر من قيود هذه الإعتقادات، الحساب و الكتاب و العدل و الجزاء، ليرتكبوا ما يحلوا لهم من الأعمال.

و لكن القرآن بناء على وضوح أدلته القيامة يخاطب الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِصُورِهِ حَاسِمِهِ وَفِي مَعْرِفِ بَيَانِ النَّتِيجَةِ، فيقول: قُلْ بَلِيٍّ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .

و التركيز على كلمه «رَبِّ» لأنَّ القيامة في الأصل من شؤون الربوبية. فكيف يمكن أن يكون الله مالكا و مربيا للبشر يقودهم في سيرهم التكاملية، ثم يتخلى عنهم في منتصف الطريق لينتهي بالموت كل شىء، فتكون حياتهم بلا هدف و خلقهم هباء و بلا معنى.

و قد ركز القرآن في الآيه السابعه من سوره التغابن أيضا على هذا الوصف، فقال تعالى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلِيٍّ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .

و بما أن أحد إشكالات الكافرين بالمعاد، هو شكهم -من جانب- في إمكانية جمع و إعادة بناء أعضاء الإنسان الميت بعد تبعتها و تفسخها في التراب. و كذلك -من جانب آخر- في إمكانية وجود من يمكنه النظر في جميع أعمال العباد التي عملوها في السر و العلن و الظاهر و الباطن، لذا فإنَّ الله تعالى يضيف في تتمه الآيه الكريمة عَالِمِ الْعَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ لَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (١) .

و لذا، فلا يغيب عن علمه تبعتها ذرات جسم الإنسان في التراب، و لا اختلاطها بسائر الموجودات، و لا حتى حلولها في أبدان أناس آخرين عن طريق الغذاء، و لا يشكّل مشكله أمام إعادة بنائه من جديد.. و أعمالهم في هذه الدنيا تبقى محفوظة أيضا، و إن تغير شكلها، فهو سبحانه المحيط بها علما.

ص: ٣٨٧

١- ١) «يعزب»: من ماده «عزوب» و تعنى المتباعد في طلب الكلا عن أهله، يقال عزب يعزب و يعزب ثم اطلق على كل غائب، يقال رجل عزب، و امرأه عزبه إذا غاب عنها زوجها.



وقد ورد نظير هذا التعبير في الآيات الثالثه و الرابعه من سوره (ق) في قوله تعالى: أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ، قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ .

و لكن ما هو المقصود من «الكتاب المبين»؟ أغلب المفسرين قالوا بأنه «اللوحة المحفوظة» و لكن السؤال هو: ما هو اللوح المحفوظ؟! و كما ذكرنا سابقا فإن أقرب تفسير (للوح المحفوظ)، هو «لوحة العلم الإلهي اللامتناهي» نعم في ذلك اللوح ضبط و قيد كل شيء، بدون أن يجد التغيير و التبديل طريقه إليه.

و عالم الوجود المترامي الأطراف، هو الآخر انعكاس عن ذلك اللوح المحفوظ، بلحاظ أن كل ذرات وجودنا و كل أقوالنا و أفعالنا، تبقى محفوظه فيه، و إن كانت الظواهر تتغير، لكنّها لا تخرج عن حدّها أبدا.

ثم يوضح تعالى الهدف من قيام القيامة في آيتين، أو بتعبير آخر إعطاء الدليل على لزوم مثل ذلك العالم بعد عالمنا الحالي لمنكرى القيامة، فيقول تعالى:

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

فإن لم يجاز المؤمنين بصالح عملهم ثوابا، فلا يعنى ذلك تعطيل أصل العدالة الذي هو أهم أصل من اصول الخلقه؟ و هل يبقى معنى لعدالة الله بدون ذلك المفهوم؟ أفي الوقت الذي نرى أن أغلب هؤلاء الأفراد الصالحين، لا يتلقون جزاء أعمالهم الحسنه في هذه الدنيا أبدا، إذن لا بدّ من عالم آخر لكي يتحقّق فيه هذا الأصل.

تقديم «المغفرة» على «الرزق الكريم» ربّما كان سببه: أن أشدّ ما يقلق المؤمنين هو الذنوب التي ارتكبوها، لذا فإنّ الآية تطمئنهم بعرض المغفرة عليهم أولا، فضلا عن أنّ من لم يغتسل بماء المغفرة الإلهيه لن يكون أهلا (للرزق الكريم) و المقام

الكريم! (الرزق الكريم) يشمل كل رزق ذي قيمه، و مفهوم ذلك واسع إلى درجه أنه يشمل كل المواهب و العطايا الإلهيه، و منها ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

و بتعبير آخر فإن «الجنه» بكل نعمها المعنويه و الماديّه جمعت في هذه الكلمه، و البعض فسّر «الكريم» بأمرين: الجيد و الخالي من المنعّصات، و لكن يبدو أنّ مفهوم الكلمه أوسع من ذلك بكثير.

ثمّ تضيف الآيه الكريمه التاليه، موضّحه نوعا آخر من العداله فيما يخصّ عقاب المذنبين و المجرمين، فيقول تعالى: إنّ الذين كذبوا آياتنا وسعوا في إنكارها و إبطالها و تصوّروا أنّهم يستطيعون الخلاص من دائره قدرتنا.. وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ .

فهناك كان الحديث عن «الرزق الكريم» و هنا عن «الرجز الأليم».

«الرجز»: في الأصل بمعنى الاضطراب و عدم القدره على حفظ التوازن، و منه قيل «رجز البعير رجزا» فهو أرجز، و ناقه «رجزاء» إذا تقارب خطوها و اضطرب لضعف فيها. و أجبرت على تقصير خطواتها لحفظ توازنها، ثمّ أطلقت الكلمه على كلّ ذنب و رجس. كذلك فإنّ إطلاق كلمه «الرجز» على المقاطع الشعريه الخاصّه بالنزال في الحرب، من باب قصر مقاطعها و تقاربها.

على كلّ حال فالمقصود من (الرجز) هنا، أسوأ أنواع العذاب-الذي يتأكّد بإرداف كلمه «الأليم» أيضا و أنواع العقوبات البدنيه و الروحيه الأليمه.

و التفت البعض إلى هذه النكته، و هي أنّ القرآن الكريم حين ذكر نعم أهل الجنه لم يستعمل كلمه «من» ليدلّل على سعتها، بينما جاءت هذه الكلمه عند ذكر العذاب لتكون دليلا على محدوديته النسبيه، و لتتضح رحمته تبارك و تعالى.

«سعوا»: من السعى، بمعنى كلّ جهد و جدّ في أمر، و المقصود منها هنا، الجدّ

و الجهد فى تكذيب و إنكار آيات الحقّ و صدّ الناس عن طريق اللّٰه سبحانه و تعالى.

معاجزين: من المعاجزه، بمعنى معجّزين، أى مثبطين، و فى مثل هذه الموارد تطلق على من يفرّ من شخص آخر بحيث لا يمكنه من التسلّط عليه، و بديهي أنّ هذا الوصف يستخدم للمجرمين لتوهّمهم الذى يظهرونه عمليا بهذا الاتّجاه، و عملهم يشبه إلى حد كبير من يتصوّر أنّه يستطيع القيام بأية جنايه يشاء، ثمّ يستطيع الفرار من سلطه القدره الإلهيّة!!

ص : ٣٩٠

اشاره

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِذَا مَرَّتُمْ كُلَّ مَرِّتُمْ كُلَّ مَرِّتُمْ إِتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيَّنَّا لَهُمْ وَمَا جَاءَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشَأَ نَحْسَتِمْ بِهِمُ الْأَرْضِ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

التفسير

اشاره

العلماء يرون دعوتك إنها حق:

كان الحديث في الآيات السابقة عن عمى البصائر، المغفلين الذين أنكروا المعاد مع كل تلك الدلائل القاطعه، وسعوا سعيهم لتكذيب الآيات الإلهيه، وإضلال الآخرين.

و على هذا، فإن الآيات مورد البحث، تتحدث عن العلماء و المفكرين الذين صدقوا بآيات الله و سعوا سعيهم لتشجيع الآخرين على التصديق بها، يقول تعالى:

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

فسير بعض المفسرين عبارته الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، بتلك المجموعه من علماء أهل الكتاب الذين يتخذون موقف الخضوع و الإقرار للحق عند مشاهدته آثار حقايقه القرآن الكريم.

و ليس هناك مانع من اعتبار علماء أهل الكتاب أحد مصاديق الآيه، و لكن تحديدها بهم يفتقد إلى الدليل، بل مع الالتفات إلى الفعل المضارع (يرى) وسعه مفهوم الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يتضح شمول الآيه لكل العلماء و المفكرين في كل عصر و زمان و مكان.

و إذا فسرت بكونها إشاره إلى «أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه الصلاه و السلام»، كما فى تفسير على بن إبراهيم، فإن ذلك توضيح و إشاره إلى أتم و أكمل مصاديق الآيه.

نعم، فأى عالم موضوعى و غير متعصب إذا تأمل فى ما ورد فى هذا الكتاب السماوى، و تدبر فى معارفه العميقه، و أحكامه المتينه، و نصائحه الحكيمه، و مواعظه المؤثره فى الوجدان إلى قصصه التاريخيه المشعّه بالعبره، و بحوثه العلميه الإعجازيه، فسيعلم بأنها جميعا دليل على حقايقه هذه الآيات.

و اليوم، فإن هناك كتبا متنوعه كتبها مفكرون غربيون و شرقيون حول الإسلام و القرآن، تحوى اعترافات ظاهره على عظمه الإسلام و صدق الآيه مورد البحث.

التعبير ب«هو الحق» تعبیر جامع ينطبق على جميع محتوى القرآن الكريم، حيث أن «الحق» هو تلك الواقعه العينيه و الوجود الخارجى، أى إن محتوى القرآن يتساق و ينسجم مع قوانين الخلق و حقائق الوجود و عالم الإنسانيه.

و لكونه كذلك فهو يهدى إلى صراط الله، الله «العزیز» و «الحمید» أى أنه تعالى الأهل لكل حمد و ثناء و فى ذات الوقت فإن قدرته غايه القدره و الغلبه، و ليس هو كأصحاب القدره من البشر الذى يتعامل منطلقا من كونه على عرش القدره بالدكتاتوريه و الظلم و التجاوز و التلاعب.

و قد جاء نظير هذا التعبير فى الآيه الاولى من سوره «إبراهيم» حيث قال جلّ من قائل: **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .**

و واضح أنّ من كان مقتدرا و أهلا للحمد و الثناء، و من هو عالم و مطلع رحيم و عطوف، من المحتمّ أن يكون طريقه أكثر الطرق اطمئنان و استقامه. فمن يسلك طريقه إنّما يقترب من منبع القدره و كلّ الأوصاف الحميده.

و يعود تعالى إلى مسأله القيامه و البعث فى الآيه التى بعدها، و يكمل البحوث السابقه بطريقه اخرى، فيقول تعالى: **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .**

يبدا أنّ إصرار-هؤلاء الكفار-على إنكار مسأله المعاد يعتمد على أمرين:- الأول: توهمهم أنّ المعاد الذى تحدّث عنه رسول الإسلام صلّى الله عليه و آله و هو «المعاد الجسماني»، أمر يسهل الإشكال عليه و الطعن فيه، و أنّ بإمكانهم تنفير الناس منه فينكرونه بسهولة.

الثانى: أنّ الإعتقاد بالمعاد، أو حتّى القبول باحتماله-على كلّ حال-إنّما يفرض على الإنسان مسؤوليات و تعهّدات، و يضعه وجها لوجه أمام الحقّ، و هذا ما اعتبره رؤوس الكفر خطرا حقيقيا، لذا فقد أصروا على إلغاء فكره المعاد و الجزاء الاخرى على الأعمال من أذهان الناس. فقالوا: أ يمكن لهذه العظام المتفسّخه، و هذه الذرّات المبعثره، التى تعصف بها الريح من كلّ جانب، أن تجمع فى يوم و تلبس ثوب الحياه من جديد؟

و استخدامهم لكلمه (رجل) بصيغه النكره فى تعبيرهم عن الرسول صلى الله عليه و آله يقصد منه التحقير «و حاشاه».

و لكن فاتهم أننا فى بدء الخليقه لم نكن إلا أجزاء مبعثره، فكل قطره ماء فى أبداننا إنما كانت قطره فى زاويه من بحر أو ينبوع ماء، و كل ذره من مواد أجسامنا، كانت فى جانب من جوانب هذه الأرض المتراميه، و سيجمعها الله تبارك و تعالى فى النهايه أيضا كما جمعها فى البدء، و هو على كل شىء قدير.

و العجيب أنهم اعتبروا ذلك دليلا على كذب الرسول صلى الله عليه و آله أو جنونه، و حاشاه أفترى على الله كذبا أم به جنه .

و إلا فكيف يمكن لرجل عاقل أو صادق أن يتفوه بمثل هذا الحديث!!؟ و لكن القرآن يرد عليهم بشكل حاسم قائلا: بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ .

فأى ضلال أوضح من أن يرى منكر المعاد بأم عينيه مثلا لهذا المعاد فى عالم الطبيعه فى كل عام بإحياء الأرض الميتة بالزرع.

المعاد الذى لو لا وجوده لما كان للحياه فى هذا العالم أى معنى أو محتوى.

و أخيرا فإنكار المعاد مساو لإنكار قدره و عدل و حكمه الله جلّ و علا.

و لكن لماذا يؤكّد تعالى أنهم الآن فى العذاب و الضلال؟ ذلك لأنّ الإنسان يواجه فى حياته مشاكل و أحداثا لا يمكنه -بدون الإيمان بالآخرة- تحمّلها، و الحقيقه أنّ الحياه لو حدّت بهذه الأيام القليله من عمر الدنيا لكان تصوّر الموت بالنسبه لكلّ إنسان كابوسا مرعبا، لهذا السبب نرى أنّ منكرى المعاد فى قلق دائم منغصّ و عذاب أليم، فى حال المؤمنين بالمعاد يعتبرون الموت قطره إلى عالم البقاء، و وسيله لكسر القيود و التحرّر من سجن الدنيا.

نعم، فالإيمان بالمعاد، يغمر قلب الإنسان بالطمأنينه، و يهون عليه المشكلات، و يجعله أكثر قدره على الإيثار و الفداء و التضحيه.

أما الذين يرون المعاد-لجهلهم و كفرهم-دليلا على الكذب أو الجنون،إنما يأسرون أنفسهم فى عذاب العمى،و الضلال البعيد.  
و مع أنّ بعض المفسّرين اعتبروا هذا العذاب إشاره إلى عذاب الآخرة،و لكنّ ظاهر الآيه يدلّ على أنّهم أسرى هذا العذاب و الضلال الآن و فى هذه الدنيا.

ثمّ ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد،مقترن بتهديد الغافلين المعاندين فيقول تعالى: **أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ  
وَ مَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .**

فإنّ هذه السماء العظيمه بكلّ عجائبها،بكواكبها الثابته و السيّاره،و بالأنظمه التى تحكمها،و كذلك الأرض بكلّ مدهشاتها و أنواع موجوداتها الحيّه،و بركاتها و مواهبها،لأوضح دليل على قدره الخلاق العظيم.

فهل أنّ القدير على كلّ هذه الأمور،عاجز عن إعادته الإنسان بعد الموت إلى الحياه؟ و هذا هو «برهان القدره»الذى استدلّ به القرآن الكريم فى آيات اخرى فى مواجهه منكرى المعاد،و من جمله هذه الآيات،الآيه(٨٢)من سوره يس.الآيه (٩٩)من سوره الإسراء و الآيتين(٦ و ٧)من سوره ق.

و نشير إلى أنّ هذه الجملة كانت مقدّمه لتهديد تلك الفئة المتعصّبه من ذوى القلوب السوداء،الذين يصرّون على عدم رؤيه كلّ هذه الحقائق.لذا يضيف تعالى قائلا: **إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ فَأَمْرُ الْأَرْضِ فِتْنَةٌ يَزَلُزِلُهُ مَهُولَةٌ وَ تبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر و تدمر بيوتهم و تهلكهم أو نسيّقط عليهم كسفاً من السماء أجل،** إنّ فى هذا الأمر دلائل واضحه على قدره الله تعالى على كلّ شىء،و لكن يختص بإدراك ذلك كلّ إنسان يتدبّر فى مصيره و يسعى فى الإنابه إلى الله إنّ فى ذلك **لآيةً لكلّ عبّدٍ مُّنبئٍ .**

لا بدّ أن سمع أو شاهد كلّ منّا نماذج من الزلازل أو الخسف فى الأرض،أو



سقوط النيازك من السماء، أو بتساقط و تناثر صخور الجبال بسبب صاعقه أو انفجار بركان، و كلّ عاقل يدرك إمكانيه حصول مثل هذه الأمور في أيّ لحظة و في أيّ مكان من العالم، فإذا كانت الأرض هادئه تحت أقدامنا، و السماء آمنه فوق رؤوسنا، فلاّنها كذلك بقدره اخرى و بأمر من أمر، فكيف نستطيع -و نحن المحكومون بقدرته في كلّ طرفه عين- إنكار قدرته على البعث بعد الموت، أو كيف نستطيع الفرار من سلطه حكومته!!.

### هنا يجب الالتفات إلى جملة امور:

١- يعبر القرآن الكريم هنا عن السماء التي فوق رؤوسنا، و الأرض التي تحت أقدامنا بـ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** و **مَا خَلْفَهُمْ**. و هو المورد الوحيد الذي يلاحظ فيه مثل هذا التعبير. و هذا التعبير لعلّه إشاره إلى أنّ قدره و عظمه الله أظهر في السماء وقت طلوع أو غروب الشمس و ظهور القمر و النجوم فيها. و نعلم أنّ من يقف غالب باتجاه الأفق تكون السماء بين يديه، و الأرض التي تأتي بالدرجه الثانيه من الأهميه اطلق عليها **مَا خَلْفَهُمْ**.

كذلك هي إشاره إلى هؤلاء المغرورين أنّهم إن لم يجيزوا لأنفسهم النظر إلى ما فوق رؤوسهم، فلا أقل من أن ينظروا إلى ما بين أيديهم في جوار الأفق.

٢- نعلم بأننا نعيش بين مصدرين عظيمين من مصادر الخطر على حياتنا:

أولهما: باطن الكره الأرضيه المشتعل الذي هو عباره عن صخور مذابه و مشتعله و في حاله من الفوران، و في الحقيقه فإنّ حياه جميع البشر فوق مجموعه من البراكن -بالقوّه- و بمجرّد صدور أمر إلهي صغير ينطلق أحد هذه البراكين ليهزّ منطقه عظيمه من الأرض و ينثر عليها الأحجار الملتهبه و المواد المعدنيه المذابه المشتعله.

و ثانيهما:مئات الآلاف من الأحجار الصغيره و الكبيره السابحه فى الفضاء الخارجى تنجذب نحو الأرض يوميا بفعل جاذبيتها،و لولا- احتراقها نتيجة اصطدامها بالغلاف الغازى،لكننا هدفا«لمطر حجرى»بشكل متواصل ليل نهار، و أحيانا تكون أحجامها و سرعتها و قوتها إلى درجه أنها تتخطى ذلك المانع و تنطلق باتجاه الأرض لتصطدم بها.و هذا واحد من الأخطار السماويه،و عليه فإذا كنا نعيش وسط هذين المصدرين الرهييبين للخطر،بمنتهى الأمن و الأمان بأمر الله،أ فلا يكفى ذلك لأن نتوجه إلى جلال قدرته العظيمه و نسجد تعظيما و طاعه له!!.

٣-من الجدير بالملاحظه أنّ الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث أشارت إلى أنّ فى ذلك لآيه و لكنّها حدّدت لكلّ عبّد مُنيبٍ و الإشاره تستبعد ذلك المتمرّس بالعصيان الذى خلع عن رقبته طوق العبوديه لله سبحانه و تعالى، و الغافلين الذين أداموا السير فى الطريق الخاطئه الملوّثه بالخطايا و استبعدوا عن أذهانهم-كليا-التوبه و الإنابه،فهؤلاء أيضا لا يمكنهم الانتفاع من هذه الآيه المشرقه،لأنّ وجود الشمس الساطعه لا يكفى وحده لتحصل الرؤيه،بل يستلزم أيضا العين المبصره و ارتفاع الحجاب بينهما.

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْوَحْدِيدَ (١٠) أَنْ إِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

التفسير

اشاره

المواهب الإلهيه العظيمة لداود:

بناء على ما مرّ ذكره في آخر المجموعه السابقه من الآيات و ما قلناه حول «العبد المنيب» و الثواب. و لعلمنا بأنّ هذا الوصف قد ذكر للنبي داود عليه السلام (في الآيه ٢٤ من سوره ص)- كما سيرد شرحه بإذن الله- فالأفضل من أن تتعرض لجانب من حياه هذا النبي عليه السلام كمثال للإنباه و التوبه و إكمال البحث السابق. و هي أيضا تنبيه لكل من يغمط نعم الله و يتناساها، و يتخلى عن عبوديته لله عند جلوسه على مسند القدره و السلطه.

في الآيه الاولى يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا .

مفرد «فضل» ذات معنى وسيع، يشمل كلّ المواهب التي تفضّل الله بها على داود، و زادها التكبير سعه و دّل على عظمه تلك المواهب.

فقد شمل داود بالمواهب العظيمة سواء من الناحية المادية أو المعنوية، وقد تعرّض القرآن الكريم مرارا لذكرها.

ففى موضع يقول تعالى: **وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلٰى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . (١)**

و فى موضع آخر يقول تعالى على لسان داود **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَ أَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . (٢)**

و سترد ضمن حديثنا حول آخر هذه الآيات، معجزات مختلفة تمثّل جزءا من هذا الفضل العظيم، وكذلك الصوت الباهر، و القدره العاليه على القضاء العادل التى أشير إليها فى سورة (ص) تمثّل لونا آخر من ذلك الفضل الإلهي، و أهمّ من ذلك كلّ النبوه و الرساله التى شرف بها داود.

و على كلّ حال، فبعد هذه الإشاره الإجماليه العامه، تبدأ الآيه بشرح و توضيح جوانب من الفضائل المعنويه و الماديه التى تمتع بها داود، فيقول تعالى: **يَا جِبَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَ الطَّيْرُ .**

كلمه «أوبى» فى الأصل من «التأويب» بمعنى الترجيع و إعاده الصوت فى الحلق. و هذا الأصل يستعمل أيضا بمعنى «التوبه» لأنّ حقيقتها الرجوع إلى الله.

و مع أنّ كلّ ذرات الوجود تذكر الله و تسبّح بحمده، سواء سبح داود عليه السّلام معها أو لم يسبّح، و لكن الميزه التى خصّ بها داود هى أنّه ما إن يرفع صوته و يبدأ التسبيح، إلّا و يظهر ما كان خفيا و كامنا فى الموجودات، و تتبدل المهممه الباطنيه إلى نغمه عليه منسجمه، كما ورد فى الروايات من تسبيح الحصاه فى يد الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله.

و

قد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام عند ذكره لقصه داود «إنّه خرج يقرأ الزبور،

ص: ٣٩٩

١-١ (١) النمل، ١٥.

٢-٢ (٢) النمل، ١٦.

و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلا أجابه» (١).

و بعد ذكر هذه الفضيله المعنويه، تذكر الآيه فضيله ماديه اخرى فتقول: <sup>□</sup> وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ .

يمكن القول، بأنّ الله تعالى علّم داود-إعجازا-ما استطاع بواسطته تليين الحديد حتّى يمكنه من صنع أسلاك رقيقه و قويه لنسج الدروع منها، أو أنّه كان قبل داود يستفاد من صفائح الحديد لصناعه الدروع و الإفاده منها فى الحروب، ممّا كان يسبّب حرجا و إزعاجا للمحاربين نتيجة ثقل الحديد من جهة، و عدم قابليه تلك الدروع للانحناء أو الالتواء حين ارتدائها، و لم يكن أحد قد استطاع حتّى ذلك اليوم نسج الدروع من أسلاك الحديد الرفيعه المحكمه، ليكون لباسا يمكن ارتداؤه بسهولة و الإفاده من قابليته على التلوى و الانحناء مع حركة البدن برقه و إنسياب (٢).

و لكن ظاهر الآيه يدلّ على أنّ ليونه الحديد تمّت لداود بأمر إلهي، فما يمنع الذى أعطى لفرن النار خاصيه إلهيه إلاّ انه الحديد، أن يعطى هذه الخاصيه لداود بشكل آخر، و قد أشارت بعض الروايات أيضا إلى هذا المعنى.

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ: نَعَمْ الْعَبْدَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ تَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، فَبَكَى دَاوُدُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَأَلَانَ اللَّهُ لَهُ الْحَدِيدَ، وَ كَانَ يَعْمَلُ كُلَّ يَوْمٍ دَرَعًا فَيَبِيعُهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ فَعَمَلَ ثَلَاثِمِائَةَ وَ سِتِّينَ دَرَعًا فَبَاعَهَا بِثَلَاثِمِائَةِ وَ سِتِّينَ أَلْفًا فَاسْتَعْنَى عَنِ بَيْتِ الْمَالِ» (٣).

صحيح أنّ بيت المال يؤمّن مصارف الأشخاص الذين يقدّمون خدمه مجانيه للامه، و يتحمّلون الأعباء التى لا يتحمّلها غيرهم، و لكن ما أروع أن يستطيع

ص: ٤٠٠

١-١) الميزان، ج ١٦، ص ٣٦٧.

٢-٢) انظر تفسير البرهان، ج ٣، ص ٣٤٣. و تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٣١٥.

٣-٣) مجمع البيان-ج ٨ ص ٣٨١.

الإنسان تقديم هذه الخدمة، وتأمين معاشه-في حال الاستطاعه-من كدّ يمينه، و داود عليه السّلام أراد أن يكون ذلك العبد الممتاز.

على كلّ حال، فإنّ داود وجّه هذه القدره التي و هبها إِيّاه الله في أفضل الطرق و هي صناعه وسائل الجهاد و الدفاع ضدّ الأعداء، و لم يحاول الاستفادة منها في صناعه وسائل الحياه العاديه، و علاوه على الاستفادة من دخله منها في تصريف امور حياته المعاشيه البسيطه، فقد هتأ جزءاً منه للإِنفاق على المحتاجين (١). و فوق كلّ هذا، فقد كان عمله بحدّ ذاته معجزه ارتبطت به.

نقل بعض المفسّرين قال «حكى أنّ لقمان حضر داود عند أوّل درع عملها فجعل يتفكّر فيها و لا يدري ما يريد، و لم يسأله حتّى فرغ منها ثمّ قام فلبسها و قال: نعم جنه الحرب هذه. فقال لقمان: الصمت حكمه و قليل فاعله!» (٢).

الآيه التي بعدها تتعرّض لشرح صناعه داود للدروع و الأمر الإلهي العميق المعنى بهذا الخصوص. يقول تعالى: أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .

«سابغات»: جمع (سابغ) و هو الدرع التامّ الواسع، و «إسباغ النعمه» أيضا بمعنى توسيعها.

«سرد»: في الأصل بمعنى حياكه ما يخشن و يغلظ كنسج الدرع و خرز الجلد، و استعير لنظم الحديد. و جمله وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ معناها مراعاة المقاييس المتناسبه في حلقات الدرع و طريقه نسجها. و في الواقع فإنّ الله تعالى قد أمر داود بأن يكون مثالا يحتذى لكل الحرفيين و العمّال المؤمنين في العالم، بمراعاته للإِتقان و الدقّه في العمل من حيث الكمّ و الكيف في المصنوعات، ليستطيع بالتالي مستهلكوها استعمالها براحه و بشكل جيّد، و الإفاده من متانتها.

يقول تعالى لداود: أن اصنع الدروع واسعه و مريحه، حتّى لا تكون سجننا

ص: ٤٠١

١-١) راجع تفسير أبو الفتوح الرازي، ج ٩، ص ١٩٢.

٢-٢) مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٨٢.

للمقاتل وقت ارتدائها..لا تجعل حلقاتها صغيره و ضيقه أكثر من اللازم فتفقد بذلك خاصيته الانثناء و التطوى،و لا كبيره إلى درجه يمرّ منها حدّ السيف و الخنجر و السنان،فكلّ شيء يجب أن يكون ضمن مقياس معيّن و تناسب محدّد.

الخلاصه:هي أنّ الله تعالى قد قيّض لداود«المادّه»بمقتضى و أَلْتَأَلَّهُ الْحَدِيدَ .

و كذلك علّمه بطريقه تحويلها و صناعتها،حتّى يكون الناتج كاملا باجتماع «المادّه»و«الصوره».

ثمّ تختم الآيه بخطاب لداود و أهل بيته و اَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

و يلاحظ أنّ المخاطب كان فى صدر الآيه داود وحده،بينما تحوّل الخطاب فى آخر الآيه ليشمل داود و أهل بيته أو داود و قومه،ذلك لأنّ هذه الأمور مقدّمه للعمل الصالح،فالهدف ليس صناعه الدروع و تحقيق الربح،بل إنّ ذلك كلّه وسيله فى المسير باتجاه العمل الصالح.و ليستفيد أيضا داود و أهل بيته.و إحدى خصائص العمل الصالح هى مراعاة الدقه الكافيه فى الصناعات من كلّ الجوانب و تقديم نتاج كامل و مفيد خال من أى عيب أو تقصير.

و من المحتمل أيضا أن يكون الخطاب لداود و كلّ من تحققت له الاستفاده من جهده و نسيجه،إشاره إلى أنّ هذه الوسيله الدفاعيه ينبغى أن تستخدم فى طريق العمل الصالح،و ليس فى طريق المعاصى و الجور و الظلم.

اشاره

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ وَاسَلِّمْنَا لَهُ عَيْنَ القَطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَرْغُ مِنْهُمْ عَنْ  
أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مِمَّا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تِمَائِيلٍ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ  
شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّهٗ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ  
أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبِ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)

التفسير

اشاره

هيبه سليمان و موته العبره!!

بعد الحديث عن المواهب التي أغدق الله بها على داود عليه السلام تنتقل الآيات إلى الحديث عن ابنه سليمان عليه السلام، وفي  
حين أن الآيات السابقة أشارت إلى موهبتين تخصان داود، فهذه الآيات تشير إلى ثلاث مواهب عظيمة خص بها ابنه



سليمان عليه السلام يقول تعالى: **وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا وَ رَوْحًا شَهْرًا (١)**.

الملفت هنا أنّ الله تبارك و تعالى حينما سَخَّرَ للأبّ جسما خشنا و صلبا جدّا و هو الحديد، نرى أنّه قد سَخَّرَ للابن موجودا لطيفا للغاية، و لكنّ العملين كانا نافعين و إعجازيين، جسم صلب يلين لداود، و أمواج الهواء اللطيفه تجعل محكمه و فعّاله لسليمان!! و لطافه الريح لا- تمنع من أدائه أعمال هامّه، فمن الرياح ما يحرك السفن الكبيره على ظهر المحيطات، و منها ما يدير أحجار الطاحونات الهوائيه الثقيله، و منها ما يرفع البالونات إلى عنان السماء و يحركها كالتائرات.

نعم، هذا الجسم اللطيف بهذه القدره الإيجابيه سَخَّرَ لسليمان.

أمّا كيف تحمل الريح مقعد سليمان، (سواء أ كانت كرسيًا أم بساطًا)؟ فليس بواضح لنا. و القدر المتيقّن هو أن لا شىء يمثّل مشكله أو عقبه أمام قدره الله، لقد استطاع الإنسان بقدرته-الحقيره أمام قدره الله- أن يحرك البالونات و الطائرات التى تحمل مئات بل آلاف المسافرين و الأحمال الاخرى فى عنان السماء، فهل أنّ تحريك بساط سليمان بواسطه الريح يشكّل أدنى مشكله للبارى جلّت قدرته؟! ما هى العوامل التى تحفظ سليمان و وسيله نقله من السقوط أو من ضغط الهواء و المشكلات الاخرى الناشئه من الحركة فى السماء؟ هذه أيضا من المسائل التى خفيت عنّا تفصيلاتها. و لكن ما نعلمه أنّ تأريخ الأنبياء حافل بخوارق العاده و التى-مع الأسف-امتزجت نتيجة جهود بعض الجهله أو أعداء المعرفه بالخرافات حتّى أضحت الصوره الحقيقيه لهذه الأمور مشوشه و قبيحه، و نحن

ص: ٤٠٤

١ - ١) «لسليمان» جار و مجرور متعلّق بفعل مقدّر تقديره «سَخَّرنا» كما يفهم بقرينه الآيات السابقه، و قد صرّح بذلك فى الآيه (٣٦) من سوره ص. التى قال فيها سبحانه و تعالى: **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ**. و بعض المفسّرين يعتقد بأنّ (اللام) فى (لسليمان) للتخصيص، إشارة إلى أنّ المعجزه اختصّ بها سليمان و لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء.

نقتنع بهذا الخصوص بالمقدار الذى أشار إليه القرآن الكريم.

«غدو»: بمعنى وقت الصبح من النهار، يقابله «الرواح» بمعنى وقت الغروب من النهار، ويطلق على الحيوانات عند عودتها إلى مساكنها فى آخر النهار للاستراحه، و يبدو من القرائن فى الآيه مورد البحث أنّ «الغدو» هنا بمعنى النصف الأوّل من النهار، و«الرواح» النصف الثّانى منه، لذا يحتمل فى معنى الآيه أنّ سليمان عليه السّلام يقطع فى وقت مقداره من الصبح إلى الظهر- بمركبه- ما يعادل المسافه التى يقطعها المسافرون فى ذلك الزمان بشهر كامل، و كذا نصف النهار الثّانى.

بعدئذ تنتقل الآيه إلى الموهبه الثّانية التى خصّ الله بها سليمان عليه السّلام فتقول الآيه الكريمه: **وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ .**

«أسلنا» من مادّه «سيلان» بمعنى الجريان، و«القطر» بمعنى النحاس، و المقصود أنّنا أذبنا له هذا الفلز و جعلناه كعين الماء، و ذهب البعض إلى أنّ «القطر» يعنى أنواع الفلزات أو «الرصاص»، و على هذا يكون قد ألين الحديد للأب، و أذيت الفلزات بأجمعها للابن، و لكن المشهور هو المعنى الأوّل.

كيف يكون النحاس أو الفلزات الاخرى كعين الماء بين يدى سليمان عليه السّلام؟ هل أنّ الله علّم هذا النّبي كيفيه إذابه هذه الفلزات بكميات كبيره بطريقه الإعجاز؟ أو جعل عينا من هذا الفلز المائع تحت تصرفه، تشبه عيون البراكين وقت فعاليتها، حيث تنحدر منها على أطراف الجبل بصوره إعجازيه، أو بأى شكل آخر؟ ليس واضحا لدينا و ما نعلمه هو أنّ ذلك أيضا كان من الألفاف الإلهيه على هذا النّبي العظيم.

أخيرا تنتقل الآيه إلى بيان الموهبه الإلهيه الثالثه لسليمان عليه السّلام و هى تسخير مجموعته كبيره من الجنّ لخدمته فتقول الآيه: **وَ مِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَن يَرِغُ مِنْهُمْ عَنَّا نُنزِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ .**

«الجنّ»: و كما هو معلوم من اسمه، ذلك المخلوق المستور عن الحسّ البشرى،

له عقل و قدره و مكلف بتكاليف إلهيه- كما يستفاد من آيات القرآن-.

لقد صيغت حول «الجن» أساطير و حكايات و قصص خرافية كثيرة، لو حذفناها لكان أصل وجودهم و الصفات الخاصه بهم التي وردت في القرآن موضوعا لا يخالف العلم و العقل مطلقا، و سوف نتعرض إن شاء الله لتفصيل هذا الموضوع أكثر عند تفسير سورة «الجن».

و على كل حال، يستفاد من تعبير الآيه أعلاه، أنّ تسخير هذه القوه العظيمه كان -أيضا- بأمر الله، و أنّهم كانوا يتعرّضون للعقاب لدى تقصيرهم في أداء مهامهم.

قال بعض المفسرين: إنّ المقصود من «عذاب السعير» هنا، عقوبه يوم القيامة، في حين أنّ ظاهر الآيه يشير إلى أنّها عقوبه في الدنيا.

و كذلك يستفاد من الآيات ٣٧ و ٣٨ من سورة «ص» بأنّ الله قد سخر لسليمان عليه السلام مجموعه من الشياطين لإنجاز أعمال عمرانيه هامه له، و أنّهم كانوا يكبلون بالسلاسل بأمر من سليمان عند ظهور أى تخلف منهم و الشياطين كحلّ بناءٍ و غوّاصٍ و آخريّن مُقرّنين في الأصفاد .

و الجدير بالملاحظه. هو أنّه لإداره حكومه كبيره، و دوله واسعه كدوله سليمان يلزم وجود عوامل عديده، و لكن أهمها ثلاثه عوامل ذكرتها الآيه أعلاه و هي:

الأول: توفّر واسطه نقل سريعه مهّيئه على الدوام، لكي يستطيع رئيس الحكومه تفقّد جميع أطراف دولته بواسطتها.

الثاني: مواد أوّليه يستفاد منها لصناعه المعدّات اللازمه لحياه الناس و الصناعات المختلفه.

الثالث: قوه عامله فعّاله، تستطيع الإفاده من تلك المواد بدرجة مناسبه، و تصنيعها بالكيفيه اللازمه، و سدّ حاجه البلاد من هذه الجبهه.

و نرى أنّ الله تعالى قد قيض لسليمان هذه العناصر الثلاثه، و قد حقّق سليمان منها أحسن الفائده في ترقيه الناس و تعمير البلاد و تحقيق الأمن فيها.

و هذا الموضوع لا يختص فقط بعصر سليمان عليه السلام و حكومته، فالالتفات إليه و مراعاته من الضروريات اليوم و غدا، و في كل مكان لأجل إدارة الدول بطريقه صحيحه.

الآيه التاليه، تشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجيه الهامه، التي كان يقوم بها فريق الجنّ بأمر سليمان.

يقول تعالى: **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلٍ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ .**

فكلّ ما أراده سليمان من معابد و تماثيل و أواني كبيره للغذاء و التي كانت كالأحواض الكبيره، و قدور واسعه ثابته، كانت تهيأ له، فبعضها يرتبط بالمسائل المعنويه و العباديه، و بعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانيه، و كانت متناسبه مع أعداد جيشه و عماله الهائله.

«محارِب» جمع محراب، و يعنى «مكان العباده» أو «القصور و المباني الكبيره» التي بنيت كمعابد. كذلك أطلقت أيضا على صدر المجلس، و عند ما بنيت المساجد سمى صدر المسجد به، قيل: سمى محراب المسجد بذلك لأنه موضع محاربه الشيطان و الهوى (1). و قيل: سمى بذلك لأنّ الإنسان فيه يكون حريبا من أشغال الدنيا و من توزّع الخواطر (2).

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء العمّال النشطين المهرة، قاموا ببناء المعابد الضخمه و الجميله في ظلّ حكومته الإلهيه و العقائديه، حتّى يستطيع الناس أداء وظائفهم العباديه بسهولة.

«تماثيل»: جمع تماثل، بمعنى الرسم و الصوره و المجسمه، و قد وردت تفاسير عديده حول ماهيه هذه التماثيل و لأى الموجودات كانت؟ أو لما ذا أمر سليمان

ص: ٤٠٧

١-١) مفردات الراغب، مادّه (حرب).

٢-٢) المصدر السابق.

بصنعها؟.

يمكن أن تكون صنعت لتزيين المباني، كما نلاحظ ذلك في المباني المهمّة القديمه في عصرنا الحالى، أو حتّى في بعض المباني الجديده.

أو لإضفاء الأيّهة و الهيبة على المباني التي بنيت، حيث أنّ رسم بعض أنواع الحيوانات كالأسد مثلاً يضىفى نوعاً من الأيّهة في أفكار غالبية الناس.

ثمّ، هل كان صنع تماثيل ذوات الأرواح مباحاً في شريعته سليمان عليه السّلام مع كونه حراماً في الشريعة الإسلاميه؟ أو أنّ التماثيل التي كانت تصنع لغير ذوات الروح من الموجودات كالأشجار و الجبال و الشمس و القمر و النجوم؟ أو أنّها كانت مجرد نقوش و رسوم على الجدران- كما تلاحظ في الآثار القديمه- و هي غير محرّمه كما هو الحال في حرمة التماثيل المجسّمه.

كلّ ذلك محتمل، لأنّ تحريم صناعه المجسّمات في الإسلام، كان بقصد مكافحه قضيه عباده الأوثان و اقتلاعها من الجذور، في حين أنّ ذلك لم يكن بتلك الدرجه من الضروره في زمن سليمان، لذا لم تحرم في شريعته! و لكننا نقرأ

في روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام في تفسير هذه الآيه أنّه قال: «و الله ما هي تماثيل الرجال و النساء و لكنّها الشجر و شبهه» (١).

و بالاستناد إلى هذه الروايه فإنّ صنع التماثيل من ذوات الروح في شريعته سليمان كان حراماً أيضاً.

«جفان» جمع «جفنه» بمعنى إناء الطعام.

«جوابي» جمع «جاييه» بمعنى حوض الماء.

و هنا يستفاد أنّ المقصود من التعبير الوارد في الآيه الكريمه، أنّ هؤلاء العمّال قد صنعوا لسليمان عليه السّلام أواني للطعام كبيره جدّاً، بحيث أنّ كلّاً منها كان كالحوض،

ص: ٤٠٨

لكى يستطيع عدد كبير من الأفراد الجلوس حوله و تناول الطعام منه. و الاستفادة من الأواني الجماعية الكبيره لتناول الطعام كانت موجوده إلى أزمته ليست بالبعيده. و فى الحقيقه فإنّ مائدتهم كانت تلك الأواني الكبيره التى لا تشبه ما نستعمله هذه الأيام من أوان صغيره و مستقله.

«قدور»: جمع «قدر» على وزن «قشر». بنفس معناه الحالى، أى الإناء الذى يطبخ فيه الطعام.

«راسيات»: جمع «راسيه» بمعنى ثابتة، و المقصود أنّ القدور كانت من العظمه بحيث لا يمكن تحريكها من مكانها.

و تعرج الآيه فى الختام و بعد ذكر هذه المواهب الإلهيه، إلى آل داود فتخاطبهم:

إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ

و بديهى أنّ (الشكر) الذى أشارت إليه الآيه، لو كان مقصودا به الشكر باللسان لما كانت هناك أدنى مشكله و لَمَا كان العاملون به قليلين، و لكن المقصود هو (الشكر العملى). أى الاستفادة من تلك المواهب فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها. و المسلّم به أنّ الذين يستفيدون من المواهب الإلهيه فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها هم الندره النادره.

قال بعض العلماء: إنّ للشكر ثلاثه مراحل: الشكر بالقلب، بتصوّر النعمه و الرضى و السرور بها. و الشكر باللسان، و بالحمد و الثناء على المنعم. الشكر بسائر الأعضاء و الجوارح، و ذلك بتطبيق الأعمال مع متطلّبات تلك النعمه.

«شكور»: صيغه مبالغه. يعبر بها عن كثرة الشكر و دوامه بالقلب و اللسان و الأعضاء و الجوارح.

و هذه الصفه تطلق أحيانا على الله سبحانه و تعالى، كما ورد فى الآيه (١٧) من سوره التغابن: <sup>□</sup>اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ. و المقصود به أنّ الله سبحانه و تعالى، يشمل العباد المطيعين بعطاياه و أطافه، و يشكرهم، و يزيدهم من فضله أكثر ممّا

كذلك يمكن أن يكون التعبير بـ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ إشارة إلى تعظيم مقام هذه المجموعه النموذجيه، أو بمعنى حث المستمع ليكون من أفراد تلك الزمره و يزيد جمع الشاكرين.

آخر آيه من هذه الآيات، و هي آخر حديث عن النبي سليمان عليه السلام، يخبرنا الله سبحانه و تعالى فيها بطريقه موت ذلك النبي العجيبه و الداعيه للاعتبار، فيوضح تلك الحقيقه الساطعه، و هي كيف أن نبيا بتلك العظمه و حاكما بكل تلك القدره و الايئه، لم يستطع حين أخذ الموت بتلايبه من أن يستلقى على سرير مريح، و انتزعت روحه من بدنه بتلك السهوله و السرعه. يقول تعالى: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ (١).

يستفاد من تعبير الآيه و من الروايات المتعدده الوارده في تفسيرها، أن سليمان كان واقفا متكئا على عصاه حين فاجأ الموت و استلَّ روحه من بدنه، و بقي جثمان سليمان مدّه على حالته، حتى أكلت الأرضه- التي عبّر عنها القرآن بـ «دأبه الأرض»- عصاه، فاحتلَّ توازنه و هوى على الأرض، و بدأ علم بموته.

لذا تضيف الآيه بعد ذلك فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ .

جمله «تبينت» من مادّه «بين» عاده بمعنى (اتضح) (و هو فعل لازم). و أحيانا يأتي أيضا بمعنى «العلم و الاطلاع» (فعل متعد). و هنا يتناسب الحال مع المعنى الثاني. بمعنى أن الجن لم يعلموا بموت سليمان إلى ذلك الوقت، ثم علموا و فهموا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب لما بقوا حتى ذلك الحين في تعب و آلام الأعمال

١- ١) «منسأته»: من مادّه (نساء) و هو التأخير في الوقت، و المنسأه: عصا ينسأ بها الشيء، أي يؤخر. قال بعض المفسرين: إن هذه اللفظه من كلمات أهل اليمن، و بما أن سليمان عليه السلام حكم تلك المنطقه فقد استخدمها القرآن حين حديثه عن ذلك النبي. راجع مفردات الراغب و تفسير القرطبي و روح البيان.

الشاقّه التي كلّفوا بها.

جمع من المفسّرين أخذ المعنى بالحاله الأولى، وقال: إنّ مقصود الآيه هو أنّه بعد أن هوى جثمان سليمان عليه السّلام إلى الأرض اتّضحت حقيقه الجنّ للناس، وأنّهم لا يعلمون شيئاً من الغيب، وعبثاً كان إعتقاد البعض بأطلاع الجنّ على الغيب (1).

(العذاب المهين) هذا التعبير قد يكون إشاره إلى الأعمال الشاقّه التي كان سليمان عليه السّلام يعهد بها إلى مجموعته من الجنّ كنوع من العقاب، وإلاّ فإنّ نبيّ الله لا يمكن أن يضع أحداً في العذاب عبثاً، وهو على ما يبدو عذاب مدلّ.

**بحوث**

**اشاره**

### **١- صور من حياه سليمان عليه السلام:**

على عكس «التوراه» الموجود اليوم و التي صوّرت «سليمان» أحد السلاطين الجبابره و باني معابد الأوثان الضخمه و مستهتر النساء- يعدّ القرآن الكريم «سليمان» من أنبياء الله العظام و نموذج للحكومه و القدره المنقطعه النظير، و قد أعطى القرآن الكريم بعرضه البحوث المختلفه المتعلقه بسليمان دروساً للبشر هي الأساس من ذكر قصّته.

قرأنا في هذه الآيات الكريمه، أنّ الله تعالى أعطى لهذا الرّسول العظيم مواهب عظيمه، فمن وسيله النقل السريعه جدّاً و التي استطاع بواسطتها التنقل في مملكته الواسعه في مدّه قصيره، إلى المواد المعدنيه المختلفه الكثيره، إلى القوى العامله الفعّاله الكافيه لتصنيع تلك المعادن.

ص: ٤١١

١- ١) في الحاله الاولى يكون إعراب الآيه كما يلي: «تبيّنت» فعل و «الجنّ» فاعل و جمله «أن لو كانوا...» في محل مفعول به، و في الحاله الثانيه «تبيّنت» فعل و «أمر الجنّ» فاعل ثمّ حذف المضاف و أصبح «المضاف إليه» في محلّه، و أن لو كانوا... بيان و توضيح للجمله.



و قد قام سليمان عليه السلام بالاستفاده من المواهب المذكوره، ببناء المعابد الضخمه، و ترغيب الناس بالعباده، و كذلك فقد نظم برامج واسعه لاستضافه أفراد جيشه و عمّاله و سائر الناس في مملكته. و من الأواني التي مرّ ذكرها يمكننا تخيل أكثر من ذلك.

و في قبال ذلك طالبه الله تعالى بأداء الشكر على هذه النعم، مع تأكيد سبحانه على أنّ أداء شكر النعم يتحقّق من فئه قليله نادره.

ثمّ اتّضح كيف أنّ رجلا- بكلّ هذه القدره و العظمه كان أمام الموت ضعيفا لا حول له و لا قوّه، بحيث فارق الدنيا فجأه و في لحظه واحده. نعم.. كيف أنّ الأجل لم يعطه حتّى فرصه الجلوس أو الاستلقاء على سريره. ذلك حتّى لا يتّوهم المغرورون العاصون حينما يبلغون مقاما أو منصبا أن قد أصبحوا مقتدرين حقيقه، فإنّ المقتدر الحقيقي الذي كان الجنّ و الإنس و الشياطين خدما بين يديه، و الذي كان يجول في الأرض و السماء و قد بلغ قمّه الهيبه و الحشمه.. ثمّ في لحظه قصيره فارق الدنيا.

و اتّضح كذلك كيف أنّ عصا تافهه، أقامت جثمانه مدّه، و جعلت الجنّ يعملون بجده و اجتهاد و هم يلحظون جثمانه الواقف أو الجالس. ثمّ كيف أسقطته الأرضه على الأرض، و كيف اضطرت بسقوطه الدوله بكلّ مسؤوليها. نعم، عصا تافهه أقامت دوله عظيمه، ثمّ حشره صغيره أو قفت تلك الدوله!! الجميل هو ما

ورد في الروايه عن الإمام الباقر عليه السلام إذ قال: «أمر سليمان بن داود الجنّ فصنعوا له قبه من قوارير فيينا هو متكئ على عصاه في القبه ينظر إلى الجنّ كيف ينظرون إليه إذ حانت منه التفاته فإذا رجل معه في القبه قال له: من أنت، قال: أنا الذي لا أقبل الرشا و لا أهاب الملوك أنا ملك الموت. فقبضه و هو قائم متكئ على عصاه في القبه و الجنّ ينظرون إليه. قال: فمكثوا سنه يدأبون له حتّى بعث الله عزّ و جلّ الأرضه فأكلت منسأته- و هي العصا- فلما خرّ تبينت الجنّ

أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» الحديث (١).

و يجب أن نذكر هنا أيضا، بأن قصّة النبي سليمان عليه السّلام ككثير من قصص الأنبياء، اختلطت مع الأسف بروايات كثيرة موضوعه و خرافات شوّهت صورته هذا النبي العظيم، و أكثر هذه الخرافات أخذت من التوراه الرائجه اليوم، و لو اقتنعنا بما ورد في القرآن الكريم حول هذا النبي لما واجهتنا أيّه مشكله.

## ٢- لماذا خفي موت سليمان مدّه من الزمن؟

كم هي المدّه التي ظلّ فيها موت سليمان مخفيا عن حكومته، هل كانت سنه، أم شهرا، أم عدّه أيام؟ اختلف المفسّرون حول هذا الموضوع.

هل أن الكتمان كان من قبل مقربيه الذين قصدوا من وراء ذلك تمشيه امور الدوله، أم أنّهم هم الآخرون قد خفي عليهم ذلك؟ يبدو من المستبعد تماما أن يخفي أمر وفاته عن حاشيته لمدّه طويله، لا بل حتّى لأكثر من يوم واحد، لأنّ من المسلّم أنّ هناك أفرادا كانوا مكلفين بإيصال احتياجاته و غذائه إليه، و هؤلاء سيعلمون بموته حتما، و عليه فلا يستبعد- كما قال بعض المفسّرين- أنّهم علموا بأمر موته، لكنهم أخفوا ذلك الأمر لغايات معيّنه، لذا فقد ورد في بعض الروايات بأنّ «آصف بن برخيا» وزير سليمان الخاص، هو الذي كان يدير امور الدوله.

ألم تشكّل مسأله عدم تناول الطعام و الماء لمدّه طويله تساؤلا لدى ناظريه؟ مع اليقين بأنّ كلّ أعمال سليمان عليه السّلام كانت عجيبيه، فيمكن اعتبار هذه المسأله من عجائبه أيضا، و حتّى أنّه ورد في بعض الروايات أنّه بعد مدّه من بقاء سليمان عليه السّلام على حاله كثر الهمس بين البعض في وجوب عياده سليمان، لأنّه على

ص: ٤١٣

حاله منذ مدّه لم يتحرّك و لم يأكل و لم يشرب و لم ينم (١). و لكن حينما تحطّمت العصا، و سقط الجثمان على الأرض تبدّدت كلّ هذه الأفكار و الأوهام.

على كلّ حال، فإنّ تأخير إعلان موت سليمان عليه السّلام كشف كثيرا من الأمور:

١-تّضح للجميع أنّ الإنسان حتّى إذا بلغ أوج القدره و القوّه، فلا يزال هو الموجود الضعيف قبال الحوادث، كالقشّه فى خضمّ الطوفان يتقاذفها فى كلّ جانب.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه أفضل الصلاه و السّلام) فى إحدى خطبه «فلو أنّ أحدا يجد إلى البقاء سلما أو لدفع الموت سيلا لكان ذلك سليمان بن داود عليهما السّلام الذى سخر له ملك الجنّ و الإنس مع النبوّه و عظيم الزلفه» (٢).

٢-تّضح للجميع أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب، و المغفّلين من البشر الذين كانوا يعبدونهم كانوا على خطأ فادح.

٣-تّضحت لجميع الناس أيضا حقيقه إمكان أن يرتبط نظام دوله بموضوع صغير، بوجوده يمكن أن يقوم هذا النظام، و بانهاره ينهار هذا النظام، و من وراء ذلك تجلّت القدره اللامتناهيه للبارى عزّ و جلّ.

### ٣-سليمان فى القرآن و التوراه الحالیه

يصوّر القرآن سليمان بصوره نبى عظيم، ذى علم وافر، و تقوى عاليه، لم يأسره المقام و المال أبدا، مع كلّ ما كان له من سلطه فى حكومه عظيمه، و قال حينما أرسلت ملكه سبأ-لخداعه-هدايا نفيسه و ثمينه

ص: ٤١٤

١-١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ٣٤٥.

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٨٢.

لم يكن لهم من هم سوى أداء الشكر لله على نعمه وَقَالَ رَبُّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ... (٢).  
قائد لم يسمح بظلم نملة حينما قالت و هم فى وادى النمل: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٣).

كان «عابدا» إذا غفل عن ذكر ربه أو شغل بالدنيا عاد منييا و هو يقول: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي.. (٤).

كان «حكيمًا» لم يجانب المنطق فى قول، حتى فى حديثه مع الهدهد، لم يتخل عن الحق و العدالة.

كان «حاكماً» له من معاونين من له من علم الكتاب ما استطاع به إحضار عرش بلقيس فى أقل من طرفه عين.

و قد وصفه القرآن الكريم بـ «الأواب» و «نعم العبد».

شخص أعطاه الله «الحكم» و «العلم» و شمله بهدايته، و لم يشرك بالله طرفه عين أبدا.

لكننا نجد أن التوراه الحالیه المحرّفه، قد لوثت صفحه هذا النبى العظيم بالشرك و غيره، فقد نسبت إليه أسوأ الأوصاف فيما يخص بناء المعابد الوثنيه، و الترويج لعباده الأوثان، و الوالع المفرط بالنساء، و تعبيرات قبيحه جدّا من أوصاف العشاق المبتذلين، التى نخجل عن ذكرها.

و نكتفى بذكر بعض ما ورد فى التوراه من الأساطير الأهون قبحا، فى الكتاب الأوّل للملوک من التوراه نقرأ ما يلى:

ص: ٤١٥

١-١) النمل، ٣٦.

٢-٢) النمل، ١٩.

٣-٣) النمل-١٨.

٤-٤) سوره ص، ٣٢.

«و أولع سليمان بنساء غريبات كثيرات فضلا عن ابنة فرعون، فتزوج نساء موابيات و عمونيات و أدوميات و صيدونيات و حثيات، و كلهنّ من بنات الأمم التي نهى الربّ بنى إسرائيل عن الزواج منهنّ قائلا- لهم: «لا- تتزوجوا منهم و لا- هم منكم لأنهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم» و لكن سليمان التصق بهنّ لفرط محبته لهنّ، فكانت له سبع مائه زوجته، و ثلاث مائه محضيه، فانحرفن بقلبه عن الربّ فاستطعن في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهه اخرى، فلم يكن قلبه مستقيما مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه، و ما لبث أن عبد عشتاروت آلهه الصيدونيين و ملكوم إله العمونيين البغيض، و ارتكب الشرّ في عيني الربّ، و لم يتبع سبيل الربّ بكمال كما فعل أبوه داود، و أقام على تلّ شرقى أورشليم مرتفعا تكموش إله الموءابيين الفاسق. و لمولك إله بنى عمون البغيض، و شيّد مرتفعات لجميع نسائه الغريبات، اللواتى رحن يوقدن البخور عليها، و يقربن المحرقات لآلهتهنّ فغضب الربّ على سليمان لأنّ قلبه ضلّ عنه مع أنّه تجلّى له مرّتين و نهاه عن الغوايه وراء آلهه اخرى، فلم يطع وصيته، لهذا قال الله لسليمان! لأنك انحرفت عني و نكثت عهدي، و لم تطع فرائضى التي أوصيتك بها، فأنى حتما امزق أوصال مملكتك و أعطيتها لأحد عبيدك، إلا أنّى لا- أفعل ذلك في أيامك، من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك امزقها، غير أنّى ابقى له سبطا واحدا يملك عليه إكراما لداود عبدى...» (١).

و من مجموع هذه القصّه الخرافيه للتوراه يتّضح ما يلي:

١- إنّ سليمان كان يحبّ كثيرا النساء الوثنيات، و تزوج بكثير منهنّ على خلاف أوامر الله تعالى، و تدريجيا مال إلى دينهنّ، و بالرغم من كثره نسائه (٧٠٠ زوجة و ٣٠٠ محضيه) فإنّ حبه لهنّ أدّى إلى انحرافه عن طريق الحقّ (نعوذ بالله).

ص: ٤١٦

١- (١) التوراه كتاب الملوكة الأوّل-الفصل ١١-١٢-زوجات سليمان.

٢- إنَّ سليمان أمر بصراحه ببناء معابد للأوثان فوق الجبل المقابل لأورشليم المركز الدينى المقدس لبنى إسرائيل، و أحد المعابد كان لصنم «كموش» الذى يعبده الموآبيون، و الآخر لصنم «عشرون» الذى كان يعبده الصيداويون. و كل ذلك حدث فى أيام شيخوخته.

٣- إنَّ الله تعالى قزّر عقوبه سليمان بسبب انحرافه و ذنوبه الكبيره بأن يفقد مملكته، و لكن لا من يده، بل من يد ابنه «رحبعام» و يتركه إلى آخر عمره يلعب و يعبث كيفما شاء من أجل أبيه داود العبد المخلص، أى ذلك العبد الذى تقول التوراه عنه أنه ارتكب قتل النفس و زنا المحصنه و الاستيلاء على زوجة قائد جيشه المتفانى!! فهل يمكن تصديق مثل هذه التهم ضدّ رجل مقدس مثل سليمان؟! و لو فرضنا أنّ سليمان لم يكن نبيا- كما يصرّح القرآن بذلك- و قلنا بأنّه من ملوك بنى إسرائيل، فمع ذلك لا يمكن تصديق مثل هذه التهم فى حقّه، لأنّه لو لم يكن نبيا فلا أقل من أنّ مرتبته كانت تاليه لمرتبه النبى، لأنّ له كتابين من كتب العهد القديم أحدها يدعى: «مواعظ سليمان» و الآخر «أشعار سليمان».

و أساسا كيف يجيب اليهود و النصارى الذين يعتقدون بهذه التوراه الحاليه على هذه الأسئلة و الإشكالات؟ و كيف يتسنّى لهم قبول مثل هذه الفضائح؟!

#### ٤- و قليل من عبادى الشكور

قبل كلّ شيء يلزم البحث فى الأصل اللغوى لكلمه «شكر».

الراغب الأصفهانى يقول فى مفرداته، الشكر: تصوّر النعمه و إظهارها، قيل و هو مقلوب عن «الكشر» أى الكشف، و يضادّه الكفر، و هو نسيان النعمه و سترها، «و دابه شكور» مظهره بسمنها إسداء صاحبها إليها. و قيل أصله عين شكرى، أى ممتلئه بالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه.

و الشكر ثلاثه أضرِب: شكر القلب، و هو تصوّر النعمه. و شكر اللسان، و هو الثناء على المنعم، و شكر سائر الجوارح، و هو مكافأه النعمه بقدر استحقاقها.

التعبير القرآنى فى الآيه اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا يشير إلى أنّ الشكر أكثر من مقوله، إنه «عمل»، و يجب أن يظهر من بين أعمال الإنسان، و عليه فقد يكون القرآن الكريم قد عدّ الشاكرين الحقيقيين قله لهذا السبب. و فضلا عمّا ورد فى هذه الآيات فإنّ فى الآيه (٢٣) من سوره الملك، ذكر بعد تعداد بعض النعم الإلهيه العظيمة، كخلق السمع و البصر و القلب، ذكر قليلاً ما تَشْكُرُونَ، و كذا فى الآيه (٧٣) من سوره النمل ورد وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ. و هذا من جانب.

و من جانب آخر فمع الالتفات إلى أنّ الإنسان غارق من رأسه حتّى أخمص قدميه بنعم الله التى لا تعدّ و لا تحصى، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم وَ إِن تَعِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا يَتَّضِح لما ذا يمتنع الشكر كما ينبغى لله قبال جميع النعم التى أفاضها البارى جلّ و علا.

بتعبير آخر، و كما ورد على لسان بعض كبار المفسّرين، فإنّ «الشكر المطلق»، هو أن يكون الإنسان على ذكر دائم لله بلا أدنى نسيان، سائراً فى طريقه تعالى بدون أيّه معصيه، طائعا لأوامره بلا أدنى لفّ أو دوران، و مسلّم بأنّ هذه الأوصاف لا تجتمع إلّا فى القله النادره، و لا- يصغى إلى قول من يقول: إنه أمر بما لا- يطاق، فإنه ناشئ من قله التدبّر فى هذه الحقائق و البعد من ساحه العبوديه (١).

قد يقال: إنّ أداء حقّ الشكر لله سبحانه و تعالى قضيه معقده بلحاظ أنّه فى الوقت الذى يقف فيه الإنسان فى مقام الشكر و يوفّق لذلك، بأن تتوفّر لديه أسباب أداء الشكر، فإنّ ذلك بحدّ ذاته نعمه جديده تحتاج إلى شكر آخر، و بدأ يستمرّ هذا الموضوع بشكل متتابع، و كلّما بذل الإنسان جهدا أكثر فى طريق الشكر سيكون مشمولاً بنعمه متزايدة لا يمكنه معها أداء شكرها. لكن إذا انتبهنا أنّ أحد طرق أداء

ص: ٤١٨

الشكر لله هو بإظهار العجز عن أدائه كما بين القرآن الكريم يتضح حقيقه قلبه الشاكرين و ملاحظه الأحاديث التاليه تساعد في توضيح هذا المطلب.

فعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرًا؟ قال: «نعم» قلت: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمه عليه في أهل و مال، و إن كان فيما أنعم عليه في ماله حقّ أداه» (١).

و

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم» (٢).

و

عن الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام أيضا قال: «فيما أوحى الله عزّ و جلّ إلى موسى عليه السلام: يا موسى اشكرني حقّ شكرى، فقال: يا ربّ و كيف أشكرك حقّ شكرك و ليس من شكر أشكرك به إلاّ و أنت أنعمت به عليّ؟ قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أنّ ذلك منّي» (٣).

نلفت النظر كذلك إلى أنّ شكر الإنسان الذي يكون وسيله للنعمه لشخص آخر، هو شعبه من شكر الله، و كما

ورد عن علي بن الحسين السجّاد عليه السلام قوله: إنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين و يحبّ كلّ عبد شكور، يقول الله تبارك و تعالى لعبد من عبده يوم القيامة: أشكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم لله أشكركم للناس» (٤).

و فيما يخصّ موضوع (حقيقه الشكر) و كيف يكون الشكر سببا في زياده النعمه، و كيف يكون الكفر سببا في ذهابها و فنائها، هناك شرح مفصّل في تفسير الآيه السابعه من سوره إبراهيم.

ص: ٤١٩

١-١) الكافي، ج ٢، باب الشكر، ص ٩٥، ح ١٢ و ح ١٠.

٢-٢) المصدر السابق.

٣-٣) الكافي، ج ٢، باب الشكر، ص ٩٨، ح ٢٧.

٤-٤) الكافي، ج ٢، باب الشكر، ص ٩٩، ح ٣٠.



اشاره

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْجِدِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَهُ وَرَبُّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)

التفسير

اشاره

المدينه الراقبه التي أضعها الكفران:

بعد أن تطرقت الآيات السابقه إلى توضيح النعم الإلهيه العظيمة التي أولاها الله داود و سليمان عليهما السلام، و أداء هذين التبيين العظيمين وظيفتهما بالشكر، تنتقل الآيات أعلاه إلى الحديث عن قوم آخرين يمثلون الموقف المقابل للموقف السابق، و يحتمل أن يكونوا قد عاصروا داود و سليمان أو عاشوا بعدهما بفترة قليلة.. قوم شملهم الله بأنواع النعم، و لكنهم سلكوا طريق الكفران، فسلبهم الله ذلك، و مزقهم شرّ ممزق، حتى أصبح ما حلّ بهم عبره للعالمين، أولئك كانوا «قوم سبأ».

عرض القرآن المجيد تاريخ «قوم سبأ» من خلال خمس آيات، و أشار

باختصار إلى بعض خصوصيات و جزئيات حياتهم.

يقول تعالى: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَانِهِمْ آيَةٌ .

و كما سنرى فإنَّ عظمه هذه الآيه تنبع من أنَّهم بالاستفاده من خصوصيات موقعهم و طريقه إحاطه الجبال بمنطقه سكناهم و بالذكاء العالى الذى وهبهم الله، استطاعوا حصر مياه السيول-التي لا تخلف وراءها إلا الدمار-خلف سدَّ عظيم، و بدأ عَمَرُوا دوله رفيعه التمدن، فكانت آيه عظيمه أن يتحوّل سبب الخراب و الدمار إلى عامل رئيسى من عوامل العمران و التمدن!! «سبأ» اسم من؟ و ما هى؟. الموضوع مورد أخذ وردّ بين المؤرخين، و لكن المشهور هو أنّ «سبأ» اسم «أبى العرب» فى اليمن، و طبقا للروايه الوارده عن «فروه بن مسيك» أنّه قال: «سألت رسول الله عن «سبأ» أرجل هو أم امرأه؟ فقال:

هو رجل من العرب ولد له عشره، تيامن منهم ستّه و تشاءم منهم أربعه، فأما الذين تيامنوا فالأزد و كنده و مذحج و الأشعرون و أنمار و مجد. فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم و بجيله، و أمّيا الذين تشاءموا فعامله و جذام و لخم و غسان. فالمراد بسبأ هاهنا القبيله الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان» (1).

و بعضهم ذهب إلى أنّ «سبأ» اسم لأرض اليمن أو لإحدى مناطقها. و ظاهر الآيات القرآنيه التى تحدّثت فى قصّه سليمان عليه السلام و(الهدهد) أشارت إلى هذا المعنى أيضا فى الآيه (٢٢) من سوره النمل، يقول تعالى على لسان الهدهد:

وَ جِئْتِكَ مِنْ سَبَأٍ بَنِيًّا يَقِينٍ يعنى لقد جئتك من أرض سبأ بنيا يقين.

فى حال أنّ ظاهر الآيه مورد البحث هو أنّ «سبأ» كانوا «قوما» عاشوا فى تلك المنطقه، بلحاظ أنّ ضمير «هم» فى «مساكنهم» يعود عليهم.

ص: ٤٢١

و لا منافاه بين التفسيرين لأن من الممكن أن يكون «سبأ» اسم شخص ابتداء، ثم بعدئذ سمي كل أولاده و قومه من بعده باسمه، ثم انتقل الاسم ليشمل مكان سكناهم.

تنتقل الآيه بعد ذلك لتجلى الموقف عن تلك الموهبه الإلهيه التي وضعت بين يدى قوم سبأ. فيقول تعالى: جَنَّاتٍ عَن يَمِينٍ وَ شِمَالٍ .

ما حصل هو أن قوم سبأ استطاعوا-ببناء سدّ عظيم بين الجبال الرئيسيّه فى منطقتهم-حصر مياه السيول المدّمّره أو الضائعه هدرا على الأقل، و الإفاده منها..

و بإحداث منافذ فى ذلك السدّ سيطروا تماما على ذلك الخزان المائى الهائل، و بالتحكّم فيه تمكّنوا من زراعه مساحات شاسعه من الأرض.

الإشكال الذى أثاره (الفخر الرازى) هو: ما هى أهميّه وجود مزرعتين لكى يذكر ذلك فى آيه مستقلّه؟ ثم يقول فى الجواب أن هاتين المزرعتين لم تكونا عاديتين، بل إنهما عباره عن سلسله من رياض المترابطه مع بعضها البعض و الممتده على جانبى نهر عظيم يتغذى من ذلك السدّ العظيم. و كانت تلك الرياض مليئه بالبركات إلى درجه أنه ورد فى كتب التاريخ عنها، أن لو مرّ شخص يحمل على رأسه سلّه فارغه من تحت أشجار تلك المزارع فى فصل نضوج الأثمار فإنّها تمتلئ بسرعه نتيجة ما يتساقط من تلك الأثمار الناضجه.

أليس من العجيب إذا أن يتحوّل سبب الخراب و الدمار إلى سبب رئيسى للعمران بذلك الشكل المدهش؟ ثم ألا يعدّ ذلك من عجائب آيات الله سبحانه و تعالى؟ و علاوه على كل ذلك-و كما سترد الإشاره إليه فى الآيات الآتيه-فإن من آيات الله أيضا ذلك الأمن و الأمان غير العاديين اللذين شملا تلك الأرض.

ثم يضيف القرآن: كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَهُ وَ رَبُّ

هذه الجملة القصيره تصوّر مجموعه النعم الماديه و المعنويه بأجمل تعابير، فبلحاظ النعم الماديه أرض طيبه خاليه من الأمراض المختلفه، من السراق و الظلمه، من الآفات و البلايا، من الجفاف و القحط، من الخوف و الوحشه، و قيل خاليه حتى من الحشرات المؤذيه.

هواء نقي، و نسيم يبعث على السرور، أرض معطاءه و أشجار وافرہ الثمر.

و أما بلحاظ النعم المعنويه فمغفره الله التي شملتهم، و التغاضي عن تقصيرهم، و صرف البلاء و العذاب عنهم و عن بلدتهم.

و لكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين. لم يقدرُوا تلك النعمه حتى قدرها. و لم يخرجوا من بوتقه الامتحان بسلام، سلكوا طريق الإعراض و الكفران، فقرّعهم الله أيما تقريع!! قال تعالى: فَأَعْرَضُوا اسْتَهَانُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ، تَوَهَّمُوا بِأَنَّ الْعِمْرَانَ وَ الْمَدِينِيَّةَ وَ الْأَمْنَ أَسْئَاءَ عَادِيَّةٍ، نَسُوا اللَّهَ، وَ أَسْكَرْتَهُمُ النِّعْمَةَ، وَ تَفَاخَرُوا بِالْأَغْنِيَاءِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَزَاحِمُونَهُمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ - كما سيرد في الآيات اللاحقه -.

و هنا مسهم سوط الجزاء، يقول تعالى: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ فدمّر بيوتهم و مزارعهم و حوّلها إلى خرائب..

«العرم»: من «العرامه» و هي شراسه و صعوبه في الخلق تظهر بالفعل، و وصف «السييل» بالعرم إشارة إلى شدّته و قابليته على التدمير. و تعبير «سييل العرم» من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفه.

و قيل: «العرم» الجرذان الصحراويه، و هي التي سببت انهيار السدّ بنفوذها فيه

١ - ١) «بلده»: خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: هذه بلده طيبه و هذا ربّ غفور.

٢ - ٢) يمكن أن يكون هذا الخطاب الإلهي لهؤلاء القوم على أحد احتمالين، فإمّا أن يكون قد أبلغ ذلك بواسطه الأنبياء المبعوثين منهم، كما قال به بعض المفسرين، أو أنّ هذه النعم كانت توصل إلى إدراكهم مثل هذا الخطاب.

قَصَّه نفوذ الجرذان الصحراويه فى السدِّ، مع كونها ممكنه- كما سيرد شرحه فيما بعد- لكن تعبير الآيه ليس فيه أدنى تناسب مع هذا المعنى).

فى «لسان العرب»، مادّه «عرم» وردت معان مختلفه من جملتها «السيلى الذى لا يطاق» و منه قوله تعالى «الآيه»، وقيل: إضافه إلى المسنّه أو السدِّ، وقيل: إلى الفأر (١).

و لكن أنسب التفاسير هو الأوّل، و هو الذى اعتمده- أيضا- على بن إبراهيم فى تفسيره.

بعدئذ يصف القرآن الكريم عاقبه هذه الأرض كما يلى: وَبَدَّلْنَا هُمْ بَجَنَّتِيهِمْ جَنَّتِينَ ذَوَاتِى أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَ شَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ

«أكل»: بمعنى الطعام.

«خَمْطٌ»: بمعنى النبات المرّ و هو «الأراك».

«أَثَلٌ»: شجر معروف.

و هذا يكون قد نبت محلّ تلك الأشجار الخضراء المشمره، أشجار صحراويه غليظه ليست ذات قيمه، و التى قد يكون «السدر» أهمّها، و هذا أيضا كان نادرا بينها. و لك- أيّها القارئ- أن تتخيل أى بلاء حلّ بهؤلاء و بأرضهم! و لعلّ ذكر هذه الأنواع الثلاثه من الأشجار التى بقيت فى تلك الأرض المدمره إشاره إلى ثلاثه امور: أحدها قبيح المنظر، و الثانى لا نفع فيه، و الثالث له منفعه قليله جدّا.

يقول تعالى فى الآيه التاليه بصراحه و كتلخيص و استنتاج لهذه القصّه ذلِكَ جَزَاؤُنَا لَهُمْ بِمَا كَفَرُوا .

و يجب أن لا يتبادر إلى الذهن بأنّ هذا المصير يخصّ هؤلاء القوم، بل إنّ من

ص: ٢٢٤

المسلّم أَنه يعمّ كلّ من كانت لهم أعمال شبيهه بأعمال هؤلاء. و هكذا تضيف الآيه وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ .

كان هذا مختصرا عن مصير «قوم سبأ» الذي سنفضّله أكثر في تفسير الآيات اللاحقه.

ص: ٤٢٥

اشاره

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَفَدَرْنَا فِيهَا السَّبِيْرَ سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ اَيَّامًا اَمْنِيْنَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ اَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا اَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ اَحَادِيْثَ وَ مَرْفَاقَهُمْ كُلٌّ مُّمَرَّقٍ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شٰكُوْرٍ (١٩)

التفسير

فَجَعَلْنَاهُمْ اَحَادِيْثَ وَ مَرْفَاقَهُمْ كُلٌّ مُّمَرَّقٍ!!

تعود هذه الآيات إلى قصه قوم سبأ مره اخرى، و تعطى شرحا و تفصيلا أكثر حولهم و حول العقاب الذي حلّ بهم. ليكون درسا بليغا و تربويا لكلّ سامع.

يقول تعالى: لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمه لم تغطّها وحدها، بل وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً. فقد جعلنا بينهم و بين الأرض المباركه مدائن و قرى اخرى متّصله بفواصل قليله إلى درجه أنّ القرية ترى من القرية الثانيه.

بعض المفسّرين قالوا في تفسير «قرى ظاهره» بأنّها إشاره إلى القرى التي كانت تظهر للعيان من جادّه المسير بشكل واضح، و يستطيع المسافرون التوقّف فيها، أو

أنها القرى التي كانت على مرتفعات من الأرض فكانت واضحة للعاشرين.

أما ما هي «الأرض المباركة»؟ فقد أجمع أغلب المفسرين على أنها «أرض الشام» (سوريا و فلسطين و الأردن)، لأنّ هذا التعبير اطلق على نفس هذه المنطقه فى الآيه الاولى من سوره الإسراء، و الآيه (٨١) من سوره الأنبياء.

و لكن بعض المفسرين احتمل أنّ المقصود منها هو «صنعاء» أو «مأرب» و كلاتهما كانتا فى اليمن، و لا يستبعد هذا التفسير، لأنّ المسافه بين (اليمن) الواقعه فى أقصى جنوب الجزيره العربيه، و (الشام) الواقعه فى أقصى شمالها، شاسعه و مليئه بالصحارى اليابسه المقفره ممّا يجعل تفسير الأرض المباركه هنا (بالشام) بعيدا جدّا، و لم ينقل فى التواريخ ما يشير إلى ذلك.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود (بالأرض المباركة). (مكّه) و هو بعيد أيضا.

هذا من جهه العمران، و لكن العمران وحده لا يكفى، بل إنّ شرطه الأساسى هو «الأمان»، و لذلك تضيف الآيه وَ قَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ أَى جعلنا بينها فواصل معتدله. سَيَّرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَ أَيَّامًا آمِنِينَ .

و بهذا فإنّ الفواصل و المسافات بين القرى كانت متناسقه محسوبه، و كذلك فإنّ طرق محفوظه من حملات الضواري أو السراق أو قطاع الطرق. بحيث أنّ الناس كانوا يسافرون خلال هذه الطرق. بلا زاد أو دواب و بلا استفاده من الحراس المسلّحين، و لم يكونوا يخافون من حوادث الطريق أو قلّه الماء و الزاد لديهم.

أمّا بآيه وسيله تمّ إبلاغ هذه الرساله للناس سيّروا فيها الآيه، يرد أيضا الاحتمالان بأن يكون ذلك بواسطه أحد الأنبياء عليهم السلام، أو أنّ ظاهر حال المنطقه كان يوصل هذا المعنى إلى وجدانهم.

تقديم «الليالي» على «الأيام» قد يكون بلحاظ أنّ وجود الأمن فى الليل من



السراق او الوحوش اهمّ منه فى النهار الذى تسهل معه مهمّه الأمن.

و لكن هؤلاء جحدوا نعم الله العظيمة التى شملت كلّ مناحى حياتهم- كما هو الحال بالنسبه لغيرهم من الأقوام المتنعمه-و لبسهم الغرور، و أحاطت بهم الغفله و نشوه النعيم و عدم لياقتهم له، فأسلكتهم طريق الكفران و عدم الشكر، و انحرفوا عن الصراط و تركوا أوامر الله خلف ظهورهم.

فمن جمله مطالبهم العجيبه من الله، فقالوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .

أى طلبوا أن يجعل الله المسافات بين قراهم طويله، كى لا- يستطيع الفقراء السفر جنبا إلى جنب مع الأغنياء، و مقصودهم هو أن تكون بين القرى- كما أسلفنا -فواصل صحراويه شاسعه، حتى لا يستطيع الفقراء و متوسطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مرّكب، و بذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء و علامه على القدره و الثروه، و وجوب أن يظهر هذا الامتياز و يثبت لدى الجميع.

أو أنّهم ملّوا من الراحة و الرفاه، كما ملّ بنو إسرائيل من (المنّ و السلوى) (الغذاء السماوى) و طلبوا من الله البصل و الثوم و العدس.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود بعبارة بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا أنّهم أصبحوا كسالى إلى درجه لم يكونوا معها حاضرين للسفر لغرض رعى الحيوانات أو التجاره أو الزراعه، و لذا طلبوا من الله أن يقيهم فى وطنهم دائما و يباعد بين السفره و الاخرى. و لكن يبدو أنّ التفسير الأوّل أفضل.

على كلّ حال فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم و ظلّموا أنفسهم .

نعم، فإن كانوا يظنون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا، إذ أنّهم قد استلّوا خنجرا و مزّقوا به صدورهم، و دخّان النار التى أسعروها أعمى عيونهم.

و ياله من تعبير رائع، ذلك الذى أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول: إنّنا جازيناهم و دمرنا بلادهم و معيشتهم بحيث: فَجَعَلْنَا هُمْ أَكَادِيثَ .

نعم فلم يبق من تلك الحياه المرفّهه، و التمدّن العريض المشرق، إلا أخبار على

الألسن، و ذكريات فى الخواطر، و كلمات على صفحات التاريخ و مَرَفَاتُهُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ .

كيف دمّرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدره البقاء فيها، و بدأ أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كلّ مجموعته إلى جهه لإدامه حياتهم، و نثروا كما تنثر أوراق الخريف التى عصفت بها الريح حتّى أضحى تفرّقهم مثلاً يضرب فقيل:

«تفرّقوا أيادى سبأ» (١).

و كما قال بعض المفسّرين، فقد ذهبت قبيله (غسان) إلى الشام، و (أسد) إلى عمان، و (خزاعه) إلى جهه تهامه، و (أنمار) إلى يثرب (٢).

و فى ختام الآيه يقول تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، لأنّ الصابرين و الشاكرين و حدهم يستطيعون الإعتبار ممّا جرى، خصوصاً مع ملاحظه أنّ كلاً من (صبار) و (شكور) هى صيغه مبالغه. ذلك لكونهم بصبرهم و استقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى و الهوس الجموح، و يقفون بوجه المعاصى، و بشكرهم لله تعالى فى طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به و ييقظون، و عليه فإنّهم يأخذون العبره بشكل جيّد، أمّا أولئك الذين ركبوا سفينه الهوى و تجاهلوا نعم الله عليهم فكيف يمكنهم أخذ العبره ممّا جرى؟

**بحوث**

**إشاره**

**١- المصير المذهل لقوم سبأ!!**

يستفاد ممّا ورد فى القرآن الكريم و الروايات، و كذلك كتب التاريخ، بأنّ «قوم سبأ» كانوا يقطنون جنوب الجزيره، و كانت لهم حكومه راقيه، و حضاره خلاّبه.

ص: ٤٢٩

١- ١) نقل هذا المثل على صورتين «تفرّقوا أيدي سبأ» و «أيادي سبأ»، فى الشكل الأول إشاره إلى التمزّق البشرى، و الشكل الثانى إشاره إلى تمزّق الأموال و النعم و الإمكانيات، لأنّ «أيادي» عاده تستعمل بمعنى النعم.

٢- ٢) تفسير القرطبي و تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

و رغم أنّ أرض (اليمن) كانت واسعة و صالحه للزراعة، إلاّ أنّه من استغلالها لعدم وجود نهر مهمّ في تلك المنطقه، كما أنّ مياه الأمطار-التي كانت تهطل بغزاره على قمم الجبال كانت تذهب هدرًا في هضاب و صحارى تلك المنطقه. و لكن أهل تلك المنطقه الأذكيا فكروا في كيفية الاستفادة من تلك المياه المهدوره، فبنوا لهذا الغرض عددًا من السدود في النقاط الحساسه كان أهمّها و أكثرها مخزونًا «سدّ مأرب».

«مأرب» بلده صغيره تقع عند انتهاء إحدى ممّرات السيول تلك، و كانت تمرّ سيول جبال «صراه» العظيمة من جنبها، و في فم هذا المضيق و بين جبلي «بلق» بنوا سدًا عظيمًا قويًا، و أوجدوا فيه منافذ كثيره للماء، و قد استطاع هذا السدّ خزن كمّيات هائله من الماء خلفه إلى درجه أنّهم استطاعوا-بالاستفاده من ذخيره- إحداث جيّات جميله جدًّا، و بساتين مملوءه بالبركه على طرفي النهر الوارد ابتداء من مصبّ السدّ.

و كما ذكرنا سابقًا فإنّ القرى المأهوله في تلك الأرض كانت شبه متّصله ببعضها، بحيث أنّ ظلال الأشجار كانت تتواصل مع بعضها البعض، و كانت الأشجار محمّله بكمّيات كبيره من الثمار حتّى أنّ من يمرّ تحتها بسلّته الخاليه يخرج بعد مدّه قصيره بسلّه ممتلئه تلقائيًا، و فور النعمه-ممزوجًا بالأمان-هيّا محيطًا مرفّها لحياه طاهره، محيطًا نموذجيًا لطاعه الله، و التكامل المعنوي، و لكنّهم لم يقدّروا النعمه حقّ قدرها، فنسوا الله، و جحدوا النعمه، و انشغلوا بالتفاخر و العناوين و المستوى الاجتماعي.

ورد في بعض كتب التاريخ بأنّ الجرذان الصحراويّه، بعيدًا عن مرأى هؤلاء المغرورين السكارى، كانت تتخذ لها جحورًا في ذلك السدّ الترابي، و تنخره من الداخل، و فجأه هطلت أمطار غزيره و تجمّعت لتشكّل سيولًا عظيمه، تراكمت خلف ذلك السدّ الذي لم يعدّ حينها مؤهلًا لتحمل الضغط الشديد من تلك الكمّيات

الهائله، و ما هي إلا لحظه حتى انهار هذا السد ليضع النهايه لتلك الحياه الزاهيه، و دمر القرى المعموره، الجنان، المزارع، المحاصيل، قضى على الحيوانات، هدم القصور و البيوت الجميله الجذابه، و تحولت تلك الأرض الحيه إلى صحراء جافه لا ماء فيها و لا كلاً، و لم يبق من تلك الجنان و الأشجار المثمره إلا شجر (الأراك) المر، و (شجر المن) و قليل من (السد)، و هاجرت الطيور المغرده ليحل محلها البوم و الغربان... (١).

نعم، حينما يريد الله سبحانه و تعالى إظهار قدرته، فإنه يدمر مدينه راقبه بعدد من الفئران حتى يتضح للعباد مدى ضعفهم و لا يغتروا بقدرتهم مهما بلغت.

## ٢- الإعجاز القرآني التاريخي

أورد القرآن الكريم قصه «قوم سبأ» في الوقت الذي كان المؤرخون لا يعلمون شيئاً عن وجود هؤلاء القوم، و عن مثل تلك المدينه. و الملفت للنظر أن المؤرخين قبل الاكتشافات الحديثه، لم يذكروا شيئاً حول سلسله ملوك سبأ و المدينه العظيمه لهم، و اعتقدوا فقط بأن (سبأ) هو شخص افتراضى، عرف كأب مؤسس لدوله «حمير»، في حين أن القرآن الكريم أفرد سوره كامله باسم هؤلاء القوم و أشار إلى أحد مظاهر مدينتهم و هو بناؤهم (لسد مأرب) التاريخي.

و لكن بعد الكشف عن الآثار التاريخيه لهؤلاء القوم في اليمن، تغيرت أفكار علماء التاريخ، و السبب في تأخر الكشف عن الآثار التاريخيه لهؤلاء القوم يعود إلى:

١- صعوبه الطريق المؤديه إلى مناطق التنقيب و شدّه حراره الجو هناك.

٢- تنفر سكنه المنطقه حالياً من الأجانب، مما جعل الأوربيين غير المطلعين

ص: ٤٣١

١-١) اقتباس من تفسير مجمع البيان و قصص القرآن و تفاسير اخرى.

و غير العارفين يطلقون صفه «التوخش» على هذه الأحاسيس الصادره من أهل المنطقه، حتى استطاع عدّه معدوده من علماء الآثار يدفعهم التعلّق الشديد بكشف الأسرار الأثريه النفوذ إلى قلب مدينه «مأرب» و ما حولها. و اكتشفوا مجموعه من الأحجار الحاويه للخطوط و النقوش الكثيره، و بعد ذلك تعاقبت مجاميع المنقّبين فى القرن التاسع عشر الميلادى ناقلين معهم فى كلّ مرّه مجموعه من النقوش و الخطوط و الآثار، و بالاستفاده من تلك الآثار، التى ناهزت الألف أثر، أطلع العلماء على جزئيات و خصوصيات حضاره هؤلاء القوم، و على تاريخ بناء «سدّ مأرب» و خصوصيات اخرى، و ثبت للغربيين بأنّ ما ذكره القرآن الكريم بهذا الخصوص لم يكن اسطوره، بل واقع تاريخى لم يكونوا قد اطلعوا عليه، و بعد ذلك استطاعوا رسم مخطّط كامل لذلك السدّ العظيم و تشخيص منافذ عبور المياه فيه، و الجداول الخاصّه بالبساتين و المزارع يمينا و شمالا و سائر خصوصيات المنطقه الاخرى.

### ٣- لفتات هامه للعبره فى قصه قصيره

إنّ التعرّض لسرد قصّه قوم سبأ بعد قصّه سليمان عليه السّلام له مفهوم خاصّ:

١- إنّ داود و سليمان عليهما السّلام كانا نبّيين عظيمين استطاعا تشكيل حكومه قويّه، و إيجاد حضاره مشرقه تلاشت بوفاتهم، و كذلك الحضاره الكبرى التى أقامها قوم سبأ تلاشت بانهياء سدّ مأرب!! و الجدير بالملاحظه أنّ الروايات تشير إلى أن عصا سليمان عليه السّلام أكلتها حشره «الأرضه»، كما أنّ سدّ مأرب نخرته الجرذان الصحراويه، كى يعلم هذا الإنسان المغرور بأنّ النعم الماديه مهما كانت عظيمه و مصدرا للخير، فإنّها أحيانا تتلاشى بواسطه حشره أو حيوان ضعيف يقلب عاليها أسفلها. و بالنتيجه ينتبه المؤمنون

و العارفون و لا يقعون أسرى فى شراك هذه النعم، و يفيق المغرورون من سكر غفلتهم و لا يسلكوا طريق الظلم و العدوان.

٢- نلاحظ هنا حضارتين عظيمتين، إحداهما رحمانيه، و الاخرى شيطانيه المصير، لكنهما واجهتا الفناء و لم تخلدا.

٣- و ممّا يستحقّ الانتباه، هو أنّ المغرورين من قوم سبأ الذين لم يستطيعوا تحمّل وجود المستضعفين بينهم، و تمنّوا حاجزا منيعا بين الأقلية الأشراف و الأكثرية الفقراء يحول دون اختلاطهم، و دعوا الله أن يباعد بين قراهم حتّى يشقّ السفر على الفقراء، و قد استجاب الله سبحانه و تعالى دعاءهم و فرق جمعهم، و مزّقهم أيادى سبأ، حتّى أنّهم لو أرادوا الالتقاء لتطلّب منهم ذلك أن يصرفوا عمرا كاملا فى السفر.

٤- حينما يدقّق المتأمل فى وضع تلك الأرض قبل هجوم «سيل العرم» و بعده، لا يمكنه أن يصدّق بسهولة أنّ هذه الأرض بعد السيل هى تلك الأرض الخضراء المليئه بالأشجار المورقه المثمره، و كيف أضحت الآن صحراء موحشه ليس فيها إلا بضعه أشجار مبعثره من الشجر المرّ و الأراك و قليل من شجر السدر تتراعى من بعيد كمسافرين أضعوا طريقهم و تبعثروا هنا و هناك.

و هذا يجسّد بلسان الحال: أنّ «كيان الإنسان» كهذه الأرض، فإذا استطاع السيطره على قواه الخلاقه و استخدمها بالشكل الصحيح، فإنّه يثبت بساتين مليئه بالطراوه من العلم و العمل و الفضائل الأخلاقية، و لكن إذا كسر سدّ التقوى، و انهالت الغرائز كالسيل المدمّر، و غطّت أرض حياه الإنسان، فلن يبقى غير الخراب، و أحيانا فإنّ أعمالا ظاهرها أنّها بسيطه تبدأ بالتأثير تدريجيا على الاسس، حتّى ينهار كلّ شىء، لذا يجب الخوف و الحذر حتّى من هذه الأمور الصغيره التافهه ظاهرا.

٥- آخر ما نروم الإشاره إليه، هو أنّ ذلك المصير العجيب يثبت مرّه اخرى حقيقه أنّ (الموت) مخفى فى جوهر حياه الإنسان، و نفس الشىء الذى يكون سببا لحياه الإنسان و عمرانها يوما، يكون عامل موته و هلاكه فى يوم آخر.

ص: ٤٣٤

اشاره

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

التفسير

اشاره

لا أحد مجبر على اتباع الشيطان:

هذه الآيات فى الحقيقه تمثل نوعا من الاستنتاج العام من قصه «قوم سبأ» التى مرّت فى الآيات السابقه، و رأينا كيف أنّهم باستسلامهم لهوى النفس و وسوسه الشيطان، أصبحوا معرضا لكلّ تلك الخيبه و سوء التوفيق.

يقول تعالى فى الآيه الاولى من هذه الآيات: **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .**

بتعبير آخر، فإنّ إبليس بعد امتناعه من السجود لآدم و طرده من محضر الكبرياء الإلهى، توقع و قال: **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (١)** و إنّ هذا التوقع قد صحّ بالنسبه لهؤلاء القوم. فمع أنّه (لعنه الله) قد قال

ص: ٤٣٥



حديثه هذا تخميناً و توقُّعاً، ولكن هذا التخمين أصبح واقعا في النتيجة. و أتبعه ضعفاء الإيمان و الإراده و سقطوا في فخاخه زرافات و وحدانا، إلا- مجموعه صغيره من المؤمنين استطاعت تحطيم سلاسل الوسواس الشيطانيه، و تفادت الوقوع في مصيدته، جاءوا أحرارا و عاشوا أحرارا و رحلوا أحرارا، و مع أنهم كانوا قلَّه من حيث العدد، إلا أن كل واحد منهم كان يعدل دنيا بأسرها من حيث القيمه المعنويه

«أولئك هم الأقلون عدداً و الأكثرون عند الله قدرا» (١).

و تشير الآيه التاليه إلى مطلين فيما يخص الوسواس الشيطانيه، و الأشخاص الذين يقعون تحت سلطته، و الأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان، فتقول الآيه المباركه: **وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ**.

إذن فنحن الذين نجيز له الدخول و نعطيه تأشيره العبور من حدود دوله الفرديه إلى داخل قلوبنا. و ذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه **وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي** (٢)، و لكن من الواضح أنه بعد إجابته دعوته من قبل عديمي الإيمان، و عبید الهوى، لا يهدأ له بال، بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم.

لذا فإن الآيه تؤكد أن الهدف من إطلاق يد إبليس في وسوساته، إنما هو لأجل معرفه المؤمنين من غيرهم ممن هم في شك: **إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ** (٣).

بديهى أن الله تعالى مطلع تماما على كل ما يقع في هذا العالم منذ الأزل حتى الأبد، و عليه فإن جملة «لنعلم» ليس مفهومها أن الله تعالى يقول: «بأننا لم نكن

ص: ٤٣٦

١- ١) نهج البلاغه، الكلمات القصار.

٢- ٢) إبراهيم، ٢٢.

٣- ٣) على هذا المعنى الذى ذكرناه في تفسير الآيه، فإن الاستثناء هنا «استثناء متصل» بقريته ما ورد في الآيه (٤٢) من سوره الحجر: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**، بلحاظ أن ظاهر هذه الآيه أن للشيطان سلطه على الغاوين-طبعاً بعض المفسرين احتملوا أن يكون «الاستثناء منقطعاً أيضاً».

نعلم بالمؤمنين بالآخرة من الذين هم في شكّ منها، و يجب أن تكون هناك للشيطان وسوسه حتّى نعلم ذلك» كلاً، بل المقصود من هذه الجملة هو التحقّق العيني لعلم الله، لأنّ الله سبحانه و تعالى لا يعاقب أحدا بناء على علمه بالبواطن، و الأعمال المستقبلية لذلك الشخص، بل يجب توفّر ميدان للامتحان، و من خلال وساوس الشياطين و هوى النفس يظهر الإنسان ما بداخله - بكامل الإرادة و الإختيار إلى الواقع الفعلي، و يتحقّق علم الله سبحانه و تعالى عينا، لأنّه لو لا تحقّق الأعمال بالفعل لا يحصل الاستحقاق للثواب و العقاب.

و بتعبير آخر: فإنّ الثواب و العقاب لا يقع على حسن الباطن أو سوءه، فلا بدّ لما هو موجود بالقوّه أن يتحقّق بالفعل.

ثمّ تختتم الآية بتنبية للعباد وَ رَبُّكَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ حَفِيظٌ . حتّى لا يتصوّر أتباع الشيطان بأنّ أعمالهم و أقوالهم تتلاشى في هذه الدنيا، أو أنّ الله ينسى، كلاً، بل إنّ الله يحتفظ بكلّ ذلك إلى يوم الجزاء.

اشاره

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَزُفُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

التفسير

اشاره

نبؤنى لماذا؟

قلنا فى بدايه السوره بأنّ هناك مجموعه من آياتها تتحدّث حول المبدأ و المعاد و الاعتقادات الحقه، و من ربطها مع بعضها نحصل على حقائق جديده.

فى هذا المقطع من الآيات يجزّ القرآن المشركين فى الواقع إلى المحاكمه، و بالضربات الماحقه للأسئله المنطقيه، يحشرهم فى زاويه ضيقه، ثم يبين تفسّخ منطقهم الواهى بخصوص شفاعه الأصنام.

فى هذه المجموعه من الآيات، خوطب الرسول الأ-كرم صلّى الله عليه و آله خمس مرّات، و قيل له: (قل) لهم... و فى كلّ مرّه تعرض الآيات مطلباً جديداً يتعلّق بمصير الأصنام و عبادها، بشكل يشعر معه بأن ليس هناك عقيدته أفرغ و لا أجوف من عباده الأصنام، بل لا يمكن أساساً تسميه هذه العباده (عقيدته) أو (مذهباً).

فى الآيه الاولى يقول تعالى: **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (١)** و لكن اعلّموا أنّ هذه الأصنام أو الشركاء لا يستجيبون لدعائكم أبداً، و لا يحلّون لكم مشكله، ثم تنتقل الآيه إلى عرض الدليل على هذا القول، فيقول تعالى:

**لأنهم لا يملكون مثقالَ ذرّةٍ فى السماواتِ و لا فى الأرضِ و ما لهم فيهما من شركٍ و ما له منهم من ظهيرٍ .**

فلو كانوا يستطيعون شيئاً لكان لهم أحد هذه الأوصاف الثلاثة: إمّا مالكيه مستقلّه لشيء فى السماء أو الأرض، أو على الأقل مشاركته مع الله فى أمر الخلق، أو معاونه الخالق فى شيء من هذه الأمور.

فى حال أنّ الواضح هو أنّ «واجب الوجود» واحد لا-غير، و الباقون جميعهم «ممكن الوجود» مرتبطون به. و لو قطع الله تعالى نظر لطفه عنهم لحظه لأحلّهم دار البوار و العدم.

و اللطيف هو قوله تعالى: **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فى السماواتِ و لا فى الأرضِ**، فموجودات لا تملك فى هذه السماء اللامحدوده، و هذه الأرض المتراميه الأطراف ما يعادل **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**، فأى مشكله يمكنها حلّها لنفسها، ناهيك عن سواها!!

ص: ٤٣٩

١ - ١) فى الحقيقه إنّ فى الجملة مستترين: الأول بعد «زعمتم» تقديره «أنهم آله» و الثانى بعد «من دون الله» تقديره «لا يستجيبون دعاءكم» و الجملة تكون هكذا «قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آله من دون الله لا يستجيبون لكم».

هنا يتبادر إلى الذهن فوراً السؤال التالي: إذا كانت الأمر كذلك، فماذا تكون قضيه شفاعة الشفعاء؟ وللإجابة على هذا التساؤل تقول الآية التي بعدها: لو كان هناك شفعاء لدى الله تعالى فإنهم لا يشفعون إلا بإذنه وأمره ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له.

وعليه فإن العذر الذي يتعلل به الوثنيون بقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله (١)، ينتهي بهذا الجواب، وهو أن الله سبحانه وتعالى، لم يجز شفاعتها أبداً.

أما جملة إلا لمن أذن له فهي إشارة إلى الشافعين أو إلى المشفوع لهم.

احتمل المفسرون الاحتمالين، وإن كان يناسب ما ورد في الآية السابقة من الحديث حول الأصنام وأولئك الذين توهموا أنها شفعاؤهم، أن تكون الإشارة إلى «الشافعين».

ثم هل أن المقصود من «الشفاعة» هنا شفاعة الدنيا، أم الآخرة؟ كلا الاحتمالين واردان، ولكن الجملة التي تلي ذلك تدل على أن المقصود هو شفاعة الآخرة.

لذا تقول العبارة بعدها بأنه في ذلك اليوم تهيم الوحشه والاضطراب على القلوب، ويستولى القلق على الشافعين والمشفوع لهم بانتظار أن يروا لمن يأمر الله بجواز الشفاعة؟ وعلى من ستجوز تلك الشفاعة؟ وتستمر حاله القلق والاضطراب، حتى حين.. فيزول ذلك الفزع والاضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهي. حتى إذا فرغ عن قلوبهم (٢).

على كل حال فذلك يوم الفزع، وعيون الذين يطمعون بالشفاعة تعلقت بالشفعاء، ملتتمسه منهم الشفاعة بلسان الحال أو بالقول. ولكن الشفعاء أيضاً ينتظرون أمر الله، كيف؟ ومن سيجيز الشفاعة؟ ويبقى ذلك الفزع وذلك

ص: ٤٤٠

١-١) يونس، ١٨.

٢-٢) (فزع) من مادّه «فزع»، وفي وقت تعديها بحرف الجرّ (عن) تكون بمعنى إزالة الفزع والوحشه والاضطراب، كذلك لو وردت بصورة الثلاثي المجرد وتعدت بحرف الجرّ (عن) يكون لها نفس المعنى أيضاً.

الاضطراب عاما، إلى أن يصدر عن الحكيم المتعالى أمره بخصوص المتأهلين للشفاعه.

هنا و حينما يتواجه الفريقان و يتساءلان، (أو أنّ المذنبين يسألون الشافعين) قالوا: ما ذا قال ربُّكم فيجيئونهم: قالوا: الْحَقَّ، و ما الحقَّ إلاّ- جواز الشفاعة لمن لم يقطعوا ارتباطهم تماما مع الله، لا- للذين قطعوا كلّ حلقات الارتباط، و أضحوا غرباء عن و رسوله و أحبائه.

و تضيف الآيه فى الختام وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ و هذه العبارة متممه لما قاله «الشفعاء»، حيث يقولون: لأنّ الله على و كبير فأى أمر يصدره هو عين الحق، و كلّ حقّ ينطبق مع أوامره.

ما عرضناه هو أقرب تفسير يتساق و ينسجم مع تعابير الآيه، و للمفسرين بهذا الخصوص تفسيرات اخرى، و العجيب أنّ بعضها لم يأخذ بنظر الإعتبار الترابط بين صدر الآيه و ذيلها و ما قبلها و ما بعدها.

فى الآيه التاليه يلج القرآن الكريم طريقا آخر لإبطال عقائد المشركين، و يجعل مسأله «الرازقيه» عنوانا بعد طرحه لمسأله «الخالقيه» التى مرّت معنا فى الآيات السابقه. و هذا الدليل- أيضا- يطرحه القرآن بصيغه السؤال و الجواب من أجل إيقاظ وجدان هؤلاء و الفاتهم إلى اشتباههم من خلال تنوير الجواب فى ذواتهم.

يقول تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ .

بديهى أن لا أحد منهم يستطيع القول بأنّ هذه الأصنام الحجرية و الخشبيه هى التى تنزل المطر من السماء، أو تنبت النباتات فى الأرض، أو تسخر المنابع الأرضيه و السماويه لنا.

الجميل أنّه- بدون انتظار الجواب منهم- يردف تعالى قائلا: قُلِ اللَّهُ .

قل الله الذى هو منبع كلّ هذه البركات، أى أنّ الأمر واضح إلى درجه لا يحتاج

إلى جواب من طرف آخر، بل إنّ للسائل و المجيب رأيا واحدا، لأنّ المشركين يعتقدون بأنّ الله هو الخالق و الرازق، و الأصنام لها مقام الشفاعة فقط.

من الجدير بالملاحظة- أيضا- أنّ الأرزاق التي تصل إلى الناس من السماء ليست محصوره بالغيث، بل إنّ النور و الحراره الصادره عن الشمس، و الهواء الموجود في جوّ الأرض، هي الاخرى لا تقلّ أهميّه عن قطرات المطر.

كما أنّ بركات الأرض كذلك، ليست محصوره في النباتات، بل إنّ المنابع المائيه تحت سطح الأرض، و المعادن المختلفه التي كانت معروفه في ذلك الوقت و التي عرفت بعد مرور الزمان تندرج تحت هذا العنوان أيضا.

آخر الآيه تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساسا لدليل واقعي و متوائم مع غايه الأبد و الإنصاف، بطريقه تستنزل الطرف المقابل من مركب الغرور و العناد الذي يمتطيه، و تدفعه إلى التفكّر و التأمل، يقول تعالى: **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِيّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١)**.

و هذا إشاره إلى: أنّ عقيدتنا و عقيدتكم متضادّتان، و عليه- بناء على استحاله الجمع بين النقيضين- فلا يمكن أن تكون الدعواتان على حقّ، لذا فمن المحتّم أن يكون أحد الفريقين أهل هدى، و الثاني أسير الضلال.

و الآن عليكم أن تفكّروا في أيّ الفئتين على هدى، و أيّهما على ضلال؟..

انظروا إلى علامات و خصائص كلّ منهما، و مدى تطابقها مع علامات الهدى و الضلال.

و هذا أحد أفضل أساليب المناظره و البحث، بأن يضع الطرف الآخر في حاله من التفكّر و التفاعل، و ما يتوهمه البعض أنّ ذلك نوع من التقية فهو منتهى الاشتباه.

الملفت للنظر هو ذكر «على» من «الهدى» و «في» مع «الضلال»، إشاره إلى أنّ

ص: ٤٤٢

١ - ١) هذه الجملة تقديرا تعود إلى جملتين كما يلي «و أنا لعلّي هدى أو في ضلال مبيّن، و إنّكم لعلّي هدى أو في ضلال مبيّن» (مجمع البيان، مجلد ٧، ص ٣٨٨).

المهتدين كأنهم يركبون مركبا سريعا، أو يستعلون منارا عاليا و يتسلطون على كل شيء، في حال كون الضالين مغمورين في ظلمه جهلهم.

و من الجدير بالملاحظه كذلك هو أنه تعالى تحدّث عن «الهدى» أولا ثم «الضلال»، وذلك أنه قال: «إنا» في بدايه الجمله أولا، ثم قال «إياكم»، لتكون تلميحا إلى هدى الفريق الأول، و ضلاله الفريق الثاني.

و رغم أن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن وصف «المبين» يرتبط فقط (بالضلال)، بلحاظ أن الضلال أنواع و ضلال الشرك أوضحها. و لكن يحتمل أيضا أن يكون هذا الوصف للهدى و الضلال على حدّ سواء، لأن «الصفه» في مثل هذه الموارد لا تتكرر لتكون أكثر بلاغه، و عليه فيكون (الهدى) مبينا و (الضلال) مبنيا، كما ورد في كثير من آيات القرآن (١).

و تستمرّ الآيه التي بعدها بالاستدلال بشكل آخر- لكن بنفس النمط المنصف الذي يستنزل الخصم من مركب العناد و الغرور. يقول تعالى: قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

و العجيب هنا أن الرسول صلّى الله عليه و آله مأمور باستعمال تعبير «جرم» فيما يخصّه، و تعبير «أعمال» فيما يخصّ الطرف الآخر، و بهذا تتضح حقيقه أن كل شخص مسئول أن يعطى تفسيراً لأعماله و أفعاله، لأنّ نتائج أعمال أى إنسان تعود عليه، حسنها و قبيحها، و فى الضمن إشاره لطيفه إلى إنّنا إنّما نصرّ على إرشادكم و هدايتكم، لا لأنّ ذنوبكم تقيّد فى حسابنا، و لا لأنّ شرّكم يضربنا، نحن نصرّ على ذلك بدافع الغيره عليكم و طلبا للحقّ.

الآيه التاليه- فى الحقيقه- توضيح لنتيجه الآيتين السابقتين، فبعد أن تبه إلى أن أحد الفريقين على الحقّ و الآخر على الباطل، و إلى أنّ كلاّ منهما مسئول عن

ص: ٤٤٣

(١-١) راجع الآيات التاليه: النمل: ١، النور: ١٢، هود: ٦، القصص: ٢، النمل: ٧٩.



أعماله، انتقل إلى توضيح كيفية التحقق من وضع الجميع، و التفریق بین الحقّ و الباطل و مجازاه كلّ فريق طبق مسؤوليته، فيقول تعالى، قل لهم بأنّ الله سوف يجمعنا في يوم البعث، و يحكم بيننا بالحقّ، و يفصل بعضنا عن بعض، حتّى يعرف المهتدون من الضالّين، و يبلغ كلّ فريق بنتائج أعماله. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ .

و إذا كنتم اليوم ترون أنّكم مخلوطون بعضكم البعض، و كلّاً يدعى بأنّه على الحقّ و بأنّه من أهل النجاه، فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد، و لا بدّ أن يأتى يوم التفریق بين الصفوف. فربوبه اللّٰه اقتضت فصل «الطيب» من «الخبث» و «الخالص» من «المشوب» و «الحقّ» عن «الباطل» فى النهايه. و يستقرّ كلّ منهما فى مكانه اللائق.

فكروا الآن ماذا ستعملون فى ذلك اليوم؟ و فى أى صفّ ستقفون؟ و هل أحضرتم إجابته لمساءله الله فى ذلك اليوم؟.

و فى آخر الآيه يضيف ليؤكد حتميه ذلك التفریق فيقول: وَ هُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ .

هذان الاسمان- و هما من أسماء الله الحسنی- أحدهما يشير إلى قدره الله تعالى على عمله فصل الصفوف، و الآخر إلى علمه اللامتناهى. إذ أنّ عمله تفریق صفوف الحقّ عن الباطل لا يمكن تحقّقها بدون هاتين الصفتين. و استخدام كلمه «الربّ» فى الآيه أعلاه إشاره إلى أنّ الله هو المالك و المرّبى للجميع، و ذلك ممّا يقتضى أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معدّ، و فى الحقيقه هى إشاره لطيفه إلى إحدى دلائل «المعاد».

لفظه «فتح»، كما يشير الراغب فى مفرداته «الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال، و ذلك ضربان: أحدهما يدرك بالبصر كفتح الباب و نحوه، و كفتح القفل، و الغلق و المتاع. و الثّانى: يدرك بالبصيره كفتح الهم و هو إزالة الغمّ، و ذلك ضروب: أحدها:

فى الأمور الدنيويه كغمّ يفرج و فقر يزال بإعطاء المال و نحوه، و الثّانى: فتح

المستغلق من العلوم،...إلى أن يقول:«فتح القضيّه فتاحا»فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها».و عليه فإنّ استخدام هذه المفرده هنا لأنّ الحكم و القضاء يتم أيضا هناك،فضلا عن الفصل و التفريق بينهما الذى هو أحد معانى كلمه«فتح» -و مجازاه كلّ بما يستحق.

الجدير بالملاحظه،هو أنّ بعض الروايات أشارت إلى ذكر«يا فتّاح»فى الأدعيه لحلّ بعض المعضلات،لأنّ هذا الاسم الإلهى العظيم و هو بصيغه المبالغه من الفتح-يدلّل على قدره الله على حلّ أى مشاكل و رفع أى حسره و غمّ،و تهيئه أسباب أى فتح و نصر،و فى الواقع فإنّه هو وحده(الفتّاح)،و مفتاح كلّ الأبواب المغلقه فى يد قدرته تعالى.

فى الآيه الأخيره من هذه الآيات و التى هى عباره عن الأمر الخامس للرسول صلّى الله عليه و آله يعود القرآن إلى الحديث مرّه اخرى فى مسأله التوحيد التى ابتدأ بها ليختمه بها،يقول تعالى: قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ .

فما هى قيمه هؤلاء و قابلياتهم؟فإن كان مقصودكم حفنه الحجر و الخشب الجامده الميته.فإنّ ذلك لمّا يدعو إلى الخجل و يدلّل على سوء التوفيق أن تتوهّموا تشابه أحقر الموجودات-و هى الجمادات ممّا صنعت أيديكم-مع الله تعالى.و إن اعتقدتم بأنّها تمثّل الأرواح و الملائكه فالمصيبه أعظم،لأنّ هؤلاء أيضا مخلوقات له سبحانه و تعالى،و منفذه لأوامره.

لذا فبعد هذه الجمله مباشره،و بكلمه واحده يشطب على هذه الأباطيل فيقول:

كَلَّا

فهذه الأشياء لا تستحقّ أن تعبد أبدا و هذه الأوهام و التصورات ليس لها شىء من الواقعيه،فإلى متى تسلكون هذه الطريقه الخاطئه.

و كلمه«كَلَّا»مع صغرها استبطنت كلّ هذه المعانى.

ثمّ لأجل تأكيد و تثبيت هذا المعنى يقول مختتما الحديث بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .فِعَزَّتْهُ و قدرته الخارقه،تقتضى الدخول فى حريم ربوبيته،و حكمته

تقتضى توجيه هذه قدره فى محلها.

نعم، فإن امتلاك هذه الصفات علامه كونه واجب الوجود، و واجب الوجود وجود لا نهايه له و لا حد، و غير قابل للتعدد، و لا شريك له و لا شبيهه، لأن أى تعدد له يعنى حده و إمكانيةه، بينما «الوجود اللامتناهى» دائما و أبدا و احد لا غير «تأمل».

**بحث**

**اشاره**

**طريق تسخير القلوب:**

كثيرا ما يلاحظ أفراد فضلاء و على مستوى من العلم و المعرفه، لا يمكنهم النفوذ فى أفكار الآخرين، لعدم اطلاعهم على الفنون الخاصه بالبحث و الاستدلال، و عدم رعايتهم للجوانب النفسيه، على عكس البعض الآخر الذين ليسوا على و فره من العلم، إلا أنهم موفقين من ناحيه جذب القلوب و تسخيرها و النفوذ فى أفكار الآخرين.

و العله الأساسيه لذلك هى أن طريقه البحث، و أسلوب التعامل مع الطرف المقابل يجب أن تكون مقرونه بأصول و قواعد تتسق مع الخلق و الروح، فلا تستثار الجوانب السلبيه فى الطرف المقابل، كى لا يندفع إلى العناد و الإصرار، إذ أن مراعاة الجانب النفسى ستؤدى إلى إيقاظ وجدانه و إثارة روح البحث عن الحقيقه و إحيائها فيه.

و المهم هنا أن نعلم أن الإنسان ليس فكرا و عقلا صرفا كى يستسلم أمام قدره الاستدلال، بل علاوه على ذلك فإن مجموعه من العواطف و الأحاسيس التى تشكل جانبا مهما من روحه مطويه فى وجوده، و التى يجب إشباعها بشكل صحيح و معقول.

ص: ٤٤٤

و القرآن الكريم علمنا كيفيه مزج البحوث المنطقيه بالأصول الأخلاقيه فى المحاوره، حتّى تنفذ فى أرواح الآخرين.

شرط التأثير و النفوذ فى روح الطرف المقابل هو إحساس الطرف المقابل بأنّ المتحدّث يتحلّى بالصفات التاليه:

١- مؤمن بما يقول، و ما يقوله صادر من أعماقه.

٢- هدفه من البحث طلب الحقّ، و ليس التفوّق و التعالى.

٣- لا يقصد تحقير الطرف المقابل، و إعلاء شأن نفسه.

٤- ليس له مصلحه شخصيه فيما يقول، بل إنّ ما يقوله نابع من الإخلاص.

٥- يكرّ الاحترام للطرف المقابل، لذا فهو يستخدم الأدب و الرقه فى تعبيراته.

٦- لا يريد إثارة العناد لدى الطرف المقابل، و يكتفى من البحث فى موضوع بالمقدار الكافى، دون الإصرار على إثبات أنّ الحقّ إلى جانبه. ليعرض حديثه.

٧- منصف، لا يفرط بالإنصاف أبداً، حتّى و إن لم يراع الطرف المقابل هذه الأصول.

٨- لا يقصد تحميل الآخرين أفكاره، بل يرغب فى إيجاد الدافع لدى الآخرين حتّى يوصلهم إلى الحقيقه بمنتهى الحريره.

الدقه المتناهيه فى هذه الآيات، و أسلوب تعامل الرسول صلّى الله عليه و آله - بأمر الله - مع المخالفين، المقترن بكثير من اللفتات الجميله، تعتبر دليلاً حياً على ما ذكرناه. فهو أحياناً يصل إلى حدّ لا يشير بدقه إلى المهتدى أو المضلّ فى أحد الفريقين، بل يقول: **وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** حتّى يثير فى الذهن التساؤل عن علامات الهدى أو الضلال فى أى الفريقين.

أو يقول: **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ** .

طبعاً لا- يمكن إنكار أنّ كلّ ذلك بالنسبه إلى الأشخاص المؤمل اهتداؤهم، و إلاّ فإنّ القرآن يتعامل مع الأعداء المعاندين و الظلمه القساه الذين لا- يؤمل منهم القبول بذلك بطريقه اخرى. أسلوب محاورات الرسول صلّى الله عليه و آله و الأئمّه عليهم

السلام مع

ص: ٤٤٧

مخالفيهم يمثل نموذجا حيا في هذا المجال، وكمثال على ذلك لاحظوا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا الخصوص في كتب الحديث:

ففي أوائل كتاب توحيد المفضل نقراً «روى محمد بن سنان قال: حدثني المفضل بن عمر قال: كنت ذات يوم بعد العصر جالسا في الروضة الشريفه بين القبر والمنبر، وأنا مفكر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمدا صلى الله عليه وآله، من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرفه وجاهه، مميا لا يعرفه الجمهور من الامه و ما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فباتي لكذلك إذ أقبل «ابن أبي العوجاء»، «رجل ملحد معروف». إلى أن يذكر أحاديث هذا الرجل التي سمعها المفضل... إلى أن (قال المفضل): فلم أملك نفسي غضبا و غيظا و حنقا، فقلت:

يا عدو الله ألهدت في دين الله، وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم و صورك في أتم صورته، ونقلك في أحوالك حتى بلغ إلى حيث انتهيت. فلو تفكرت في نفسك و صدقك و لطيف حسيك، لو وجدت دلائل الربوبية و آثار الصنعه فيك قائمه، و شواهده جلّ و تقدس في خلقك واضحه، و براهينه لك لائح، فقال:

يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك فإن ثبت لك حجه تبعاك، و إن لم تكن منهم فلا كلام لك، و إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تخاطبنا، و لا بمثل دليلك تجادل فينا، و لقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش في خطابنا، و لا تعدى في جوابنا، و إنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتربه خرق و لا طيش و لا نزق، يسمع كلامنا، و يصغى إلينا و يتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، و ظننا أننا قطعناه، دحض حجتنا بكلام يسير، و خطاب قصير يلزنا به الحجه، و يقطع العذر، و لا نستطيع لجوابه ردا، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه» (1).

ص: ٤٤٨

اشاره

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩)  
قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

التفسير

اشاره

الدعوة العالميه:

الآيه الاولى من هذه الآيات، تتحدّث في نبوّه الرسول صلّى الله عليه و آله، و الآيات التي تليها تتحدّث حول الميعاد، و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ الآيات السابقه تحدّثت عن التوحيد، نصبح أمام مجموعه كامله من بحوث العقائد، تتناسب مع كون السوره مكيه.

أشارت الآيات ابتداء إلى شموليه دعوه الرسول صلّى الله عليه و آله و عموميه نبوّته لجميع البشر فقالت: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

«كافّه» من مادّه «كفّ» و تعنى الكفّ من يد الإنسان، و بما أنّ للإنسان يقبض

على الأشياء بكفّه تاره و يدفعها عنه بكفّه تاره اخرى، فلذا تستخدم هذه الكلمه للقبض أحيانا، و للمنع اخرى.

و قد احتمل المفسّرون الاحتمالين هنا، الأوّل بمعنى «الجمع» و فى هذه الحاله يكون مفهوم الآيه «إِنَّا لَمْ نرْسَلْكَ إِلَّا لَجَمِيعِ النَّاسِ». أى عالميه دعوه الرّسول صلّى الله عليه و آله. و يقوّى هذا المعنى روايات عديده وردت فى تفسير الآيه من طرق الفريقين.

و عليه فمحتوى الآيه شبيه بالآيه (١) سورة الفرقان **بِإِذْنِ رَبِّكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**. و كذلك الآيه (١٩) من سورة الأنعام **وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ**.

جاء فى حديث عن ابن عبّاس ينقله المفسّرون بمناسبه هذه الآيه، أنّ عموميه دعوه الرّسول صلّى الله عليه و آله ذكرت كواحد من مفاخره العظيمه.

فعنه صلّى الله عليه و آله يقول: «أعطيت خمسا و لا- أقول فخرا، بعثت إلى الأحمر و الأسود، و جعلت لى الأرض طهورا و مسجدا، و أحلّ لى المغنم و لا يحلّ لأحد قبلى، و نصرت بالرعب فهو يسير أمامى مسيره شهر، و أعطيت الشفاعة فادّخرتها لامتى يوم القيامة» (١).

و إن كان لم يرد فى الحديث أعلاه تصريح بتفسير الآيه، فثمّه أحاديث اخرى بهذا الخصوص، إمّا أن تصرّح بأنّها فى تفسير الآيه، أو يرد فيها تعبير «لنّاس كافّه» الذى ورد فى نفس الآيه (٢). و جميعها تدلّ على أنّ مقصود الآيه أعلاه، هو عالميه دعوه الرّسول صلّى الله عليه و آله.

و ذكر للآيه تفسير آخر مأخوذ من المعنى الثّانى لكلمه «كفّ» و هو (المنع)، و طبقا لهذا التّفسير تكون «كافّه» صفة للرّسول صلّى الله عليه و آله (٣) و يكون المقصود أنّ الله

ص: ٤٥٠

١- ١) تفسير مجمع التّبيان، مجلد ٨، ص ٣٩١.

٢- ٢) انظر تفسير نور الثقلين، مجلد ٤، ص ٢٥٥ و ٢٥٦.

٣- ٣) أحيانا تلحق (التاء) اسم الفاعل لتكون صيغه مبالغه لا علامه للتأنيث كما فى «روايه».

سبحانه و تعالى أرسل الرسول صَلَّى اللهُ عليه و آله كمانع و رادع و كافٍ للناس عن الكفر و المعصية و الذنوب، و لكن يبدو أنّ التفسير الأول أقرب.

على كلّ حال- كما أنّ لكلّ الناس غريزه جلب النفع و دفع الضرر- فقد كان للرسول أيضا مقام «البشاره» و «الإنذار». لكي يوظفوا هاتين الغريزتين و يحزّ كوهما، و لكن أكثر المغفلين الجهّال- بدون الالتفات إلى مصيرهم- ينهضون للوقوف في وجههم و يتنكرون تلك المواهب الإلهيه العظيمة.

و بناء على ما أشارت إليه الآيات السابقه من أنّ الله سبحانه و تعالى يجمع الناس و يحكم بينهم تورد هذه الآيه سؤال منكرى المعاد كما يلي: وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

لقد طرح هذا السؤال من قبل منكرى المعاد على الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عليه و آله أو الأنبياء الآخرين مرارا، حيننا لفهم و إدراك هذا المطلب، و أغلب الأحيان للاستهزاء و السخرية من قبيل: أين هذه القيامة التي تؤكّدون على ذكرها مرارا و تكرارا، لو كانت حقّا فقولوا متى ستأتى؟ إشارة منهم إلى أنّ الإنسان الصادق في إخباره يجب أن يعلم بجميع جزئيات الموضوع الذي يخبر عنه.

و لكن القرآن الكريم يمتنع دائما عن الإجابة الصريحه على هذا السؤال و تعيين زمان وقوع البعث، و يؤكّد أنّ هذه الأمور هي من علم الله الخاصّ به سبحانه و تعالى، و ليس لأحد غيره الاطلاع عليها.

لذا فقد تكرر في الآيه التي بعدها، هذا المعنى بعبارة اخرى، يقول تعالى: قُلْ لَكُمْ مِيعَةٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ .

إنّ إخفاء تاريخ قيام الساعة- حتّى على شخص الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عليه و آله- كما أسلفنا- لأنّ الله سبحانه و تعالى أراد لعباده نوعا من حريه العمل مقترنه بحاله من التهيؤ الدائم، لأنّه لو كان تاريخ قيام القيامة معلوما فإنّ الجميع سيغطّون في الغفله و الغرور و الجهل حينما يكون بعيدا عنهم، أمّا حين اقترابه منهم فستكون أعمالهم



ذات جنبه اضطراريه، و في كلتا الحالتين تتحجّم الأهداف التربويه للإنسان، لذا بقي تأريخ القيامه مكتوما، كما هو الحال بالنسبه إلى «ليله القدر» تلك الليله التي هي خير من ألف شهر، أو تاريخ قيام المهدي عليه السلام، و عبّر عن ذلك المعنى بلطف ما ورد في الآيه (١٥) من سوره طه إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ .

أمّا أولئك الذين يتصوّرّون أنّ النبي صلّى الله عليه و آله يجب أن يكون على علم بالتأريخ الدقيق ليوم القيامه لأنّه يخبر عنها، فإنّ ذلك غايه الاشتباه، و دليل على عدم معرفتهم بوظيفه النبوه، فالنبي مكلف بالإبلاغ و البشاره و الإنذار، أمّا مسأله القيامه فمرتبطه بالله سبحانه و تعالى، و هو وحده الذي يعلم تمام تفاصيلها، و ما يراه الله لازما لأغراض تربويه، أطلع عليه الرسول الكريم صلّى الله عليه و آله.

هنا يثار سؤال، و هو أنّ القرآن الكريم في مقام تهديد المخالفين يقول: لَا تَسِيءُوا بِأَفْوَاهِكُمْ لِتَنَسَّوْا مَا لَا يَأْتِي الْقِيَامَةَ بِسَاءٍ لِّمَنْ يَأْتِيهَا وَلَا يَأْتِيهَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ؟ فما هو تأثير ذلك في هدف القرآن.

للإجابة يجب الالتفات إلى نكتتين:

الاولى: أن ذكر ذينك الإثنيين معا إشاره إلى قطعيه و دقّه تأريخ أى أمر، تماما كما تقول: «فلان قطعى الموعد، و ليس لديه تقديم أو تأخير».

الثانيه: أنّ جمعا من الكفّار المعاندين يلحون على الأنبياء دائما، بقولهم: لماذا لا تأتى القيامه؟ و بتعبير آخر، كانوا يستعجلون ذلك الأمر سواء كان ذلك من قبيل الاستهزاء أو غير ذلك. و القرآن يقول لهم: «لا تستعجلوا فإنّ تأريخ ذلك اليوم هو عينه الذى قرّره الله سبحانه و تعالى».

اشاره

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعِيدٍ إِذْ لَجَأَكُمْ بِكُمْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

التفسير

لمناسبة البحث الوارد في الآيات السابقة، حول مواقف المشركين إزاء مسأله المعاد، تعرّج هذه الآيات إلى تصوير بعض فصول المعاد المؤلمه لهؤلاء المشركين كي يقفوا على خاتمه أعمالهم.

أولاً، يقول تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ. أى و لا بالكتب السماويه السابقه.

كلمه «لن» للنفي الأبدى، و عليه فهم يريدون القول لرسول الله صلى الله عليه و آله: أنك حتى لو بقيت تدعونا للإيمان إلى الأبد فلن نؤمن لك، و هذا دليل على عنادهم، بحيث أنهم صمّموا على موقفهم إلى الأبد، فى حين أنّ من يطلب الحقّ و يسعى له، إذا لم يقتنع بدليل ما لا يمكنه أن ينكر جميع الأدله الممكن ظهورها مستقبلا قبل أن يسمعها، فيقول: إننى أردّ جميع الأدله الأخرى أيضا.

أمّا من المقصود ب«الذين كفروا»؟ فقد أشار جمع من المفسّرين إلى أنّهم «المشركون»، و بعضهم أشار إلى أنّهم «اليهود و أهل الكتاب»، و لكن القرائن الوارده فى الآيات اللاحقه، و التى تتحدّث عن الشرك، تدلّل على أنّ المقصود هم المشركون.

و المقصود من «الذى بين يديه» هو تلك الكتب السماويه التى نزلت قبل القرآن على أنبياء سابقين، و قد ورد هذا التعبير فى كثير من آيات القرآن مشيرا إلى هذا المعنى -خصوصا بعد ذكر القرآن- و ما احتمله البعض من أنّ المقصود منه هو «المعاد» أو «محتوى القرآن» فيبدو بعيدا جدّا.

على كلّ حال فإنّ إنكار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين، يحتمل أن يكون المقصود به. نفى نبوّه الرسول صلى الله عليه و آله من خلال نفى الكتب السماويه الاخرى، باعتبار أنّ القرآن أكّد على موضوع ورود دلائل على نبوّه الرسول صلى الله عليه و آله فى التوراه و الإنجيل، و لهذا يقولون: نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب و لا بالكتب التى سبقته.

ثمّ تنتقل إلى الحديث حول وضع هؤلاء فى القيامة من خلال مخاطبه الرسول صلى الله عليه و آله فيقول تعالى: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ

و مرّه اخرى يستفاد من الآيه أعلاه أنّ من أهمّ مصاديق «الظلم» هو «الشرك و الكفر».

التعبير «عند ربّهم» إشاره إلى أنّهم حاضرون بين يدي مالِكهم و ربّهم، و ما أكثر و أشدّ خجلا من أن يكون الإنسان حاضرا بين يدي من كفر به، في حين أنّ كلّ وجوده غارق بنعمه.

في حين أنّ «المستضعفين» الذين اتّبِعوا بجهلهم «المستكبرين» و هم الذين سلّكوا طريق الغرور و التسلّط على الآخرين و رسموا لهم منهجهم الشيطاني، هناك: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .

إنّهم يريدون بذلك إلقاء مسؤليه ذنوبهم على عاتق هؤلاء «المستكبرين»، مع أنّهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعيه في دار الدنيا، لأنّ الضعف و الخور و الذلّه كانت حاكمه على وجودهم، و قد فقدوا حريتهم، أمّا هناك و بعد أن تبعثت تلك المفاهيم الطبقية التي كانت سائده في دار الدنيا، و انكشفت نتائج أعمال الجميع، فهم يقفون وجها لوجه مقابل هؤلاء و يتحدّثون بصراحه و يتلاومون معهم.

لكن «المستكبرين» لا يقولون على صمتهم بل قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَمْ نَحْنُ صَدَدٌ نَأْكُمُ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ . كلاًّ فلسنا بمسؤولين، فمع امتلاءكم حريه الإراده، استسلمتم لأحاديثنا الباطله، و كفرتم و أهدتكم متناسين أحاديث الأنبياء المنطقيه، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ .

صحيح أنّ المستكبرين ارتكبوا ذنبا كبيرا بوسوستهم، و لكن حديثهم الذي تذكره الآيه الكريمة له حقيقه أيضا، حيث أنّ المتملّقين لم يكن عليهم أن يصمّوا

ص: ٤٥٥

١ - ١) (يرجع): تأتي كفعل لازم و كفعل متعدّي، و قد وردت هنا بالحاله الثانيه لتعطي معنى العوده، و مجيئها بعد «بعضهم إلى بعض» معناه في النتيجة بمعنى «مفاعله».

أسماعهم و أبصارهم و يلهثوا وراءهم، و إنما عليهم أيضا مسئوليہ ذنوبهم.

و لكن المستضعفين لا يقتنعون بهذا الجواب، و يعاودون القول مرّة اخرى لإثبات جرم المستكبرين: **وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا .**

نعم، فأنتم الذين لم تكفوا عن بثّ السموم، و لم تفرطوا بأى فرصه من الليل أو النهار من أجل تحقيق أهدافكم المشؤومه، فصحيح أننا كنّا أحرارا فى القبول بذلك، و هذا نكون مقصّيرين و جناه، و لكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسئولون و مجرمون، بل إنكم واضعو حجر الأساس لذلك، خاصّه و أنكم كنتم تتحدّثون معنا دائما من موقع القدره و السلطه، (التعبير ب«تأمرونا» شاهد على هذا المعنى).

بديهى أنّ المستكبرين لا- يملكون جوابا لهذا القول، و لا يمكنهم إنكار جرمهم الكبير ذاك، لذا فإنّ الفريقين يندمون على ما قدّمت أيديهم، المستكبرون على إضلالهم للآخرين، و المستضعفون على إيمانهم و قبولهم بتلك الأباطيل المشؤومه، و لكن لكى لا يفتضحوا أكثر فأنهم يكتمون الندم حينما يواجهون العذاب الإلهى..

**وَ اسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا**

فمع أنّ الكتمان لا ينفع فى «يوم البروز» هناك، و مع عدم إمكانيه إخفاء شىء، إلا أنّهم-جريا على ما تعودوه فى الدنيا من قبل- يتوهّمون أنّ فى استطاعتهم كتمان حالتهم، فيلجئون إلى ذلك.

نعم، فهم فى الدنيا حينما يلتفتون إلى اشتباههم و يندمون لم يكونوا يمتلكون الشجاعه لإظهار ندمهم الذى هو أوّل طريق التوبه و إعاده النظر، و تلك هى الخصله الأخلاقيه الخاصه بهم و التى يمارسونها فى الآخره أيضا. و لكن ما الفائدة؟ بعض المفسّرين احتملوا أن يكون ذلك الكتمان للندامه بسبب الرهبه الشديده من مشاهدته العذاب الإلهى، و انجباس أنفاسهم فى صدورهم و انعقاد ألسنتهم

نتيجة الأغلال التي غلّت بها رقابهم و السلاسل التي لفّتهم. مع أنّهم يطلقون صرخاتهم في مواقف أخرى من القيامة يَا وَيْلَتَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١).

وقال آخرون: إن «أسروا» بمعنى «أظهروا» بناء على أنّ هذه اللفظة تستعمل لمعنيين متضادين في اللغة العربية، ولكن من ملاحظته الموارد التي استعملت فيها هذه اللفظة في القرآن وغير القرآن، يبدو هذا المعنى مستبعدا، بلحاظ أنّ «سرّ» عادة تستخدم للإشارة إلى ما يقابل «العلن». وقد ضعّف الراغب هذا المعنى أيضا مع أنّ بعض علماء اللغة أشار إلى كلا المعنيين (٢).

و على كلّ حال، فإنّ هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم هل يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

نعم، فأعمال و جنایات الكفّار و المجرمين هي التي أضحت قيودا و سلاسل تلفّ أعناقهم و أيديهم و أرجلهم، لقد كانوا في هذه الدنيا أسارى هوى النفس و الطمع و الظلم و الرغبة في المقام، و في يوم القيامة حيث تتجسّد الأعمال، يظهر ذلك الأسر بشكل آخر... إذن، فالآية تشير أيضا إلى قضيه تجسّم الأعمال التي أشرنا إليها مرارا. لأنها تقول: هل يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ و أى تعبير أكثر وضوحا و حيوية من ذلك التعبير عن تجسّم الأعمال.

التعبير ب«الذين كفروا» يشير إلى أنّ فريقى الغاوين و المغوين المستضعفين و كلّ الكفّار يلقون ذلك المصير، و عادة فإنّ ذكر ذلك الوصف هو إشاره إلى أنّ علّه عقابهم إنّما هي «كفرهم».

ص: ٤٥٧

١-١ (١) الأنبياء، ١٤.

٢-٢ (٢) انظر لسان العرب ذيل مادّه (سرّ) فهناك بحث مفصّل بهذا الخصوص مع اختلافات أهل اللغة و الأدب، مجلد ٤، ص ٣٥٧.

اشاره

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمَعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْبِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمِمَّا أَمْوَالِكُمْ مَا لَا آوِلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْضَعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)

التفسير

اشاره

الأموال والأولاد ليست دليلا على القرب من الله..

بعد أن كان الحديث في الآيات السابقة في الغاوين من المستكبرين، فإن جانباً آخر من هذا المبحث تعكسه الآيات أعلاه بطريقة أخرى، وتقدم المواساة أيضاً للرسول صلى الله عليه وآله ضمن إشارتها بأن لا تعجب إذا خالفك المخالفون، فإن المستكبرين

المرفهين طبعوا على مخالفه أنبياء الحق، فتقول الآيه المباركه: ﴿ وَأَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

«نذير» من «الإنذار» وهو الإخبار الذى فيه تخويف، وإشاره إلى أنبياء الله الذين يندرون الناس من عذاب الله فى قبال الانحرافات و الظلامات و الذنوب و الفساد.

«مترفوها» جمع «مترف» من مادّه «ترف» بمعنى «التوسّع فى النعمه» و (المترف) الذى قد أبطرتة النعمه و سعه العيش. و أترفته النعمه أى أطفته (١).

نعم، فإن هذه الفئه المترفه الغافله الطاغيه كانت الصف المتقدم من مخالفى الأنبياء عاده، لأنهم يرون أن تعليمات الأنبياء تتضارب مع أمانيتهم و أهوائهم من جهه، ولأن الأنبياء يدافعون عن حقوق المحرومين التى اغتصبها هؤلاء المترفين و نالوا هذا النعيم، من جهه ثانيه، ولأنهم دائما يستخدمون عامل التسلّط لحمايه مصالحهم و أموالهم من جهه ثالثه، و الأنبياء يقفون قبالهم فى كل هذه الحالات، لذا فإنهم يهتبون فوراً لمخالفه الأنبياء.

العجيب أنهم لا يشيرون إلى حكم أو فقره خاصه ليخالفوها، بل إنهم فوراً و مرّه واحده يقولون (نحن كافرون بكل ما بعثتم به) و لن نخطوا معكم خطوه واحده، و هذا بعينه أحسن دليل على عنادهم و تعصّبهم إزاء الحقّ.

و قد كشف القرآن فى آيات مختلفه عن مسأله مهمه، و هو أن المحرومين هم أول من يلبى دعوه الأنبياء، و المتنعمين المغرورين أيضا هم أول مجموعه ترفع لواء المخالفه.

و رغم أن منكرى دعوه الأنبياء لا ينحسرون فى هذه المجموعه فقط، و لكنهم غالبا عامل الفساد الأول و الدعاة إلى الشرك و الخرافات، و يسعون دوما إلى إكراه

ص: ٤٥٩



الآخرين لسلوك طريقهم. و ردّ هذا المعنى أيضا في الآيات ٢٣-الزخرف، و ١١٦-هود، و ٣٣-المؤمنون.

هذه المجموعه لم تقف فقط في وجه الأنبياء فحسب، بل قبال أيّه خطوه إصلاحيه من قبل أى عالم أو مصلح أو مفكر مجاهد، فقد كانوا السباقين للمخالفه، و لا يتورعون في ارتكاب أيّه جريمه و تأمر ضدّ هؤلاء المصلحين.

تشير الآيه التاليه إلى المنطق الأجوف الذى يتمسك به هؤلاء لإثبات أفضليتهم و لاستغفال العوام فتقول: **وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا** **وَ أَوْلَادًا**.

إنّ الله يحبنا، فقد أعطانا المال الوفير، و القوه البشريه، و ذلك دليل على لطفه بحقنا و إشاره إلى مقامنا و موقعنا عنده، و لذلك لن نعاقب أبداً **وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ** ! فلو كنّا مطرودين من رحمته فلم سخر لنا كلّ هذه النعم؟ الخلاصه، إنّ وفره النعيم فى دنيانا دليل واضح على كونه كذلك آخرتنا!! بعض المفسرين احتملوا أن يكون قولهم: **وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ** دليلاً على إنكارهم الكلى للقيامه و العذاب. و لكن الآيات اللاحقه تدلّل على عدم قصد هذا المعنى، بل المراد هو (القرب من الله بسبب الثروه التى يملكونها).

الآيه التى بعدها تردّ بأرقى أسلوب على هذا المنطق الأجوف الخداع و تنسفه من الأساس، و بطريق مخاطبه الرسول صلّى الله عليه و آله تقول الآيه الكريمه: قل لهم: إنّ ربّى يرزق من يشاء و يقدر لمن يشاء، و ذلك أيضا طبق مصالح مرتبطه بامتحان الخلق و بنظام حياه الإنسان، و ليس له أى ربط بقدر و مقام الإنسان عند الله سبحانه و تعالى: **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ**.

و عليه فلا يجب اعتبار سعه الرزق دليلاً على السعاده، و قلته على الشقاء.

**وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**

. طبعاً أكثر الجهال المغفلين هم كذلك، و إلا فإنّ هذا الأمر واضح للعارف.

ثمّ تتابع الآيات هذا المعنى بصراحه أكثر. تقول: **وَ مَا أَمْوَالُكُمْ** **وَ لَا أَوْلَادُكُمْ**

لقد عمّ هذا الاشتباه الخطير بعضا من البسطاء، و تصوّروا بأنهم ما داموا محرومين فى الدنيا فهم مغضوب عليهم و مطرودون من رحمته الله، و هؤلاء المرفّهون هم المحبوبون المقبولون لديه.

ما أكثر المحرومين الذين امتحنوا بالحرمان، فنالوا أرقى الدرجات و المراتب الروحية.

و ما أكثر المرفّهين الذين أصبحت أموالهم و ثرواتهم و بالاعليهم و مقدّمه لعقابهم.

أليس قد ذكرت الآية (١٥) من سورة التغابن بصراحه إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

و لكن ليس معنى هذا هو حثّ الإنسان على ترك السعى و الدأب اللازم لإقامه الأود، بل المقصود هو التأكيد على أنّ امتلاك الإمكانيات الاقتصادية و القوّه البشريه الواسعه لا يمثّل أبداً أيّه قيمه معنويه للإنسان عند الله.

ثمّ تتناول الآية موضوع المعيار الأصلي لتقييم الناس، و ما يسبّب قربهم منه (على شكل استثناء منفصل) فتقول: إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ (٢) .

و عليه فجميع المعايير تعود أصلا إلى هذين الأمرين «الإيمان» و «العمل الصالح». و يستوعب هذا المعيار جميع الأفراد و فى أى زمان أو مكان، و من أى طبقه أو مجموعه كان. و اختلاف مراتب البشر أمام الله إنّما هو بتفاوت درجات إيمانهم و مراتب عملهم الصالح، و لا شيء سوى ذلك. حتّى طلب العلم أو

ص: ٤٦١

١ - ١) «زلفى» و «زلفه» بمعنى المنزله و الحظوه (مفردات الراغب)، و لهذا السبب عبّر عن (منازل الليل) ب (زلف الليل) - و التعبير ب «التي» لأجل أنّه فى كثير من الموارد يعود الضمير المفرد المؤنث إلى جمع التكسير، و عليه فلا حاجه إلى التقدير هنا.

٢ - ٢) التعبير ب «جزاء الضعف» من قبيل إضافه الموصوف إلى الصفه.

الانتساب إلى أفراد عظماء، بل حتى للأنبياء، إذا لم يكن مقترنا بهذين الأمرين فإنه وحده لا يضيف إلى قيمه الإنسان شيئا.

هنا يشطب القرآن و بصراحه قلّ نظيرها على كلّ الظنون المنحرفه و الخرافات بخصوص عوامل القرب من الله، و ما يرفع من قيمه الإنسان، و يخلص إلى أنّ المعيار الأصل هو في شيئين فقط، يستطيع كلّ الناس تحصيلها، و أنّ الإمكانات و المحرومات الماديه لا أثر لها في ذلك.

أجل، فإنّ الأموال و الأولاد أيضا إذا وُجّهت بهذا المسير، صبغت بتلك الصبغه الإلهيه و تقبّلت لون الإيمان و العمل الصالح، و أصبحت سببا في القرب من الله. أمّا الأموال و الأولاد التي تبعد الإنسان عن الله، و تكون له صنما يعبد من دون الله و سببا للفساد و الإفساد، فهي جواذب جهنّم، و كما قال القرآن الكريم: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .**

(١)

كلمه «ضعف» ليست بمعنى «مضاعفه الشيء مرتين» فقط، بل بمعنى «أضعاف مضاعفه لأكثر من مرتين». و قد وردت في هذه الآيه بهذا المعنى. لأننا نعلم أنّ أى عمل حسن يحسب عند الله بعشره أمثاله على الأقل من جاء بالحسنه فله عشر أمثاله . (٢) و أحيانا أكثر من ذلك بكثير.

«غرفات» جمع «غرفه» بمعنى الحجرات العلويه من البناء، و التي غالبا ما تكون إضاءتها أكثر و هواؤها أفضل. و يعيده عن الآفات، لذا عبّر القرآن عن أفضل منازل الجنّه (بالغرف). و هذه اللفظه من مادّه «غرف»، على زنه (بحر) بمعنى رفع الشيء و تناوله.

التعبير ب«آمنون» فيما يخصّ أهل الجنّه، تعبیر جامع يعكس حاله الطمأنينه الروحيه و الجسديه لهم من كافه النواحي، فلا خوف من هجوم عدوّ، أو مرض، أو

ص: ٤٤٢

١-١ (١) التغابن، ١٤.

١-٢ (٢) أنعام، ١٦٠.

آفه أو ألم، ولا- خوف حتى من الخوف!، و ليس أغلى من هذه النعمة بأن يكون الإنسان آمنا من كل جانب، فلا بلاء أشد من الإحساس بعدم الأمن في مختلف جوانب الحياة.

الآيه التاليه تصف الفريق المقابل لهؤلاء، فتقول: أما هؤلاء الذين يسعون و يجتهدون لتسفيه آياتنا، لا يؤمنون و لا يتركون غيرهم يسرون في طريق الإيمان، و يتوهمون أنهم يستطيعون الفرار من يد قدرتنا، هؤلاء يحضرون في عذاب أليم يوم القيامة و الذين يسعون في آياتنا معجزين أولئك في العذاب محضرون .

هؤلاء هم الذين اعتمدوا على أموالهم و أولادهم و كثره عددهم لتكذيب الأنبياء، و عملوا على إغواء عباد الله، حتى بلغ غرورهم درجه أن توهموا أنهم يفلتون من قبضه العذاب الإلهي، و لكن هيهات فإن مصيرهم في قلب جهنم.

و بما أن جمله أولئك في العذاب محضرون ليس فيها ما يدل على الزمان الآتي - فقد تكون إشاره إلى كون هؤلاء مأسورين بالعذاب حتى في الوقت الحاضر، و أى عذاب أشد من هذا السجن الذى صنعوه لأنفسهم من أموالهم و أولادهم.

كذلك يحتمل أن يكون التعبير للتدليل على أن وعد الله مسلم به إلى درجه يمكن القول بأنهم حاليا فيه، كما هو الحال بالنسبه إلى قوله: و هم في العرفات آمنون .

«معجزين»: كما ذهب بعض أرباب اللغه إلى أن معناه أن هؤلاء تصوّروا أنهم يستطيعون الفرار من دائره قدره الله تعالى و جزائه و عقابه، إلا أن هذا التوهم باطل و سراب خادع (1).

ص: ٤٦٣

١- ١) الحقيقه أن تعبير «معجزين» الذى أوردنا تفسيره من مفردات الراغب، شبيه بتعبير (يخادعون الله و رسوله) البقره - ٩، لأن باب مفاعله يمكن أن يأتي على هذه الصوره.

## معايير التقييم:

من القضايا المهمّة في حياة الأفراد و المجتمعات هي قضيتهم «معايير التقييم» و «نظام القيم» الذي يتحكّم بثقافته ذلك المجتمع. لأنّ كلّ الحركات الصادرة عن الأفراد و الجماعات في حياتهم إنّما تنبع من هذا النظام و تهدف إلى خلق تلك القيم.

و اشتباه قوم من الأقوام و أمه من الأمم في هذه القضية و التعامل بقيم خياليه لا أساس لها قد يؤدّي إلى طبع تاريخهم بطابع الغرور و إدراك القيم الواقعيه و المعايير الحقيقيه يشكّل أساسا متينا لبناء سعادتهم.

عبيد الدنيا المغرورون يتصوّرون بأنّ القيم تنحصر فقط في المال و القدره الماديه و التعداد البشري، و حتّى القيمه أمام الله ينظرون إليها من داخل هذا الإطار، كما لاحظنا نموذجا من ذلك في الآيات السابقه، و هناك نماذج كثيره من هذا القبيل تلاحظ في القرآن الكريم، منها:

١- فرعون، الطاغية المتجبر، الذي كان يقول لمن حوله بأنّه لا يصدق أنّ موسى عليه السّلام رسول من الله، فإن كان حقّا ما يقول فلم لم يعطه الله سوارا من الذهب فلوّ لا ألقى عليه أسوره من ذهب. (١)

و حتّى أنّه يرى عدمها دليل هي المهانه و الدونيه، فيقول: أمّ أنا خير من هذا الذي هو مهين. (٢)

٢- مشركو عصر الرساله المحمديه، تعجّبوا من نزول القرآن على رجل فقير كرسول الله صلى الله عليه و آله و قالوا: لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. (٣)

ص: ٤٤٤

١- (١) الزخرف، ٥٣.

٢- (٢) الزخرف، ٢٥.

٣- (٣) الزخرف، ٣١.

٣- بنو إسرائيل اعترضوا على نبي زمانهم «أشموئيل» في قضيه انتخاب «طالوت» كقائد للجيش و قالوا: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ . (١)

٤- مشركو زمان نوح عليه السلام الأثرياء اعترضوا عليه بأن اتبعه أراذلهم، و هم الفقراء في نظرهم قالوا أ نُوْمِنُ لِمَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (٢) ٥- أثرياء مكه أوردوا نفس هذا الاعتراض على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بقولهم:

لقد أحاط بك الحفاه، و نحن نشمئز حتى من رائحتهم، فلا نتبعك إلا بابتعادهم عنك. و قد حقرهم القرآن الكريم في سوره الكهف بشده، و هددهم، و أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بأن يكون مع الذين عشقوا الله، و يدعونه صباحا و مساء و إن كانوا فقراء و اضرب نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداه و العشي يريدون وجهه و لا تغد عناك عنهم . (٣)

لهذه الأسباب، كان أول عمل إصلاحى يقوم به الأنبياء هو تحطيم اطر التقييم الكاذبه تلك، و استبدالها بالتقييم الإلهيه الأصيله و القيام ب«ثوره ثقافيه» أبدلوا أساس الشخصيه و محورها من الأموال و الأولاد و الثروه و الجاه و الشهره القبليه و العائله إلى التقوى و الإيمان و العمل الصالح.

و قد مر نموذج لذلك فى الآيات السابقه، فبعد شجب الأموال و الأولاد كوسيله للتقرب من الله تعالى، و الآيه و ما أموالكم و لا أولادكم بالئى تقرّبكم عندنا زلنى أعطت بعدها مباشره القيم الأصيله كبديل بالقول: إلامن آمن و عمل صالحاً .

و الآيه الشريفه إن أكرمكم عند الله أتقاكم و التى أضحت شعارا إسلاميا بعد استبعاد القيم المرتبطه بالقبيله و العشيره، تشير إلى هذه الثوره الفكرية و الاعتباريه. فاستنادا إلى هذه الآيه (الحجرات-١٣) فليس هناك شىء غير

ص: ٤٦٥

١- (١) البقره، ٢٤٧.

٢- (٢) الشعراء، ١١١.

٣- (٣) الكهف، ٢٨.

التقوى، والإيمان المقترن بالشعور بالمسؤولية، وصلاح العمل، ليس سوى ذلك معياراً لتقييم شخصيه الإنسان وقربه من الله تعالى. وكل من كان له نصيب أكبر من ذلك كان إلى الله أقرب و عنده أكرم.

و الملفت للنظر أنّ محيط الجزيره العربيه كان قبل نزول التعاليم الإسلاميه القرآنيه الساميه-بتأثير هيمنه القيم الظالمه-خاضعا لأصحاب الأموال والكذب من أمثال أبي سفيان و أبي جهل و أبي لهب. ولكن بعد ثوره القيم ظهر من نفس ذلك المحيط أمثال أبي ذرّ و عمّار و المقداد(رضوان الله عليهم).

الجميل أنّ القرآن المجيد في سوره «الزخرف» و بعد ذكر الآيات التي أوردناها آنفا يقول: **وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فضّه وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَ لِيُؤْتِيَهُمْ أَبُوَابًا وَ سُيُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ وَ زُخْرُفًا وَ إِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (١).**

هذا كله لكي لا تحلّ القيم المزيفه محلّ القيم الإنسانيه الواقعيه.

ص: ٤٦٦

اشاره

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَ لَا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)

التفسير

اشاره

نفور المعبودين من عابديهم:

تعود هذه الآيات لتؤكد مره اخرى خطأ الذين يتوهمون بأن أموالهم و أولادهم سبب لقربهم من الله فتقول: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ .

ثم تضيف الآية: وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .



فمع أنّ محتوى هذه الآيه يؤكّد ما عرضته الآيات السابقة إلا أنّ هناك ما هو جديد من جهتين:

الاولى: أنّ الآيه السابقة التي عرضت نفس المفهوم، كانت تتحدّث عن أموال و أولاد الكفّار، بينما الآيه محلّ البحث باحتوائها على كلمه «عباد» تشير إلى المؤمنين، و المعنى أنّه حتّى فيما يخصّ المؤمنين فإنّه قد يتّسع الرزق-لأنّه الأصلح بالنسبه للمؤمن- و قد يضيق-لأنّ المصلحه تقتضى ذلك-على كلّ حال، فإنّ سعه و ضيق الرزق لا يمكن أن يشكّل دليلا على أى شىء.

الثانيه:الآيه السابقة أشارت إلى سعه الرزق و ضيقه بالنسبه إلى مجموعتين مختلفتين،فى حين أنّ هذه الآيه تشير إلى حالتين مختلفتين بالنسبه لشخص واحد،حيناً يتّسع رزقه و حيناً يضيق.

إضافه إلى أنّ ما جاء فى بدايه هذه الآيه هو فى الحقيقه مقدّمه لما جاء فى آخرها،و هو الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله.

جمله «فهو يخلفه»تعبير جميل يشير إلى أنّ ما ينفق فى سبيل الله إنّما هو فى الحقيقه تجاره وافره الربح،لأنّ الله سبحانه و تعالى تعهّد بأن يخلفه،و نعلم أنّه فى الوقت الذى يتعهّد فيه الكريم بأداء العوض فإنّه لا يراعى المقدار الذى يريد تعويضه،بل إنّه يعوّض بأضعاف مضاعفه،بل بمئات الأضعاف.

طبعا فإنّ هذا الوعد الإلهى لا ينحصر بالآخره،فإنّ ذلك مسلّم به،و لكن فى الدنيا أيضا فإنّه يخلف ما أنفق بمختلف البركات.

جمله هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ذات معنى واسع،و يمكن الإفاده منها من وجوه مختلفه.

هو خير من يعطى رزقا،لأنّه يعلم ماذا يعطى و إلى أى حدّ،بحيث لا يكون ما يعطيه عاملا للفساد و الغرور،لأنّه عالم بكلّ شىء.

هو يعطى أى شىء يريد أن يعطيه لأنّه قادر على كلّ شىء.

و لا يريد جزاء على ما يعطيه لأنه غنى بذاته. و يعطى ابتداء، لأنه حكيم و عالم بكلّ شىء. بل الحقيقه أنه ليس من رزاق غيره، لأنّ  
أى معط إنّما يعطى ممّا رزقه الله، و بذّا فهو ليس سوى «واسطه انتقال» لا رزاقا.

و كذلك فهو تعالى يعطى النعم الباقية قبال المال الفانى، و الكثير مقابل القليل.

و لأنّ فريقا من الأثرياء الظالمين الطغاه كانوا فى صفّ المشركين، و ادّعوا بأنّهم يعبدون الملائكه و أنّهم شفعاؤهم يوم  
القيامة، فقد ردّ القرآن على هذا الادعاء الباطل فقال: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ .

بديهي أنّ هذا السؤال ليس من باب الاستفهام عن الجواب، لأنّ الله تعالى عالم بكلّ شىء، و لكن الهدف هو أن تظهر الحقائق  
من إجابته الملائكه، لكى يخسأ هؤلاء الضالّون و يخيب ظنّهم، و يعلموا بأنّ الملائكه متنفّرين من أعمالهم، فيصيبهم اليأس إلى  
الأبد.

ذكر (الملائكه) من بين المعبودات التى كان المشركون يعبدونها، إمّا لأنّ الملائكه أشرف المخلوقات التى عبدها الضالّون، و التى  
لم يحصلوا على شفاعتها يوم القيامة، فما ذا يستطيعون الحصول عليه من حفته من الحجر أو الأخشاب أو الجنّ أو الشياطين؟! أو  
أنّ من قبيل أنّ عبده الأوثان كانوا يعتقدون بأنّ الأحجار و الأخشاب هى مظهر و نموذج لموجودات علويه (كالملائكه و أرواح  
الأنبياء)، و لذا عبدوها.

فكما ورد فى تاريخ الوثنيه عند العرب «إنّ سبب حدوث عباده الأصنام فى العرب، هو أنّ «عمرو بن لحي» مرّ بقوم بالشام فرآهم  
يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له: هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلويه فنستنصر بها و نستسقى.

فتبعهم و أتى بصنم معه إلى الحجاز و سؤل للعرب فعبدوه و استمرت عباده الأصنام

فيهم إلى أن جاء الإسلام» (١) (٢).

و الآن لننظر ماذا تقول الملائكة للإجابة على سؤال الباري عزّ وجلّ؟ لقد اختارت الملائكة في الحقيقة أكثر الأجوبة شمولية و أعظمها أدبا قالوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

أمّا ما هو المقصود من الجواب الذى أجابت به الملائكة؟ فللمفسّرين أقوال، و يبدو أنّ أقربها هو القول بأنّ المقصود (بالجنّ) هو (الشیطان) و سائر الموجودات الخبيثة التى شجعت عبده الأوثان على ذلك العمل، و زينته فى أنظارهم، و عليه فإنّ المراد من عبادة الجنّ هى تلك الطاعة و الانقياد لأوامرها و الرضى بأفعالها.

فالملائكة إذا يقولون ضمن إعلان تنفّرهم و عدم رضاهم على هذه الأعمال: إنّ العامل الأساسى لهذا الفساد هم الشياطين، و إن كان الظاهر أنّهم يعبدوننا، فالمهمّ هو الكشف عن الوجه الحقيقى لهذا العمل أمام الملائكة.

و قد ورد نظير هذا المعنى فى سورة يونس -آية (٢٨) حيث يقول تعالى:

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَارِئِلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ . أَى إِنَّكُمْ فى الحقيقة لم تعبدونا نحن، بل تعبدون أهواءكم و أوهاكمكم و خيالاتكم، ناهيك عن أنّ هذه العبادة لم تكن بأمرنا و رضانا. و عبادة هذا شكلها ليست بعبادة أصلا.

و بهذه الطريقة يتبدّل أمل المشركين فى ذلك اليوم إلى يأس كامل، و تتجلى لهم بذلك حقيقة أنّ معبوديهم لن يحلّوا من مشاكلهم عقده صغيره واحده، بل على العكس فهم منهم متنفّرون مستاءون.

لذا - و كاستخلاص للنتيجة - تقول الآية الكريمة التى بعدها:

ص: ٤٧٠

١- ١) تفسير روح المعانى، مجلد ٢٢، ص ١٤٠- كذلك ورد هذا المعنى بتفاوت يسير فى سيره ابن هشام، مجلد ١، ص ٧٩- و هناك نقراً أنه جلب معه الصنم «هبل».

٢- ٢) عمرو بن لحي: أحد الشخصيات المعروفة فى مكة قبل الإسلام.

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

. و بناء على ذلك فلا الملائكة-الذين هم ظاهرا معبودون-يستطيعون الشفاعة لهم، ولا هم يستطيعون مساعده بعضهم البعض.

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ

ليست هذه هي المره الاولى التى يعبر فيها القرآن عن المشركين ب«الظلم» بل ورد ذلك فى الكثير من آيات القرآن.

التعبير عن «الكفر» ب«الظلم». أو عن «الكافرين و المشركين» ب«الظالمين».

ذلك لأنهم قبل كل شىء ظلموا أنفسهم بخلعهم تاج العبوديه لله عن رؤوسهم، و لّفوا طوق الذلّه للأوثان على رقابهم. و دمّروا شخصيتهم و مصيرهم.

و فى الحقيقه فإنّهم سيعاقبون يوم القيامه على شركهم و على إنكارهم للمعاد، و جمله وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ تشمل على المعنيين.

**بحوث**

**اشاره**

### **١- الإنفاق سبب النماء لا التقصان**

التعبير الوارد فى الآيه السابقه يحتوى على معان جمّه:

أولاً: فمن جهه أنّ كلمه «شىء» بمعناها الواسع تشمل كلّ أنواع الإنفاق، المادى و المعنوى القليل و الكثير، لأى من المحتاجين كان الإنفاق، صغيراً أو كبيراً، المهمّ أن يعطى الإنسان شيئاً ممّا يملك فى سبيل الله بأى كيفيه كان و بأى كمّيّه كانت.

ثانياً: لقد أخرجت الآيه (الإنفاق) بمفهومه من «الفناء»، و لوّنته بلون «البقاء» لأنّ الله ضمن إخلاف ما ينفق فى سبيله بمواهبه الماديه و المعنويه، بمزّات مضاعفه، مئات الآلاف، أقلّها عشره أضعاف، و بذا فإنّ المنفق-و بهذه الروحيه

ص: ٤٧١

و هذا الإعتقاد-سيلج ميدان الإنفاق بيد و قلب أكثر انفتاحا،و لن يخطر على باله إحساس بالقله،و لن يفكر بالفقر،بل إنه سيشكر الله على حسن توفيقه له على هذه التجاره الوفيره الربح.

و قد عبّر القرآن في الآيات (١٠) و(١١) من سوره الصفّ عن هذا المعنى فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ - تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

و نقرأ

في الحديث عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله:

ينادى مناد كلّ ليله:لدوا للموت.

و ينادى مناد:ابنوا للخراب.

و ينادى مناد:اللهم هب للمنفق خلفا.

و ينادى مناد:اللهم هب للممسك تلفا.

و ينادى مناد:ليت الناس لم يخلقوا.

و ينادى مناد:ليتهم إذ خلقوا فكروا فيما له خلقوا!!» (١).

و المقصود من هؤلاء المنادين هم الملائكه الذين يدبرون أمور هذا العالم بأمر الله.

و

في حديث آخر عنه صلّى الله عليه و آله: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقه» (٢).

و قد نقل نفس المعنى عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام.

و الجدير بالذكر هو أنّ الإنفاق يجب أن يكون من المال الحلال و الكسب المشروع،و إلا فلا قبول لغيره عند الله و لا بركه فيه.

لذا

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سأله أحدهم قال:قلت: آيتان في

١-١) - مجمع البيان: ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢) نور الثقلين، المجلد ٤، ص ٣٤٠، ح ٧٧.

كتاب الله عزّ وجلّ أطلبهما فلا أجدهما.

قال عليه السّلام «و ما هما؟».

قلت: قول الله عزّ وجلّ: اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ، فندعوه و لا نرى إجابته.

قال عليه السّلام: أفترى الله عزّ وجلّ أخلف وعده؟.

قلت: لا.

قال: فممّ ذلك؟ قلت: لا أدري.

قال عليه السّلام: «لكنّي أخبرك، من أطاع الله عزّ وجلّ فيما أمره من دعائه من جهه الدعاء أجابه».

قلت: و ما جهه الدعاء.

قال: «تبدأ فتحمد الله و تذكر نعمه عندك ثم تشكره ثم تصلّي على النّبي صلّى الله عليه و آله، ثم تذكر ذنوبك فتقرّ بها، ثم تستعيذ منها فهذا جهه الدعاء».

ثم قال عليه السّلام: «و ما الآيه الاخرى؟».

قلت: قول الله عزّ وجلّ: **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** و إنّي أنفق و لا أرى خلفاً؟ قال: «أفترى الله عزّ وجلّ أخلف وعده؟ قلت: لا.

قال: «فممّ ذلك؟».

قلت: لا أدري؟ قال: لو أنّ أحدكم اكتسب المال من حلّه و أنفقه في حلّه لم ينفق درهما إلّا أخلف عليه» (١).

ص: ٤٧٣

## ٢- أمنوا على أموالكم بتأمين إلهي!!

لأحد المفسرين تحليل جميل بهذا الخصوص، يقول: «ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالا من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئه وإن كان من الفقراء، ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال إلى أن يهلك المال، فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ، ثم إن حصل به كفيل ملىء ولا يبيع ينسب إلى قلبه العقل.

فإن حصل به رهن وكتب به وثيقه ولا يبيعه ينسب إلى الجنون، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون، فإن أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق، والإنفاق على الأهل والولد إقراض، وقد حصل الضامن الملىء وهو الله العلي وقال تعالى: وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ثُمَّ رَهْنٌ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِمَّا أَرْضَا أَوْ بَسْتَانَا أَوْ طَاحُونَهُ، أَوْ حَمَامًا أَوْ مَنْفَعَةً، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَفْهُ أَوْ جَهْهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنْهَا مَالٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَلِكُ اللَّهِ، وَهُوَ فِي يَدِ الْإِنْسَانِ بِحَكْمِ الْعَارِيَةِ، فَكَأَنَّهُ مَرْهُونٌ بِمَا تَكْفُلُ اللَّهُ مِنْ رِزْقِهِ لِيَحْصُلَ لَهُ الْوَثُوقُ التَّامُّ، وَمَعَ هَذَا لَا يَنْفِقُ وَيَتْرَكَ مَالَهُ لِيَتَلَفَ لَا مَأْجُورًا وَلَا مَشْكُورًا» (١).

## ٣- سعه مفهوم الإنفاق:

لأجل فهم الحد لمفهوم الإنفاق في الإسلام، نطالع الحديث التالي

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إذ يقول: «كل معروف صدقه، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقه، وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقه، وما أنفق الرجل من نفقه فعلى الله خلفها، إلا ما كان من نفقه في بنیان أو معصية» (٢). يبدو أن استثناء البنيان من قانون الإخلاف، لأن عين البناء باقية، أو لأنه يكثر توجه الناس إليه.

ص: ٤٧٤

١- ١) تفسير الفخر الرازي، مجلد ٢٥، ص ٢٦٣ (ذيل الآيات مورد البحث).

٢- ٢) الجامع لأحكام القرآن (القرطبي)، مجلد ١٤، ص ٣٠٧.



اشاره

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)

التفسير

اشاره

بأى منطق ينكرون آيات الله:

تعود هذه الآيات لتكمل البحث الذى تناولته الآيات السابقه حول المشركين الكفار و أقوالهم يوم القيامة،فتحدثت حول وضع هؤلاء فى الدنيا و مواقفهم عند سماعهم القرآن حتى يتضح أن مصيرهم الاخرى المشؤوم إنما هو نتاج تلك المواقف الخاطئه التى اتخذوها إزاء آيات الله فى الدنيا.

تقول الآيه الكريمة الاولى: وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ

يُرِيدُ أَنْ يُصَدِّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ آبَاءَكُمْ

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء «الآيات البيّنات» وهو السعى إلى تحريك حسّ العصبية في هؤلاء القوم المتعصّبين.

خاصّه مع ملاحظه استخدامهم تعبير «آبائكم» بدل «آبائنا»، يفهم منه أنّهم يريدون القول لقومهم بأنّ تراث الأجداد في خطر، وإنّ عليكم النهوض و التصدّي لهذا الرجل عن العبث بذلك الميراث.

ثمّ تعبير «ما هذا إلّا- رجل» إنّما يقصد به تحقير النّبي صلّى الله عليه وآله من جهتين الاولى كلمه «هذا» والثانية «رجل» بهيئته النكروه، مع العلم بأنّهم يعرفون النّبي صلّى الله عليه وآله جيّدا، و يعلمون بأنّ له ماضيا مشرقا.

من الجدير بالملاحظه أيضا أنّ القرآن وصف «الآيات» بـ«البيّنات»، أى أنّها تحمل دلائل حقّانيتها معها، و ما هو قابل للمعاينه لا يحتاج إلى توضيح أو بيان.

ثمّ توضّح الآيه مقولتهم الثانيه التى قصدوا بها إبطال دعوه النّبي صلّى الله عليه وآله فتقول:

وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرٍ

«إفك» كما ذكرنا سابقا بمعنى كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أن يكون عليه، و منه قيل للرياح العادله عن المهاب «مؤتفكه»، و أى صرف عن الحقّ فى الاعتقاد إلى الباطل، و من الصدق فى المقال إلى الكذب، و من الجميل فى الفعل إلى القبيح. و لكن كما قال البعض، فإنّ «الإفك» يطلق على الأكاذيب الكبيره.

و كان يكفى استخدامهم لكلمه «الإفك» فى اتّهام الرّسول صلّى الله عليه وآله بالكذب، لكنّهم أرادوا تأكيد ذلك المعنى باستخدامهم لكلمه «مفتري»، دون أن يكون لهم أدنى دليل على ذلك الادّعاء.

و أخيرا، كان الاتّهام الثالث الذى ألصقوه بالرّسول صلّى الله عليه وآله هو (السحر) كما نرى ذلك فى آخر هذه الآيه وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

العجيب أنّ هؤلاء الضالّين يطلقون هذه التّهم الثلاث المذكوره بأصرح

التأكيدات، ففي موضع يقولون إنه سحر، وفي آخر يقولون: إنه مجرد كذب، ثم يقولون في موضع ثالث، إنه يريد أن يصدكم عن ما أثر أجدادكم! طبعاً هذه الصفات الذميمة الثلاثة ليست متضادة فيما بينها- مع أنّ هؤلاء لا يأنفون من الكلام المتضاد- و على فلا داعي- كما يقول المفسرين- لاعتبار أنّ كلّ واحد من هذه الصفات تنسب إلى مجموعه مستقله من الكفار.

كذلك فمن الجدير بالملاحظه أنّ القرآن الكريم استخدم في المرتين الاولى و الثانيه جمله «قالوا»، ثم استخدم في المره الثالثه جمله «قال الذين كفروا»، إشاره إلى أنّ كلّ التعاسه التي أصابتهم إنّما منشأها الكفر و إنكار الحقّ و معاداه الحقيقه، و إلا فكيف يمكن لأحد أن يتّهم رجلاً تظهر دلائل حقانيته من حديثه و عمله و ماضيه بهذه التّهم المتلاحقه و بلا أدنى دليل.

فكأنّهم يواصلون بهذه التّهم الثلاث برنامجاً مدروساً لمواجهة النبي صلّى الله عليه و آله فقد لاحظوا من جانب أنّ الدين جديد و له جاذبيه، و من جانب آخر، فقد أخافت إنذارات الرسول صلّى الله عليه و آله بالعذاب الإلهي في الدنيا و الآخره فنه من المجتمع شاءوا أم أبوا، و من جانب ثالث فإنّ معجزات الرسول صلّى الله عليه و آله تركت أثراً ايجابياً في نفوس عامه المجتمع- شاءوا أم أبوا كذلك.

لذا فإنّهم- لأجل إبطال مفعول هذه الأمور الثلاثه- فكروا بالدعوه إلى حفظ تراث السلف في قبال الدين الجديد، في حين أنّ السلف كان مصداقاً لما ذكره القرآن الكريم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون البقره- ١٧٠. فلا- جرم أن يتخلّى الناس عن مثل تلك الهياكل الخرافيه التي كانت إرث هؤلاء الجهله و الحمقى.

و أمّا في قبال إنذارات الرسول صلّى الله عليه و آله بالعذاب الإلهي، فقد طرحوا قضيه الاتّهام بالكذب لكي يريحوا العامه.

و في قبال المعجزات، طرحوا تهمة (السحر). ظلنا منهم أنّ المعجزات لن تترك أثراً في نفوس الناس بسبب هذا التوجيه.

و لكن تاريخ الإسلام شاهد على أنّ أيا من هذه المخططات الشيطانية لم تكن ذات أثر، و كانت النتيجة أن دخل الناس فى هذا الدين العظيم فوجا بعد فوج.

فى الآيه التى بعدها، يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الادّعاءات الواهيه، مع أنّها واضحه البطلان، فيقول: **وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا، وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ .**

و هى إشاره إلى أنّ هذه الادّعاءات يمكنها أن تكون مقبوله فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سماوى يخالف مضمونه الدعوه الجديده، فلا بأس أن ينبروا لتكذيبها، و ينادوا بتراث الأجداد تاره، و بتكذيب الدعوه الجديده تاره اخرى، أو اتّهام من جاء بها بالسحر. أمّا من لا يعتمد إلّا على فكره الشخصى - بدون أى وحى من السماء - بدون أن يكون له نصيب من علم، فلا يحقّ له الحكم لمجرد تليفه الخرافات و الأوهام.

و يستفاد من هذه الآيه أيضا أنّ الإنسان لا يمكنه أن يطوى طريق الحياه بعقله فقط، بل لا بدّ أن يستمدّ المعونه من وحى السماء و يتقدّم إلى الأمام بالاستعانه بالشرائع، و إلّا فهى الظلمات و الخوف من التيه.

الآيه الأخيره من هذه الآيات، تهدّد تلك المجموعه المتمردّه بكلمات بليغه مؤثّره فتقول: **وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فِي حِينِ أَنْ هُوَ لَمْ يَبْلُغُوا فِي الْقُوَّةِ وَ الْقَدْرَةِ عَشْرَ مَا كَانَ لِأَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ وَ مَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .**

فمدنهم المدمّره بضربات العقوبه الإلهيه الساحقه ليست ببعيده عنكم.. فهى فى الشام القريب منكم، فليكونوا لكم مرآه للغيره، و استمعوا إلى النصائح التى يقولها الدمار، و قارنوا مصيركم بمصيرهم، فلا السنّه الإلهيه قابله للتغيير و لا أنتم أقوى منهم!.

«معشار»: بمعنى واحد إلى عشره. البعض اعتبرها «عشر العشر» أى واحد إلى

مائه، و لكن أكثر كتب اللغة و التفاسير ذكرت المعنى الأول. و إن كان مثل تلك الأعداد لا يقصد بها التعداد، و تستخدم للتقليل في مقابل سبعة و سبعين و ألف و أمثالها التي تستخدم للتكثير، و بذا يكون المعنى المقصود من الآية، إننا دمرنا عصاه أقوياء لا يمتلك هؤلاء إلا جزءا صغيرا من قدرتهم.

و قد ورد نظير هذا المعنى في آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم، من جملتها ما ورد في الآية (٦) من سورة الأنعام أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّدَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا وَ جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أُنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ . و كذا ورد نظير هذا المعنى في الآيات ٢١- المؤمن، ٩- الروم.

لفظه «نكير» من مادّه «نكر» و الإنكار ضدّ العرفان، و المقصود أنّ إنكار الله هو تلك المجازاة و العذاب الصادر عنه تعالى.

بعض المفسّرين احتملوا تفسيراً آخر لهذه الآية، و هو أنّ المقصود من وَ مَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ و هو عشر الآيات التي أنزلناها على مشركي قريش لإتمام الحجّ عليهم، لم ننزله على الأقوام السابقين، فإذا كان العذاب الذي عدّناهم به بتلك الشدّه، فما بالك بمصير مشركي قريش الذين نالهم عشره أضعاف الآيات لإتمام الحجّ! و لكن يبدو أنّ التفسير الأوّل أنسب (و بناء على التفسير الأوّل فإنّه من أربعة ضمائر موجوده في الآية، يعود الضميران الأوّل و الثّاني على كفّار قريش، و الضمير الثالث و الرابع على الكفّار السالفين، أمّا بناء على التفسير الثّاني فإنّ الضمير الأوّل يعود على كفّار قريش، و الثّاني على الكفّار السالفين، و الثالث على كفّار قريش و الرابع على الكفّار السابقين- تأمل).

اشاره

قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

التفسير

اشاره

الثوره الفكرية أساس لأي ثوره أصيله:

في هذا المقطع من الآيات والآيات التاليه، والتي تشكّل أواخر سوره سبأ المباركه، يؤمر الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله مرّه اخرى بدعوه هؤلاء بالأدله المختلفه ليؤمنوا بالحقّ، و يرجعوا عن ضلالهم، و كما مرّ في البحوث السابقه فقد خوطب الرسول صلّى الله عليه وآله خمس مرّات بأن قيل له (قل...).

ففي الآيه الاولى إشاره إلى اللبنة الأساسيه في كلّ التحوّلات و التبدلات الاجتماعيه و الأخلاقيه و السياسيه و الاقتصاديه و الثقافيه، فتقول و بجمل قصيره و عميقه المعنى قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

كلمات و تعبيرات هذه الآيه يشير كلّ منها إلى موضوع هامّ، نجملها في عشره

نقاط كما يلي:

١-جمله «أعظكم» توضّح فى الحقيقه واقع أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله يريد القول بأنّى ألاحظ فيما أقول لكم خيركم و صلاحكم دون أى شىء آخر.

٢-التعبير ب«واحد» مع ارتباطه بالتأكيد بواسطه «إنّما» إشاره معبّره إلى أنّ أصل جميع الإصلاحات الفرديه و الجماعيه، إنّما هى بإعمال الفكر، فما دام تفكير الامّه فى سبات فستكون هدفا لسراق و لصوص الذين و الإيمان و الحرّيه و الاستقلال، و لكن حينما تصحوا الأفكار فإنّها تقطع الطريق أمام هؤلاء.

٣-التعبير ب«قيام» ليس معناه مجرّد الوقوف على القدمين، بل معناه الاستعداد لإنجاز العمل، بلحظ أنّ الإنسان بوقوفه على قدميه إنّما يكون مستعدّاً لإتمام البرامج الحياتيه المختلفه، و عليه فإنّ التفكير يحتاج إلى استعداد قبلى، لكى يوجد السبب و المحرّك فى الإنسان الذى يدفعه بالإراداه و التصميم إلى التفكير.

٤-تعبير «لله» يوضّح أنّ القيام و الاستعداد يجب أن يكون باعته إلهيا، و التفكير الذى يكون صادرا عن هذا الدافع له قيمه عاليه، فالإخلاص فى العمل عاده- و حتّى فى التفكير- هو الأساس للنجاه و السعاده و البركه.

و الملفت للنظر هو اعتبار الإيمان بالله هنا أمرا مسلّما، و عليه فالتفكير المطلوب إنّما هو فى مسائل اخرى، و تلك إشاره إلى أنّ التوحيد إنّما هو أمر فطرى واضح يدرك حتّى بدون تفكير.

٥-التعبير ب«مثنى و فرادى» إشاره إلى أنّ التفكير يجب أن يكون بعيدا عن الغوغائيه و الفوضى، بأن يقوم الناس آحادا أو على الأكثر مثنى و يتفكرون، لأنّ التفكير وسط الضوضاء و الغوغائيه لا يمكنه أن يكون عميقا، خصوصا و أنّ عوامل الذاتيه و التعصّب فى طريق الدفاع عن الإعتقادات الشخصيه ستكون أشدّ فعلا فى التجمّعات الأكبر.

بعض المفسرين احتمل أن يكون هذان التعبيران إشاره إلى الإفاده من

المشوره بالخلط بين الأفكار الفرديه و الجماعيه، فالإنسان يجب أن يتفكر منفردا و كذلك يستفيد من أفكار الآخريين، لأن الاستبداد بالرأى و الفكر سبب للعجب، و التشاور و التعاون لأجل حلّ المشكلات العلميه-و الذى لا يؤدى إلى الغوءاء- سيعطى حتما-أثرا أفضل، و يمكن أن يكون تقديم «مثنى» على «فرادى» فى الآيه لهذا السبب.

٦-الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا«تفكروا»دون أن يذكر بماذا؟ فحذف المتعلق دليل على العموم، أى فى كلّ شىء، فى الحياه المعنويه و الماديه، فى الأمور الكبيره و الصغيره.و بكلمه:فى كلّ أمر يجب التفكر أولا، و أهمّ من ذلك كلّ هو التفكر للعثور على الإجابه للأسئله الأربعه التاليه:من أين جئت؟لأى شىء أتيت؟إلى أين أذهب؟و أين أنا الآن؟ و لكن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن«تفكروا»تتعلق بالجمله التى تليها و هى «ما بصاحبكم من جنّه»بمعنى أنّكم لو تفكرتم قليلا لوجدتم أنّ الرسول صلّى الله عليه و آله منزّه عن اتّهامكم الواهى له بالجنون.و الظاهر أنّ المعنى الأوّل أوضح.

و من البديهى أنّ من الأمور التى يجب التفكر بها هى مسأله النبوه و الصفات العاليه التى كان يتمتع بها شخص النبى صلّى الله عليه و آله دون أن تكون منحصره بذلك.

٧-تعبير«صاحبكم»إشاره إلى الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله و إنّه ليس نكره بالنسبه لكم،فقد كان بينكم لسنوات طويله.لقد عرفتموه بالأمانه و الصدق و الاستقامه، و لم تجدوا حتّى الآن نقطه ضعف واحده فى مسيره حياته،لذا فعليكم بالإنصاف قليلا،فالتهم التى تلصقونها به لا أساس لها جميعا.

٨-«جنّه»بمعنى«جنون»و فى الأصل من مادّه«جن»بمعنى ستر الشىء عن الحاسه،و من كون أنّ(المجنون)ستر عقله،فقد اطلق عليه هذا التعبير،و الجدير بالملاحظه هنا هو أنّ العبارة تريد الكشف عن هذه الحقيقه،و هى أنّ من يدعو إلى التفكر و الانتباه كيف يكون هو مجنونا،و الحال أنّ مناداته بالتفكر إنّما هى دليل



على تمام عقله و درايته.

□  
٩-جملة إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ تَلَخَّصَ رساله الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله فِي مسأله «الإنذار»أى:التحذير من المسئوليه،و من المحكمه الإلهيه،و العقاب الإلهي، صحيح أَنَّ للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله رساله في «التبشير»أو«البشاره»و لكن الذى يدفع الإنسان أكثر إلى التحرك هو«الإنذار»،لذا فقد ذكرت مسأله«الإنذار»فى آيات اخرى من القرآن الكريم على أَنَّها وظيفه الرسول الأكرم الأساسيه،كما فى الآيه (٩)من سوره الأحقاف وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ،كما ورد كذلك شبيه هذا المعنى فى الآيه ٦٥ من سوره(ص)و آيات اخرى.

□  
١٠-التعبير ب بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ إشاره إلى أَنَّ القيامه قريبه إلى درجه و كأنَّها أمام العين،و الحقَّ أَنَّها كذلك بالنسبه إلى عمر الدنيا،كذلك فقد ورد فى الروايات الإسلاميه نظير هذا المعنى كما

فى الأثر عن الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله قال:

«بعثت أنا و الساعه كهاتين» و ضمَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله الوسطى و السَّبَّابه.

**بحث**

**اشاره**

**الدين أصل التحوّلات:**

بسبب إحساس العقائد الماديه و الشيوعيه بالخطر من المذاهب السماويه الحقّه،فهى تدعوها ب(أفيون الشعوب)أى أَنَّها عامل تخدير لأفكار الجماهير!! و قد سعى المستعمرون فى الغرب و الشرق إلى تلقين مثل هذا الرأى عن طريق علماء الاجتماع و علماء النفس،و ذلك لتضليل الجماهير و إبعادها عن فطرتها، و الذى دفعهم إلى هذا هو خوفهم و حذرهم من نهضة الشعوب المؤمنه المسلّحه بالأفكار الدينيه السماويه،و من استقبالها الشهاده فى سبيل الله بصدور رحبه!..

و الأنكى من ذلك أَنهم أو عزوا منشأ الدين لجهل البشر بالعوامل الطبيعيه.

ص: ٤٨٣

و الجواب على مثل الكلام مرّ في محلّه، و لسنا هنا في معرض سرد الردود جميعاً، و لكن الآيات التي نحن بصددّها تدعو الإنسان إلى التفكير و التدبّر، و اعتبرت طريق التفكير هو الأساس لتطور و تكامل البشريه.

كيف يمكن أن يكون الإسلام داعيه لتخدير أفكار الناس، أو أنّه نشأ بفعل جهل البشر بالعوامل الطبيعيّه، و يدعو الناس إلى النهضه و التفكير و العيش بصفاء في محيط بعيد عن الضوضاء و الضجيج الإعلاميّ المسموم، بعيداً عن التعصّب و العناد؟! هل يمكن اتّهام الدين الذي يدعو الناس لمثل هذه الأفكار بكونه أفيون الشعب، أو عامل تخدير لها؟! و يمكن هنا القول: إنّ على الإنسان أن لا يفكر لوحده و بشكل انفرادي، بل عليه مشاوره الآخرين و أن تتعاقد آراؤه معهم، لسماع دعوه الأنبياء الصادقه، و مطالعه الدلائل و الآيات التي جاؤوا بها.. عند ذلك يمكن للإنسان الإذعان للحقّ.

إنّ الأحداث التي مرّت في عصرنا الحالي سيّما نهضه المسلمين الثوريين في مختلف البلدان الإسلاميّه بوجه القوى الكبرى و عملائها في الشرق و الغرب، و التي جعلت الدنيا ظلاماً دامساً في وجوههم، و هزّت كياناتهم، تشير جميعاً إلى أنّ الخطر الكبير الذي يتهدّد هذه القوى هو العقائد الدينيه الأصليّه، و من هنا يفهم هدف الاتّهامات الموجهه ضدّ العقائد الدينيه.

و ممّا يثير العجب و الغرابه أنّ علماء الاجتماع في الغرب قالوا بعدم وجود عالم ما وراء الطبيعه، و اعتبروا الدين ظاهره من صنع البشر، كما قالوا بوجود عوامل مختلفه لنشوء الدين، كالعامل الاقتصادي، و خوف الإنسان، و عدم اطلاعه، و العقد النفسيه... إلخ!! كما أنّهم غير مستعدّين للتفكير و لو للحظه واحده بعالم ما وراء الطبيعه و بالدلائل المدهشه و الواضحه لتوحيد الخالق جلّ و علا، و العلامات الصريحه لنبوّه الأنبياء كنبينا الأكرم صلّى الله عليه و آله و سلّم. و غير مستعدّين أيضاً للتصلّ عن أحكامهم التي أثبتت فشلها.

لا يمكن أن نمائل بين هؤلاء و بين مشركي عصر الجاهليه بالتعصّب و العناد و عدم الاطلاع، نعم، هؤلاء متعصّبون و معاندون و لكنهم مطلعون، و لهذا فهم أكثر خطراً و ضلاله من مشركي عصر الجاهليه.

و ممّا يجدر ذكره أنّ ذيل أكثر الآيات القرآنيه يدعو الإنسان إلى التفكير و التعقّل و التذكّر: فأحيانا تقول: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (النحل- ١١ و ٦٩) و اخرى تقول: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (الرعد- ٣، و الزمر- ٤٢، و الجاثيه- ١٣) و ثالثه تقول: **لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** (الحشر- ٢١، و الأعراف- ١٧٦)، و أحيانا تطرح الآيات القرآنيه نفس المفهوم و جها لوجه **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** (البقره- ٢١٩ و ٢٦٦).

و قد ورد في القرآن الكريم الكثير من هذا القبيل، منه الدعوه إلى الفقه- أي الفهم- و الدعوه إلى العقل و التعقّل، و مدح الناس المتعلّقين، و الندم الشديد لأولئك المتعصّبين، و قد جاء ذلك في (٤٦) آيه من آيات القرآن المجيد، و قد قال الكثير من العلماء: إنّنا لو أردنا جمع هذه الآيات و تفسيرها لاحتجنا إلى كتاب مستقل.

و في هذا المجال ذكر القرآن الكريم أنّ أحد صفات أهل النار هو عدم التفكير و التعقل كقوله تعالى: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ و منه قوله تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

## ٢- جانب من الروايات الإسلامية في التفكير و التأمل:

اهتمت الرواية الإسلامية-و على خطى القرآن الكريم-بمسأله التفكير إلى حدّ أن جعلتها في المقام الأول من الأهميه، و يلاحظ المطالع للروايات تعبيرات جميله و معبره أوردنا نماذج منها هنا:

ألف-التفكير أعظم عباده:نقرأ

عن الإمام الرضا عليه السلام «ليس العباده كثره الصلاه و الصوم إنّما العباده التفكير في أمر الله عزّ و جلّ» (١).

و نقرأ

في روايه اخرى: «كان أكثر عباده أبي ذكر التفكير» (٢).

ب-ساعه تفكير أفضل من ليله من العباده:

عن الحسن الصيقل قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام:عما يروى الناس أنّ تفكير ساعه خير من قيام ليله،قلت: كيف يتفكر؟قال:«يمرّ بالخربه أو بالدار فيقول:أين ساكنوك و أين بانوك،ما لك لا تتكلمين؟» (٣).

ج-التفكير مصدر العمل:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ التفكير يدعو إلى البرّ و العمل به» (٤).

ص: ٤٨٥

١- (١) اصول الكافي،المجلد ٢،كتاب الكفر و الإيمان-باب التفكير-صفحه ٥٥ حديث ٤.

٢- (٢) سفينه البحار،المجلد الثاني،صفحه ٣٨٢.

٣- (٣) المصدر السابق.

٤- (٤) المصدر السابق.

اشاره

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنْ رَبِّي يَتَذَكَّرُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ  
(٤٨) قُلْ لِحِجَاءِ الْحَقِّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ  
سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

التفسير

اشاره

و ما يبدئ الباطل و ما يعيد:

قلنا أنّ الله تعالى أمر رسوله الكريم صلى الله عليه و آله في هذه السلسله من الآيات الكريمه خمس مرّات بأن يخاطب هؤلاء الضالّين و يقطع عليهم طريق الاعتذار من كلّ جانب.

فالآيه السابقه كانت دعوه للتفكّر و نفى أى حاله من عدم التوازن الروحى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

و فى مطلع هذه الآيات، يتحدّث القرآن فى عدم مطالبه الرسول صلى الله عليه و آله بأى أجر مقابل تبليغ الرساله. تقول الآيه الاولى: قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إنّ

و ذلك إشارة إلى أن العاقل حينما يتصرف أى تصرف يجب أن يكون لتصرفه باعث، فحينما يثبت لكم بأن لدى عقل كامل، و ترون بأن ليس لى هدف مادى، فيجب أن تعلموا بأن هناك دافعا و محرّكا إلهيا و معنويا هو الذى دفعنى إلى ذلك التصرف أو العمل.

بتعبير آخر: أنا دعوتكم للتفكر، و الآن تأملوا، و اسألوا وجدانكم، أى سبب يدعونى لأن أنذركم من العذاب الإلهى الشديد؟، و أى ربح سوف أجنه من هذا العمل؟، و أى فائده ماديه لى فيه؟. إضافه إلى ذلك فإن كانت حجّتكم فى هذا الإعراض و مخالفه الحق، هو أنكم ستدفعون لى اجرا عليه، فسيضيع جزافا، لأننى أساسا لم أطلبكم بأى أجر أو جزاء.

كذلك فقد ورد هذا المعنى بصراحه أيضا فى الآية (٤٦) من سورة القلم **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ .**

أما ما هو تفسير جملة **فَهُوَ لَكُمْ؟** فهناك تفسيران:

الأول: أن الجملة كناية عن عدم المطالبه بأى أجر كما لو قلت **«كُلِّ مَا أُرَدْتَهُ مِنْكَ فَهُوَ لَكَ»** كناية عن أنك لا تريد شيئا مطلقا. و الدليل على ذلك هو الجملة التاليه و التى تقول: **إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ .**

الثانى: أنكم إن لاحظتم أننى فى بعض ما أخبرتكم به عن الله سبحانه و تعالى، قلت لكم: **لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (١)**، فهذا أيضا يعود نفعه إليكم، لأنّ مودّه ذى القربى ترتبط بمفهوم (الإمامه و الولاية) و «استمرار خطّ النبوه، الذى هو ضرورى لإدامه هدايتكم.

الدليل على هذا القول هو ما ورد فى أسباب النزول الذى نقله بعضهم هنا، فى

ص: ٤٨٧

تفسير روح البيان، ورد أنه عند نزول الآية قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴿١٥١﴾

قال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله لمشركي مكة: «لا- تؤذوا ذوى قرباى» و هم قبلوا بهذا الطلب، و لكن عند ما نال الرسول الأكرم صَلَّى الله عليه و آله من أصنامهم، قالوا: إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَنْصِفْنَا، فهو من جانب يدعونا لعدم التعرّض لذوى قرباه بالأذى، و لكنّه من جانب آخر يمسّ أربابنا بالأذى، و هنا نزلت الآية موضوع بحثنا قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ. فما أردته منكم بهذا الخصوص هو برفعكم، سواء أذيتموهم أو لم تؤذوهم.

ثمّ تختم الآية بالقول: وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. فَإِنْ كُنْتَ أُرِيدُ أَجْرِي مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ فَلَا تُنْفِكْهُ مِنْ عَمَلِهِ وَ مَطَّلَعِ عَلَى نَوَايِئِهِ. علاوه على أنه هو سبحانه و تعالى شاهد صدقي و حقّاني دعوتي، لأنّه هو سبحانه سخر لي كلّ هذه المعجزات و الآيات البينات، و الحقّ أنّه سبحانه و تعالى نعم الشاهد، فهو الذى قد أحاط بكلّ شىء علما و هو أفضل من يستطيع الأداء، و لا يصدر عنه إلاّ الحقّ و هو خير الشاهدين. و هو الله سبحانه و تعالى.

بالالتفات إلى ما قيل حول حقّانيه دعوه الرسول الأكرم صَلَّى الله عليه و آله، تضيف الآية التى بعدها قائلة أنّ القرآن واقع غير قابل للإنكار لأنّه ملقى من الله سبحانه و تعالى على قلب الرسول صَلَّى الله عليه و آله: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمَ الْغُيُوبِ .

كلمه «يقذف» من مادّه (قذف) و هو الرمي البعيد، و ثمّة تفسيرات متعدّده لهذه الآية، يمكن جمعها مع بعضها البعض.

أولاً- المقصود ب«يقذف بالحقّ» هو الكتب السماويه و الوحي الإلهي على قلوب الأنبياء و المرسلين، و لأنّه سبحانه و تعالى هو علّام الغيوب، فهو يعلم بالقلوب المهّيّاه، فينتخبها و يقذف الوحي فيها حتّى ينفذ إلى أعماقها.

و على ذلك فالمعنى شبيه بما ورد في الحديث المعروف «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

والتعبير ب«علام الغيوب» يؤيد هذا المعنى.

الآخر: إنَّ المقصود من «قذف الحق على الباطل و زهوق الباطل»، يعنى أنّ للحقّ قوّه تجعله قادرا على تجاوز أى عائق فى طريقه، و ليس لأحد طاقه على الوقوف بوجهه، و بهذا تكون الآيه تهديدا للمخالفين لكى لا يقفوا بوجه القرآن، و أن يعلموا أنّ حقانيه القرآن ستسحقهم.

و بدأ تكون الآيه تعبيرا مشابها لما ورد فى الآيه (١٨) من سوره الأنبياء بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .

و يحتمل أن يكون المقصود بتعبير «القذف» هنا هو نفوذ حقانيه القرآن إلى نقاط العالم القريبه و البعيده، و هى إشاره إلى أنّ هذا الوحي السماوى سيضىء جميع العالم بنوره فى نهايه الأمر.

بعدئذ و لزياده التأكيد يضيف سبحانه و تعالى: قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ (١). و عليه فلن يكون للباطل أى دور مقابل الحق، لا- خطه اولى جديده، و لا- خطه معاده، إذ أنّ خطط الباطل نقش على الماء، و لهذا السبب فلم يتمكن الباطل من طمس نور الحقّ و محو أثره من القلوب.

مع أنّ بعض المفسرين أرادوا حصر مصاديق «الحق» و «الباطل» فى هذه الآيه فى حدود معينه، لكن الواضح أنّ مفهوم الإثنين واسع و شامل جدّا، القرآن، الوحي الإلهى، تعليمات الإسلام، جميعها مصاديق لمفهوم «الحق». و الشرك و الكفر، و الضلال، و الظلم و الذنوب، و وساوس الشيطان، و البدع الطاغوتيه كلّها تدرج تحت معنى «الباطل»، و فى الحقيقه فإنّ هذه الآيه شبيهه بالآيه (٨١) من سوره الإسراء، وَ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا .

و قد ورد أنّ ابن مسعود قال: دخل رسول الله صلى الله عليه و آله مكّه و حول البيت ثلاثمائه

ص: ٤٨٩

١ - ١) (يبدي) من مادّه «بدء» بمعنى الإيجاد الابتدائى، و (يعيد) من مادّه (عود) بمعنى التكرار، الباطل: فاعل، و المفعول محذوف، و التقدير «ما يبدي الباطل شيئا و ما يعيد شيئا».

و ستون صنما فجعل يطعنها بعود في يديه و

يقول: «جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً-جاء الحقّ و ما يبدئ الباطل و ما يعيد» (١).

### سؤال:

يثار هنا سؤال و هو أنّ الآيه أعلاه تقول: إنّ بظهور الحقّ، يمحق الباطل، و يفقد كلّ خلاقته، و الحال أنّا نرى أنّ الباطل له جولات وصيت إلى الآن، و يسيطر على مناطق كثيره؟ و للإجابة على هذا السؤال، يجب الالتفات إلى ما يلي:

أولاً: إنّ بظهور الحقّ و إشراقه. فإنّ الباطل-و الذى هو الشرك و النفاق و الكفر و كلّ ما ينبع عنها-يفقد بريقه، و إذا استمرّ وجوده فبالقوه و الظلم و الضغط، و إلاّ فإنّ النقاب قد ازيل عن وجهه، و ظهرت صورته القبيحه لمن يطلب الحقّ، و هذا هو المقصود من مجيء الحقّ و محو الباطل.

ثانياً: لأجل تحقّق حكمه الحقّ و زوال حكمه الباطل فى العالم، فإضافه إلى الإمكانيات التى يضعها الله فى خدمه عباده، هناك شرائط اخرى مرتبطه بالعباد أنفسهم، و التى أهمّها «القيام بترتيب المقدمات للاستفاده من تلك الإمكانيات الإلهيه». و بتعبير آخر، فإنّ انتصار الحقّ على الباطل ليس فقط فى المناحي العقائديه و المنطقيه و فى الأهداف، بل فى المناحي الإجرائيه على أساسين، «فاعليه الفاعل» و «قابليه القابل» و إذا لم يصل الحقّ إلى النصر على الباطل فى المرحله العمليه نتيجة عدم تحقّق (القابليه) فليس ذلك دليلاً على عدم انتصاره.

و لنضرب لذلك مثلاً قرآنياً، فالآيه الكريمه تقول: اذْعُونِي أَسْتَجِبْ (٢)، و لكن المعلوم لدينا بأنّ استجابته الدعاء ليست بدون قيد أو شرط، فإن تحققت شرائط

ص: ٤٩٠

١-١) مجمع البيان، مجلد ٨، صفحه ٣٩٧.

٢-٢) المؤمن، ٦٠.



الدعاء فهو مستجاب قطعاً، و في غير هذه الحالة ينبغي عدم انتظار الاستجابة، (شرح هذا المعنى جاء في تفسير الآيه ١٨٦-من سورة البقره).

و ذلك بالضبط كما لو أننا أتينا بطبيب حاذق لمريض ممدّد على فراشه، و عندها نقول له: زادت فرصه النجاه لك، و في أى وقت أحضرنا له دواء نذكره بأننا قد حللنا له مشكلاً آخر، في حين أنّ كلّ هذه الأمور هي من مقتضيات الشفاء و ليست (علّه عامّه)، فيجب أن يكون الدواء مؤثراً في المريض، و أن تراعى توصيات الطبيب، كما أنّه يجب أن لا ننسى الحميه و أثرها، لكي يتحقّق الشفاء العيني و الواقعي (تأمّل).

ثمّ يضيف تعالى: لأجل إيضاح أنّ ما يقوله صلّى الله عليه و آله هو من الله، و أنّ كلّ هدايه منه، و أن ليس هناك أدنى خطأ أو نقص في الوحي الإلهي، قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي (١).

أى إنّني لو اتكلت على نفسي فسوف أضلّ، لأنّ الاهتداء إلى طريق الحقّ من بين أكداس الباطل ليس ممكناً بغير إمداد الله، و نور الهدايه الذي ليس فيه ضلال و تيه هو نور الوحي الإلهي.

صحيح أنّ العقل هو مصباح مضىء، غير أنّ الإنسان ليس معصوماً، و شعاع هذا المصباح لا يمكنه كشف جميع حجب الظلام، إذا تعالوا و تعلقوا بنور الوحي الإلهي هذا حتّى تخرجوا من الظلمات، و تضعوا أقدامكم على أرض النور.

و في ختام الآيه يضيف تعالى: إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

فلعلكم تعتقدون أنّه تعالى لا يسمع ما نقول و ما تقولون، أو أنّه يسمع ذلك و لكنّه بعيد، كلاً، فهو (سميع) و (قريب)، فلا تعزب عنه ذرّه ممّا نقول أن ندعو.

ص: ٤٩١

١ - ١) فيما يخصّ لما ذا أورد في الجمله الاولى عَلَىٰ نَفْسِي و في الجمله الثانيه فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي قال بعض المفسّرين: كلّ واحده من هاتين الجملتين تحتوى على محذوف مقدّر، و التقدير كاملاً «إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ نَفْسِي و إِنْ اهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لِنَفْسِي بِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي» (تأمّل!!)- تفسير روح المعاني- تفسير الآيه مورد بحثنا.

اشاره

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ۖ وَ أَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ حِجَلٍ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

التفسير

اشاره

ليس للكافرين مفر:

الآيات الأخيره من سوره سبأ تعود إلى الحديث في المشركين المعاندين الذين مرّ الحديث فيهم في الآيات السابقه عن طريق مخاطبه الرسول الأكرم صلّى الله عليه و آله فتصوّر حال تلك المجموعه عند وقوعها في قبضه العذاب الإلهي، كيف تفكّر في الإيمان، حين لا يكون لإيمانهم أدنى فائده.

يقول تعالى: وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ۖ وَ أَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ .

ثمّ آراء بين المفسّرين في: متى يكون ذلك الصراخ و الفزع و الاضطراب؟ فبعضهم يرى أنّه عذاب الدنيا أو عذاب الموت، و بعضهم يرى أنّه يخصّ عقاب يوم

القيامة، غير أنّ آخر هذه الآيه، يشير إلى أنّ هذه الآيات جميعها تتحدّث عن الدنيا و عذاب الاستئصال، أو لحظه تسليم الروح، إذ يقول تعالى فى الآيه الأخيره من هذا المقطع وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ وَ هَذَا التَّعْبِيرُ لَا يَنْسَجِمُ مَعَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. لأنّ الجميع يجمعون فى ذلك اليوم للحساب، كما تشير إلى ذلك الآيه (١٠٢) من سوره هود ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ .

و فى الآيتين ٤٩-٥٠ من سوره الواقعه أيضا نقرأ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَيَّ مِيقاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ .

و عليه فإنّ المقصود من جمله أُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ هو أنّ هؤلاء الأفراد الكافرين و الظالمين، ليس فقط لا يمكنهم الفرار من يد قدره الإلهيه فحسب، بل إنّ الله سبحانه و تعالى يأخذهم بالعذاب من مكان قريب منهم جدًا.

ألم يدفن الفراعنه فى أمواج النيل الذى كان المصدر الأساس لفخرهم، ألم تنخسف الأرض بقارون و كنوزه، و «قوم سبأ» الذين مرّت بنا قصّيتهم فى هذه السوره ألم يحيق بهم الهلاك أقرب الأمكنه لهم، و هو ذلك السدّ العظيم الذى كان سبب عمران بلادهم و سبب حياتهم و حركتهم؟ لذا فإنّه الله يأخذ بالعذاب من أقرب الأماكن حتّى يعلم مدى قدرته و سطوته.

فأكثر السلاطين الظلمه قتلوا على أيدي أقرب أفراد حواشيهم، و أغلب المتسلّطين الجبابره تلقّوا الضربه الأخيره من داخل قصورهم.

و لو لا حظنا ما ورد فى الكثير من الروايات من طرق السنّه و الشيعه، لرأينا أنّ لهذه الآيه مصداقا فى أحاديث «السفيانى» (مجموعه على خطّ أبى سفيان و عصاره عصر الجاهليه يخرجون على أتباع الحقّ فى عصر ظهور المهدي عليه السّلام).

حيث أنّ السفيانى و جيشه تخسف بهم الصحراء وسط الطريق إلى مكّه، و ذلك فى الحقيقه واحد من مصاديق الآيه وَ أُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ . حيث أنّهم وقعوا فى

العذاب الإلهي من أقرب النقاط لهم، وهي الأرض التي تحت أقدامهم. وقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المضمون عن ابن عباس و ابن مسعود و أبي هريره و حذيفه و أم سلمه و عائشه، كما يلاحظ في كتب السنّه، و كلّهم ينقلون عن الرّسول الأكرم صلّى الله عليه و آله (١).

و قد أوردت تلك الأحاديث في تفسير هذه الآيه في الكثير من كتب التّفسير الشيعيه من أمثال تفسير القمّي، و مجمع البيان، و نور الثقلين، و الصافي، و الكثير من كتب التّفسير السنّيّه كتفسير روح المعاني، و روح البيان، و القرطبي.

كذلك فإنّ العلامه المجلسي -أعلى الله مقامه- أورد العديد من الروايات عن الإمام الباقر عليه السّلام بهذا الخصوص، و التي تشير إلى كونها أحد مصاديق هذه الآيات، باعتبار أنّ الخسف الذي يحلّ بالسفياني و جيشه هو مصداق للأخذ من مكان قريب (٢).

و كما أشرنا مرارا فإنّ الرّوايات التي يوردها المفسّرون للتدليل على معنى الآيه، إنّما هي المصاديق الأوضح، و ليس معناها تحديد معنى الآيه في ذلك.

الآيه التي بعدها، تعرض هؤلاء بعد أن أخذهم العذاب الإلهي تقول الآيه الكريمه و قالوا آمنا به (٣) و لكن أنّي لهم التناؤش من مكان بعيد .

نعم فبحلول الموت و عذاب الاستئصال أغلقت أبواب العوده كلياً، و حيل كالسّد المحكم بين الإنسان و بين أن يكفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإيمان في ذلك الحين، كأنه كائن من مكان بعيد، و هو إيمان اضطراري بسبب الخوف الشديد من العذاب الذي يعاين هناك، مثل ذلك الإيمان أصلاً لا قيمه له، لذا فإنّ الآيه

ص: ٤٩٤

١- ١) تفسير الميزان، المجلد ١٦، صفحه ٤١٩.

٢- ٢) بحار الأنوار، مجلد ٥٢، صفحه ١٨٥ فيما بعد.

٣- ٣) الضمير في كلمه «به» يعود على «الحق» على اعتبار أنّه أقرب مرجع له، و نعلم بأنّ الحقّ الآيات السابقه يشير إلى «القرآن و محتواه و المبدأ و المعاد و رسول الإسلام».

(٢٨) من سورة الأنعام تعبر عنهم قائلة: بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

«التناوش» من مادّه «نوش»-على زنه خوف-بمعنى التناول، وبعضهم اعتبروا أنّها بمعنى «التناول بسهولة» أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد و لم يكونوا يتناولونه من قريب؟ كيف يستطيعون الآن و بعد أن انتهى كلّ شىء، أن ينبروا لجبران خطاياهم و يؤمنوا، فى حين أنّهم قبل هذا كفروا مع أنّهم كانوا يتمتّعون بالاختيار و الإرادة:

وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

و لم يكتفوا بالكفر فقط، بل إنّهم أَلصقوا بالرّسول صلّى الله عليه و آله و بتعاليمه مختلف أنواع التّهم، و حكموا أحكاما خاطئه فيما يخصّ (عالم الغيب-و القيامة-و النبوه):

وَ يَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

«القذف»-كما قلنا-الرمى من بعيد، و«الغيب» هو عالم ما وراء الحسّ، و الجملة كناية لطيفه عمّن يطلق أحكامه على عالم ما وراء الطبيعه بلا- سابق علم أو معرفه، كمن يرمى شيئا من نقطه بعيده، فقلّما يصيب الهدف، فظنونهم و أمانهم و أحكامهم لا تصيب أهدافها أيضا. فقد عدّوا الرّسول صلّى الله عليه و آله (ساحرا) حيناً، و حيناً (مجنونا) و آخر (كذاباً)، و حيناً اعتبروا القرآن «نتاجا فكريا بشريا». و مرّه أنكروا الجنّه و النار و القيامة بشكل كلى، كلّ هذه أنواع «للرجم بالغيب» أو «اصطياد الطيور فى ظلام الليل» أو بعبارة اخرى «القذف من مكان بعيد».

ثمّ يضيف تعالى: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ففى لحظه مؤلمه، فصل بينهم و بين كلّ ثرواتهم و أموالهم، و قصورهم و مقاماتهم، و أمانهم، فكيف سيكون حالهم؟ هؤلاء الذين كانوا يعشقون الدرهم و الدينار، و الذين كانت قلوبهم لا- تطاوعهم فى التخلّى عن أبسط الإمكانات الماديه.. كيف سيكون حالهم فى تلك اللحظه التى يجب عليهم فيها أن يودّعوا كلّ ذلك وداعا

أخيراً، ثم يغمضون عيونهم و يسرون باتجاه مستقبل مظلم موحد.

جملة حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، فسرت بتفسيرين:

الأول: هو ما عرضناه سابقاً.

الثاني: أنه حيل بينهم و بين رغبتهم فى الإيمان و جبران ما فاتهم.. غير أن التفسير الأول ينسجم أكثر مع جملة مَا يَشْتَهُونَ .

فضلاً عن أن جملة أَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ قد تعرّضت إلى قضيه عدم تمكنهم من الإيمان عند الموت و عذاب الاستئصال كما ذكرنا، فلا يبدو أن هناك داعياً للتكرار.

من الجدير بالذكر أيضاً أن كثيراً من مفسرى هذه الآيه اعتبروا هذه الآيات مما يخص الحديث فى عقوبات الآخره و ندامه المسيئين فى المحشر، و لكن الآيه الأخيره و بالأخص جملة كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ لا- تنسجم مع هذا المعنى، بل إن المقصود هو لحظه الموت و مشاهده عذاب الفناء.

و ما أجمل ما يقول أمير المؤمنين على (عليه أفضل الصلاه و السلام) حينما يصوغ بكلماته النورانيه و صفا للحظات فراق الروح لعالم الدنيا، و مفارقه نعمها:

«اجتمعت عليهم سكره الموت، و حسره الفوت، ففترت لها أطرافهم و تغيرت لها ألوانهم! ثم زاد الموت فيهم و لوجاً، فحيل بين أحدهم و بين منطقه، و إنه لبين أهله، ينظر ببصره و يسمع باذنه...

يفكر فيم أفتى عمره؟ و فيم أذهب دهره؟ و يتذكر أموالاً جمعها، أغمض فى مطالبها، و أخذها من مصرحاتها و مشبهاتها!...

فهو يعض يده ندامه على ما أصحر له عند الموت من أمره، و يزهد فيما كان يرغب فيه أيام عمره، و يتمنى أن الذى كان يرغبه بها و يحسده عليها قد حازها

دونه! (١).

اللهم اجعلنا من الذين يتبهنون قبل فوات الفرص، و يجبرون ما فاتهم.

شباك الدنيا و مغرياتها مشرعه لنا، و العدو شديد المراس، و لو لا لطفك، فإن أعمالنا تافهه حقيقه...

اللهم!! جعلنا من الذين يشكرون النعم حين حلولها، و أعذنا من الغفله و الغرور، و اجعلنا من الذين لا يجزعون حين المصائب و الشدائد..

...إنك على سميع نهايه تفسير سوره سبأ نهايه المجلد الثالث عشر

ص: ٤٩٧

---

١-١) نهج البلاغه، خطبه ١٠٩.































بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩